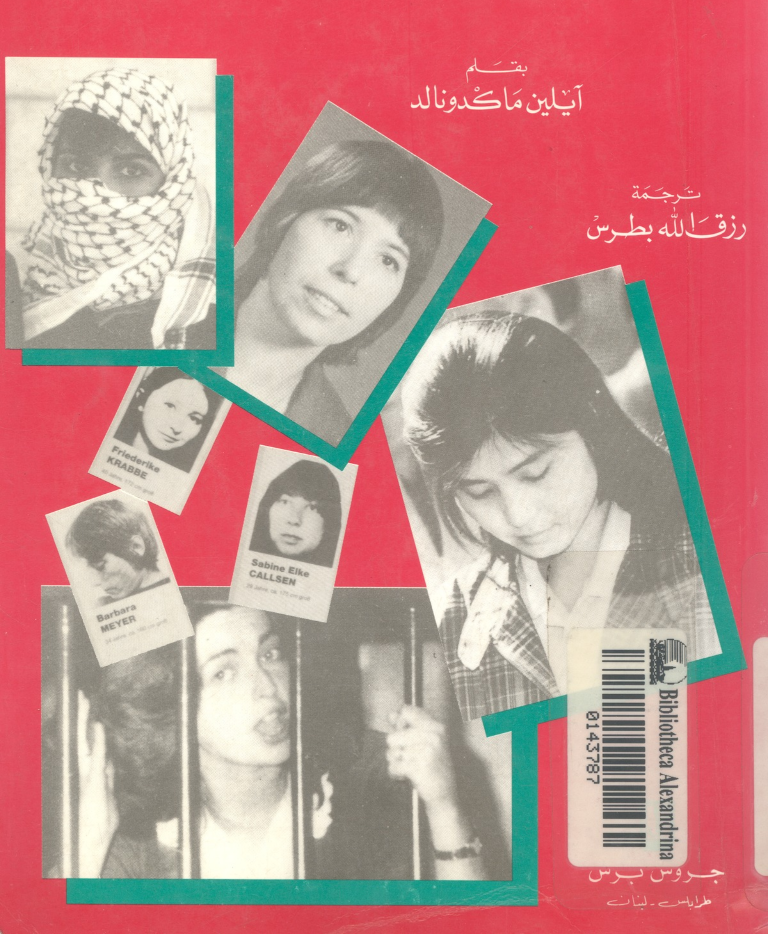
أطلقوا النار على النساء أولاً



بقلم
آيلين ماكدونالد

ترجمة
رزق الله بطرس

جروس برس
طرابلس - لبنان

أطْفِئُوا النّارَ عَلى النِّساءِ أَوّلاً

أطلق النار على النساء أولاً

بقلم

آيلين ماكدونالد

ترجمة

رزق الله بطرس

اشترك في الترجمة

جميل خوري بطرس خوري

جروس برس

الطبعة الأولى
١٩٩٣

جروس برس
طرابلس - لبنان - ص.ب ١٨٩   هاتف دولي وفاكس ٤٧٨٢٧٩٠ - ٢١٢ - ١

عندما يقابل فلاح الهيمالايا دبًّا في جبروته
فإنه يصرخ ليخيف الوحش الذي غالباً ما يتنحى.
لكن الدبَّة التي تعامل بالطريقة نفسها تمزّق الفلاح بأظافرها وأسنانها،
لأن الأنثى من هذا النوعِ أشرس بكثير من الذكر.

ـ روديارد كيبلنغ ـ

محتويات الكتاب

مقدمة

منذ عدة سنوات، ولأسباب تتعلق بكتابة قصة لصحيفة، انضممت الى مجموعة من منظمات الرفق بالحيوان، والتي يُظن أن بعض أعضائها كانوا يزرعون القنابل تحت سيارات العلماء الذين يجرون التجارب على الحيوانات الحية. كنت قد ظننت أن مثل هذه الهجمات العنيفة لا بد قد نفذها رجال. لكن، منذ أن دخلتُ المجموعة اكتشفت ان النساء لم يكنَّ الأكثرية فيها وحسب، بل كنَّ أيضاً في الواقع قائدات لها. كنت قد قرأت أن النساء عادة يلعبن دوراً داعماً فقط في مثل هذه المجموعات، ربما كزوجات أو صديقات للرجال. لكن سرعان ما اتضح لي أن الرجال كانوا يقومون بالكثير من الأحاديث وأعمال التخطيط، أما النسوة فهن اللواتي كنّ يعقدن الاجتماعات في وقت متأخر من الليل لتنفيذ مثل هذه الأعمال. وكان يبدو أنهن يملكن الطاقة والالتزام أكثر من الرجال، وكنّ على استعداد أكبر للمجازفة، وبدأت أتساءل ما اذا كانت هذه صفات عامة عند نساء المنظمات التي تناصر العنف.

وقبل انتهاء مهمتي قابلني أحد أفراد فرقة مكافحة الارهاب الذي رأى من المناسب أن يحذّرني، ولو بالسر، أنني كنت من النموذج الذي يصلح لأن يكون ارهابياً. ولما سألته عما يقصد من قوله، لم يرض أن يُجيبني، وبدلاً من ذلك كرر التحذير قائلاً أنه يكره أن أكون على الجانب الآخر من الطاولة بالنسبة له.

ولو أنني كنت قد قرأت بعض المادة التي لديَّ الآن عند التحضير لهذا الكتاب لكنت قادرة على طمأنته. فمثلاً كان بإمكاني فحص كمية الشعر على جسمي، والذهاب لاجراء فحص رائز الذكاء. دعني أشرح ذلك: هناك العديد من النظريات المختلفة التي تتساءل لماذا تكون النساء مستعدات لأن يَقتلن أو أن يُقتلن، وأن بعضهن شاذات بكل ما في الكلمة من معنى. وأن احدى *أعمال سيزاري لومبروزو تقترح* أن المجرمات هن أمثلة عن التأسل[1] في نشوئهن، ويظهر على أجسامهن من الشعر أكثر مما يظهر عند

(١) التأسل (أو الرجعي): ظهور صفات الأجداد أو الأسلاف السابقين في شخصية الفرد أكثر من صفات الآباء المباشرة.

النساء العاديات، وكذلك يبدين مقداراً أقل من الذكاء. كما ظن فرويد أن النساء العدائيات كنّ يحاولن أن يكنَّ رجالاً. ويعتبر غيره أن لدى الارهابيات اختلالاً في الكروموسومات (الصبغيات). مما يجعلهنّ يتمتعن بصفات ذكرية أكثر من صفاتهنّ الأنثوية.

في ذلك الوقت كنت جاهلة آراء الخبراء هذه. وكان تأثير الانذار يزيد من اعجابي بالنساء اللواتي ينخرطن في أعمال العنف. إنني متأكدة أن هذا لم يكن ما يقصده الضابط. كان يحاول أن يستجوبني ليحصل على المعلومات. لقد كنت دائماً مهتمة بالطريقة التي كانت النسوة ينجحن فيها فيما كان يعتبر بيئات يتحكم فيها الرجال، ربما لأنني قضيت فترة طويلة من عملي صحفيَّة في مثل هذه الأوساط. والآن بعد أن أخبروني أن لديَّ شيئاً مشتركاً مع النساء الارهابيات ازداد فضولي الذي تمّ شرحه أخيرًا في هذا الكتاب.

تنتمي النساء اللواتي أجريت مقابلات معهن إلى تشكيلة واسعة من المجموعات التي ينطبق عليها عادة اسم «ارهابية». ولقد قيل لنا أن أفراد هذه المنظمات مجانين - سيئون أشرار، متحجرو القلوب. انهم حيوانات، أدنى من البشر، جبناء غير جديرين حتى بالاحتقار. فهم ينسفون الناس في أماكن الشرب، أو الطائرات أو حتى في قداس يوم ذكرى الأموات. ولا يسلم أحد منهم ولا يستطيع شيء حمايتنا لأن هؤلاء القتلة لا يهمهم من تكون ضحاياهم. انهم يعطلون حياتنا اليومية بالقاء ظلال الخوف على خططنا المستقبلية. لا يهتمون أبداً بحياة الانسان. إن أعمالهم تتحدَّى أفهامنا. وفي الواقع أجبرنا على الاعتقاد أنه يجب ألا يضيِّع الناس ذوو التفكير السليم أوقاتهم في محاولة فهمهم. لا يستحقون ذلك. فردًّ فعلنا على عبارة ارهابي هو باڤلوڤي[١]. إننا نعلم أي نوع من الوحوش هم. وفي الواقع لا يستحق هذا الموضوع ان نتحدث فيه أكثر من هذا. وهذا هو السبب الذي لم استعمل من أجله الكلمة في هذا الكتاب. انها كلمة عاطفية بشكل زائد، وتعتبر مشحونة أكثر من اللازم بحيث لا يمكن وضعها في مثل هذا الكتاب الذي يحاول الفهم أكثر من الإدانة.

ليس هدفي أن أدين أو أبرئ أية مجموعة خاصة أو أي عمل خاص، بل أريد أن أشير ببساطة إلى أنه توجد اجتهادات ذات قيمة تتعلق بهذا الأمر؛ وان استعمال كلمة ارهابي بكل ما فيها من سلسلة القرف والخوف والادانة المتضمنة فيها تستبعد ببساطة

(١) باڤلوڤي: نسبة إلى العالم الروسي باڤلوف الذي درس الفعل المنعكس وأسماه شرطياً لوجود مؤثر آخر مرافق.

الاجتهادات الصحيحة ذات المصدر المعقَّد بشكل خاص. انها كلمة غامضة إذا أطلقناها بالجملة على هذا التنوع الهائل من الناس والأسباب. فهناك الحركات الوطنية والمقاتلة من أجل الحرية: الجيش الجمهوري الارلندي، فلسطينيو الانتفاضة ـ ومنظمة ايتا ETA المقاتلة من أجل وطنها الباسك. وهناك ثوريو أوروبا السياسيون: زمرة الجيش الأحمر أحلاف منظمة بادر ماينهوف، والعمل الفرنسي المباشر والألوية الحمراء الايطالية. وهذه جميعها تحارب من أجل الإطاحة بالمجتمعات التي تعتبرها فاسدة ورأسمالية وليس من المهمّ أكانت هذه المجتمعات ترضي أكثرية المواطنين أم لا. وباستثناء هاتين الفئتين الرئيسيتين هناك أيضاً: أناس يقومون بأعمال القتل الجماعية بأوامر من الدولة: وهم عملاء للحكومة، مثل كيم هيون هوي التي فجّرت طائرة ملأى بالركاب بناء على تعليمات النظام الكوري الشمالي.

لماذا يجب أن نطلق على شخص يقاتل من أجل قضية وطنية نفس الصفات التي تطلق على شخص يقتل كي يخلق مجتمعاً لا يريده معظم المواطنين؟ الجواب الوحيد هو أنهما يستعملان السلاح نفسه ـ الارهاب ـ لتحقيق غايتيهما. فالحركات الثورية لا تسمى أعمالها ارهابية على الرغم من أنها تعتبرها أعمالاً حربية. وحتى أكثر فرق أوروبا لمكافحة العنف تنظيماً على الاطلاق تقول أن هناك فروقاً أساسية. فرئيس الفرقة التي تأسست في ڤيزبادن في ألمانيا نبذ الفكرة القائلة ان الحركات القومية ارهابية». «فالـ IRA (الجيش الارلندي الأحمر) وETA (منظمة الباسك الوطنية) ومثيلاتهما تحارب من أجل أوطانها، فهي مشتركة في حرب أهلية». وأكمل يقول أنه لا يمكن نعتها بالارهابية الا عندما يقتل الفدائيون في هذه الحركات الابرياء، وبذلك يقترفون «أعمالاً ارهابية».

قد يبدو هذا التمييز دقيقاً لكنه يدل على أن أولئك الذين يتعاملون مع الارهاب على أساس يومي يدركون تماماً أن هذا المصطلح مشكلة. أن بعض الحكومات توظف الارهاب. فأفراد المقاومة الفرنسية كانوا ارهابيين حتى تحررت فرنسا فأصبحوا أبطالاً. **والتاريخ وحده هو الذي يستطيع ـ على ما يبدو ـ أن يقرر من هو ارهابي ومن هو غير ذلك.**

ولم تعتبر أية واحدة من النساء اللواتي قابلتهنّ نفسها ارهابية، باستثناء كيم هيون هوي، التي كانت حالة خاصة لأنها تعمل بناء على أوامر من الدولة الكورية الشمالية بعد فترة طويلة من غسل الدماغ. وطبعاً هذا لا يكاد يدهش. ان الصورة التي يشكلها معظمنا في أذهانهم عندما تسمع الكلمة هي طبعاً لفتاة مقنّعة شبه عسكرية لها عينا قاتل

باردتان، تحتضن كلاشنكوفاً أو مستعدة لتفجير قنبلة. لا بد أنهنّ لا انسانيات، بلا مشاعر، والا كيف يستطعن القيام بمثل هذه الأشياء؟ انها لصورة وحشية ومع هذا فهي لهذا السبب معزية بشكل مستغرب. ليس لهؤلاء الفتيات أيّة علاقة بنا. بامكانك أن تتعرف عليهن عن بعد ميل، وأن تتخذ الاجراءات الضرورية لتجنبهن. ومن المخيف جداً أن نعرف ـ كما حدث لي ـ أن أولئك الوحوش غالباً ما يظهرن ويتكلمن كأن احداهن هي الجارة القريبة أو الامرأة التي تقف وراءك في صف المشترين اثناء الخروج من متجر كبير. فإذا لم يكنَّ مجنونات بشكل واضح، أو سيئات ومخيفات، واذا لم يكنّ ذوات أعين محتقنة بالدم أو لم يكنّ يرغبن الكلام عن قتل الناس، عندئذ يصعب عليك التكهن بما يدفعهن. ففي محاولة التفهم أولاً والحكم ثانياً، قد يُتهم المرء بالتعاطف مع الارهابيين. لكن ربما يكون من الأفضل أن تُتهم بذلك من أن تتقوقع في خوف من صورة مزيفة لوحش غير موجود أبداً.

وماذا عن صورة النساء في هذه المجموعات؟ يبدو أن معظم من يرتكبون أعمالاً عدائية من أجل قضية ما هم من الرجال: كارلوس المشهور (في الواقع: ايليتش راميريز سانشيز). وهنداوي الذي ودع صديقته الحامل على طائرة العال ومعها حقيبة ثياب العرس التي كان قد أعطاها اياها بعد أن دسَّ فيها متفجرات. ومجموعة «أبو نضال» التي يقودها رجل تصفه وكالة الاستخبارات بأنه «أخطر ارهابي» في الوجود.

لكن يوجد أيضاً عدد هائل من النساء (أكثر من ٥٠٪ من الأعضاء في بعض الحالات) في هذه المنظمات، كما أن وجودهنّ يطرح مشكلة أخرى بالنسبة لنا. يُنظر الى الرجال تقليدياً أن لهم اعتياداً معيناً على الارهاب، وسواء أكانوا مدافعين أو مهاجين فانه يتوقع منهم معرفة طرق القتال ـ لكن النساء على العكس يرتبطن بالتربية والعناية ويجلهن المجتمع كما يجلّ السيدة العذراء (مادونا). فهن حاميات الحياة ومعطياتها ولَسْنَ المدمرات. فإذا نُظر إلى أعضاء أية حركة تقترف الارهاب كمجانين سيئين وأشرار، فكيف بالحري سينظر الى أعضائها من النساء؟ ففي أشهارهن السلاح يقترفن عملاً عدائيًا مضاعفاً: استعمال العنف، ونتيجة لذلك، تدمير نظرتنا السليمة التقليدية للمرأة.

«أطلق النار على النساء أولاً» شعار اشتهر كاحدى التعليمات المعطاة إلى المتطوعين في الفرقة الالمانية الغربيّة لمكافحة الارهاب، وكانت كذلك نصيحة قُدِّمت إلى الفرق الأوروبية الأخرى من قبل وكالة البوليس الدولية (الانتربول). لقد تكلمت مع عدة أعضاء في هذه المنظمات، وبالرغم من أنه لم يؤكد أحدهم أنه قد تلقى مثل هذه

التعليمات فقد اعتبروها نصيحة مرموقة. فالسيد كريستيان لوشته، وهو مدير الشبكة الألمانية لجمع المعلومات عن المخرّبين، وهي المخابرات المعادلة للمخابرات العسكرية البريطانية (MI5) قد كانت له خبرة عشرين سنة في دراسة الثوريين السياسيين الذين قاموا بأعمال الاغتيال والقاء القنابل في بلاده. لقد علّق بقوله: انها فكرة ذكية جداً أن يطلق أي شخص يحب حياته النار على النساء أولاً. علمت من خبرتي للنسوة أنه لدى الارهابيات شخصيات أقوى وقوة أكبر وطاقة أكبر. وهناك أمثلة عن رجال انتظروا لحظة قبل أن يطلقوا النار، بينما كانت النسوة يطلقن النار فوراً.

هذه ظاهرة عامة عند الارهابيين.

إذن هل النساء الارهابيات أكثر خطراً وقسوة من الرجال وأكثر قدرة على اطلاق النار دون تفكير مسبق أو تردد؟ سألت الفرقة البريطانية لمكافحة الارهاب ان كانوا يريدون التعليق على الفروق ـ إذا وجدت ـ في دوافع أعمال النساء والرجال. وكاد الجواب لا يكون شافياً. فقد أخبرني ضابط صحفي في سكوتلانديارد، أن الفرقة لم يكن لديها ما تقوله سوى أن الارهابيين الرجال والنساء كانوا على درجة متساوية في المجالات. وكان الفارق الوحيد هو أن النساء كن يحاولن استخدام مكائدهن الأنثوية مع الضباط ـ الذكور ـ عندما يقبض عليهن.

وبحثتُ في مكان آخر لأعرف لماذا تشكل النساء هدفاً أكثر أهمية من أمثالهن من الرجال. وقرأت المقالات الكثيرة التي كتبت عن أعمال مثل هؤلاء النسوة ووجدت أنها في معظمها قد تركزت على السؤال «كيف تستطيع المرأة أن تفعل ذلك؟» ومعظم عباراتها تنم عن الخوف والغضب. وكان الجواب، إن كان المرء يقرأ الصحافة الشعبية، انه يبدو انهن جميعاً سحاقيات، أو إن لم يكنّ كذلك تماماً فانهن من المطالبات بالمساواة بين الجنسين اللواتي أصابهنّ الجنون.

أنظروا إلى هذه الضجة التي أثيرت عن فرط النشاط الجنسي عند استريد برول عندما اعتقلت في لندن في ١٩٧٨. ذكرت الديلي ميل ـ كما ذكرت صحف غيرها ـ قولاً من أقوال أحد مشاركيها الذكور في السكن: أحببتها كثيراً، لكنها كانت تهتمّ بالفتيات أكثر. كما أنه جرى التلميح إلى إحدى صديقاتها من البنات وتدعى كارين، وأن هاتين الفتاتين كانتا تقضيان الليل بكامله في غرفتها، وأنهما كانتا تبدوان سعيدتين جداً معاً». لكنّ الديلي اكسبرس كانت أقل حياءً. قال الناس الذين كانوا يعملون معها في لندن أنها كانت من أعضاء جمعية تحرير المرأة، وانه لم يكن لها أصدقاء ذكور. وفي الواقع كانت تعترف أنها سحاقيّة». وكشفت الساندي ميرور في مقالة كتبتها بعنوان

«الأسرار الجنسية لفتاة ارهابية» تقول: «أخبرنا أصدقاؤها عن ممارساتها السحاقية، وعن سرورها لكونها تعمل ميكانيكية، وانضمت الديلي تلغراف الى سابقاتها تقول: «عندما ظهرت للمرة الأولى في المنطقة.. ظُنَّ انها رجل».

كما أن الدكتورة روز داغديل تلقت معاملة مماثلة عندما اعتقلت بتهمة سرقة لوحات زيتية لتمويل جيش التحرير الارلندي. ووصفت الجرائد مظهرها الذكري، معتمدة على حقيقة كونها لا تستعمل أية مساحيق تجميل، وأنها كانت تفضل ثياب الرجال. وحتى الديلي ميل سألت: هل روز داغديل رجل؟ ولقد ذهل الصحافيون عندما أنجبت طفلاً في السجن.

وقد يسأل أحدنا، وماذا لو كانت هذه النساء سحاقيات؟ وكيف يلقي ذلك ضوءاً على قرارهن بالانضمام الى المجموعات التي تبرر استخدام العنف؟ ويبدو الجواب - الذي أعطته الصحافة - هو أنه لأنهن كنَّ سحاقيات فانهن لم يكنَّ نساء - بمعنى الكلمة - أبداً. ومع ذلك فان النسوة العاديات لم يقمن بهذا النوع من الأعمال. ولقد أيد هذا الرأي موظف من وزارة الخارجية الألمانية عندما علّق على عدد النسوة في عصابة بادر ماينهوف. وقال: هناك شيء غير معقول حول القضية بأكملها. وأشار الى حقيقة أن كثيراً من الفتيات كن متورطات. كما اقترح بحذر: قد يكون هذا نتيجة للتطرف في منظمة تحرير المرأة.

وتشمل النظريات الأخرى التي تقدمها الصحافة اقتراحاً بأن هؤلاء النساء قبيحات جداً بحيث تكون الطريقة الوحيدة لجلب انتباه الرجل اليهن هي أن تصبحن قاتلات. أو انهن جميلات جداً، لكن يسهل خداعهن بحيث انهن أُغرين للدخول إلى شباك الارهاب عن طريق النشوة الجنسية لرجال مثل كارلوس. وحتى في المقالات التي تتخذ وقفة أكثر جدية، لا تكاد توجد أية معلومات اضافية. فالنساء اللواتي نفذن أعمال عنف كن ثائرات، وكن يثبتن أنهن أكثر قوة من الرجال. ولم يبدُ أن أحداً ذهب الى أكثر من ذلك، ولم يسأل لماذا؟ وبدا أنه يكفي التعبير عن عدم التصديق والتأكيد لجمهور قراء الصحف على النقطة بأن هؤلاء النساء كن خرقاوات، شنيعات، أو «دلّوعات صغيرات» قد وقعن في غرام الفتى غير المناسب.

وربما كان من غير المدهش أن النساء المتورطات بالعنف لأهداف سياسية يجب أن يعاملن بهذه الطريقة. ان عدد النساء اللواتي يقترفن جرائم العنف قليل جداً بالمقارنة مع عدد الرجال الذي يفعلون ذاك وتدل الاحصائيات المنشورة من قبل مكتب وزارة الداخلية لعام ١٩٨٩ أن ١٧٩ رجلاً قد وجدوا مذنبين بجرم القتل بالمقارنة مع ١٠

نساء، وبجرم الشروع بالقتل ٦٠ رجلاً مقابل ٥ نساء، وبجرم التهديد والتآمر لاقتراف جرم القتل ٤٨٢ رجلاً مقابل ٣٢ امرأة، وبجرم القتل غير العمد ٢٣٢ رجلاً أدينوا مقابل ٣٤ امرأة. ومن بين مجموع ٥٥٦٠٠ شخصًا اقترفوا «أعمال العنف ضد أشخاص» كانت توجد ٤٤٠٠ امرأة. وفي كل زمرة تقريباً من الجرائم الخطيرة كانت النساء أقلية. كان الاستثناء الوحيد لهذا هو جرائم قتل الأطفال (وجدت ٣ نساء مذنبات بهذا الجرم ولم يوجد أي رجل)، وبجرم القسوة على الأطفال أو اهمالهم ١٠٧ نساء مقابل ١٠٥ رجال.

ويقدّر باحثو علم الجريمة، كمعدَّل عام، ان من بين جرائم العنف المرتكبة كانت ٦ بالمئة منها تنفَّذ من قبل نساء. وكانت غالبية هذه النساء يؤذين أطفالهن ومعظمهم تحت سن الرابعة. لذلك فان عدد النساء اللواتي يرتكبن جرائم العنف يبدو ضئيلاً. لذلك عندما تأتي احداهن إلى مجال انتباه الصحافة ـ عندما تعتقل أو تقتل أو عندما تظهر في قفص المحكمة ـ فان الجميع يصابون بفرط الانفعال وتحدث تغطية اجمالية. وما دامت دوافع المرأة تتفق مع الرأي التقليدي ويمكن وصفها بأنها عاطفية بطريقة أو بأخرى يكون الأمر طبيعياً. لكن الشيء الوحيد الذي لا يعتبر ضرورياً هو دراسة امكانية الدوافع السياسية. والمهم أكثر من هذا هو التساؤل حول فرط الجنسية عندهنّ والاشارة الى بشاعتهنّ أو جمالهنّ وأن نناقش العلاقة المأساوية مع رجل قادهنّ إلى المشاكل في المقام الأول.

والأكثر من ذلك، فقد بُذلت جهود قليلة جداً لفهم السبب في أن تصبح النساء عنيفات. وفي المجالين اللذين فاقت فيه النساء الرجال في العدد، وهما قتل الأطفال والعنف معهم، غالبًا ما يكون هناك قدر معين من التعاطف مع المرأة. إذ اننا نقرأ أنها ضحية الفقر والعزلة واليأس وملازمة البيت مع الطفل طيلة الوقت. يغلي غضبها وفي معظم الحالات يصيبها الذهول الكامل لما فعلته بطفلها لكن هل يمكن أن يكون هناك أية شفقة على امرأة تأخذ بندقيتها وتطلق النار على رأس صاحب مصنع قبل أن تلوذ بالفرار على دراجتها النارية؟

يبدو أنه ليس هناك سوى العدد القليل فقط من الحالات التي يستطيع فيها المجتمع أن يفهم كيف تكون النساء عنيفات فعندما تطرد امرأة معتدياً أو مغتصباً فانها تتلقى التهاني عادة في عبارات تشير الى أنها امرأة صغيرة وشجاعة. وإذا هدد أحد أطفالها فانه يتوقع منها أن تقاوم، بطريقة اللبؤة مع أشبالها. وبعد سنوات من تلقي الضرب من زوجها قد تقاوم الزوجة أخيراً بالضرب وأحياناً لدرجة القتل. وهناك

حالات تُعذر فيها المرأة التي تعاني من توتر ما قبل العادة الشهرية أو من وهن ما بعد الولادة، لعنفها على أساس أن تفرُّد وضعها الأنثوي جعلها تفقد عقلها.

وفي أيام الحرب ـ عندما يكون الوطن مهدداً بتدخل الغريب يُسمح للنساء بدخول حلبة العنف، الى حد ما. ففي الحرب العالمية الثانية استدعت بريطانيا كل النساء العازبات بين سن الثامنة عشرة والثلاثين، مع انهن لم يلزمن للقتال على الجبهة أو لالقاء القنابل على درسدن. وطبعاً قامت آلاف كثيرة من النساء بالقتل كأعضاء في حركات المقاومة الأوروبية وقد تلقين التكريم من أجل أعمالهنّ. ولكن حالما انتهت الحرب كنّ سعيدات ـ على ما نعتقد ـ بالعودة إلى ادوارهنّ الطبيعية. لقد قالت احدى المقاتلات الايطاليات النصيرات: انه شر لا بدَّ من القيام به من أجل العائلة.

يقال أن النساء عندهنّ أطفال لذلك لا يقتلن. في ذلك الحين كان واضحاً أن كل نازي قتلته، وكل قنبلة شاركت في تفجيرها قد قصَّر من فترة الحرب وأنقذ حياة كل النساء والأطفال الآخرين». لكن الرجال يبقون غير سعداء لمشاركة النساء في أعمال الخطوط الأمامية: ففي عام ١٩٩١ شاركت أكثر من ٣٠ ألف جندية أميركية في الحرب ضد العراق، لكن ذلك تمَّ ضمن رغبة كثير من رجالهنّ، كما أن الجيش الاسرائيلي، الذي وضع مرة نساء على خطوط الجبهة، اضطر أخيراً للعودة عن سياسته وكان السبب في ذلك جزئياً لأن الرجال كانوا يُصبحون قلقين جداً عندما تجرح امرأة أو تقتل.

وتعتقد كثيرات من النساء اللواتي أجريت مقابلات معهن في هذا الكتاب أنهن يقاتلن في حرب، من أجل أوطانهن. ومع ذلك فالمشكلة هي أنهن لسن على الجانب الرابح، أو على الأقل لسن كذلك حتى الآن. ان جزءًا من الثمن الذي يتوجب عليهن دفعه هو أنه يُنظر اليهنّ كوحوش أو حمقاوات أو منحرفات، وليس لديهن حتى العذر في أن يكنَّ ذكوراً، لذلك تكون عندهن الميول لاستخدام القوة للوصول إلى غاياتهن.

وعلى الرغم من أن النساء قد يفشلن في استثارة حتى التفهم الأساسي، فان المستعدات منهنّ لاستخدام العنف والمجازفة حتى الموت للوصول إلى غاياتهن، غالباً ما يثرن درجة من الرعب. والمراهقات اللواتي أصبحن قاذفات قنابل انتحاريات في لبنان أثناء الثمانينات أصبحن حالة في صميم الموضوع. وكثيرات ممن هن بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة قد صُوِّرن في أفلام قبل انطلاقهن في مهمات ينسفن فيها أنفسهنّ مع أهدافهنّ. وفي أفلام الفيديو التي ظهرت لهن، كنَّ متجملات كما كنَّ يبتسمن للكاميرات، وبذا بعثن موجات من الصدمات في البيوت من كل أنحاء العالم. وفي

ثيابهن الغربية كنَّ يظهرن كالصبيان العاديين مع أنهن كن على وشك القتل والموت في أكثر الظروف تخويفاً. وهذه الملاحظات أيَّدتها الصحافة فوراً. كل شيء كان محتملاً باستثناء الاعتقاد أن هذه الفتيات كن عاقلات وملتزمات بشكل كبير، وانهن يعملن بمحض ارادتهن. ومهما كانت الحقيقة فان مشهد هؤلاء المراهقات الجميلات المبتسمات والمصممات على هذا النوع من العنف الذي كانت القليلات يُفكرن به، كان فعّالاً بشكل استثنائي.

لا شك أن هناك سحراً خاصاً يحيط بعالم المقاتلة من أجل الحرية، والثورية والارهابية. هناك شيء جذاب يحف بالتي تحتقر كل قواعد المجتمع وتخاطر بحياتها من أجل قضية ميؤوس منها على ما يبدو، فقط لأنها تؤمن بعدالتها إيماناً كبيراً. ان مثل هؤلاء الأشخاص يرقن للثائر فينا جميعاً، فقط لأنهن خطرات قد خرجن عن حدودهن. وطبقاً لما تأتي به الأفلام والروايات فان الرجل الثوري يمتلك شهوات وقدرات جنسية كبيرة، وتنجذب إليه النساء بشكل لا يقاوم، فهل ينطبق هذا على النساء الثوريات؟ هل يتمتعن بوضع خاص تتوق النساء الأخريات لانجازه ـ ربما بشكل سري؟ هل يثرن شهوة الرجال؟ وبالتأكيد أن بعض أقوى صور الثوريين هي لنساء: باتي هيرست ومعها بندقيتها في حملة على مصرف تقف مصممة أمام العلم الثوري، وليلى خالد ورأسها المغطّى باحتشام تقبض على فولاذ كلاشنكوفها الصلب، أولريك مايتهوف ويداها متشابكتان خلف رأسها في وضع انفتاح وتحدٍ؛ كلها صور حوِّلت إلى لوحات تزين غرف الطلاب عبر أوروبا كلها في السبعينات. لقد قالت لي استريد برول: «يجب أن تفهمي أن أكثر الأشياء روعة في العالم لم يوجد كي يصبح نجم روك، بل ليصبح ثورياً.»

ولقد ساعدت مثل هذه الصور بالتأكيد على تحطيم الفكرة بأن النسوة مخلوقات ضعيفات يحتجن إلى الرجال لحمايتهن من الأذى. ان حقيقة كونهن يمتلكن عاملاً جنسياً خطيراً على ما يبدو، يجعل تهديد المحرَّمات الاجتماعية مزعجاً بشكل مضاعف. إن هؤلاء النسوة لا يتخذن أدواراً ذكرية ـ عدائية لصوصية، سياسية ـ وحسب، بل يظهرن أكثر جاذبية كنسوة بفعل ذلك. وفكرة أن الارهابيات ـ وليس نجمات الأفلام ـ يمكن أن يصبحن نماذج تحتذى من قبل المراهقات، زعزعت نظرة المجتمع إلى المرأة كما زعزعت نظرته إلى نفسه. هذا هو العدو الذي يقتحم المتاريس من جهة، ويتسلل من الباب الخلفي من الجهة الأخرى.

ان سحر الثوريين ـ الرجال ـ ليس شيئاً جديداً ـ من روبين هود حتى تشي غيفارا

برهنت العملية أنها لا تتوقف. وفي حال نظيراتهم في النساء تبدو الظاهرة جديدة نسبياً. وكذلك رد الفعل العادي للمجتمع: وهو أن النسوة قد أغرين للقيام بمثل أعمال العنف هذه من قبل رجالهن. وهذه الفكرة تخدم كل الأهداف بشكل ملائم. فالرجال هم المسؤولون كليّةً عن العنف، والنساء كضحايا لضعفهن الخاص يلعبن دوراً ثانوياً. وليس دافع النساء الحقيقي تقريباً سوى عاطفتهن وهي هنا مرافقة للضعف لا للقوة: وانه ينظر إلى النساء كعاطفيات بشكل كبير أكثر من ملتزمات بشكل شرس.

وإذا خرجنا إلى ما وراء مسألة الدوافع، تبدو النظريات القائلة بتأثير النساء الأعضاء على منظمات العنف تؤيد وجهة نظر تقليدية عن دور الرجل. فطبقاً لرأي البروفسور جي كي زاوندي: فان النساء يحرضن الرجال على العنف. وفي مقالة بعنوان «الحوافز الداخلية للعنف داخل الحركات الارهابية» يقول أنه بسبب وجود النساء في الأقلية في هذه الحركات فان الرجال سيتنافسون واحدهم ضد الآخر لنيل اعجاب النساء. وفي مقالة بعنوان «صورة ارهابي» يقترح تشارلز أ. راسل وكابتن بومان هـ. ميلر أن خطر الارهابيات هو أن «كونهن زوجات وأمهات يستطعن دخول المناطق المخطورة دون اثارة الشكوك. ويجمعن معلومات استخبارية لرفاقهن من الرجال. وكذلك، فان المرأة يُنظر إليها كقوة مساعدة أساسية كامنة لمنظمة يقوم بقيادتها ذكور.

ان جميع هذه النظريات ممتعة وكلها تحتوي عناصر صحيحة لكنني شعرت أنها في أفضلها غير ملائمة، وفي أسوئها جاهلة، بشكل خطير. ما الذي يجعل المرأة تخطو الى خارج دورها المفترض لها بشكل فجائي؟ وبعد أن اتخذت هذه الخطوة، هل صحيح انها تصبح خطيرة بشكل خاص؟ أدركت ان الطريقة الصحيحة لمعرفة ذلك هي أن أتحدث إلى هؤلاء النسوة بنفسي.

لقد اكتسبت خبرة استثنائية بالتعلم محت كثيراً من الأفكار السابقة التي كانت عندي. فعندما بدأت أقرأ عن هؤلاء النسوة للمرة الأولى تساءلت ما هذا الذي أقحمت نفسي فيه؟ لقد عثرت على وصف لأعمال اثنتين من منظمة النساء البارزات الأعضاء في المجموعة الفرنسية الثورية: «أكسيون ديركت» (العمل المباشر). كانتا تعتبران مسؤولتين عن القتل الوحشي لمدير مصنع رينو أمام باب بيته الأمامي. فقد أطلقتا النار عليه من مسافة قريبة جداً. وعندما استلقى على الأرض يحتضر، أطلقت أحداهن عليه رصاصة الرحمة: رصاصة في عينه. سألتها رفيقتها: «هل فعلت؟» «نعم بالتأكيد» كان الجواب.

وعندما ألقى القبض على احداهما كانت مع خليلها. استسلم دون مقاومة،

لكنها سحبت مسدسين وأطلقت النار على الشرطة وهي تصرخ: «أنا من أكسيون ديركت». . «فرقة العمل المباشر».

وبعد ذلك قرأت عن امرأة تعرف «بملكة الارهاب الحمراء»: «فوساكو شيجينوبو» قائدة الجيش الأحمر الياباني. وهي على ما يظهر تعتقد أن معظم المجموعات الثورية ليست عنيفة ما يكفي، ولها طريقة سيئة جداً بشكل خاص في معاملة أعضاء الجيش الذين يحيدون عن القواعد الثورية. ويعرف عنها أنها قتلت أربع عشرة امرأة بسبب استعمال مساحيق التجميل، بالاضافة الى أشياء أخرى ـ بعد أن أصدرت أوامرها لهنّ ألَا يفعلن ذلك.

لذلك لم يكن مدهشاً حقاً انني أتوقع ان بعض النساء اللواتي تحدثت اليهن كن شريرات بشكل ثابت. وبالتأكيد هل سأشعر ببعض الشعرات على قفا رقبتي (وليست كثيرات) تقف عندما أجلس بقربهن؟ لم يحدث هذا. لقد بدت معظم اللواتي قابلتهن عاديات جداً. كنَّ متزوجات أو لهن أصدقاء رجال وكنَّ مرحات. كن يحببن أطفالهن، وكن خجولات أو اجتماعيات وبالاجمال مُرحِّبات. كنّ جميعاً يحملن تشابهاً ملحوظاً كبقية بنات جنسهن. لم يكنَّ يقرأن آخر التعليمات لصنع قنبلة أو يطلقن صرخات الفرح المشؤومة لأنهن قتلن ستة في السوق المركزية. كن يجلسن في البارات أو مستريحات في بيوتهن مع أطفالهن أو يطبخن الوجبات. في اللقاءات الأولى توقفت عن البحث عن أمجادهن. لست أعني أنه لم تظهر أية واحدة منهن مخيفة أو تبعث القشعريرة، بل ان معظمهن كن عاديات بشكل مزعج.

ولقد اكتشفت بسرعة انني اذا سألت امرأة هي الآن ـ أو كانت في الماضي ـ عضواً في حركة تؤيد العنف عن السبب الذي قامت من أجله بالقتل أو الارهاب، فانني سأحصل على الجواب الواضح «لاخراج البريطانيين» أو «النؤسس وطناً لنا». أو «من أجل الثورة». ولذلك كان عليَّ أن أفصُل النساء عن حروبهنّ بالسؤال عن عواطفهنّ ومشاعرهنّ تجاه العنف. هل كنَّ يشعرن أن لهن التزامًا أكبر بقضيتهن، أو هل كنّ قادرات على أن يكنّ أكثر قسوة وتصميماً من الرجال؟ هل كان من المحتمل أن يطلقن النار على العدو أكثر من أن يرمين أسلحتهن؟. أردت أن أعرف كيف رأين أنفسهن وكيف كان زملاؤهن الرجال ينظرون اليهنَّ؟ أردت أن اكتشف لماذا كان الجنس الأقل عنفاً يُعتبر من قبل فرق مكافحة الارهاب ـ الأكثر قتلاً.



بين نساء ايتا – ETA

«لدينا أكثر بكثير مما نستطيع فقده»

متاهة من الممرات وأزقة معتمة مرصوفة بالحصى، تلك هي مدينة بلباو القديمة. هنا بباراتها المضاءة بأنوار النيون ومن ظلال المباني العالية والقديمة يضرب قلب منظمة ايتا» (ETA)، المنظمة الأكثر هيبة في اوروبا، ضرباته القوية. قوام حياتها الشباب الذين يعج بهم المقر، نبضها هو ضربات الطبل وصوت الناي المتكرر الصادر عن الموسيقيين الثلاثة... رجلان وامرأة من مسيرتهم في الشوارع.

تركت كلمات حمراء آثاراً لا تمحى على جدران كنيسة يعود تاريخها إلى القرن الخامس عشر، وهي تقول: «الحرس المدني ـ قتلة» وتحت الكلمات وعد بالانتقام. وعلى أحد الجدران خُربشت قصة أمرأة تدعى «مايتي»، وهي رفيقة قتلها الشرطة. وداخل بار مجاور تتدلى صورة غير مصقولة بالقلم والحبر لامرأة أخرى تحمل الاسم نفسه، قتلت بطريقة مشابهة.

وعندما تقف في هذا البار المزدحم جداً تجد من الضروري أن تصرخ، لكن النسوة اللواتي كنت معهن كن مسترخيات لكونهن بين أصدقاء. كانت جميعهن صغيرات السن وكان لكل واحدة، صديق منخرط في النضال من أجل وطن الباسك بشكل أو بآخر. وكان لجميع النسوة اللواتي تحدثت اليهن نوع من الحميمية الخاصة التي نشأت من المعاناة المشتركة.

كان وجه «الزاني» أكثر الوجوه التي رأيتها حزناً. كان بإمكانها، أن تكون حلوة ذات عينين زرقاوين ـ خضراوين مجفلتين، وشعر أشقر لكنها كانت تبدو منهارة كما لو أنها تنتظر اللطمة التالية. ولم يتضح لنا سبب هذا المظهر المنهزم حتى بعد عدة ساعات. أما أمايا المرحة والكبيرة، والتي كانت مستعدة لأي من أسئلتنا، فقد كانت مختلفة

تماماً. كانت جواب الباسك على فكتوريا وود. وبمقدمة صغيرة جداً وانتباه قليل الى الزبائن الآخرين استهلت قصتها: «لقد اعتقلوني لأنني عضو في عصابة مسلحة.. لقد وشى بي شخص ما».

لقد كانت كل من الزاني وأمايا قد أوقفت وعُذبت، فاستسلمتا في النهاية. ويعلم المرء سريعاً أنه ليس هناك من لوم على من تعطي معلومات في النهاية ـ حقاً كان ذلك مفهوماً.. «بالطرق التي يستعملونها، الجميع يستسلمون». أما تكسيكيا ـ وطولها أربع أقدام وثمان انشات ـ ووزنها ستة ستون[1] ونصف ـ فقد ربطت احدى يديها واحدى قدميها الى عمود ثم ضربت. كانت معلقة مثل قرد تحملق في السقف المطرطش بدماء المعتقلين السابقين.

كان القائمون على التعذيب أعضاء في قوة الشرطة الاسبانية وهي حقيقة مسجلة في تقارير لجنة العفو الدولية. وكانت الشرطة ورجال الحرس المدني الاسباني الأهداف الرئيسية لمنظمة ETA، التي كان فدائيوها يدربون في مرحلة مبكرة من دخولهم على أنواع التعذيب التي يجب أن يتوقعوها إذا ألقي القبض عليهم. لقد مات بضعة أشخاص من ETA في الاعتقال، كما ادُّعي أن آخرين كانوا أهدافاً لمنظمة GAL (مجموعة التحرير المضادة للارهاب). وكانت هذه المنظمة قد تكونت كما يزعم من مرتزقة وجنود وشرطة وقد هددوا بقتل أحد ناشطي الباسك مقابل كل ضحية من ضحايا ETA.

وفي ١٩٩٠ كشف أن منظمة GAL كانت على صلة مباشرة مع وزارة الداخلية الاسبانية، وأن ضابطين في الشرطة قد اتّهما بمحاولات لقتل خمسة لاجئين من الباسك يعيشون في فرنسا.

وذكرت عدة حالات من قبل نساء ETA عن رفاق ـ ذكور وإناث ـ وُجدوا موتى تحت ظروف غامضة، مثل الرجلين اللذين وجدت جثتاهما عند أسفل واد صغير في حزيران (يونية) ١٩٩٠. قالت الشرطة أنها عملية انتحار، وظهر فيما بعد أن الرجل الذي زعموا أنه أطلق النار على مؤخرة رأس صديقه قبل أن يقفز الى موته قد مات غرقاً. ووجد رجل آخر ميتًا على جانب الطريق وقدماه محروقتان. وقد قيل أن كل هذه الأعمال من عمل GAL، أو من قبل محققي الشرطة شديدي الحماس. كما أن GAL تقوم بسياسة «المنع»، فقد نقشت أحرف ETA على وجه احدى الطالبات المناضلات.

---

(١) Stone: وزن انكليزي يبلغ ٦,٣٥٠ كغ ـ ١٤ باوند.

ان الحروف ETA هي الأحرف الأولى من عبارة «يوسكادي تا أسكاتاسونا» (الوطن والحرية). وقد تأسست في أواخر الخمسينات لمقاومة الكبت تحت نظام حكم فرانكو فقد منع هذا الدكتاتور لغة الباسك وثقافتهم لمعاقبة الباسك الذين قاتلوا إلى جانب الجمهوريين أثناء الحرب الأهلية من جهة، ولكي يحقق حلمه في اسبانيا موحدة من جهة أخرى. لقد سجن المئات من أعضاء ETA ومؤيديهم وعُذِّبوا لكن قوادها الرئيسيين هربوا الى جنوب فرنسا وأقاموا مخيمات تدريب هناك. ومن هناك كانت وحدات ETA ترسل عبر الحدود لمهاجمة أهداف لها في بلاد الباسك وفي بقية أنحاء اسبانيا. ولقد سمحت درجة معينة من تعاطف السلطات الفرنسية مع شعب يقاتل الفاشية للحركة بالانتعاش.

في عام ١٩٧٥، عندما مات فرانكو، أمل شعب الباسك أن يُسمح له بالاستقلال. لكن على الرغم من أن لغتهم وبعض تقاليدهم الثقافية قد استردت مكانتها فان غالبية السكان شعروا أن الديموقراطية قد خذلتهم. وفي ١٩٧٩ مُنحت بلاد الباسك درجة من الحكم الذاتي، بما في ذلك البرلمان المحلي، لكن هذا كان بالنسبة للباسك حائلاً دون الاستقلال الكامل عن اسبانيا.

واليوم تتابع ETA تنفيذ العشرات من الأعمال سنوياً. وبالرغم من أن السياسيين ورجال الشرطة والحرس المدني هم أهدافها، فانها قد وسّعت أعمالها إلى المجالات البيئية والأخلاقية. فالصناعات التي تعتبر مهددة للبيئة تتم مهاجمتها، ودور السينما التي تعرض أفلام الجنس يتم نسفها، ومتعاطي المخدرات يُشَلّ(١) أو يُقتل. كما أن المسؤولية عن الأعمال كانت تدَّعي كل شهر في بيانات ETA التي كانت تنشر وقتها في جريدة الباسك (ايجن) ولغة هذه البيانات متأنقة ومهذبة جداً وأحياناً تتَّسم بالندم الشديد. فمثلاً يوم ٩ تشرين الأول (اوكتوبر) ١٩٨٩ تقرأ: ندَّعي المسؤولية عن العملية الفاشلة ضد أحد رجال الشرطة الاسبانية في باساوري، بعد أن وضعنا شحنه متفجرات تحت سيارته. واننا نأسف شديد الأسف للجروح العرضية التي حدثت ـ دون اراداتنا ـ لجاره: كارمويلو ألونسولوبيز، واننا نتمنى له الشفاء العاجل والكامل.»

وفي الشهر نفسه قتلت ETA شرطيين ووضعت قنابل في معامل لصنع السيارات الفرنسية بيجو وسيتروين ورينو. وفشلت في اغتيال القنصل الاسباني في روتردام الذي استهدف لأن الهولنديين قد سلموا أربعة لاجئين سياسيين من الباسك إلى اسبانيا.

كما أنهم نسفوا مكاتب شركة كانت تبني طريقاً سريعاً (اوتوستراد) عبر منطقة

(١) يُشلون أو يعاقون باطلاق النار على عظم الرضفة في الركبة.

الباسك، وأرسلوا رسالة ملغومة إلى مدير الأشغال العامة الذي تجاهل المشاعر العامة ـ كما زعموا ـ باستمراره في المشروع.

وهناك جدل طويل يتعلق بهذا العمل الأخير يحث الحكومة والشركة البانية على أخذ الانزعاج الشعبي بعين الاعتبار، بما في ذلك القول «أن ETA تعبر عن رغبتها المتأججة كي تتجنب بكل الوسائل أي شكل من أشكال النتائج المؤلمة». وتنتهي الرسالة بتهديد أشد: «ان الاستجابة السلبية ـ لسوء الحظ بكل أسف ـ سوف يتفاقم من جديد الوضع الذي ينشأ بعد بدء العمل في المشروع الحالي. ولنا أمل كبير أن يسود التعقل والوعي السليم من أجل مصلحة شعبنا، وإلا فاننا نستطيع القول انكم سوف تموتون».

وفي ١٩٩٠ كان هناك فيض من الرسائل الملغومة من قبل ETA لكن عدة منها فتحت من قبل عمال البريد أو من أناس مستخدمين من قبل الضحايا المقصودة. عندما فتحت بيلار فيرنانديز رسالة لأحد مسؤولي السجن وأصيبت بجروح بليغة، اعتذرت ETA لها لكنها أضافت: من أجل تجنب تكرار حوادث خطيرة كهذه، نلحُّ مرة أخرى على ألا يفتح أحد رسائل أو رزماً غير موجهة إليه شخصياً».

والأسوأ من ذلك، يدَّعي بيان آخر مسؤولية قتل امرأة، قاضية «وهو اعدام المدَّعية العامة الحكومية كارمن تاغلي، وهي من أهم ممثلي القضاء الوطني، والتي أصبحت رأس الحربة للكبت المباشر للكثير من الوطنيين والثوريين من بلاد الباسك بالاضافة إلى رجال من بقية أنحاء اسبانيا». وكانت ETA في الماضي قد شنت حملة نسف على منتجعات العطل، بالرغم من أن المتفجرات التي استعملت كانت قد صممت للتخويف أكثر من القتل.

وتمول المنظمة نفسها بطرق متعددة: السطو المسلح، الخطف، الابتزاز ومن هبات المؤيدين ومنهم عدد من رجال الدين الباسك الذين أيدوا أهداف الباسك بشكل تقليدي، مع أن الكثير منهم بدؤوا في الآونة الأخيرة يأسفون لتصعيد حملة العنف.

وعلى مدى السنوات تطورت منظمة ETA من مجموعة تطالب بوطن الباسك الديمقراطي الاجتماعي إلى منظمة ماركسية لينينية، ونتج عن هذا التغير، بالاضافة إلى تغيرات أخرى تشمل مناقشات حول جدوى استعمال العنف، انقسامات كبيرة وتجزؤات. ولا يوجد الآن سوى رأس حربة مسلح واحد فقط، يدعى ETA.m أو «يليس»، وشعارهم المزعوم هو «الأعمال توحِّد والكلمات تفرِّق». وتعتبر ETA من قبل قوات الشرطة عبر اوروبا واحدة من المجموعات الارهابية الأكثر تدريباً وتنظيماً.

إن التسلل الى داخل المنظمة من قبل رجال الشرطة جعلها تنشىء نظام «الكوماندو النائم». يعيش هؤلاء الرجال والنساء حياتهم العادية ويقومون بأعمال نظامية، لكنهم في الوقت نفسه يدربون على أعمال معينة وغالباً ما يكونون لا يعرفون بعضهم البعض، ويتلقون تعليماتهم بالشيفرة من مصدر غير معروف. وبعد أن تنفذ عملياتهم يعودون لاستئناف حياتهم اليومية. ولـ ETA ـ مثلها مثل IRA وسين فين، جناحها السياسي وهو: (هيري باتاسونا: الوحدة الشعبية) وأثناء آخر انتخابات لبرلمان الباسك في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٠ استعادوا رقمهم السابق المؤلف من ١٣ مقعداً من بين ٧٥ مقعداً وهو الترتيب الثالث من بين الأحزاب الثمانية. وهذه الأرقام تدحض مزاعم الصحافة الاسبانية التي تقول أن حزب الوحدة الوطنية (وهو الوحيد من بين جميع الأحزاب السياسية في بلاد الباسك الذي رفض توقيع ميثاق بادانة العنف في ١٩٨٨) كان يفقد دعم الناس المحايدين.

ولقد شهدت مدى الدعم المحلي لا للجناح السياسي وحسب، بل لـ ETA نفسها، قبل الانتخابات في عام ١٩٩٠ بقليل. وأخبرني منظموها أن مسيرة مؤلفة من ١٠ـ ١٥ ألف شخص ستسير عبر شوارع بلباو. ولكن قُدِّر أن العدد الحقيقي للمشتركين كان أقرب إلى ٥٠ ألفاً. ومن قاموا بالمسيرة كانوا يتراوحون بين الأطفال الصغار والسيدات المسنّات، كما كانت تشبه القداس الجماهيري الخارجي. كانت الألعاب النارية تضاء، بينما كانت الموجة تلو الموجة من السائرين تطوف مركز المدينة. كانت نسوة عجائز، وأنيقات، كتفاً إلى كتف مع الطلاب ورجال الأعمال والأطفال والجميع ينشدون: «ETA ETA ـ حُريّه».

في البدء حدث الكثير من العصبية والشكوك في أن أُمنح مقابلة مع نساء ETA. لقد كانت الانتخابات قادمة. وكان أحد قادة ETA بالاضافة إلى عشرة أعضاء كوماندو قد اعتقلوا. وقبل أسبوع من وصولي عثر على ٥٠٠ رطلاً من المتفجرات، وأجهزة صنع القنابل والأسلحة في أحد الكهوف. وكان من المحتمل أن أكون مندسَّة أو مخبرة شرطة. لم يكن أحد من الحركة يقبل تحمل مسؤولية الوثوق بي. ولكن المشكلة حُلّت أخيراً من قبل امرأة في بلفاست كنت قد قابلتها من خلال منظمة سين فين، التي ضمنت كوني صحافية.

كان أول تقاريري قد أعطتني إياه أختان: بيغونا وهي ممرضة، ويولاندا وهي اقتصادية وكلاهما في أواخر العشرينات من عمريهما. كانت بيغونا تعمل لصالح أجيزان (حرفياً بلغة الباسك: أعملي أيتها الامرأة)، وهي حركة تطالب بالمساواة مع الرجل

تنتمي إلى جناح ETA السياسي. وكانت أختها الصغرى تعمل لصالح «الوحدة الشعبية: هيري بوتاسونا». لقد أوضحتا لي أن هيري بوتاسونا ومجموعة عفو تعمل على اطلاق سراح سجناء ETA كانتا منظمتين شرعيتين، والمنظمات الأخرى مثل: أجيزان، على سبيل المثال، كانت غير شرعية لأنها كانت تطالب بوطن لشعب الباسك، وكان أعضاء ETA من الممكن أن يكونوا منتسبين إلى احدى هاتين المجموعتين.

كانت يولاندا ذكية جداً سليطة اللسان: «يسمح لنا بالتكلم بلغة الباسك، لكن لا يمكننا دراستها على أي مستوى. فمثلاً: هناك القليل من المواد الدراسية التي يمكن دراستها بلغة الباسك، وقليل جداً من الكتب بالمستوى الجامعي بتلك اللغة، ونادراً ما نجد معلمين قد تعلموا موادهم بلغة الباسك. وبالاضافة الى ذلك لم يكن التعليم مجانياً. عليك أن تدفع، لذلك كان بعض الناس غير قادرين على تعلمها.

لقد قيل لنا أن اللغة تنشر بسرعة لأنه مسموح أن يكون لنا محطة تلفاز خاصة بنا. ولهذه المحطة قنالان، لكن احداهما بالاسبانية والأخرى تعلن بالاسبانية معظم الوقت.

يوجد حوالي مليونان ونصف من الباسك هنا، ومع هذا عندنا ثلاث قوات شرطة: الحرس المدني، والشرطة الوطنية والارتزانتا (شرطة الباسك). وأول ما أنشؤوا هذه الأخيرة قالوا انها ستحل محل القوتين الأخريين. لكن ذلك لم يحدث، لذلك لدينا الكثير من الشرطة. ولدينا أربع حكومات: الحكومة الباسكية للمقاطعات الثلاث، وحكومة نافار للرابعة، ثم هناك الحكومة الاسبانية وهي المسؤولة فعلاً، وهناك الحكومة الفرنسية لربع المليون من الباسك الساكنين هناك».

وعلى الرغم من أن الأختين قد دعمتا دعماً كاملاً أعمال ETA فقد أنكرتا انهما تعرفان أية نساء من ETA، وهذا غير مدهش لأنه قد يسبب حكماً بالسجن. وقد أوجزت يولاندا ذلك بالقول: «لا أعرف من في ETA ولا أريد أن أعرف».

كانت الأختان تتحدثان فجأة بلغة تجعل المترجمة تفغر فاها عجباً، تلك كانت لغة الباسك، ولم يكن لها أية علاقة باللغة الاسبانية ولا بالفرنسية. لقد ناقشتا أمر تشكيل خلايا من ETA في لغتهما الخاصة قبل العودة للتكلم بالاسبانية.

كانت الأمور تصبح أكثر تعقيداً. فقد كانت أحياناً تُشكل خلية حيث يعيش الناس مع بعضهم البعض؛ وفي أحيان أخرى لم يكونوا يعرفون بعضهم. لقد اتخذوا كثيراً من الحيطة: بسبب التسلل، وقد أفلحوا في ذلك.

ان ETA تقرر كل شيء في اللجان قبل العمل. في الصيف يضعون شبكة سكك الحديد تحت الحصار بنسف مقاطع منها في كل أنحاء البلاد كي يجلبوا إليهم أقصى حد من الانتباه. انها الطريقة الوحيدة. ان الحكومة الاسبانية لا تعرف إلا لغة القتال».

كانت بيغونا هي الأخت الأولى التي أصبحت نشيطة سياسياً ضمن حركة الباسك الانفصالية. لكنها ضحكت عندما قيل لها أن ETA هي التي أثرت على يولاندا كي تنضم. وقالت أن أختها الصغرى لها تفكيرها الخاص. وأجابت بجدية أكبر أن والديهما كانا قلقين بشأنهما: «لقد كانا خائفين منذ زمن بعيد، انهما يفكران ان ما نفعله شيء خطير وأنهما يخشيان الشرطة».

وأوضحت لنا أنه بالرغم من أن حزب هيري باتاسونا كان له أربعة نواب مخوَّلون بالجلوس في البرلمان الاسباني فقد مارسوا جميعاً الاستنكاف كمبدأ. ولم يكن كون الشخص منتخباً أصولاً، في البرلمان ـ على ما يظهر ـ يحميه من انتباه منظمة GAL. وتحدثت في بيغونا عن أحد أعضاء مجلس النواب الذي اغتيل وهو في طريقه الى مدريد كي يقسم اليمين، وهي الفرصة الوحيدة التي يمكن أن يحضر فيها أعضاء هيري باتاسونا في البرلمان الاسباني.

في البداية بدا انه اغتيل من قبل ضابطي شرطة في الجناح اليميني، لكن من المحاكمة تبين أن أحدهما لم يكن من الجناح اليميني أبداً. اننا نعتقد انه اغتيل بتصريح من الحكومة. لقد قتل في الذكرى السنوية لموت فرانكو. وهي ذكرى سنوية يمينية، يحدث فيها شيء ما دائماً.

ولم تستطع أية من الأختين أن تجازف بتقدير عدد الكوماندو الفدائيين في ETA حالياً، ولا بتقدير نسبة النسوة منهم. لكن النساء يشكلن عشرة بالمئة من أعضاء ETA الذين في السجن، لذلك قد يكون ذلك دليلاً، كما اقترحتا. وبالرغم من الحاح الأختين، كما ألح كل عضو نشيط في الباسك فان ETA لم تكن سوى جزء واحد من النضال الوطني من أجل الاستقلال، ومن الواضح انهما ـ مثلهما مثل أي شخص آخر ـ قد اعتبرتا الجماعة المسلحة هي النخبة.

ولم يكن ذلك واضحاً في أي شيء مثل وضوحه في وصف بيغونا لتأسيس اجيزان، الذي حدث في ١٩٨٨، وذلك ـ كما يظن المرء ـ تاريخ متأخر لظهور المجموعة المطالبة بالمساواة بين الجنسين في النضال الثوري. وأوضحت بيغونا أنه بعد سنوات من تجارب النساء وفشلها مع مجموعة تؤمن بالمساواة في حركة الباسك الوطنية كانت ETA هي التي اتخذت القرار الحاسم.

في عام ١٩٨٠ كانت هناك حركة نسائية لكنها فشلت بسبب المجادلات السياسية. كان هناك خلاف حول كيفية النظر الى مشاكل النساء، واعتقد البعض أن مجرد تفكير النساء بأن لهن مشاكلهن الخاصة عمل بورجوازي جداً.

وكانت ETA هي التي ألحت على أنه يجب أن تؤسّس للنساء منظمتهن لأنها كانت ترى أن للنساء مشاكلهن الخاصة، ليس داخل الحركة بل في المجتمع - وهي التي بذلت جهدها للتأكد من أن أجيزان قد أسست فعلاً. وتملك ETA مقدرة كبيرة على التحليل السياسي وهذا واضح جداً - أكثر من المجموعات الأخرى.

لدينا الآن حوالي ٥٠٠ عضواً وسننتقل الى القرى برسالتنا ان كل نساء أجيزان، يمتلكن وعياً سياسياً متطوراً جداً. لكنني ولا أظن أن احداهن تنتمي الى ETA بالرغم من أن بعضهن قد ينتمين إلى كلتيهما».

سألت عن السبب في قدرة ETA على حل الفوضى بشأن كيفية معالجة مشاكل النساء. هل كان السبب في ذلك وجود عدد كبير من النساء في أدوار قيادية داخل المنظمة؟ لكن بيفونا التي لم تكن ابداً مقاتلة لم تعرف الجواب. لكن النساء الفدائيات الأخريات وافقن على أن ذلك كان السبب.

كانت اخباراً مدهشة - فقد كنت على وشك حذف ETA تقريباً من مواضيع هذا الكتاب بسبب مقالة كنت قد قرأتها كتبها روبرت بني كلارك بعنوان «نماذج من حياة اعضاء ETA». فقد قال «ان ETA كانت تعارض مشاركة النساء لأن «مكانهن هو البيت» وأنهن «يتكلمن كثيراً» وخصوصاً إلى كهنة ابرشيتهن.» لقد سألت جميع نساء الباسك الانفصاليات اللواتي قابلتهن أن يعلقن على هذه الأقوال، وكان الجواب متشابهاً - الغضب والإنكار - لقد كانت دائماً هناك نساء فدائيات وعاملات في المنظمة. كان هذا الجواب بصوت حاد. وللبرهان على هذه النقطة، قابلت أربعاً في مدى ٢٤ ساعة.

ألزاني وأمايا كانتا فدائيتين. كانت ألزاني فدائية في فرع فوضوي متطرّف من ETA اسمه «كوماندو الحكم الذاتي المضاد للرأسمالية». وكانت أمايا فدائية في ETA.m (الفرع العسكري). كانت ألزاني الحزينة قد سُجنت لمدة أربع سنوات أما أمايا المرحة فقد سجنت لمدة خمس سنوات وأدينت كلتاهما بانتمائهما إلى مجموعة إرهابية. لم يكن بالإمكان الحصول على إفادة منهما حتى تحت التعذيب، لكي تتم إدانتهما بأشياء أخرى، ومع ذلك وفي الساعة الأولى من لقائنا - ونحن نجلس في مقهى مزدحم وسط بلباو - تكلمنا بحرّية عن نوع الأشياء التي كانتا متورطتين بها. لقد طلبتا أن يُغيّر اسماهما فقط، فوافقت على هذا الطلب. كان هذا يدل على درجة كبيرة من الثقة، وشعرت تقريباً بشعور الحماية تجاههما.

كانت كل منهما «فدائية سرية». كانت أمايا تعمل موظفة في مخبز، وألزاني في إدارة الضرائب في مجلس القرية. وكانت ألزاني التي تبلغ من العمر الثالثة والثلاثين تبدو أكبر بكثير، وتحدثت بهدوء وعيناها تنظران نحو الأسفل.

«أنا من قرية قريبة من سان سيباستيان، تسعون بالمئة من سكانهامن متكلمي لغة الباسك. لكن ذلك لم يكن السبب في انتسابي إلى وحدة الكوماندو. ونادراً ما كانت القرية مركزاً للمعرفة أو النشاط السياسي وبالتأكيد لم يكن لوالديّ أي تأثير على ما فعلت. لقد أصبحت واعية للظلم والكبت اللذين عانى منهما شعب الباسك عندما كنت مراهقة، لكن لم يحدث أن انضممت إلى الحركة حتى بلغت الرابعة والعشرين أو الخامسة العشرين. لقد انخرطت لأن رجلاً أعرفه كان عضواً».

بدا هذا الكلام مؤيداً للفكرة السائدة بأن النساء ينخرطن في مثل هذه الحركات من خلال علاقتهن برجال، وغالباً اصدقائهن. وسألت عمَّ اذا كانت الكثيرات من نساء ETA قد انخرطن في أعمال مسلّحة بهذه الطريقة. وكان الجواب فورياً ومتفجراً. ضحكت ألزاني وهزت رأسها. أما أمايا فقد انطلقت في خطبة حماسية دامت بضع دقائق حتى رفعت المترجمة يدها: «تقريباً ودون حشوكلام.. «كلام فارغ».. »..

تابعت ألزاني «كان الرجل الذي لّمحت إليه مجرد صديق. لقد شارك في عمل استحسنته، ولأنني كنت أعرفه استطعت أن انضم إلى المجموعة. «نعم لقد نفذت أعمالاً متعددة. ونتيجة لذلك قتل بعض الناس». اعترفت بحذر. كلا لم تكن تعتقد أن النساء في المجموعات المسلحة كنَّ يشعرن أن عليهن أن يثبتن اي شيء للرجال. أما أمايا التي كانت لا تزال تتميّز غيظاً فقد أضافت قائلة: «إذا قررت النساء أن يفعلن شيئاً فانهن سيفعلن لأنفسهن وليس عليهن أن يثبتن للرجال شيئاً».

استلمت أمايا الحديث وهذا عمل كانت جديرة به. «إن ETA هي طليعة ثورتنا. فإذا كانت الثورة تخطط لتغيير المجتمع فهذا يعني أن الطليعة يجب أن تغير مواقفها نحو النساء في المقام الأول. فبالكاد تستطيع تغيير المجتمع دون تغيير المواقف الذكرية نفسها التي يقفها الرجال، وكذلك النساء ايضاً. تستطيع النساء أن يكن متعصبات في دعمهن لسيادة الرجال بالقدر نفسه. وبتلك الطريقة ينقلون العنف نحو النساء، الذي هو في أعماق الرجال المؤمنين بالذكورة. إن الثورة تبدأ ـ اذا أحببت ـ في البيت».

لكنها أظهرت أيضاً بعض التعاطف مع النساء اللواتي كن يعتمدن على الرجال. «هنا مثلاً، عدد كبير منهن يعتمدن على الرجال اقتصادياً لذلك لا بد من وجود عدة

حالات أُدخلت النساء فيها إلى النضال المسلّح من خلال رجالهن. لكن ذلك بالتأكيد لم يحدث لنا.

«هناك عدد أقل من النساء العسكريات في ETA، لأن النساء لم يخرجن إلى الشارع إلا مؤخراً. وهذا جزء من عملية تحريرهن. فالرجال معتادون على النظر إليهم كأقوياء مستبدين ويتوقعون من النساء اتباعهم. فكلا الرجال والنساء لا يزالون يُشَرَّبُون المبادئ. ففي الحياة العادية وفي العمل ربما يتوجب على النساء أن يكنّ أفضل بكثير من الرجال لمجرد إظهار انهنّ مساويات لهم. ولكن في المجموعة الثورية، إن المفهوم الأساسي هو أننا متساوون».

ويتساءل المرء ما اذا كان بعض الغضب والإحباط اللذين أدّيا بأمايا إلى الثورة بعنف ضد السلطة كانت لهما جذور متأصّلة في قبول مجتمعها للعنف الذكري ضد النساء، والنساء أنفسهن ينقلن هذا القبول من جيل إلى الجيل الذي يليه. لقد بدت غاضبة بشكل زائد من الفكرة بأن رجال ETA يستطيعون التأثير على رفاقهم الإناث بطريقة أو بأخرى، إما بجرهنّ إلى المجامعة، أو في جعل الفدائيات من النساء يشعرن أنه يتوجب عليهنّ إثبات أنفسهن للرجال. إن منظمة ETA بشكل عام، ينظر اليها مثل كثير من القطاعات المسلحة من الحركات الوطنية على أنها النخبة. وإذا امسك الرجال بزمام القوة بهذا المستوى، فإن المجموعة ستعكس بكل بساطة المجتمع الذي تقاتل ضده. وفي مثل هذا المجتمع الذي تبدو فيه النساء غير قادرات على كسر قيود العنف ضدهن، فإن كونهن فدائيات هو بالتأكيد إحدى الطرق التي يصبحن فيها قويات.

كانت أمايا في الثامنة عشرة عندما انضمت إلى خلية ETA.m. وقبل ذلك كانت قد اشتركت في مظاهرات الباسك. «ولدتُ في بلباو وتربيت هنا أيضاً، لذلك أصبحت واعية للحركة عندما كنت لا أزال صغيرة. وعندما صرت في حوالي الرابعة عشرة بدأت أقابل أصدقاء جدداً وكنا نذهب إلى عامة الشعب وإلى الأحداث. كنا جميعاً نريد أن نفعل شيئاً غير القبول بالمعاملة التي كنا نتلقاها فقط.

«وعندما أصبحتُ فدائية، عشت نوعاً من الحياة المزدوجة. عشت هنا مع اصدقاء، واشتغلت بائعة في مخبز. وفي الوقت نفسه كنت عضواً في ETA.m وقمت بخمس أو ست عمليات في مدى ثلاث سنوات. كانت اهدافي الشرطة بشكل رئيسي، والحرس المدني. كما أنني شاركت في هجمات على بنوك للحصول على المال للمجموعة.

«ومن العادة لا يذهب أحدنا ويعيش مع آخرين كي يحضّر لعملية ما، بل يؤمنّ الاتصال مع شخص ما يخبره بين الحين والآخر أنه يلزم للقيام بشيء ما. ومن فترة

لأخرى يترك أحد المؤيدين بيته لفترة معينة من الزمن كي تعيش المجموعة معاً. ولكن بشكل رئيسي كانت الأمور تجري بهذا الشكل: تصلني رسالة بأنهم يحتاجونني لعمل ما، فإذا كان ذلك خلال ساعات العمل، توجب عليّ القول انني ذاهبة إلى الطبيب، وبعد ذلك أتقدم بتقرير طبي».

تخيلتُ أمايا، وهي البدينة قليلاً، على وشك أن تدس صينية الكعك في الفرن، عندما وصلت الرسالة. بدا الأمر مضحكاً، لكن الرسالة ـ على ما يبدو ـ كانت تعطي الأوامر بالانخراط في عمل فيه جريمة أو سرقة.

«ولكن مع انني كنت اشتغل فقد كانت عندي الأمسيات دون عمل. كنت جاهزة منذ السابعة مساءً حتى الواحدة صباحاً. وطبعاً كانت هناك عطل نهاية الأسبوع. وبين كل عمليتين توجد فترات طويلة تستمر بضعة أشهر. لقد كنت أقوم بكل الأعمال من جمع المعلومات عن أهداف أو حمل مسدس، أو القيام ببعض السرقات المسلحة وزرع القنابل...»

كانت لامبالية عندما سَرَدتْ علينا عمق تورطها، كما لو كانت تسرد فقرات من قائمة التسوق. اذن كانت مسؤولة عن قتل بعض الناس؟ آه، لقد كانت تصر على أنها لم تقتل أحداً بشكل مباشر. لكنني كررت عليها السؤال عن القنابل التي ذكرتها. كيف كانت تشعر عندما كانت تسمع أن قنابلها كانت ناجحة؟ «الرضا». قالت بسرعة. «هؤلاء الأوغاد، لقد كانوا يستحقون. نعم لقد زرعت القنابل التي أدّت إلى قتل بعض الناس.» تساءلت فيما اذا كان قد اختلط عليها الأمر بمقدار ما اختلط عليَّ بسبب جوابيها المختلفين في فترة قصيرة من الزمن. فقد بدا أنها تفخر بالقتل ولم تكن تشعر بتأنيب الضمير. هل كانت قاتلة قاسية القلب كما كانت تظهر؟ شعرت أنها كانت تحجب الحقيقة، وكانت تلعب دور الفدائي الفظ. سألتها إذا كانت قد نظرت في عينيّ أحد أهدافها الخائفين.

كان جواب أمايا اكثر بطئاً من طريقتها السريعة المعتادة في الكلام. «لا، أنا لم أنظر إلى أي شخص في وجهه قبل أن أطلق النار عليه. إني اتصور انه اذا كان عليكِ أن تذهبي إلى شخص ما وتُطلقي النار عليه حتى يموت، أصعب بكثير من أن تتركي قنبلة في مكان ما.» تمهلت قليلاً ثم استعادت أحد مواقفها الثورية. «اذا كنت فدائية فعليك أن تقبلي أن ذلك قد يحدث: قد يُطلب اليكِ أن تقتلي. لديك الرضا عن انتمائك إلى مثل هذه المجموعة. يجب أن يحدث ذلك، فالعنف ضروري للنضال، ثم انك تشعرين انك تفعلين شيئاً.»

لقد استطاعت أن تتزلج بعيداً عن الجليد الرقيق الذي وصلنا إليه، لكنها بقيت مضطربة. كيف كانت تشعر لقتل الناس بواسطة تلك القنبلة؟ لقد اخترق هذا السؤال كل الدفاعات التي وضعتها حول مشاعرها. كان الأمر كما لو أنها ـ على غير عادتها، ـ لم تسأل نفسها عن عواقب عملها. وتحوّل مزاجها فوراً من التبجح إلى الكآبة، ودفنت رأسها بين ذراعيها وخيَّم صمتٌ لعدة ثوان ثم نظرت إليَّ نظرة تصل إلى حد التوسّل تقريباً. «آه يا إلهي إن هذا لصعب.» صاحت. «انظري، اننا لم نحضِّر أنفسنا لهذه المقابلة، ولم نكن نعرف نوع الأسئلة التي ستسألين.»

وأضافت أن عليهن الذهاب الآن، فالمظاهرة أوشكت أن تبدأ، لكنهما ستعُودان فيما بعد.

لم أتوقع بعد ذلك أن أرى ألزاني وأمايا من جديد. لكنهما ظهرتا في الليل من بين حشود المتظاهرين تبتسمان وتلوِّحان وانضمت الينا امرأة ثالثة تدعى غلوريا كانت قد وجدتها منظمة إجيزان خلال الساعات بين اللقائين. مشينا عبر المتاهة إلى مشرب «هادئ» ـ وهو الذي يتوجب عليك أن ترفع صوتك باستمرار إلى طبقة أعلى فقط بدلاً من أن تصرخ. وفي الطريق شرحت لنا غلوريا أنها لم تكن فدائية. لكن حكم عليها بالسجن أربعة عشر شهراً بسبب العمل مع محطة إذاعة منظمة ETA. لقد التقت ألزاني وأمايا عندما كانت تقضي فترة سجنها، وكانت تربط بين هؤلاء الثلاث زمالة السجن السابقة. كانت غلوريا في الثالثة والثلاثين، عاقلة وعميقة التفكير. كانت ايضاً صلبة صامدة كما كان ظاهراً عليها.

كانت ألزاني وأمايا تبدوان قويتين ومستعدتين لأية أسئلة قد ألقيها عليهما، لكنهما لم تستطيعا أن تجيبا بشيء يكون لصالحهما. سألتهما كيف يمكنهما أن يتغلبا على الشعور بالذنب عن أعمالهما؟ انفجرت غلوريا الهادئة قائلة: «لا حاجة لأن يشعر أحد بالذنب إذا كان يساهم في أعمال ثورية. ابداً ليس هناك من حاجة. ليس هذا شيئاً شخصياً. وليس هناك ذنب شخصي. لا مكان للذنب الفردي في العنف الثوري. فالعنف ضروري للنضال. وإذا شعر أي شخص بالذنب فهذا أمر يجب أن يعالجه بنفسه. فمسؤولية القتل تقع على عاتق الحركة.»

حقاً إنها كلمات قاسية. في النضال من أجل وطن الباسك العنف مبرَّر، ولا حاجة لمن يقتل أن يتضايق منه. إنه لأمر ممتع أن أمايا وألزاني ـ اللتين قَتَلَتا ـ أصبحتا الآن جاهزتين لشرح كيف تغلّبتا على مشاعرهما، بينما غلوريا، التي لم تَقْتُل، حفظت كل الدعاية عن ظهر قلب. وأكثر من ذلك، كانت تبذل جهوداً لإسكات زميلتيها.

حتى أمايا فقد سكتت وظلت تومئ برأسها موافقة على الخطبة البليغة، كما لو أنها هي التي حضّرت كل الإجابات عن الأسئلة التي أربكتها. وأصبح واضحاً أنه، ما لم تعط غلوريا المتصلبة الإذن، فلن تعطي زميلتاها سوى القليل من المعلومات القيّمة.

رميتُ الحذر جانباً وذكرت ما قال المستر كلارك ولمّحت إلى مقابلة مع أحد رجال ETA، بأن النسوة كنَّ يتكلمن أكثر من أن يأخذن أدواراً مفيدة في المنظمة. فبدا على أمايا كمن أُصيبت بداء السكتة، ولمعت عينا ألزاني الباهتتين، أما غلوريا فقد فغرت فاهاً مشدوهة. وعندما هدأت العاصفة ترجمت لي المترجمة قائلة: إنهن غاضبات من الفكرة ويردن أن يعرفن مَن قال هذا. لا بدَّ أنه متعصب لذكورته، أو أنه شخص يسخر من المؤلفة. وبدا أن غلوريا قررت أنها يجب أن تترك أمايا وألزاني تتحدثان بدلاً من أن تتركني متأثرة بهذا المفهوم الخاطئ.

كانت قصة ألزاني مروعة وظهرت أسباب حزنها واضحة تماماً. فبعد سنتين مع الوحدة الفدائية، تلك الفترة التي كانت أثناءها مسؤولة عن بعض القتل («لكنني لم أُطلق النار وجهاً لوجه على أحد») أُلقي القبض عليها.

«كنت أوقف سيارتي على جانب الطريق عندما اعتقلني رجال الشرطة. لم يحدث أن شخصاً ما قد وشى بي، بل السيارة هي التي فعلت. فقد اقتفوا أثرها حتى وصلوا إلى المنظمة. طلب مني الشرطة بطاقة هويتي ثم طلبوا مني أن انزل من السيارة. أخذوني إلى مركز للشرطة حيث ربطوني إلى طاولة، فأصبح ظهري مدلى من طرفها. وفي كل مرة كنت أحاول أن أرفع رأسي (والاستلقاء بتلك الوضعية مؤلم جداً) كانوا يضربونني.

«جلبوا دنّاً كبيراً مملوءًا بالماء ودفعوا رأسي فيه حتى كدت أختنق. وكرروا ذلك المرة تلو المرة. كانوا يرددون اسماءً: اسماء رفاقي. وبعد ثلاثة أيام من العذاب ـ من الألم غير المعقول ـ أجبروني أن أتحدث بالهاتف مع البيت كي أخبر أصدقائي انني بخير وأنني سأبقى مع شخص ما حتى لا يقلقوا عليّ، وألا ينذروا أحداً أنني اختفيت. أجبروني أن اهتف إلى مكان عملي لأخبرهم أنني بخير كي أبرر سبب غيابي. وعلمت عندها أنه لم يكن أحد يعرف مكاني، ولن يشك أحد بشيء، وهذا أمر مخيف. كان الأمر يبدو كأنني اختفيت، واستمر المستجوبون يخبرونني أنهم يستطيعون جعلي أختفي ـ لقد فعلوا ذلك مع كثير من الرفاق غيري وأن بإمكانهم فعل ذلك مرة أخرى.

«وضعوا كيساً من البلاستيك فوق رأسي حتى درجة الاختناق. وهددوا عائلتي ـ ان ما قالوه وما فعلوه حقاً لا يصدَّق.

«كان عليَّ الاستسلام. وفعلت. كان الشرطة يعلمون أن لنا رفاقاً يسكنون في فرنسا وأنهم سيأتون إلى اسبانيا للقيام بعمليات. وكانوا يعلمون أنني أعلم أنهم قادمون، لذلك جعلوني اهتف لهم وأقول أن مجيئهم مأمون. جاءوا بالقارب. وعندما كانوا قرب الشاطئ داهمتهم الشرطة. أناروا أضواء كشافة وقتلوهم جميعاً.

«كان في المركب خمسة اشخاص، كلهم رجال. مات اثنان فوراً، وقفز ثلاثة من على المركب. مات اثنان آخران في الماء لكن الثالث نجا من الموت وهو الآن في السجن. إن أصعب شيء صادفني في حياتي هو أنني أنا التي نصبت الكمين.»

وأخذت نَفَساً عميقاً قبل أن تتابع حديثها. «لقد فعلت اكثر من نصبه. أخذني الشرطة معهم في الكمين لأنه كان عليَّ أن اعطي الإشارة للرجال في القارب. ولولا ذلك لما اقتربوا من الشاطئ. كانت يداي مربوطتين، وكذلك رجلاي، بقطعة حبل وكان شرطي يمسك بطرفه، وحالما أعطيت الإشارة سحبني. عرفت واحداً فقط من الرجالَ، لأنني كنت قد اشتغلت معه من قبل. لكن الآخرين كانوا رفاقاً. استلقيت على الأرض وكنت أسمع الطلقات. والآن عليَّ أن أعيش مع هذه الذكرى الأليمة.»

كانت تسرد قصتها دون عواطف لكن عندما ظهر وجهها في ضوء البار الباهت كانت تغرقه الدموع. «لقد اتهمت بالتعاون مع عصابة مسلحة، وحكموا عليَّ بالسجن لمدة ست سنوات. وفي اثناء محاكمتي حاولت أن أتكلم عن التعذيب، وكيف انني أجبرت على الاشتراك في الكمين، لكن المحكمة رفضت السماح لي بالكلام. لكن الشرطة أكدوا أن رفاقي قتلوا بعد أن فتحوا النار. قالوا انها كانت مواجهة مسلحة، وأن الشرطة كانوا يعملون فيها دفاعاً عن النفس. وقالوا أنه ليس هناك من شهود.

«انهم معتادون على مثل هذه الأقوال، وكانوا أحياناً يدَّعون أن الفدائيين الذين قتلوا قد انتحروا. اعتقد أن النظام الشرعي بيد الحكومة. فإذا وجدت جثة اقدامها محروقة فقد يكون هناك قليل من الريبة، لكنه ليس هناك من دليل بأن هذا الشخص تعرّض للتعذيب. فالشرطة تكبت المعلومات. وفي مثل حالتي هذه كانت أقوالي تدحض أقوالهم، لكن مَن الذي سيصدقني؟

لماذا لم تخبر قصتها للصحافة؟ لكنها هزت كتفيها قائلة: «أساساً تعتبر الصحافة بيانات الحكومة المعدَّة للنشر وبيانات الشرطة بأنها الصحيحة. ذلك هو السبب في أنه يجب أن يكون لنا صحيفتنا الخاصة.

«امضيت اربع سنوات وثلاثة أشهر في السجن، لقد عمل قسم العفو من أجلي.

كما انني قمت بأعمال الصيانة بينما كنت في السجن. وذلك هو سبب اخلاء سبيلي في موعد مبكر. لأنني اشتغلت في السجن وليس بسبب حسن سلوكي. خرجت منذ سنتين وخمسة أشهر في ايار (مايو) ١٩٨٨. (قالت ذلك دون حساب، كما لو كانت تعرف على الدوام عدد الأيام التي كانت حرة فيها).

«بدأت العمل مع حركة العفو. لقد انهارت مجموعتي منذ ١٩٨٦ لأنها كانت مجموعة صغيرة جداً ولم يكن لها دعم من قبل عامة الناس المحايدين. كانت دائماً تشارك ETA أهدافها. لذلك لم يكن من مجال لتغيير افكاري. ولم يعد بإمكاني بعد الآن الاشتراك في اعمال مسلحة بسبب سجلي في السجن.»

بقيت هادئة حتى وهي تبكي. لقد كانت ـ كما شعرت ـ شخصاً أصابه الأذى بشكل مخيف، أو حتى بشكل مميت بالمعنى الجسماني والنفسي أيضاً. لقد تصارعت عاطفتي نحوها مع كونها قد قامت بالقتل. وعندما غادرت طاولتنا، قالت غلوريا أنها عندما قابلت ألزاني للمرة الأولى في السجن كانت تبدو مستسلمة. فأخبرتُها أن ذلك كان إنطباعي عن ألزاني أيضاً. دهشت غلوريا وقالت: آه لكنها الآن أفضل بكثير. كانت عندئذ تبدو منهارة بالكامل.»

واستأنفت ألزاني تقول: «لقد كان اعتقالي وسجني أمرين قاسيين جداً على عائلتي. لقد انزعجوا كثيراً عندما اعتقلت. لكنهم كانوا يأتون كثيراً لزيارتي في السجن كلما استطاعوا. كان الأمر ثقيلاً جداً عليهم. لأنهم لم يفهموا فهماً كاملاً ماذا فعلت، ومع هذا فقد استمروا يدعمونني. إننا عائلة مترابطة جداً الآن. . اكثر من السابق، وانهم يرعونني بالاهتمام، اكثر من السابق.»

وعندما سُجنت ألزاني في ١٩٨٤ كان عند المسؤولين سياسة وضع كل سجناء ETA معاً. ونتج عن ذلك مجتمع للاعتماد على النفس ومما لا شك فيه أن دعم رفاقها لها هو العامل الهام الذي ساعدها على استعادة سلامة عقلها. ولكن الحكومة الاسبانية أدخلت مؤخراً نظاماً جديداً يقضي بفصل سجناء ETA بحيث لا يعود للتعاون المشترك وجود.

وقد عزت جميع النساء الثلاث حالتهن النفسية المستقرة نسبياً إلى مجتمع السجن المترابط ذاك، ولم تكن أية واحدة منهن، ولا حتى ألزاني الجريحة بحاجة للمعالجة النفسية، بالرغم من أنهنَّ اعترفن أن بعض سجناء ETA قد احتاجوها فعلاً.

وشرحت أمايا قائلة: «في السجن مع النساء الأخريات اللواتي تعرَّضن للتعذيب

نفسه، كنا بين أصدقاء وكانت هناك عملية تطبيع، لا يستطيع احداثها إلا أولئك اللواتي تعذبن بالطريقة نفسها. وفي خبرتنا كانت تصيبنا حالة من فقد الذاكرة بعد التعذيب. لم يكن بإمكاننا تذكّر الأشياء الصغيرة مثل أسماء بعض الاصدقاء والشوارع. كان ذلك مزعجاً جداً. وعندما كانت تدخل سجينة جديدة إلى الجناح، كنا نتحدث إليها عن فقدان الذاكرة ونؤكد لها أنها ليست مجنونة، وأنها ستتذكر هذه الأشياء مع مرور الزمن. أما الآن فإن جميع السجينات معزولات ولا يسمح لهن بالزيارة إلّا من قبل أهاليهن، وليس من قبل اصدقائهن. إنهنّ في حال أسوأ بكثير مما كنّا فيه.»

أما بالنسبة للتعذيب، كما قالت أمايا، فقد كان الشرطة اكثر قسوة على نساء ETA مما كانوا على الرجال. ويعتقد كثير من باحثي علم الجرائم أن هذه المعاملات يمكن تفسيرها بالطريقة التي ينظر فيها المجتمع إلى النسوة العنيفات: انهن منحرفات مضاعفات. انهن لم يقترفن جريمة وحسب، بل انهن بفعلهن هذا يهددن الصورة التقليدية للنساء في المجتمع كمخلوقات لطيفات ممتثلات للقوانين.

«انهم تقريباً كمن يريدون معاقبتنا بشكل أشد لتجرّؤنا على الانخراط في النضال المسلّح. لا يستطيعون قبول الفكرة بأن النسوة يستطعن القيام بمثل هذه الأعمال. يصرخون بوجهك ـ يضحكون ـ يهينونك شفهياً وجسمياً وجنسياً. يعاملونك كأنك منحرفة غير طبيعية. ويعذبون بشكل خاص النساء اللواتي لهن أطفال بالتخويف عما سيحدث لأطفالهن. وبسبب ذلك لا يوجد سوى القليل من الأمهات مع الفدائيات. معظمهن يقمن بدور الدعم فقط.

وطبعاً يستغل الشرطة حقيقة أنّنا نخشى الاغتصاب، ويهددوننا به. وللأسف لم يكن ذلك تهديداً فقط، فقد اغتصبت نسوة اثناء التعذيب، وقد اغتصبن حتى بالهراوة. وعندما يخبرك المستجوبون ان ذلك ما سيفعلون، فانك تعلمين أنهً ليس مجرد تهديد. يقولون «تذكري ماذا حدث لفلانة وفلانة.. و....».

وأنهت أمايا حديثها بالقول: «كان القائمون على التعذيب متوحشين. كانوا مجانين وكان هناك خطأ يحدث. كان أكثرهم جنوناً ووحشية النساء. كانت ضابطات الشرطة غالباً ما يشتركن في تعذيب نساء ETA». وتذكرت النسوة الثلاث ان امرأة كانت تحضر اثناء تعذيبهن. وقالت ألزاني بفتور أن الأمر لم يكن يختلف كثيراً. لكنها أضافت: «لقد كانت الامرأة أحياناً أكثر قسوة عليّ بكثير من الرجال». وتذكرت أمايا أن وجود المرأة كان يجعلها اكثر انزعاجاً، فقد كانت تقذف جسمها المنهار بأنواع

القذارات. لقد كان وجودها عذاباً نفسياً اضافياً.» أما غلوريا التي نجت من العذاب الجسمي، لكنها تعرضت للرعب النفسي والسباب الشفوي لمدة اسبوع، قد أصيبت بالصدمة من المرأة التي كانت تستجوبها: «أتذكّر انني كنت أفكر: كيف يمكنك الاشتراك في تعذيب امرأة أخرى؟ كيف يمكنك أن تقفي هناك وتتركي الرجال يفعلون هذا بامرأة... كيف تستطيعين؟ والشيء الأسوأ هو أنني كنت في دورتي الشهرية، كنت أطلب مناديل نسائية، فكانوا يضحكون مني. لقد جعلني ذلك أشعر أنني في غاية الضعف.»

كان هذا يلقي الضوء بشكل جيد على نظرة النسوة اللواتي اخترن المشاركة في العنف إلى الأخريات اللواتي اتخذن القرار نفسه ـ لكن من الجانب الآخر. وانها لوجهة نظر شائعة ان اولئك الذين يقترفون اعمال عنف إما مجانين أو أشرار، وخصوصاً النسوة اللواتي نتوقع منهن تنشئة الحياة، لا تدميرها.

لقد بررت هذه النسوة الثلاث العنف كجزء من نضالهنّ الثوري. لكنهنّ استعملن عبارات الإدانة نفسها ضد النسوة اللواتي يقمن بالاستجواب، وعبَّرن عن دهشتهن من امكانية أن تصبح النساء قائمات بالتعذيب بالعبارات التي تنطبق عليهن أنفسهن. ولا يعني ذلك أن التعذيب ليس أبشع الجرائم، لكن في الوقت نفسه كم عدد ضحايا النسف بالقنابل واطلاق النار الذين لا يموتون بل يقضون بقية حياتهم يقاسون بسبب عاهاتهم؟

لقد اصابتني الصدمة عندما أخبروني أن النسوة في الشرطة الاسبانية يشاركن في التعذيب. «لا أستطيع فهم كيف يستطعن تحمّل أنفسهن.» قالت أمايا. وحتى لو كان جزء من السبب في وجود بعض النساء من الباسك في ETA يعود إلى عملية التحرير الطبيعية ـ بحسب كلمات أمايا ـ لماذا يكون من المدهش إذن أن النساء المشتركات في مكافحة الكوماندوس يجب أن يكنَّ قد تدرجن في استعمال أقذر الوسائل المتوفرة لهن؟ «يستطعن فعل ذلك وتحمل أنفسهن» تابعت أمايا، «لأنهن مدعومات من قبل هيئة. لقد أُعطين موافقة رسمية على تعذيبنا. ان عملهن هو تجريدنا من صفاتنا الإنسانية لكنهن ينتهين بتجريد أنفسهن من تلك الصفات ايضاً.» إن المرء ليتساءل كم مرة قيل فيها الشيء نفسه عن مجموعات ثورية اقترفت اعمال الإرهاب ـ ويقال عن المرتكبين «الكلاب المجنونة» و«الوحوش» و«القاتلون المفسدون». وان اعمالهم لا إنسانية. ومن المحتمل أنه لو قابل المرء امرأة من هؤلاء اللواتي يقمن بالتعذيب خارج ساعات الدوام الرسمي، لوجدها امرأة دافئة ودودة مثيرة للتفكير، إنسانية مثلها مثل هذه النسوة الثلاث.

وانتقلت أمايا إلى قصة اعتقالها وتعذيبها. كان يبدو أنها تود حكاية التفاصيل كاملة، كما لو كان ذلك احتراماً لقصة ألزاني المروِّعة.

«اعتقلوني في بلباو في ١٩٨٣، واعتقد كان ذلك لأن شخصاً ما قد اعطى اسمي تحت التعذيب. كنت في الشارع أتسوّق عندما أحاط بي أربعة رجال شرطة. طلبوا مني بطاقة هويتي ثم قالوا «تعالي معنا. هناك بضعة أسئلة نريد منك الإجابة عنها.» وضعوني في إحدى سياراتهم وكانت سيارة أخرى تتبعنا. اذكر أن حقيبة التسوق كانت لا تزال معي.

في مركز الشرطة تعرضت لأنواع التعذيب نفسها التي تعرضت لها ألزاني، وكذلك الصدمات الكهربائية. يفعلون ذلك لأنها لا تترك آثاراً (كان ذلك كما لو أنك تضعين كيساً من البلاستيك على رأسك)، ولا تترك ندوباً ومن الصعب أن تثبتي أنهم استعملوا التعذيب. ثم هناك الطريقة الاكثر قبولاً في الاستجواب: المستجوب الجيد والمستجَوب السيء، وكانوا يغيِّرون ادوارهم، لذلك لم تكوني تعرفين مَن منهم الجيد ومَن منهم السيئ.

«ذهب الشرطة إلى بيتي واعتقلوا الولد والبنت اللذين كانا يعيشان هناك. لم يكونا من اعضاء المنظمة ولم يكونا يعرفان شيئاً. فأُطلق سراحهما بعد عدَّة أيام. لكن الشرطة قالوا لهما: «لا تخبرا أحداً عن اعتقالها وإلاّ فاننا سنعتقلكما ثانية. بقيتُ ثلاثة أيام لا يعرف أحد عن مكاني شيئاً. وكان يمكن أن يحدث لي اي شيء في تلك الفترة. وبعد ذلك اكتشفت عائلتي الأمر وكانت والدتي وأختي داعمتين قويتين لي - كان والدي قد تركنا منذ بعض الوقت.

احتفظوا بي في المفوضية لعشرة أيام مع التعذيب قبل أن يقدموني للمحاكمة. ومثل ألزاني حاولت أن أخبرهم عن التعذيب لكن القاضي قال لا أحد يهتم لادعاءاتي. وتمّت إدانتي بعضوية عصابة ETA فقط لأنه لم يكن هناك أي دليل على اية اعمال كنت متورطة بها.»

وليس من غير الطبيعي أن يكون المتسجوبون هم الأهداف الرئيسية للاغتيال من قبل فدائيي ETA ويظهر انهم كانوا ينقلون كل ثلاثة أشهر إلى مركز شرطة مختلف كي يتجنبوا تعرف اعضاء ETA عليهم. وأضافت أمايا: «يرتدي المستجوبون الآن أغطية للرأس والعنق والاكتاف كيلا يمكن التعرّف عليهم، وعندما اعتقلت لم يكونوا قد بدؤوا بفعل ذلك. لكنهم كانوا يصرخون بي دوماً كيلا انظر اليهم وأن أبقي رأسي مطأطأً نحو الأسفل. كما إنهم أهداف رئيسية ليس بسبب ما يفعلون لـETA وحسب،

بل للطريقة التي تحميهم الحكومة فيها من العدالة. وهناك الكثر منهم، وهم مدربون تدريباً عالياً. لقد أعطينا معلومات لمنظمة العدالة الدولية وحدثت اتصالات بينها وبين فرقة مكافحة الإرهاب الاسبانية، لكن التعذيب يستمر. وقد طرحت الحكومة الفرنسية اسئلة عن تعذيب السجناء، لكن لم يكن هناك سوى القليل من الأدلة في معظمها.»

كان النساء يعتبرن أن الاحكام التي تصدر بحق مؤيدي ETA والأشخاص الذين لهم علاقة بعصابات ETA قاسية بشكل خاص. يبدو أن للشرطة الاسبانية الحق في الاعتقال والحجز لمجرد الشبهة، وأن الشباب الذين يشاركون في المظاهرات هم مشبوهون تلقائياً.

وادعت ثلاثتهن انهن يعرفن أشخاصاً يقضون حالياً فترات سجن طويلة وكانت جرائمهم الوحيدة أنهم كانوا اصدقاء لفدائيين.

في السنوات العشر الأخيرة ـ كما قلن ـ أدركت السلطات أنه لم يكن بإمكان ETA أن توجد لولا الدعم الأساسي من كثير من الناس الموجودين في المجتمع، وبالتالي تعطى الآن الجدية نفسها للناس الذين يقدمون دعماً إلى خلايا ETA بجمع المعلومات وتقديم المنزل الآمن من حين لآخر ونقل المعلومات، ويعني ذلك النسوة بشكل عام. «دون دعمهن لم يكن بالإمكان القيام بالعمل المباشر وبذلك ينظر الشرطة إلى أي عمل يدعم ETA كأنه عمل فدائي. منذ عشر سنوات كان الناس الذين يدانون بأعمال دعم لـETA يحكم عليهم بأحكام قصيرة، لكنهم الآن يقضون وقتاً طويلاً في السجن.»

وهذه حالة تستحق الدراسة: كان صديق غلوريا السابق ـ وهو من مشتبهي ETA ـ يطارد من قبل الشرطة، وكان سيصل إلى البيت. وجدت غلوريا مسدساً موجهاً إلى رأسها. «كنت قد خرجت مع بعض الأصدقاء لم أعد إلى البيت حتى الساعة الثامنة صباحاً. وجدت القفل مكسوراً والباب مفتوحاً. اعتراني شعور بالخوف، وظننت أن أحد اللصوص قد اقتحم المنزل، وأنه قد يكون داخل البيت. دخلت بحذر، وفجأة شعرت بمسدس عند رأسي. كان في الداخل خمسة رجال شرطة وشرطية واحدة. كانوا قد وصلوا في الثانية صباحاً واقتحموا البيت وانتظروني. كانوا يبحثون عن أحد اصدقائي الشباب وكانوا يظنّون انني أعرف أين هو.

كانوا يريدونه لأن شاباً آخر، كانوا قد اعتقلوه، قد أشار اليه. كان كل ما يستطيع السجين تذكره عن صديقي السابق أنه خرج مع فتاة اسمها غلوريا. كان قد قابلني لأنني ذات مرة سافرت معه ومع صديقي وكان معنا فتاة أخرى. كان يعلم أن

اسم الفتاة الأخرى هو أرناتزا، وأنها كانت تعرفني وتعرف مكان سكني. لم يكن يعرف سوى أن أرناتزا كانت تعمل في أحد المعامل.

والشيء الغريب ان اسم ارناتزا شائع جداً، لكن ذلك لم يمنع الشرطة من الذهاب إلي المعمل واعتقال أية فتاة لها الاسم نفسه. كان هناك العديد من المعتقلات، وأخيراً وجدوا الفتاة المطلوبة وأخبرتهم عنواني. يظهر أنهم قبل أن يعثروا عليَّ، كانوا قد اعتقلوا فتاتين أخريين كانتا قد ذهبتا مع صديقي السابق. كنا قد افترقنا منذ سنة وكان قد كوَّن علاقتين أخريين، وهاتان الفتاتان لم تستطيعا أن تخبرا الشرطة اين كان، لذلك جروا ورائي.

ولسوء الحظ، بينما كانوا ينتظرون عودتي فتشوا شقتي ووجدوا أوراقاً كانت تثبت أنني اعمل لصالح اذاعة ETA غير الشرعية. لأنها كما يقولون تحرّض على العمل المسلح. اعتقلوني واستجوبوني لمدة سبعة أيام. وباستثناء لطمة واحدة في معدتي في البداية مباشرة، لم يعذبوني جسمانياً، بل نفسياً فقط. حاولوا أن يورطوني في أعمال لصالح ETA واستجوبوني بطريقة غريبة حقاً. أجلسوني على كرسي ووقفوا حولي - احياناً ستة أو سبعة منهم - وأحياناً اثنان فقط. كانوا يسألونني باستمرار: هل تعلمين فلاناً؟ فلاناً من الجامعة؟ متى كانت آخر مرة رأيت فيها فلاناً من الناس؟ كانوا يصرخون بكل الأسئلة معاً، كان ذلك مرعباً حقاً. . .

ولأنه كان قد مضى على انتظارهم في شقتي ست ساعات وكان من عادتهم الاعتقال في منتصف الليل - توفر لهم الوقت الكافي لقراءة جميع رسائلي وأوراقي، لذلك عرفوا كل شيء عني. قرؤوا رسائل من أشخاص لم أرهم منذ سنين، لكنني لم ادرك ذلك. كان يبدو غريباً أنهم يعرفون كل هذه الأشياء عني، حتى عن اصدقاء قدامى، وكان ذلك مثيراً للأعصاب. كانت احدى الألعاب التي كانوا يلعبونها معي القول أنه قد وصل محاميَّ. ودخل رجل الغرفة فظننت: «أنه جاء لحمايتي.» لكنني أدركت حالاً أنه شرطي. وفي النهاية لم أعد استطيع تصديق أي منهم أو ايّ شيء من أقوالهم. ولحسن الحظ كان أحد جيراني قد رأى الشرطة يصلون إلى شقتي فأعلم أصدقائي وعائلتي. ومع أنني لم أكن اعرف ذلك، فقد اذيعت أخبار اعتقالي في الراديو والصحف. ومع أن الجميع كانوا يعرفون اين أنا، استمر الشرطة في اعتقالي لمدة عشرة أيام. كان الاستجواب دون تعذيب سيئاً ما يكفي ثم أرسلوني إلى مدريد.

«وأثناء الاستجواب كنت خائفة جداً بحيث انني وقَّعت بياناً بأنني قد فعلت كل انواع الأشياء التي لم أفعلها. وعندما وصلت إلى مقر القيادة في مديد أخبرت الشرطة

انني وقّعت لانني كنت خائفة من التعذيب، لذلك أدانوني بتهمة العمل لاذاعة ETA فقط.»

كانت غلوريا تبذل جهدها كي تشير إلى أنه بالرغم من أن رجال ETA على العموم يتوقعون من النساء أن يقمن بأدوار داعمة، فإن المرأة عندما تصبح جزءاً من وحدة كوماندو فانها كانت تُقبَل على انها رفيقة من المستوى نفسه. ضحكت قائلة: «لكن لا تتصوري أن جميع الرجال في ETA هم من مناصري تحرير المرأة ولا يزال الكثير منهم مكبّلين بالتقاليد والأهواء الاجتماعية، يجب أن يُثقّفوا أيضاً..»

وهناك طرق ـ كما اتفقت آراء النسوة الثلاث ـ تستطيع فيها النساء أن ينجزن اكثر من الفدائيين الرجال بسبب الوسائل البسيطة لجنسهن بالرغم من أنه كلما اصبحت النساء الفدائيات اكثر انتشاراً فان الأمر يصبح ليس بالسهولة التي كان سابقاً.

«في الماضي كان نظام استبداد الرجل يسير في مصلحتنا.» تذكرت أمايا «فاذا القى الشرطة القبض على زوج امرأة أو صديقها، فانهم كانوا يفترضون أن المرأة بريئة. وبهذه الطريقة كان النساء يقمن بالكثير من الأعمال دون أن يتعرضن لعواقب خطيرة، لأن الشرطة لم يكونوا يتصوّرون أن النساء يلعبن دوراً فعالاً في النضال المسلّح. كنا نستغل افكارهم المستبدة لمصلحتنا. واذا ألقي القبض عليك، حتى ولو لم يكن لك صديق أو زوج، كنتِ تقولين أن لك صديقاً، وأنه لم يكن لديك أي علم بما يفعل وبما ورطك به. اذا كنتِ قد فعلت شيئاً فانك تصرخين «لقد جعلني أفعل ذلك.»

«وحتى في هذه الأيام، كن يدّعين أن الشرطة لا يزالون غير قادرين على التسليم أن بعض هؤلاء النسوة يمكن أن يكنَّ أعضاء في خلايا ETA ويباشرن عملاً ما. ويبدو أن السر هو في ارتداء الثياب الأنيقة واستعمال مساحيق التجميل، كي يظهرن بمظهر الطبقة المتوسطة ومحترمات». قالت غلوريا. «لقد نُفّذت عدة أعمال من قبل نساء انيقات.»

سألت ألزاني وأمايا، اللتين لم يبدُ أن أحداهما قد استعملت أدوات التجميل والثياب الأنيقة، إذا كانت أي منها قد تنكرت في مثل هذه الطريقة. ضحكت أمايا: «كلا، ولكن كنت مرة في بار مع فدائي رجل عندما دخل الشرطة. حسناً لقد تظاهرت أنني منهمكة جداً معه، بينما كنا في الواقع نفعل شيئاً مختلفاً حقاً.» زرع قنبلة؟ ضحكت.

وجاء ذكر امرأة أخرى بيلين غونزالير ـ والسيدة غونزالير هذه كانت مطلوبة اكثر

من أية امرأة أخرى من قبل كمبيوتر الشرطة، وطبقاً لما قاله المسؤولون كانت حاضرة شخصياً في كل عملية اطلاق نار أو نسف بالقنابل في مدريد. وقد وقعت منذ سنتين في كمين من رجال الشرطة في المدينة، مشت متمهلة إلى حيث كان يقف اثنان: صبي وصديقته، وطلبت أن تستعير الولد لفترة قصيرة. وعانقت الشاب المشدوه ثم سارا عبر حاجز الشرطة مباشرة، وهي ممسكة به بشدة كما يمسك الحبيب حبيبه.

وقهقهت أمايا ضاحكة: «كل ما استطاع رجال الشرطة رؤيته كان زوجاً من العشاق. وبعد ذلك، عندما أدركوا انها هربت أخذ منهم الغضب كل مأخذ. لقد غضبوا أكثر مما لو أن رجلاً هو الذي افلت منهم. كان هناك كبرياء رجل جريح لأنهم لم يستطيعوا القبض على هذه المرأة القاتلة ولأنها قد افلتت من بين شباكهم. كانت حقاً شوكة في أجنابهم.»

يُعتقد أن السيدة غونزالير تعيش الآن بأمان في أميركا الجنوبية.

كان الجميع يبدون في حالة انشراح الآن. لذلك وجهت السؤال الذي كنت دائماً قلقة بشأن توجيهه: استخدام ETA لما يسمُّونه «الضريبة الثورية» والتي كان الآخرون يدعونها «ابتزازاً». ان هذ الطريقة في جمع الأموال تعتمد على واقع أن لدى ETA سياسة اختطاف رجال أعمال اثرياء وبارزين وقتلهم اذا لم تُدفع الفدية. كانت الضريبة الثورية تلغي عمل الاختطاف القذر. كانوا ببساطة يستخدمون التهديد بوجودها المؤكد للحصول على مبالغ كبيرة من المال من رجال أعمال في بلاد الباسك. وقد قاوم بعض هؤلاء الرجال المطالبة بالضريبة لكنهم دفعوا كثيراً. وقد دفع معظمهم بمن فيهم البنوك بالسر، بينما كانوا يُدينون ETA علناً، ويُعتقد أن بعض أعضاء GAL هم مرتزقة مستأجَرون من قبل رجال الأعمال الذين تضايقوا من دفع «الضرائب الثورية».

أحدثت تحقيقاتي غير النهائية ابتسامات عريضة على وجوه جميع من كنّ حول الطاولة. نعم، أومأن جميعاً إن الضرائب قد جلبت مبالغ كبيرة للحركة. كان من الواضح أنهن لم يرين أي مأزق عادي من هذه الممارسة. «من الواضح أننا نضع اهدافاً لنا في الشركات الكبرى، لأننا لا نريد تدمير الشركات الأصغر. اننا نوجه مطالبنا إلى أصحاب الشركات أو الناس الأرفع شأناً فيها، والبنوك. وكلهم يملكون كثيراً من رؤوس الأموال، وهم الذين يستغلون الناس. فالمال الذي نحصل عليه من الضريبة يُستعمل ليدفع للعمال ولتحريرهم.» «وهل كان هذا التهديد بالاختطاف ضرورياً؟» أثار هذا السؤال السخرية. «لن يدفعوا الأموال باختيارهم. أليس ذلك صحيحاً؟»

كان كل هذا يبدو معقولاً جداً طالما أن المرء يقبل التبرير الثوري ويرى أن

الأعمال التجارية هي الأهداف الشرعية ويتجاهل حقيقة كونها تُخضِع الكائنات الإنسانية للرعب.

ثم سألت كيف يبررون قتل الناس الأبرياء بالخطأ. ففي عام ١٩٨٧ مثلاً انفجرت احدى قنابل ETA في جناح المعيشة للحرس المدني، وقتل أحد عشر شخصاً بمن فيهم اربعة أطفال.

تحدثت ألزاني التي جلست صامتة لفترة: «طبعاً لا أحد يحب ذلك، أو يريد ذلك، وإن ذلك يحرجنا جميعاً. اننا لا نفعل ذلك عن عمد، لكن مثل هذه الأشياء تحدث في الحرب.»

وقاطعتها أمايا: «ان الصحافة تستخدم هذه المآسي ضدنا. فإذا قُتل اطفال ونساء نتيجة عمل ما، فإنهم يقولون أن هذا لا يهمنا بشيء، لأننا قتلة للأبرياء، قلوبنا قاسية. ان ذلك غير صحيح. . فهذا يؤلمنا كثيراً، لكنَّه يحدث بالصدفة، واننا نعتبره أمراً لا يمكن تجنبه.»

وفي الوقت نفسه يحدث غالباً أن الشرطة والحرس المدني يشردون الأطفال عندما يأخذون أهلهم للاستجواب. فقد يترك الأطفال في مخبز أو عند الجيران وهم لا يعرفون ما يجري. وهذه قسوة على الأطفال. وقد يُلقى القبض بشكل مأساوي في وسط كل هذا على أناس ليست لهم أية علاقة بالنضال المسلح».

أما غلوريا ـ التي أصبحت رقيقة بشكل زائد ومنسجمة ـ عندما كادت رحلة المساء تنقضي، تدخلت قائلة: «في مثال قنابل جناح المعيشة الخاص بالحرس المدني والهجوم بالقنابل على الأماكن الأخرى ـ لا تستطيع هذه المنظمات أن تختبئ وراء نسائها وأطفالها. يجب ألا يعيش الأطفال والنساء هناك، لكنهم ان فعلوا فسيكونون جزءاً من المنظمات، جزءًا من القمع ضد شعبنا، وبذلك يكونون هدفاً مشروعاً بحد ذاته.»

لم نكن نعرف إذا كانت غلوريا تبدو بهذه القسوة لأنها ببساطة لم تقتل أو تؤذِ أحداً من قبل، كما لم نكن نعرف ما إذا كانت ستعمل على نسف رياض الأطفال الممتلئة باولاد الحرس المدني، دون أن تختلج لها شعرة، لو أنها لم تعتقل بتهمة العمل لإذاعة ETA. انني لم أقابل ابداً أحداً يستطيع قول مثل هذه الأشياء من قبل. أما غلوريا فقد قالتها بكثير من القناعة.

لكنها أشارت إلى نسف المخزن التجاري في برشلونة في عام ١٩٨٧ كغلطة

اقترفتها ETA، ذلك العمل الذي اعتذرت الحركة لأنها قامت به. «كان المخزن جزءًا من سلسلة كبيرة وحدث النسف عندما كانت ETA تهدف إلى نسف المخازن المتسلسلة التي كانت فيها مصالح حكومية. وطبعاً كانت القنابل تُوقَّت كي تنفجر عندما لا يكون أحد في المخازن، ولكن في هذه الحالة انفجرت القنبلة دون انذار وقتل بين خمسة عشر وثمانية عشر شخصاً ضحية ذلك.

«وجرى الكثير من الانتقاد الذاتي داخل ETA بسبب ذلك العمل، وكذلك من الخارج بالطبع. كان الناس في المنظمة قد أُصيبوا بالصدمة لأنه ليس من المقصود أبداً أن يقتل الأبرياء. لا نريد القتل غير المميز وهذا شيء ما كان يجب أن نفعله. لقد اعتذرنا من أجله.»

بدا هذا الأمر مفهوماً بشكل أكثر، وبدت غلوريا آسفة بعمق، لكن كان عليها أن تتابع. «كان هناك انتقاد للعمل ايضاً، لأننا قد اعتمدنا، على الشرطة كي توصل الإنذار بوجود قنبلة في المخزن. من عادة ETA أن تعطي إشعاراً للشرطة بوجود قنبلة. لكن في هذه المرّة تعمّدت السلطات الا توصل الإنذار. كانت الغاية دعائية. كانوا يريدون حدوث احتجاج شعبي كبير ضد ETA.»

خلَّفت ألزاني عاطفة واحتراماً لمعاناتها ولطفها، لكنَّ أمايا كانت متشردة أمينة ومحبوبة. وكلتا الاثنتين قاستا من أجل اعمالهما، وكان حديثهما البليغ قد لطَّفته الخبرة. لقد كان سردهما لقصص التعذيب مؤثراً حتى الأعماق. كان مؤثراً بحيث يجبر الشخص نفسه على تذكر سبب اعتقالهما في المقام الأول. لكن كلمات غلوريا جعلتني أرتعش. كان من الصعب التوفيق بين جانبي شخصيتها: المرأة التي شعرت بالذل والمهانة عندما طلبت من مستجوبيها مناديل نسائية، والمنظِّرة الثورية التي قالت أن العنف مباح وأنه من الأفضل لأطفال أعدائها أن يَحْذَروا.

* * *

لم يكن بالإمكان أن يكون اسم المرأة الشابة المستعار تكسيكيا (ومعناه الصغيرة) أكثر ملاءة على أحد غيرها. كان من الصعب ألا تفكر بهذه المخلوقة الصغيرة كطفلة. لكن أية واحدة من هذه الأفكار تلاشت فوراً عندما بدأت تكسيكيا تتحدث. لقد كانت بائسة بشكل كبير، لأنها بعد أن قضت حكماً بالسجن لمدة ثمانية عشر شهراً لم تستطع الانضمام من جديد إلى وحدة ETA.m، وأن تصبح ما كانت تريد أن تكون: فدائية في الصفوف الأولى. ثم جاءت معاناتها من التعذيب والشعور المستديم بالذنب،

بحيث أنها في النهاية انهارت وأدلت بالمعلومات. وأخيراً اعتقدت جازمة أن العنف، بما في ذلك القتل، يجعل الأشياء تحدث بسرعة أكبر، وبتأثير أكبر من سرعة وتأثير الكلمات.

لم يمض على وجود تكسيكيا في وحدة ETA.m عدة أشهر فقط حتى اعتقلت. وكعضو جديد، فقد انخرطت في مستوى منخفض نوعاً ما من الأعمال ـ وهو جمع المعلومات للحركة ـ حول أهداف معينة، ولكن من المعترف به أنها كانت ستصل إلى اشياء ذات مستوى أعلى لو لم يقطع عليها العمل. رفضت أن تقول لنا كيف كانت تنفّذ واجباتها، لكنها تتصور أنها قد قامت بدور ضابط استخبارات ناجح. لم يكن بإمكان أحد أن يرتاب أن هذه الفتاة الصغيرة ذات الوجه الحلو كانت تراقب بحذر وقت تغيير نوبات ضباط الشرطة، أو مكان تناولهم الشراب بعد العمل.

كان سينتج عن معلوماتها موت اولئك الذين كانت تراقبهم. لكنها لم تكن نادمة ابداً. كانت تستمد الرضا من دورها وكانت تستمتع بالشعور بروح الرفاقية في المجموعة. وعلى الرغم من أن معظم أعضائها كانوا رجالاً بمن فيهم صديقها الحالي، فقد كانت هناك بعض النساء الفدائيات اللواتي اعجبت تكسيكيا بهن، وصمّمت على الانضمام اليهن. لكن على العموم لم تكن مجرد امرأة في مجتمع مكبوت. لقد كانت امرأة صغيرة، لكن حتى المرأة الصغيرة تكون قوة يجب أن يُحسب لها ألف حساب، ان كانت تحمل بندقية هي على علم تام بكيفية استعمالها.

إن القرار في أن تصبح امرأة ما فدائية ـ كما قالت ـ ليس بالأمر الذي تتخذه امرأة باستخفاف. فهناك الكثير من الأشياء التي ستفقدها غير الرجال. لقد كان بكل وضوح أمراً فكرت به كثيراً «إن النساء يواجهن صعوبات اكبر عندما ينزلن إلى الخفاء ويصبحن فعّالات بالكامل. ولا شك أن الأمر يتعلق كثيراً بالمواقف الحازمة تقليدياً في مجتمعنا تجاه النساء: إذ يجب عليهن أن يبقين في البيت وينجبن الأطفال. وإن هذا النوع من التفكير يتغيّر لكننا جميعاً نبقى معتادين على عدم الأمان. وفي الانضمام إلى خلية فدائية، هناك احتمال كبير انك ستفقدين عائلتك وبيتك، وبالطبع، كل الأمان.

«أما بالنسبة للرجال، فالأمر أسهل بكثير. فهم في العادة يُتوقع منهم أن يكونوا خارج المنزل يكسبون المال ـ وهم يعلمون أنه مهما يحدث لهم، فإن زوجاتهم سيلزمن منازلهن يتنبهن للأطفال. ولكن اذا فعلت امرأة الشيء نفسه، فانه يتوجب عليها أن تقطع كل هذه الروابط وتهجر هذه المشاعر. أما بالنسبة لي فلم يكن هناك الكثير من المشاكل. فالشاب الذي كنت أعيش معه كان مجرد صديق، وبالإضافة إلى ذلك فقد كنا نقوم بالعمل نفسه.»

وأكدت أن صديقها لم يؤثر عليها بأية طريقة بشأن قرارها أن تصبح «فعالة بشكل كامل». «لا أستطيع أن أتذكر مَن منا انضم اولاً، ولكننا التقينا من خلال المجموعة. ليس لي أيُّ علم عن أية نساء فدائيات من ETA انسقن إلى الخطوط الأمامية عن طريق رجالهن. بالرغم من أنني في حالة الدعم العام، أظن أنه صحيح أن النساء ينخرطن في العَمل عن طريق رجالهن، يقمن بأعمال مثل هذه: تأمين البيوت الآمنة، والدعم المالي، ومثل ذلك. ولكن النساء اللواتي يصبحن فدائيات يفعلن ذلك من تلقاء أنفسهن، ويُنظر اليهن نظرة مساوية للرجال في اتخاذ القرارات. إن من يصلن إلى مستوى النضال المسلح يكنَّ ملتزمات بالثورة أكثر من أي شخص آخر. وهن ـ سياسياً ـ متقدمات اكثر بكثير، مما يعني أن الرجال اكثر دراية بحقوق النساء.»

في وحدة تكسيكيا كان كل واحد، من أحدث متطوع حتى اكثر المقاتلين خبرة، يُعلَّم ماذا يتوقع اذا أُلقي القبض عليه. «التعذيب. لقد تلقينا تحضيراً نفسياً، وأخبرونا عن مختلف أنواع التعذيب، وكيف نعرف ما سيحدث لاحقاً، فاذا كنت تعلم ما سيحدث يكون من الأسهل أن تستعد له.»

لقد أفادها التعليم كثيراً عندما اعتقلت واحتجزت، أولاً في مركز شرطة بلباو ثم في مقر قيادة شرطة مدريد.

كانت الساعة الثانية صباحاً عندما اقتحم الشرطة باب شقتها، حيث كانت تسكن (تكسيكيا) مع صديقها. «كانوا حوالي خمسة وعشرين شرطياً، مدججين جميعاً بالسلاح. كانوا يختطفون كل شيء: الكتب، الصور، كل شيء يرونه. كانوا يطلقون صرخات السباب نحونا، خصوصاً نحوي أنا، يدعونني ابنة المومس، العاهرة، وكلمات سباب لا معنى لها. واعتقلونا نحن الاثنين، ثم أخذوني إلى مركز شرطة بلباو.

«وفوراً بدؤوا يضربونني. أذكر أنهم جميعاً رجالاً عمالقة، واقفين حولي يضربونني. ربطوني من معصميَّ وكاحليَّ إلى دعامة من الخشب بحيث أصبحت أتأرجح كقرد بين طاولتين. شعرت كأن ظهري سينكسر.

كانت طريقتهم أن يجعلوك تنهارين جسمياً، ثم يطبقون العذاب النفسي. يهددونك بحقيقة ما سمعت عن رفاقك الآخرين الذين ماتوا اثناء الاستجواب. هددوني أنهم سيعتقلون أمي وأبي. كانت تلك فكرة رهيبة لأنني كنت أعلم أنهم يستطيعون فعل ذلك وربما يعذبونهما أيضاً.

«عذبوني لمدة سبعة أيام، أول ثلاثة منها في بلباو. ثم أخذوني إلى مقر قيادة الشرطة في مدريد للأيام الأربعة التالية. إن النقل إلى مدريد هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لأحد: غرف التعذيب تحت الأرض، والسقوف ذات قناطر ومطلية باللون الأخضر، كانت قد طرطشت بدماء السجناء. لقد كانت كغرف تعذيب القرون الوسطى.»

لقد اعترفت ان ذكرى فشلها، عندما انهارت وتحدثت، كانت لا تزال تطاردها. لكنها تابعت القول بتردد وبعينين مطرقتين: «أشعر بالذنب بشأن ذلك. من الصعب جداً ألا تقولين شيئاً ابداً عندما يعذبونك بهذا الشكل. كان عليَّ أن أتكلم أخيراً، بالرغم من أن ذلك لم يكن بإرادتي. ومن الصعب عليَّ أن أعترف انني تحدثت، وقد تركني ذلك أشعر بالذنب منذئذ.» هل وشت برفاقها؟ «نعم» همست. «لكنني لم أعطِ عن أي شخص معلومات كافية لجعلهم يعتقلونه.»

وبعد تسع سنوات، كانت لا تزال تعاني من مشاكل في ظهرها، سببتها المعاملة التي تلقتها تحت الاستجواب. قالت عن نقلها إلى سجن مدريد حيث خدمت ثمانية عشر شهراً، بأنه «تحرر»، بعد الوقت الذي قضته مع الشرطة. لقد هددوها بست سنوات سجن، لذلك كان هناك شعور إضافي بالتحرر في فترة السجن القصيرة نسبياً.

عند دخولها السجن أجري لها فحص طبي من قِبل طبيب السجن. وطبقاً لأقوال تكسيكيا، نظر إلى كدماتها الكثيرة وإلى اليدين المعطوبتين وأعطى تقريراً بأنها في أحسن حال. «قال: هذا لا شيء. كدماتك اليوم حمراء، وغداً ستصبح صفراء، حتى أنه لم يتفحص يديَّ ليرى اذا كانت قد تكسَّرت أية عظام فيها.»

كان عام ١٩٨١ عندما سجنت، وكان زملاؤها في الزنزانة نساء أخريات من ETA. بالإضافة إلى مؤازرتهن وتشجيعهن لبعضهن، فانهن كن يتقاسمن كل شيء. كانت علب الطعام من البيت هامة بشكل خاص لأن وجبات الطعام في السجن كانت مقرفة. لكنها تذكرت ذلك الوقت بمرارة. قالت إن رئيسات الأقسام في السجن كنَّ يرهقن السجينات، يفتحن ويغلقن ابواب الزنزانات في منتصف الليل لإحداث الضجة، ويخضعنهن إلى السباب الشفهي.

وبالرغم من هذه المعاملة، فلم تكن تكسيكيا منهارة: «لقد اقنعتني خبرتي في السجن ان النضال المسلح كان الطريقة الوحيدة كي نجبر هؤلاء الناس على التغيير. وعندما خرجت أردت أن أتابع مع الفدائيين بحماس، لكن وجهي كان معروفاً من قبل السلطات وكان من السهل جداً تتبع تحركاتي. كان بعض السجناء السابقين يتلقون

مكالمات هاتفية في منتصف الليل من الشرطة ويلاحقون في كل مكان. ولأسباب تتعلق بالأمن، لم استطع الانضمام إلى وحدة أخرى من وحدات ETA.

«وعندما خرجت أقامت الحركة حفلة احتفالية كبرى من أجلي. وفي غضون شهرين بدأت أعمل مع مجموعة العفو.» ومن خلال العمل مع هذه المجموعة منذ اربع سنوات كانت تكسيكيا قد قررت للمرة الأولى الانضمام إلى ETA. لقد كان طريقاً إلى العنف معروفاً إلى حد ما بين النساء اللواتي قابلتهن في البدء دعم السجناء، ثم الإدراك أن الطريقة الوحيدة لإيقاف الظلم هو الرد الشخصي، ربما كان ذلك انطلاقاً من شعور باليأس لأن السجناء كانوا لا يزالون يتلقون سوء المعاملة. وبدا أن النساء يتعاطفن مع معاناة السجناء اكثر من الرجال، وعندما كنَّ يبدأن بالانتقال من التأييد إلى العمل الفدائي، كنَّ يحملنَ شعورهن الأعمق بالالتزام معهن إلى المعركة.

«كنت على اتصال مستمر مع الرجال والنساء الذين قد عُذِّبوا والذين كانوا يخدمون فترات سجن طويلة. كنت أعمل بالنيابة عنهم، وأدركت انني يجب أن أقاتل ايضاً. لم يكن قراراً فجائياً. كان نتيجة طبيعية بالنسبة لي بعد أن أصبحت اكثر دراية في السياسة واكثر إحساساً بأن عليَّ أن أفعل شيئاً كي أقاوم.

«ومنذ أطول مدة أستطيع تذكرها شعرت بالغضب لكبت شعب الباسك. فأنا من ضاحية عمالية في بلباو، حيث يتكلم الناس لغة الباسك في الشارع. أما في البيت ـ بالرغم من أن والديَّ كانا من الباسك ـ فإنهما لم يكونا يعرفان هذه اللغة لأن فرانكو كان قد حرَّمها عندما كانا طفلين. لقد كان يبدو لي من الخطأ ألا يعرفا لغتهما. كان جدي قد حارب مع الجانب الجمهوري اثناء الحرب الأهلية، ولا يزال والداي خائفين. وفي الشارع في الخارج، تعلمت أن أتكلم لغة الباسك وصرت على دراية بنضال الباسك من أجل وطن.

«ومنذ سن مبكرة كنت أغضب للظلم الذي يقع علينا من قبل فرانكو. وفي المدرسة كان المدرِّسون فاشيست. كانوا جميعاً من جماعة: «يحيا فرانكو». كانت لغة الباسك ممنوعة. كانوا يرونها شيئاً رجعياً. فإذا تلكمتِها فإنك ستشعرين شعوراً سيئاً، كما لو أنه لم يكن للباسك أي تراث ثقافي.

«كان لأمي طفلان فقط: أنا وأختي، التي كانت تكبرني بسبعة أعوام. كانت في مأزق: كانت من جهة تريدنا أن نكون جيدتين في المدرسة وأن نذهب للجامعة، ونحصل على وظيفة جيدة ونكون امرأتين مستقلتين. ومن جهة أخرى كانت تخاف علينا، وكانت وقائية جداً. وعندما كبرت وبدأت أبحث عن هويتي شعرت أنها متداخلة جداً مع حركة الباسك. أردت أن أكون امرأة من الباسك.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ عندما كانت تكسيكيا في الخامسة عشرة من عمرها، مات فرانكو. وفي ذلك الوقت كانت قد انضمت إلى حركة شباب الباسك الوطني، وكانت تحضر اجتماعات ونشاطات ثقافية باسكية نظمتها مجموعة من كهنة الجناح الأيسر في الباسك في حيّها.

«أتذكر شعور الابتهاج عندما توفي فرانكو. ظن الجميع أن الأمور ستتغيّر. لا، ليس بين ليلة وضحاها، ولن تصبح الأمور جميعها رائعة. لكننا اعتقدنا أن الأمور ستتحسن. لكن أضحى واضحاً بالتدريج أن اسبانيا عموماً كانت لا تزال في قبضة حكومة قوية جداً. ولم تتحقق أحلامنا في تقرير المصير وكان لا يزال هناك ظلم كبير.

«تركت المدرسة وذهبت إلى دار المعلمين، لكنني في الوقت نفسه انضممت إلى حركة العفو. كنت في الحادية والعشرين عندما انضممت إلى ETA».

في عام ١٩٨٨ أصبحت تكسيكيا من أوائل الاعضاء في إجيزان، وتوجّه الآن روح القتال الأكيدة عندها إلى الدعاية من أجل شروط أفضل لنساء الباسك في كلا البيت والمجتمع. وأكّدت أن العمل كان يتطلّب البراعة، ومن المفترض أن لديها وظيفة مترجمة إلى لغة الباسك ذات دوام كامل لكن ذلك كان مُرضياً. لا، ولكنها اندفعت فجأة والشرارة في عينيها. كانت مرضية لكونها امرأة من ETA تحمل بندقية.

تحسَّرت على ما كان يمكن أن يحدث: «إذا عملتِ كما أفعل الآن، يوماً بيوم، فإنك تضعين كثيراً من الجهد في عَملك وتحصلين على نتائج منظورة ضئيلة أحياناً.

«أظن أنك بالسلاح تستطيعين أن تذهبي مباشرة وتحصلي على النتائج بسرعة كبيرة. إن ما يقوله الكتّاب الثوريون صحيح. فالنضال اليومي هو الأصعب، والعنف بالتأكيد ضروري لنضالنا.»

وشرحت وجهة نظرها: في ١٩٨١ اختطفت ETA المهندس الأول لمحطة طاقة نووية كانت قيد الانشاء في ليمونيز قرب بلباو. وطلبت المنظمة مقابل حياة الرجل وجوب إزالة محطة الطاقة التي قاربت على الانتهاء في فترة اسبوع من الزمن. رفضت الشركة البانية التباحث، وبعد أسبوع وجد الرجل ميتاً. كما أن ETA نسفت المحطة وقتلت اثنين من الموظفين. وبعد ذلك أوقف العمل في الموقع.

وتحمَّست تكسيكيا الصغيرة: «كان ذلك نصراً لـETA. كان الناس المحليون قد احتجوا لسنوات بشأن المحطة النووية وقاموا بمظاهرات وأرسلوا العرائض لكن تمَّ تجاهل كل ذلك واستمرت شركة البناء في العمل. وبعد أن عملت ETA كرأس حربة

تمَّ إنجاز ما كان يريده الجميع. وأظهر ذلك أن العنف كان الشيء الوحيد الذي تفهمه السلطات.

«وفي تلك الحالة عملت ETA والناس معاً. لم تكن ETA لتقوم بالقتل دون دعم الشعب، ولم يكن الشعب لينال ما يريد لولا ETA.»

لم يظهر من كلماتها أي تأنيب ضمير من أجل المهندس الميت، وهو أب لخمسة أطفال، وفي التاسعة والثلاثين من عمره، كان شخصاً متواضعاً ومحبوباً في مجتمعه المحلي. كما أنها لم تلمِّح إلى المظاهرة التي قام بها حوالي عشرة آلاف نسمة عبر بلباو، للمطالبة بإطلاق سراح الأسير.

وقد أدّى القتل، في الواقع، إلى انتقادات واسعة داخل ETA وسبَّب قرفاً كبيراً في كل منطقة الباسك واسبانيا.

وبعد أن أعطت مثالاً عن نفسها، انتقلت تكسيكيا إلى الإنكار بأن النساء ـ بكل معنى الكلمة ـ أكثر قسوة من الرجال.

«أظن أن هذا أحد آراء الشرطة لأنهم يظنون أن النساء هن لا بد من يعتنين بالآخرين لا من يحاربنهم. إن النسوة اللواتي أعرفهن، عندما ينخرطن، يكنَّ مقاتلات مصممات جداً، كن يشعرن أنهن يقمن بما هو صحيح، وأنهن يتابعن العمل حتى النهاية دون تردد. لكنني لا أستطيع القول ما إذا كنَّ أكثر انخراطاً من الرجال.»

«إن الناحية الوحيدة التي أظن فيها أن النساء أقوى من الرجال هي أنهن معتادات على الألم اكثر من الرجال. وبسبب ذلك، ـ ربما ـ يعطي الرجال تحت التعذيب معلومات أكثر مما تعطي النساء. كانت هذه الملاحظة قد ظهرت في عدة محاورات مع نسوة من مجموعات مختلفة، ولأننا نساء فإننا نكون بحال أفضل من الرجال عند المعاناة، علينا أن نتحمل ذلك في حياتنا اليومية، لذلك فنحن أقوى من الرجال.»

غادرنا المكتب الكئيب الذي كان مقر اجيزان، وذهبنا إلى بار في الحي القديم، وهنا أيضاً وجدنا صورة «مايتي» (ومعناها الحب بلغة الباسك) فوق الزجاجات، وأخبرتني تكسيكيا قصة موتها على أيدي منظمة GAL. وفي الواقع علقت بقولها: «اننا نعلم أن أية واحدة منا يمكن أن تقتل في أية لحظة، وقد لا يعثر على أجسامنا ابداً. آه ان والديَّ قلقان بشأني. إن قصة تعذيبي كانت صعبة جداً عليهما. فقد ذكَّرتهما بالحرب الأهلية. في البدء ـ كما تعلمين ـ لم يصدقا أنني كنت منخرطة في ETA. كانا متأكدين أن في الأمر خطأ ما. لكن الشيء الأهم هو تصميمهما على حمايتي. كان ذلك شاغلهما الأول.»

إنها لا ترى والدها كثيراً الآن ـ أضافت ـ لكنه عندما يراها يشتري لها وجبة

طعام ويعطيها بعض المال. وقد تساءلت بصوت مرتفع لماذا اختارت وحدها من بين كل الجيل الحالي من عائلتها، النضال المسلح؟ «انه غريب أنني الوحيدة». قالت ساخرة: «لقد تزوجت أختي واستقرت ولم يعد لها أية علاقة بالحركة. أما أنا فإنني استمر في تأجيل الإنجاب، اظن أنني لا أزال شابة واستطيع الانتظار لمدة أطول. فإنجاب الأطفال سيغيّر اتجاه حياتي.

ومن الغريب أنني وحدي التي أخذت دور المقاتلة من جدي.»

* * *



كيم هيون هوي

(كل ما كان عليّ أن أفعل هو القاء القنبلة)

كان الوقت منتصف الليل، وكان معظم ركاب طائرة الخطوط الجوية الكورية للرحلة ٨٥٨ نائمين في رحلة الساعات الثلاث بين بغداد وأبو ظبي. راكبان اثنان فقط لم يستطيعا النوم، بالرغم من تظاهرهما بفعل ذلك. أحدهما امرأة فائقة الجمال في العشرينات من عمرها يابانية بحسب جواز سفرها. والآخر رجل في السبعين، كان يبدو أنه أبوها. كان الاثنان قد أغمضا أعينهما، وكانا يحاولان التنفس ببطء وعمق، لكن الأمر كان يحتاج إلى كل قدر من تدريبهما وطاقتهما - مهما كان ضئيلاً - للاستمرار في هذا المظهر.

وفوق مقعديهما مباشرة في المقصورة العلوية كانت حقيبة من البلاستيك. كان فيها «راديو باناسونيك» حزمت معه قنبلة بوزن ٣٥٠ غراماً وزجاجة تحوي ما يشبه الويسكي، لكنه في الواقع كان متفجرًا سائلاً. كان من المفترض أن تنفجر القنبلة المزروعة في الراديو بعد تسع ساعات من الزمن، لكن الرجل والامرأة لم يكونا متأكدين، بالرغم من كل الاستعدادات الدقيقة، من دقة كفاءة آلية التوقيت. لم يتكلما إلى بعضهما ولا حتى إلى أي شخص آخر. كانا في حالتهما العصبية هذه يخشيان اقتراف أي خطأ في الكلام يؤدي إلى الكشف عن جنسيتيهما الحقيقيتين.

كانا عميلين من كوريا الشمالية يقومان بما يعتقدانه مهمة مقدسة. كانت المرأة قد تدربت من أجل هذه اللحظات مدة سبع سنوات. حاولت أن تمنع الأصوات التي حولها: حديث رجلين كوريين شماليين جالسين وراءها، ومحاولة أحد الركاب وهي امرأة فرنسية جالسة في مقعد النافذة التي بجانبها أن تبدأ حديثاً. لكنها لم تلاحظ إن كان يوجد على متن الطائرة أطفال، لكن الأمر لم يكن ليختلف حتى لو كان على متنها

فريق مدرسي كامل. فجميع من كانوا قد حجزوا أماكن على الرحلة الأخيرة إلى سيؤول سيكونون ضحايا. لم يكن في قلب هذه المرأة مكان للشفقة والرحمة، كما كانت تعلم أن حياتها قد تضيع. فقد أخبرها مكتب ارشادها أنها ستبقى على الطائرة إذا كان ضرورياً. غير وارد إطلاقاً أن يلقى القبض عليها وأن يجري استجوابها: لقد كانت كبسولة من مادة السياميد مخبوءة في فلتر سيجارة مارلبورو في حقيبتها تضمن ذلك الأمر.

لم يحدث أي خطأ. هبطت الطائرة في أبو ظبي عند الساعة الثانية وأربع وأربعين دقيقة، واستعد خمسة عشر راكباً للنزول وأخذت المرأة اليابانية ووالدها حقيبتي الاستعمال اليدويتين من المقصورة العلوية، وغادرا الطائرة بهدوء. لم يلحظ أحد أنهما تركا حقيبتيهما التي لا يفتحها رجال الجمارك وراءهما.

مكثت طائرة الخطوط الجوية الكورية للرحلة ٨٥٨ على مهبط المطار مدة تقل عن الساعة للتزود بالوقود، وليستقلها بعض الركاب الاضافيين. وغادرت لتكمل القسم التالي من رحلتها إلى بانكوك، وكان عليها أن تهبط في الوقت المحدد في سيؤول عاصمة كوريا الجنوبية موطن معظم من كانوا على متنها. وبعد خمس ساعات أي في الساعة الثانية وخمس دقائق بتوقيت كوريا انفجرت الطائرة فوق مياه بحر انداماان، ولم ينجُ من ركابها أحد.

كان العميلان في ذلك الوقت في غرفتهما في فندق ريجنسي انتركونتيننتال في البحرين، البلد الذي طارا إليه بعد مغادرتهما الطائرة.

نجمة سينمائية بعمر الزهور تتحول إلى فدائية. فاتنة غسل دماغها كانت ضحية لنظام حكم أورويليا، أميرة هشة محبوبة من بعيد، دمية قاتلة من الزجاج الصيني. هذه الصفات جميعها وأكثر منها، تليق بالفتاة كيم هيون هوي. الشرق الأقصى مفتون بها، لكن كيف يمكن لامرأة جميلة لهذه الدرجة، حساسة لهذه الدرجة أن تقتل بهذه القسوة؟ لقد أجابت كيم نفسها عن هذا السؤال، لأنها اعتقلت وفشلت في مضغ كبسولة السياميد جيداً.

ان وصفها لتورطها في ما هو اكثر أعمال العنف ارهاباً والذي تحدثنا عنه في هذا الكتاب. يجعل من الآنسة كيم - كما كان يسمّيها سجّانوها - حالة فريدة من نوعها. لقد كانوا يسيطرون عليها طيلة حياتها، ولم يكن فيها ذرة من الثورة. بل الواقع على عكس ذلك: كانت اكثر النسوة اعتدالاً. لم يكن لها اهتمام بالمساواة بين المرأة والرجل، ولم يكن يدفعها شعور بالظلم، ولم تكن عندها الرغبة في قلب نظام المجتمع

الذي تعيش فيه. لقد كانت ببساطة تطيع الأوامر عندما قامت مع شريكها العميل بزرع القنبلة على متن الطائرة. ولم يكن عند الآنسة كيم - بخلاف غيرها من النسوة اللواتي أجريت معهن لقاءات - أي تردد ولم يظهر عليها أي اضطراب بسبب سلوكها القاسي. كانت كما لو أنها قائدة قاذفة قنابل. وعندما أعطيت لها الأوامر طبقت بالتأكيد. لكن لم يكن ذلك إلا للأهمية الرائعة للمهمة التي اختيرت من أجلها.

من الصعب أن نعزو كثيراً من العواطف الانسانية إلى الآنسة كيم، لأنها في الواقع كانت تشبه إنساناً آلياً. كانت الصفة التي بدت تستنفد حياتها هي الطموح. فقد كانت طفلة طموحاً ثم عميلة طموحاً. وقد عبرت عن المرح لأنها كانت عميلاً صغيراً نسبياً عندما اختاروها للمهمة، بينما كان الكثيرون من زملائها الأكبر سناً لا يزالون ينتظرون الدخول في دور المقاتل. كانت تبغي الكمال دوماً، وتجتهد من أجله. وكم كان غضبها من نفسها شديداً عندما أفسدت على نفسها محاولة الانتحار.

كان تبرير عملها هو أنه أجريت لها عملية غسيل دماغ مما يؤدي طبعاً بنا إلى أن نتذكر الثورية الأخرى التي كان قد غسل دماغها أيضاً وهي باتي هيرست. لكن الآنسة هيرست، لم تقتل أحداً، والأكثر من ذلك، اذا كان أحدنا يصدق حكايتها، فانها لم تختر حقاً الحياة الثورية التي طلبها خاطفوها. فقد عملت كثورية لانقاذ نفسها من الموت، لكن من ناحية أخرى كانت الآنسة كيم ملتزمة بالكامل مع قضية بلادها، وكانت مستعدة لقتل نفسها لانقاذ الأسرار التي اؤتمنت عليها.

وبعد أن رُبطت وسُدَّ فوها، سُلِّمت إلى كوريا الجنوبية البلد الذي كانت تخشاه أقصى ما تخشى، حيث كان أقارب ضحاياها يصرخون مطالبين بدمها. وذهل فريق المستجوبين الذين رافقوها من البحرين عند رؤية هذه الارهابية للمرة الأولى وقالوا أنها «نمر بلا أسنان». كانت كيم ترتجف وتبكي لقناعتها أنها ستُعذب بشكل مخيف قبل أن تواجه مصيرها المحتوم. لكن كان لوكالة الاستخبارات في كوريا الجنوبية خطط مختلفة. كانوا يريدون اعترافاً كاملاً، ويريدونها حيَّةً ومتماسكة كي تكون دليلاً للعالم أجمع على أعمال كوريا الشمالية الشريرة.

لزم ثمانية أيام كي تنهار كيم. تلك الأيام التي تمسكت فيها بكثير من الحجج ورفضت أن تأكل. كانت مرة فتاة يابانية كان قد تبناها شخص مسن وأخذها معه في عطلة. ومرة كانت صينية وكانت تحفظ الشعر الصيني. وفي يوم ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٧ في حوالي الساعة الخامسة من بعد الظهر وضعت كيم فجأة يدها على ذراع احدى النساء المحققات وهمست لها باللغة الكورية «سامحيني - انني آسفة».

وُلدت كيم هيون هوي في بيونغ يانغ، عاصمة كوريا الشمالية عام ١٩٦٢، وهي الابنة الكبرى لدبلوماسي. وعندما كانت في السادسة، أدى بها جمالها وخلفيتها العائلية لأن تُنتخب للعمل في أفلام دعاية، وأُخذت من بين والديها لمدة سنة. وفي سن الثامنة عشرة عندما كانت طالبة في الجامعة تدرس اللغة اليابانية، اختيرت ثانية – لكن هذه المرة كي تصبح جاسوسة. وبعد سبع سنوات من التدريب طُلب إلى كيم أن تفجر الطائرة الكورية الجنوبية، وكان الهدف من ذلك تخويف البلدان !الأخرى من أرسال الرياضيين إلى الألعاب الأولمبية التي كانت ستعقد في سيوول من السنة التالية. فأطاعت دون اعتراض.

وفي عام ١٩٨٨ قُدِّمت كيم للعدالة، لكن الألعاب الأولمبية استمرت، وراقبتها بنفسها على شاشة التلفاز الموجود في غرفتها في أحد المنازل الحكومية الآمنة وبكت لفعلتها ولعدم جدواها. ولقد عبرت تكراراً عن رغبتها في أنها يجب أن تقتل مئة مرة من أجل جريمتها. وفي عام ١٩٨٩ بدا أن رغبتها ستنفذ. وقد حكم عليها بالموت. لكن بعد سنة منحتها الحكومة عفواً خاصاً لكونها قد تعَّرضت لغسيل دماغ، ولم تكن مسؤولة عن أعمالها.

أصبحت كيم بعد ذلك حرة بالمعنى القانوني في البلد الذي كان فيه أقارب الضحايا يطالبون بموتها، لكن الحرية لم تؤثر كثيراً على ظروفها.

وهي اليوم تعيش في منزل آمن آخر يحيط بها حراس بالإضافة إلى محققين دائمين من وكالة تخطيط الأمن القومي وهي الممثل الكوري لوكالة الاستخبارات المركزية الاميركية. وهي على قائمة الأموات الآن لكوريا الشمالية على أنها عميل كبير ارتدَّ فأصبح خائناً. أفضل أصدقائها الآن هم مستجوبوها. وهي تدعو كلّاً من النسوة الأربعة بينهم «أوني» أي الأخت الكبرى. واحدة أو اثنتان من أخواتها الكبريات وهما ممن اخترن لجمالهن بحيث تصبح صفات كيم الخاصة المميزة شاحبة بالمقارنة ـ ترافقان كيم دائماً عندما تذهب للتسوق. وقد أخرج فيلم عنها في كوريا الجنوبية يدعى «الارهابية العذراء»، لكنها لم تره أبداً مفضلةً عليه «صوت الموسيقا» أو «بن هور».

لقد ظهرت مرات عدة على شاشة التلفاز: تبكي ورأسها مطاطىء بينما كانت تدلي باعترافاتها. وفي المحكمة، حيث رماها أقارب الضحايا بأحذيتهم، وفي الكنيسة بعد العفو عنها، وفي أحد الطقوس الدينية همست أنها أصبحت مسيحية. وبحسب أقوال الجرائد الكورية كان كل ظهور لها على الشاشة يسجل رقماً قياسياً من المشاهدين: رجال يتحدثون بحماس عن جمال كيم الحساس؛ كما تلقت مئات من

عروض الزواج من رجال كوريين ويابانيين. وحتى رئيس المحققين - وهو رجل اشيب في الاربعينات من العمر - يبدو أنه وقع تحت تأثيرها: فهو يجلب لها الهدايا ويعترف أنه يجب أن يكون ودوداً معها: لكن وضعه المهني يمنع ذلك.

هناك بالتأكيد سحر خاص يحيط بأسيرته. ربما كانت المثال الأعلى للفتنة التي تحملها النساء للرجال. لقد أصبحت رمز الجنس للرجال في الشرق الأقصى. ربما يشعرون أن بامكانهم ترويضها أو اعادة تثقيفها. انها تمثل تحدياً. ويمكنهم أن يتأكدوا أن الآنسة كيم - بالرغم من شهرتها بالآنسة القاتلة - لن تقتلهم لأنها قد تنكرت لماضيها. ولن تكون في الواقع تهديداً. فقد تكون ممتنَّة بشكل دائم: لعبة صغيرة ضُلِّلت، وهي بحاجة إلى الحماية.

وطبعاً تملك الأنسة كيم الجمال في صالحها، وأن المرء يشك في انها ستكون موضوع مثل هذا الاعجاب الكبير لو لم يكن ذلك هو السبب. ان جمالها يطرح مشاكل أمام الخبراء الذين يعتقدون أن النساء اللواتي يتحولن إلى العنف يكنَّ عادة قبيحات وأن الأمل الوحيد في أن يجذبن انتباه الرجال هو التهديد. والآنسة كيم تقدِّر جمالها وتقدِّر إلى درجة مساوية أنه قد جلب لها الكثير من الاهتمام في الماضي.

ولكي تفهم كيم ينبغي أن تعرف شيئاً عن البلاد التي ولدت فيها. جاء قائدها كيم ايل سونغ إلى السلطة في عام ١٩٤٨ وفرض عليها حكماً شيوعياً استبدادياً منذ ذلك الوقت. وفي عام ١٩٥٠ شنَّ الهجوم على الجنوب. ووقِّعَت الهدنة التي تنهي حالة الحرب الكورية في عام ١٩٥٣ لكن العداء الفظيع لا يزال موجوداً بين الكوريتين. وكل جانب يرتاب في الآخر كثيراً، ولا يزال كيم ايل سونغ مصمماً على «تحرير» الجنوب وتحويله إلى الشيوعية. يتعلم الكوريون الشماليون أن يعتبروا الجنوبيين دمى للرأسمالية الاميركية وأن الاميركيين أنفسهم ليسوا شيئاً سوى الشيطان مجسداً. لقد أعاد كيم ايل سونغ كتابة التاريخ، بما في ذلك مولده نفسه، انه لم يولد من امرأة لكنه خُلق كنجمة تجسدت فيما بعد بصفة رجل. وقد حدث الشيء نفسه لابنه. يخاف الكوريون الشماليون عائلة كيم ويعبدونها كالآلهة. ان السباب على الرئيس أو على ابنه يؤدي إلى نوع خاص من الإعدام: الضرب على الرأس بقضيب من الحديد.

والأيتام هم الطبقة ذات الامتياز الأكبر لأنه لا يمكن افسادهم بتأثير والديهم. وهم يتربون في مدارس الايتام الخاصة بابناء الثوريين، وتقدم لهم الهدايا من قبل الرئيس. وعلى الطرف الآخر من الطيف الاجتماعي يوجد اعداء الرئيس: وهم الذين تجرؤوا على أن يخطوا خارج خط حزب العمال، وتوجد من أجلهم معسكرات الاعتقال أو فرقة الاعدام بالرصاص.

انه مجتمع شوَّهه جنون الارتياب. فالسكان يقطنون في وحدات سكنية صغيرة، وفي كل مجموعة مكونة من خمس عائلات لا بد أن توجد عائلة من المخبرين. ويشجع الأطفال على الاستعاضة عن الولاء العائلي بالولاء للدولة بما في ذلك الوشاية بوالديهم. يبدأ تشريب العقيدة في وقت مبكر. وكل النسوة الكوريات الشماليات يجب أن يعملن، وعندما يبلغ أطفالهن سن الشهرين يرسلون إلى حضانة أطفال حيث يتعلمون أول كلمات ينطقونها (كما علمهم كيم): «شكراً لك أيها القائد العظيم - كيم ايل سونغ». وفي المدرسة تطبع الكتب في أذهانهم الكراهية والعنف العميقين نحو الاميركيين. وهذا مثال من مسائل الرياضيات: «قتل جيش الشعب الكوري ابني حرام اميركيين اثنين وأسر أربعة. فكم أصبح عدد أولاد الحرام الأميركيين هؤلاء؟» وفي كل بيت توجد صورة القائد العظيم ومعها قطعة قماش خاصة لا تستعمل إلا لإزالة الغبار عنها. وينحني جميع أفراد العائلة للصورة كل صباح.

هذا هو النظام الذي ترعرعت فيه كيم هيون هوي. في البدء تدربت كي تصبح جاسوسة بغرض التسلل إلى المجتمع الياباني وجمع المعلومات الاستخباراتية. أرسلت في مهمتها الأولى في عام ١٩٨٤ يرافقها عميل كوري شمالي آخر في رحلة إلى اوروبا كي يُدرِّبا نفسيهما على التأقلم مع المجتمعات الرأسمالية. وقد أجاد هذان الاثنان دورهما كسائحين يابانيين، الفتاة ذات الاثنين وعشرين عاماً تمثل دور ابنة الرجل ذي السبعة والستين عاماً. وعندما دبَّر ابن الرئيس مؤامرة لمنع الألعاب الأولمبية التي ستعقد في سيوول عام ١٩٨٨ قدَّم قسم البحث في الحزب اسم الآنسة كيم و «والدها» كمرشحين بارزين للمهمة.

«انني لم أحلم في عمري أن يطلب مني أحد أن أقوم بالقتل. بقيت سبع سنوات وثمانية أشهر أتدرب كي أصبح عميلة أجنبية تعمل في اليابان. وفي يوم ٧ تشرين أول (اوكتوبر) ١٩٨٧ أخبرني نائب مدير الحزب بالمهمة. وعندما صدر الأمر أنني مع كيم سونغ ايل (العميل ابن السبعين) سننسف الطائرة الكورية الجنوبية سيطرت عليّ مشاعر الشكر للحزب. لقد كانت مهمة هائلة وكنت فخورة جداً جداً بالثقة التي منحت لي. لقد كانت علامة شرف منحها الحزب لي. ومن جهة أخرى أخافتني فكرة تنفيذ الأوامر. شعرت أنها قد تكون أكبر مني وتساءلت هل بامكاني القيام بها؟ هل سأكون قادرة على تنفيذها بشكل جيد. ولكن كان الأمر . . . أعطيت الأوامر . . . وجاءت من كيم جونغ ايل . . . ابن الرئيس بالذات.

«لقد طبعوا في ذهني أهمية هذا العمل وأنه يجب ألا نفشل في أية حال من

الأحوال. واذا كان لا بدَّ من بقائنا على الطائرة لتفجير القنبلة، علينا اذن البقاء. علينا أن نضحي بأرواحنا على مذبح اعادة توحيد أرض الأجداد. كنت مستعدة للموت. رأيت في نفسي قائد قاذفة قنابل في مهمة قتالية في منطقة الأعداء. فاذا أُعطيت الأوامر لقائد القاذفة بإلقاء القنابل فوق منطقة معينة عندئذ يلقي قنابله تلقائياً، ولا يكون لديه مهلة للتفكير بحياة الناس الذين ستنسفهم القنبلة. تلك هي الطريقة التي كنت أنظر فيها إلى الأمر. **كل ما كان عليّ فعله هو القاء القنبلة.**

يصعب عليك من النظرة الأولى إلى كيم، وهي الفتاة الجميلة الأنيقة التي تضحك بحياء وتنحني بخجل عندما تُقدَّم إلى شخص ما، أن تتصورها قائدة لقاذفة القنابل، قاسية القلب. وقد جاء على لسان المحقق الرئيسي الذي جرت مقابلته على انفراد: «انها مطيعة جداً، محافظة متواضعة أمامي، وهي مذعنة للرجال وبالرغم من أنها ليست جذابة جداً، فان لها سلوكاً مقبولاً مع الرجال».

كانت ترتدي ثياباً محتشمة: تنورة سوداء تصل إلى الركبتين ومعطفاً ذا كمَّين طويلين، وعنق عالٍ مصنوع من الكتان وله تطريزات سوداء وزهرية اللون من الأمام. كان شعرها طويلاً مضموماً من الخلف بواسطة حبكة تزيينية، كما كانت مساحيق زينتها قليلة إلا أنها وضعت بعناية.

جرت المقابلة في فيلا تقع في الأراضي التابعة لأحد الفنادق المشرفة على نهر هان في سيوول، وكانت قد استؤجرت ليوم واحد. داخل الغرفة الأمامية مباشرة كانت غرفة فيها حراس. تقدمت الآنسة كيم في الردهة الرئيسية كي تحيي زوارها. انحنت وانحنى رداً عليها المحققون وممثلو فرقة مكافحة الارهاب، والمترجمون وكذلك رجل دلت بطاقته أنه كان «عميلاً خاصاً». كانوا جميعاً هناك كشهود وظلَّ الجميع يكتبون بحماس لمدة خمس ساعات. وقدمت احدى «الأخوات الكبيرات» مشروباً، بينما كانت الآنسة كيم تنتظر بهدوء بدء المقابلة. وبالرغم من أن الحرارة كانت فوق الثلاثين مئوية ودرجة الرطوبة حوالي التسعين بالمئة، فقد كانت الآنسة كيم هي الوحيدة من بين الموجودين في الغرفة التي لم يظهر عليها انها تضايقت من الحرارة، فقد بقيت منتصبة وهادئة أثناء ذلك.

ان تأثير القاء القنبلة - كما أوضحت - سيثبت ان اختيار سيوول مسرحاً للألعاب الأولمبية كان تحكماً واضحاً في أمور كوريا من قبل القوة الامبريالية، ومحاولة لتكريس تقسيم شبه الجزيرة الكورية. وإيقاف الألعاب الأولمبية من خلال الخوف من الإرهاب يعني توجيه ضربة ذات أهمية كبرى تهدف إلى إعادة التوحيد.

ان إمكانية تفجير مئة وخمسة عشر شخصاً لم يكن ليؤثر على الآنسة كيم في تلك اللحظة. «طبعاً لم أفكر وقتها بالناس الذين سيقتلون نتيجة لأعمالي. لكن واجبي الأول والأكثر أهمية كان تنفيذ المهمة، وكنت أظن أنه في سبيل وطننا لم يكن هناك بد من التضحية بهؤلاء الناس».

«ركبنا الطائرة في بغداد، ووضع المستر كيم القنبلتين، واحدة في الراديو، وواحدة في زجاجة ويسكي، في المقصورة الصغيرة فوق رأسينا. جلست في المقعد الأوسط. وجلس المستر كيم بجانبي من جهة الممر. كنا على درجة كبيرة من العصبية. لم نكن نعرف ان كانت القنبلتان ستنفجران في الوقت المعين، أي بعد تسع ساعات. أقلعت الطائرة عند الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين ليلاً، وكان معظم الركاب نائمين. وقد قررنا – المستر كيم العميل زميلي، وأنا – أنه من المستحسن أن نتظاهر بالنوم لأننا قد نقترف خطأً ما في حديثنا ونكشف عن أنفسنا ككوريين شماليين. لم يكن لديَّ الوقت الكافي، كما لم أكن في حالة عقلية تخولني بالتفكير في الناس الآخرين. كنت تحت تأثير ضغط تنفيذ المهمة والقيام بها بشكل جيد، ثم الهروب بحيث لم تكن لديَّ أية مشاعر نحو الناس الآخرين» . ولم تحاول الاعتذار عن نقص العواطف عندها.

«هناك قليل من الأشياء التي لم استطع تذكرها حتى نزلنا من الطائرة في أبو ظبي. كانت امرأة فرنسية تجلس على مقعد النافذة بجواري. وبعد أن تناولنا المشروب عدة مرات، وبعد أن قدم لنا العشاء، نهضت لأذهب إلى المرحاض وكذلك فعلت هي. بدأت أسير نحو مرحاض الدرجة الأولى، لكن المرأة أخبرتني انه يجب أن أذهب إلى المرحاض في مؤخرة الطائرة لذلك ذهبنا معاً. لم أتحدث اليها. والشيء الوحيد الذي أذكره أنني سمعت شخصين من كوريا الجنوبية يتحدثان في المقاعد التي خلفنا».

وحدث بالصدفة أن المرأة الفرنسية قد نزلت في أبو ظبي أيضاً، لأنها لم تكن على قائمة الضحايا. كانت المضيفات وزوجة القنصل الكوري في العراق. النساء الوحيدات بين الضحايا. كان معظم الباقين من شباب كوريا الجنوبية، الذين هم على علاقة بمشاريع هندسية في الشرق الأوسط. يُعتقد أن الطائرة التي كانت في طريقها إلى سيوول عن طريق بانكوك قد اختيرت عن قصد، لأنه من غير المحتمل أن يكون على متنها أجانب. ولم تكن كوريا الشمالية تريد أن تقحم نفسها إلى حد الإدانة العالمية.

وهل كان الأمر سيختلف بالنسبة للآنسة كيم لو كان في الواقع على متن الطائرة فريق مدرسي أو أي أطفال؟ لقد كانت واضحة في جوابها، «لم يكن بامكاني أن امتلك

هذا النوع من الشعور. لم يكن وجود هؤلاء ليبدل في الأمر شيئاً». هذا التفاني وهذه القسوة، اذا اقترنا بالطموح كي تصبح عميلة ممتازة، بالإضافة إلى مقدرة عقلية كبيرة، كلها صفات خلقت عند الآنسة كيم الإمكانية الرائعة أن تصبح عميلاً.

كانت الآنسة كيم طفلة جميلة ذكية. وكانت ذكرياتها الأولى هي الأوقات التي كانت تقضيها مع عائلتها في كوبا حيث كان أبوها دبلوماسياً. كانت تذكر، وهي في سن الثالثة، أباها يقف معها على شاطىء البحر ويشير إلى الولايات المتحدة محذراً اياها من الشياطين الأجانب الذين يعيشون هناك. كانت لها ذاكرة ممتازة، حتى أنها تتذكر الكلمة الإسبانية التي تعني «بوظة». لأن أمها كانت تعطيها المال كل يوم ظهراً لتركض إلى بائع المثلجات عندما يمر بجانب البيت.

«كانت عائلتنا مترابطة جداً. كنا أنا وأختي الأصغر سناً وأخي. وبسبب مركز والدي في المجتمع كنا نذهب خارج البلاد، وهذا الشيء بالنسبة لكثير من الكوريين الشماليين حلم العمر.

وعندما عدنا إلى كوريا الشمالية كان لدينا من الدمى أكثر مما لدى الأطفال الآخرين كما كان عندنا براد. كانوا يعتبروننا من أفراد الطبقة «الصميمية» وهي المجموعة التي تنال الثقة الكبرى والتي لا مجال للشك في ولائها للحزب. لكن لم تكن هناك فروق كبرى بين الأغنياء والفقراء في كوريا الشمالية. وأنني أذكر أوقاتاً لم يكن لدينا فيها في البيت ما يكفينا من الطعام: طبيخ من الأرز العادي، وكم كنا نحن الأطفال نتخاصم للحصول عليه. لكن كالكثير من الناس الآخرين كانت طفولتي - محاطة بحب والدي - أسعد أيام حياتي».

وكجميع العائلات الكورية كان على والدة كيم - معلمة المدرسة - أن تعمل كي تساعد في إعالة العائلة. وُضعت كيم في دار حضانة عندما كانت في سن الشهرين النظامي، وليس ذلك ببساطة كي تصبح أمها حرة في العودة إلى عملها، لكن لضمان تربية الطفلة من قبل الدولة قدر الإمكان. لذلك فإن الطفلة كانت تستلقي في مهدها مع العشرات من الأطفال الآخرين، وكانت تدرب على تلفظ كلماتها الأولى بالشكر لكيم ايل سونغ.

«حتى عندما كان والدانا يعطياننا هدية كنا نشكر القائد العظيم: أولاً من أجل الهدية ثم من أجل السماح لوالدينا بشرائها لنا». قالت كيم: «ومنذ سن الشهرين يُعتنى بك من قبل عدد كبير من الناس الآخرين. ومن الحضانة تذهبين إلى دار للأطفال ثم إلى المدرسة الابتدائية. أول شيء تتعلمينه هو شكر القائد العظيم ثم تُعلّمين طرقاً

أخرى في اداء التحيات أو إظهار الولاء للحزب. وحتى عندما تتناولين وجبة عليك أن تعبري عن الشكر للحزب والقائد العظيم.

«كل ما تتعلمينه في دار الحضانة هو عن كيم ايل سونغ. تُعلَّق صورة القائد العظيم على الجدار، ثم يعلمونك مثل هذه العبارات: «إنه لشيء عظيم أن نتمكن من رؤية صورة القائد العظيم كل يوم». إن جميع العبارات التي تتعلمينها في دار الحضانة تتعلق بالقائد العظيم، حتى أغاني الأطفال والحكايات الخرافية».

كانت أمها عضواً جيداً في الحزب، لكنها كانت مصممة على تكريس قدر أكبر من المعتاد من الوقت لتنشئة عائلتها. أمر الحزب الأمهات أن يقدمن كل شيء ضروري لابنائهن. عليهن ألا يقلقن كثيراً بشأن فرط الانتباه في البيت. كان النظام يريد أن ينتج ثوريين جيدين مجدين ومتفرغين وكان مصمماً على منع التدخل الأبوي. كانت ساعات العمل طويلة يعني أن معظم الأمهات لم يكن لديهن الوقت الذي يمضينه مع أطفالهن. كان الوقوف في صف طويل من أجل الحصول على الطعام يستنفد كل الوقت. ومنذ عمر المدرسة الابتدائية وما بعد كان الأطفال يصبحون أعضاء في مختلف حركات الشباب التي كان عليهم المواظبة عليها بعد المدرسة. لكن السيدة كيم - كما قالت ابنتها - كانت توفر الوقت من اليوم كي تمضي مع أولادها مدة نصف ساعة قبل تحضيرهم للحضانة وللمدرسة الحكوميتين. لقد غرست فيهم «ثقافة بيتية» وهو تعبير كوري يعني الأخلاق الحميدة واللطف تجاه الآخرين.

كانت أمور عائلتها تسير سيراً حسناً في كلا التعليم وفي الأنشطة الحزبية خارج البيت. كانوا مثار إعجاب الوحدة السكنية التي كانوا فيها. ثم جاء يوم زارت فيه وحدة سينمائية حزبية مدرسة كيم، فانتخبتها للظهور في أحد الأفلام.

في كوريا الشمالية لا يختار للعمل في التمثيل إلا الناس الأكثر صحة وجمالاً من العائلات النخبة، لذلك كان هذا الإختيار امتيازاً لوالدي كيم. كانت ابنتهما ستلعب دور فتاة صغيرة تربَّت في الفقر والبؤس في كوريا الجنوبية. وعندما تكبر تهرب إلى «جنة العمال الجميلة في كوريا الشمالية»، وكان المشهد الأخير هو بكاءها من أجل والدتها التي بقيت في الجنوب، وبكاءَها من أجل إعادة توحيد شبة الجزيرة الكورية.

كان لانتاج الفيلم تأثير كبير على كيم ابنة السنوات الست، فقد ابعدت عن مدرستها وعائلتها لمدة سنة كي تصور المشاهد في أماكن ريفية. وعندما عادت اعترفت أنها قد فسدت وأصابها الغرور بسبب المديح الذي كان يكال لها من قبل منتجي الفيلم ومعلميها وأصدقائها في المدرسة. لكنها تلقت سلسلة من دروس سريعة في ثقافتها

البيتية من أمها التي كانت تقول لها مراراً وتكراراً أنها «فتاة صغيرة عادية مثلها مثل أي شخص آخر». وكان يبدو أن الآنسة كيم قد استوعبت الدروس جيداً. اذ لم تكن فيها أية بذور للتمرد، كانت الابنة المثالية.

«كان شرفاً كبيراً لي أنهم اختاروني لهذا الفيلم الذي كان الأول بالألوان. لقد أفسدني الدلال والاهتمام، لكن في الوقت نفسه - ولأنني البنت الكبرى في العائلة - كان عليَّ القيام بواجباتي: التنظيف والغسيل والعمل في المطبخ. كنت مطواعة في القيام بكل هذه الأعمال وأصغي إلى والدتي عندما كانت تُلحُّ على أن أكون ظريفة مع الآخرين. كانت حازمة جداً في هذه الأمور».

أخذت السيدة كيم العائلة جميعها لمشاهدة الفيلم، لكن تلاشى بعض كبرياء ابنتها عندما رأت أنها بالصدفة قد أظهرت سروالها الداخلي في أحد المشاهد.

«لقد حيرَّني ذلك وأوقعني في الحرج. لكنني أذكر المشهد الأخير. كان محزناً جداً. بكيت من أجل أمي التي كانت في كوريا الجنوبية» وتبع ذلك دور آخر في فيلم تالٍ. ثم عادت كيم إلى مدرسة هاشين الشعبية.

علموها خطة الحزب تجاه كوريا الجنوبية،والكراهية، للرأسمالية خصوصاً في الجنوب وأميركا واليابان. في الجنوبية، كان الأطفال جائعين لدرجة أنهم كانوا يحزمون علباً قديمة إلى خصورهم ويتجولون يستجدون الطعام. وفي الليل كانوا ينامون تحت الجسور ويموتون من الجوع والمرض. كان المجتمع الكوري الجنوبي مشبعاً بالتأثير الأميركي والغربي بحيث أن التراث الثقافي قد فسد وتعفن. وفي المجتمعات الرأسمالية كان الأغنياء يُبقون الفقراء - عن قصد - جائعين، كما كانوا يغزون البلدان الأخرى لدعم اقتصادهم. وكانت إحدى الأغاني التي تعلَّم في المدارس «اخرجوا من هنا أيها الأميركيون يا أولاد الحرام». وكانت أخرى تقول «اضربوا الرأسماليين الكلاب حتى الموت»

«علمونا أن ندعو الرأسماليين الأميركيين أولاد الحرام بالكلاب الأميركية ذوات الساقين». وقيل لنا أنه بمجرد التفكير بأولاد الحرام الأميركيين حتى الجبال والأنهار ترتعد وتهتز وترتجف كما أن الحيوانات تحمر خجلاً لهول الأعمال العدوانية التي يقومون بها. وحتى في دروس الرسم والتلوين كان يطلب إلينا أن نرسم جيش الشعب الكوري يطلق النار على الأميركيين أولاد الحرام أو يدهسهم بالمصفحات، والجيش يدوسهم بالأقدام».

وبالإضافة إلى هذه الدروس كان الأطفال يُشجَّعون على القيام بألعاب عنيفة. (وعندما تلعبون مع أصدقائكم ارسموا صورة أميركي ابن حرام على الأرض، وبدلاً من الرأس ارسموا جمجمة فقط. ثم اسحبوا عصا ضخمة وتناوبوا في سحق الجمجمة إظهاراً لكراهيتكم)، وعلمونا أيضاً أن نكره أولاد الحرام بحيث يكون قضاء يوم واحد مع أحدهم شيئاً لا يمكن تصوره».

بدأت كيم تصف لنا شعاراً يخبر الناس ماذا يفعلون لو وجدوا أميركياً ابن حرام يتمشى في شوارع بيونغ يانغ. وخدشت الهواء بأظافرها لكنها لم تستطع أن تعبر عن درجة العنف التي ارادت شرحها. جاء المحقق الرئيسي لمساعدتها، ذهب إلى البراد في الغرفة وسحب عنه صينية فيها مكعبات جليد. أخرج المكعبات واحداً واحداً بملقط. ضحكت كيم واضعة يدها على فمها وأوضحت «نعم، يقول الشعار دعونا نمزق كل قطعة لحم عن العظم، ونسحبها».

كانت كيم طالبة ممتازة، وكانت تطمح أن تكون الأولى في الصف، وكانت كذلك في أغلب الأحيان. انضمت إلى رابطة شباب الحزب، كما فعل كل أطفال كوريا الشمالية، وفي سن العاشرة منحت شرفاً آخر: اختاروها لتقدم باقة من الزهور إلى دبلوماسي كوري جنوبي يزور الشمال من أجل تفاهم أكبر وأعمق.

وفي هذا العمر المبكر كانت كيم وأصدقاؤها على علم تام بما يحدث للناس الذين يحيدون عن خط الحزب: هم وأقاربهم يختفون. وقد يحدث في أحد الأيام فجوات في الصف لأن الأطفال قد أبعدوا مع والديهم إلى معسكرات الاعتقال. كان الأطفال يقولون دوماً: «دعونا لا نتكلم عن ذلك». لكن عندما كانت كيم في الثالثة عشرة اختفت أعز صديقاتها.

«كانت صديقتي الحميمة منذ أيام المدرسة الإبتدائية. وتقول الإشاعات أن والدها قد تفوَّه بكلمة خاطئة، أو أن أخاها كان عميلاً كورياً جنوبياً - شيء كهذا. لذلك اختفت العائلة فجأة، وحتى الأخت المتزوجة طُلِّقت بسبب العار. سمعنا أن والديها قد وضعا أمام فرقة إطلاق النار، كما أنها مع أخوتها وأخواتها قد ارسلوا إلى مقاطعة بانغ كانغ حيث معسكر الاعتقال.

«لست أدري كيف وصلت اليَّ، لكن في أحد الأيام وصلتني رسالة من هذه الفتاة تخبرني عن الصعوبات التي واجهتها.

«كان الاختفاء يحدث في كثير من الأحيان، بحيث انك كنت تعرفين منذ صغرك

انك اذا وضعت قدمك في مكان خاطىء، سيحدث هذا لك. كنا نعيش في جو من الخوف والتهديد. ولن يكون عملاء من الأمن القومي لمراقبتك وحسب، بل في كل وحدة سكنية توجد عائلة واحدة من المخبرين مخصصة للعائلات الخمس. وعلى هذه العائلة ان تخبر كل شيء، لذلك يجب أن تراقب وتتنصت عليك في كل الأوقات، لذلك عليكِ أن تتصرفي بحذر في كل الأوقات.

«وعندما جئت إلى هنا أخبروني أن الزوجات يقلقن بشأن أزواجهن الذين يشربون، بسبب الخوف على صحتهم. لكن في كوريا الشمالية تخاف الزوجات اذا كان الزوج ثملاً أن يتفوه بشيء يخالف خط الحزب فيعرض بذلك جميع أفراد العائلة للخطر».

وفي المدرسة الثانوية يتوجب على الطلاب الكوريين أن يعطوا شهراً من العمل كل سنة للحزب، ومئة وخمسين يوماً خلال السنة بأكملها كمتطوعين لزرع الأرز وجني المحصول وأعمال البناء. ويشكل الأطفال في وحدات تسمى: أفواج شباب المعركة. وقاموا ببناء سكك الحديد. ومتحف، ومجمّع شقق، وقصر للأطفال.

وأرسلت كيم للعمل في حقول الأرز حيث أبقاها طموحها في هذه المهمة التي تقصم الظهر. «لقد كان عملاً مجهداً جداً للأطفال، وهم ينحنون بشكل دائم للأسفل، لكنني كنت مصممة على ألَّا آخذ استراحة لأبيِّن لهم أنني أفضل من الآخرين».

وعندما كانت في حوالي الخامسة عشرة عبرت عن رغبتها في أن تصبح دارسة علم أحياء - وما كان ذلك إلا لأن كيم ايل سونغ كرَّم عالمة أحياء. وبعد ذلك داعبت خيالها فكرة أن تصبح موسيقية، تتخصص في الموسيقا الكورية، لكن والديها كانا قلقين بشأن ابنتهما الجميلة الموهوبة وأراداها أن تتزوج من شخص مناسب عندما يحين الوقت. وقد شجعها والدها على دراسة اللغات وخصوصاً اليابانية على أمل أن تصبح دبلوماسية وأن يكون مركز عملها في طوكيو وتحظى هناك بزواج ناجح.

سجلت كيم في جامعة كيم ايل سونغ وتفوقت في دراسة اللغة اليابانية. وفي سنتها الثانية استدعيت إلى مكتب رئيس القسم: فنجاحها وانصرافها للحزب لفت بعض الإنتباه نحوها. كان في الغرفة بعض المسؤولين الحزبيين من مقر القيادة بالإضافة إلى ثلاث طالبات أخريات: سئل الجميع عن خلفيتهن العائلية وعن رأيهن في خدمة القائد العظيم. تذكرت كيم أن تلك كانت منافسة عامة وبعد بضعة أيام استلمت رسالة تطلب إليها الحضور إلى مقر قيادة الحزب. وعرفت أن من بين الطالبات الأربع اللواتي أجري اللقاء معهن في الأصل لم يبقَ سواها مع فتاة أصغر سناً. وتمَّ استجواب الاثنتين

من جديد، ثم اخبرتا أنه يتوجب عليهما مقابلة بعض المسؤولين المرشدين من قسم البحوث وهي المثيل الكوري الشمالي للمخابرات السرية. امتحنهما موظفو الارشاد حول فكرهما السياسي، وحول مقدرتهما على حفظ الحقائق عن ظهر قلب وعن خبرتهما في قوة الملاحظة. وامتُحنت كيم بالإضافة إلى ذلك بمقدرتها باللغة اليابانية ثم صُرفتا.

وبعد ثلاثة أيام أخرى جاء أمر بحضورها إلى مقر القيادة حيث قدمت كيم إلى مدير قسم البحوث وعدد من مسؤولي الحزب. طلبوا إليها أن تجري فحوصاً طبية كاملة وبعد ذلك أخذت لها الصور. لقد نجحت في كل الاختبارات. وبعد اسبوع وصل أحد مسؤولي الحزب إلى باب بيتها. قال أن عليها إعادة كتبها من المكتبة. ودفع أجور الجامعة غير المدفوعة. وأن تستمتع بآخر ليلة لها في البيت.

«كنت منفعلة جداً». قالت كيم. «كان أي أمر شخصي يصدر عن مقر قيادة الحزب المركزية يعتبر شرفاً كبيراً ويجب قبوله دون شرط. ولأن أبي كان دبلوماسياً فانه كان يعرف معنى مثل هذا الأمر الآتي من مثل هذا المصدر، لكنني أظنه قد شعر شعور الحزن، لكن كل ما قاله لي كان: اذهبي وأحسني». وبعد ذلك انطلقت بكل موافقة أبوية وفخر في مهمتها كعميلة.

كانت تلك آخر مرة ترى فيها كيم عائلتها حتى بعد سنتين. كما كانت آخر مرة تستطيع أن تتحدث إليهم عن حياتها. كان على روابطها العائلية أن تُقطع، وعلى تدريبها الايديولوجي أن يُوسَّع. كان الحزب مستعداً لأن يكرس الكثير من الجهد والوقت والمال كي يجعل الفتاة ابنة الثمانية عشرة سنة انساناً آلياً دقيق التناغم مطيعاً وعديم المشاعر.

أخذوها في سيارة حكومية إلى كلية كيمسونغ العسكرية السياسية حيث ستمضي سنة من التدريب الأساسي. عاشت في غرفة للطلبة مع شابة أخرى كانت أيضاً تجري تدريباً. كان من المفروض أن تكون شريكتها.

أعطيت لكل منهما بطاقة هوية جديدة؛ ومن أجل ضمان الأمان الكامل كان على كل منهما أن ترتدي نظارتين سوداوين عندما تكونان مع بعضهما. وكلما خرجتا كان عليهما أن تغطيا رأسيهما بمظلتين. كان احساس كيم بالعزلة كاملاً. ولم تثق اي من الاثنتين بالأخرى في البدء. إذ كانت تظن كل واحدة أن الأخرى مخبرة. «شعرتُ بالعزلة حتى العظم» قالت. كان أي اتصال بالعالم الخارجي ممنوعاً عليهما، وكذلك أية مناقشة لماضيهما ولعائلتيهما.

كانت الدراسة صعبة والساعات طويلة، وكانت هناك جلسات يومية موسعة في الفكر السياسي، واستعمال الأسلحة الخفيفة، والشيفرات واللغات وتعليمات عن تشغيل أجهزة الاتصال. ووجدت كيم أن عليها تعلُّم اللغة الصينية بالإضافة إلى اليابانية. وبالرغم من أن الاثنتين قد داومتا على محاضرات في الجامعة، الا أنهما لم تريا أية طالبات أخريات لأن الصفوف كانت مقسَّمة إلى حجر صغيرة محاطة بستائر. لكن أسوأ شيء بالنسبة إلى كيم كان التدريب البدني. «كما تعلمون أخذونا مباشرة من حياة الكلية الى عالم الطلاب - العملاء هذا لقد غادرت واحدتنا بيتها وهي لا تعرف متى ستراه ثانية. ثم بدأ التدريب الجسماني الصعب جداً. ولكم عانيت من الارهاق والضغط على جسمي.

«ولأول مرة في حياتي كان عليَّ أن أركض عدة أميال على امتداد واحد. كنت أشعر أحياناً انني على وشك السقوط ميتة. لكن في كل مرة أصل إلا آخر قوتي كنت أقول لنفسي يجب أن اندفع أكثر بحيث أستطيع أن أصبح ثورية قادرة. لذلك كنت أصر بأسناني وأستمر. وفي نهاية تدريبي صرت أستطيع أن أسبح لمسافة كيلومترين وأركض أربعين كيلومتراً فوق أرض وعرة ليلاً».

وبعد السنة الأولى نالت استحسان موظف الارشاد من أجل تقدمها وقال أنها كانت أفضل من شريكتها بكثير. وهكذا ارتوى تعطش الآنسة كيم للمديح. وبعد ذلك أصبحت العلاقة بين المرأتين أقوى، وكانت كيم تساعد شريكتها في الأمور الصعبة.

وبعد ذلك أُرسلتا إلى المزيد من التدريب والخبرة في سلسلة الجبال التي تغطي معظم كوريا الشمالية وتؤدي إلى الحدود مع الصين. وفي الجبال توجد عشرة مخيمات للفدائيين حيث تلقَّى عشرة آلاف متدرب أجنبي دورات في الخطف والاغتيال والكمائن والرمي وقذف القنابل وإثارة الشغب.

كانت اقامتها في السنوات الست التالية ستكون في «دار ضيافة» حكومي في الجبال قريباً من أحد هذه المخيمات. وبالرغم من قرب مئات الطلاب الفدائيين، فان هاتين الفتاتين لم تلتقيا أبداً بأحد. كان قسم البحوث قد قرر التركيز على أن تجيد كيم اليابانية، بحيث يمكن وضعها في تلك البلاد لجمع المعلومات الاستخباراتية.

وأُخذت كيم إلى بيت منفصل حيث قابلت امرأة يابانية أسمها لي ايون هاي. كانت لي في حالة تشبه الصدمة، لأنها قد اختطفت من على شاطىء في اليابان من قبل عملاء كوريين شماليين. كانت امرأة متزوجة وأماً لطفلين في الثانية والخامسة. في

البداية رفضت أن تأكل وجلست تبكي. لكنها في النهاية انهارت وقبلت كيم أول طالبة لها.

كان اليوم النموذجي للتدريب كي تصبح يابانية يبدأ في الساعة السادسة والنصف بساعة ونصف من التدريب المكثف. وكان الفطور عند الثامنة يلي ذلك صلوات لكيم ايل سونغ لمدة نصف ساعة. كانت دروس اليابانية تدوم اربع ساعات يليها الغداء ثم المزيد من اليابانية. العشاء عند السابعة ثم مشاهدة بعض الأفلام الوثائقية اليابانية وقراءة الجرائد اليابانية حتى الحادية عشرة ليلاً.

وفي كل صباح كانت كيم تستجوب عن عمل اليوم الماضي وتتلقى تعليماً عن الطعام الياباني وآداب الطعام وحياة ربات البيوت اليومية، والجغرافيا وكيفية استعمال الباصات والقطارات في اليابان. وفي أيام السبت كانت تجري اختبارات عامة لتقويم ما تعلمته في ذلك الأسبوع.

كانت الآنسة كيم في البداية باردة ولم تستظرف معلمتها اليابانية قائلة أنها «كانت تشرب كثيراً وتدخن علبة سجاير كل يوم». كان العذر عن هذا السلوك الذي لا يليق بالسيدات كما ظنت هو أن المرأة «كانت تحب طفليها كثيراً». لكن أخيراً ظهر شرخ في درع كيم العاطفي والايديولوجي:

«في البداية لم أكن متعاطفة معها، لأن اليابان قد احتلت بلادنا لمدة ستة وثلاثين عاماً واقترف اليابانيون اعمالاً عدائية رهيبة ضد شعبنا. شعرت أن اليابانيين عليهم التزامات أخلاقية لمساعدتنا في جهودنا من أجل التوحيد. لذلك فان هذه الامرأة كانت تفعل المطلوب منها لتدفع عن أخطاء الماضي التي اقترفها شعبها».

«لكن عندما تعرفت عليها أكثر - لأننا عشنا مدة سنة ونصف - بدأت أشعر بالأسى من أجلها. وفي النهاية أصبحنا صديقتين حميمتين. كان عليَّ أن أتحول إلى «فتاة يابانية» لذلك كان عليَّ تعلم عاداتهم وتقاليدهم. كانت مهمتها تعليمي بالسرعة الممكنة، لذلك كنا نتكلم اليابانية طيلة الوقت، وفي النهاية أصبحتُ في حالة مقنعة جداً».

قد يبدو خطف لي ايون هاي متكلفاً. لكن يبدو أن هناك تقارير في جرائد عن حالات مشابهة. ومن المعتقد أن هؤلاء اليابانيين المخطوفين يتمتعون بنموذج حياة ذي امتياز لأنهم يعلّمون العملاء في كوريا الشمالية لغتهم وعاداتهم. ومن المحتمل أن يسمح لهم بالعودة إلى وطنهم.

وبعد سنتين كاملتين من التدريب أخبروا كيم أنه يسمح لها بالعودة إلى بيتها لمدة ليلتين وثلاثة أيام. كانت المناسبة يوم ميلاد كيم ايل سونغ في ١٥ نيسان (ابريل). لكن هناك شروط عدة: يجب ألا تتحدث أبداً عن تدريبها، ولا تذكر اطلاقاً ماذا كانت تفعل، وعليها ألا تلتقي بأي من أصدقائها القدامى، ولا يجوز أن تخرج. ومن المدهش أن كيم خالفت أحد الشروط: دعت بعض أعز أصدقائها إلى شقة والديها: كان اجتماعاً غريباً. «كان والداي وأقاربي مسرورين جداً ومبتهجين بزيارتي لأنهم كانوا يظنون أنني لن أعود أبداً. وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون ماذا كنت أفعل، فقد كانوا يعلمون أن لذلك علاقة بالحزب المركزي، كما ظنوا أن ذلك قد يكون ذا علاقة بتوحيد البلاد. كان بامكانهم أن يظنوا أكثر من ذلك لكن الجميع فهموا أن الأمر لا تجوز مناقشته علناً».

«ظهر على والدتي بعض الحزن. من المعروف في كوريا الشمالية أن العمل من أجل إعادة الوحدة خطير جداً، لأنه يعرض حياة الشخص للخطر. لذلك وبالرغم من أن أمي سُرَّت لأنني كنت أبدو بحالة جيدة وأنني كنت سليمة ومعافاة، إلا أنها لم تستطع أن تخفي مشاعر القلق عندها».

ولدى عودتها إلى الجبال تلقت كيم تدريباً متقدماً في احتراف التجسس بما في ذلك التدريب العسكري وقيادة السيارات والتصوير الفوتوغرافي ودورة دراسية في الاتصالات البعيدة السرية. وبعد أربع سنوات من التدريب - في تموز (يوليو) ١٩٨٤ كُلِّفت بأول مهمة لها.

عرَّفوها على شريكها الجديد. رجل في السابعة والستين من العمر يدعى كيم سونغ ايل. كان خبيراً في الالكترونيات يجيد اليابانية والصينية والانكليزية والروسية، وكان قد مضى عليه سنوات كثيرة وهو يعمل عميلاً من درجة عليا - وكان أول انطباع لكيم عنه أنه عجوز وضعيف. كانت محقَّة - لأنه كان يعاني من ورم في المعدة مما كان يسبب له ألاماً كثيرة.

قيل لهما يجب أن يتظاهرا أنهما أب ياباني وابنته. وكانت أول مهمة لهما هي زيارة اوروبا كي يعوّدا نفسيهما على الثقافات الرأسمالية ويختبرا كفاءة تغطيتهما كسائحين يابانيين. ومن جديد ستذكر كيم «ذهلتُ للثقة التي أولانيها الحزب» في السماح لها بالسفر خارج البلاد.

وبعد شهر سافرا إلى فيينا وكوبنهاغن وفرانكفورت وجنيف وباريس. زُوِّدا بجوازي سفر زائفين كما زُوِّدوا بالتعليمات. ولدى عودتهما كان يتوقع منهما أن يكتبا تقريراً خطيراً عن حالات الفقر، وليس تقريراً عن رحلة.

وتذكرت كيم - بينما ترن هذه الأوامر في أذنيها - قليلاً من المعالم السياحية الجذابة على الطريق . فقد أحبت شوارع باريس وذهلت لروعة جبال سويسرا، كما سحرتها مطاعم الوجبات السريعة. كم تمنت لو تدخل إلى صالة تقدم صحن البيتزا لتأكل منها، لكنها خشيت أن يكون ذلك كثير التكاليف «لم أكن أعلم أنها كانت طعاماً رخيصاً نسبياً. وبالرغم من أنني كنت مسؤولة عن مبلغ ١٠ آلاف دولار أميركي، فقد كان مطلوب منا أن نكون مقتصدين».

سارت أمورها مع المستر كيم سيراً حسناً. لقد كانت هذه الصبية تحترم الرجل المسن بسبب خبرته الواسعة. كما أنهما اشتركا في النوم في غرفة واحدة، لكن علاقتهما لم تدخل في نطاق الجنس ابداً. «كان ذلك غير وارد اطلاقاً كنت أجلّه وأحترمه كما كان هو الآخر يحترمني أيضاً». قالت ذلك بحزم.

لم يذهبا إلى تلك الأماكن للمتعة، لذلك سجلت الآنسة كيم كل متسول قابلته وكل عائلة فقيرة. لقد أوكل إليها أمر العناية الجسمانية بالمستر كيم، وكان عليها أن تتأكد أنه يتناول أدويته في الوقت المحدد. لقد خشيا أن يرافقا سواحاً يابانيين لئلا يخطئا. كانا يقضيان معظم وقتهما في غرفتهما، يضعان اللوم في عزلتهما على الطقس البارد.

كان هناك القدر الكبير من الثقة بين الاثنين. وعند عودتهما إلى كوريا الشمالية كان عليهما كتابة ثلاثة تقارير. واحد عن الأحوال في اوروبا، ثم هناك تقريران حرجان: أحدهما يكتبه كلٌ عن نفسه، والآخر يكتبه كل واحد منهما عن زميله العميل. وقد جرت في فيينا بينهما مجادلة لو أنها كتبت في التقرير لكانت سبَّبت مشاكل خطيرة لكل منهما. ففي أحد المخازن الرئيسية الكبرى ضيَّع أحدهما الآخر. عادت كيم إلى الفندق لتجد «والدها» ينتظرها. فتخاصما لأن التعليمات تقول ألا يذهب أي منهما إلى أي مكان لوحده. قالت: «اتفقنا ألا نذكر هذه الهفوة في تقاريرنا».

وعادت كيم إلى بيونغ يانغ محمَّلة بالثياب والهدايا إلى عائلتها ومكتب الإرشاد ورئيس القسم. كان هناك قماش يكفي لأربع بدلات رجالية، وأثواب نسائية وقلم حبر «باركر». عشر ولاعات سجائر فخمة، وعشر علب من أقلام الحبر الجاف. كما اشترت عدة أثواب لها، وكانت هذه تعتبر أجهزة ضرورية من أجل دورها القادم كعميلة تجسس. «كان من الصعب أن أجد أثواباً بقياسي» قالت كيم، التي كانت صغيرة البنية، طولها خمسة أقدام وثلاثة انشات، كانت الأثواب الوحيدة التي وجدتها مصنوعة في كوريا الجنوبية، لذلك لم استطع شراءها».

سألتها إن كانت رؤيتها للكثير من الناس الذين كانوا بوضوح لا يعانون من المجاعة ولا يموتون من المرض، وكذلك المخازن المملوءة بسلع المستهلك في المدن الأوروبية الرأسمالية، لم تجعلها تشك في تعاليم الحزب؟ لا، لقد كانت مثل مصفحة تسير في أرض العدو. لا شيء يمكن أن يبهجها. «عندما رأيت البحبوحة الرائعة لم أعجب بها. كنت أظن أننا سنمتلك كل هذا يوماً ما في كوريا الشمالية. والسبب الوحيد في عدم امتلاكنا له الآن هو أننا نحارب ضد القوات الرأسمالية، لذلك لا بد أن تذهب أموالنا للدفاع. لقد جعلتني مشاهدة مستوى الحياة الأفضل في أوروبا أريد إعادة التوحيد أكثر من السابق، وعندها سيتمتع شعبنا بالرفاهية التي رأيت».

وعند انتهاء المهمة كتبت كيم تقريراً بليغاً عن سلوك زميلها العميل، وعن نفسها وضمنته قليلاً من النقد الذاتي: أنها أرادت أن تشتري بعض مستحضرات التجميل وأن تتمشى لوحدها. ولو أنها لم تنتقد نفسها لأوصلها ذلك إلى الإستجواب.

كان قسم البحوث راضياً عن سلوك الآنسة كيم والسيد كيم وظن الحزب أنه قد خلق زوجاً من المسافرين اليابانيين المثاليين. كانوا يظنون أننا لا يمكن أن نفشل، على ما أعتقد. المشكلة الوحيدة كانت أنني كنت أبدو حفيدته لا ابنته. لكن ذلك لم يكن مهماً. لقد أجدنا في التمويه.

وطيلة السنوات الثلاث التالية أجرت كيم تدريباً أكثر تكثيفاً في اللغات: أُرسلت إلى كانتون في الصين لتكسب لهجة صينية أصلية، وإلى ماكاو لمدة ثمانية عشر شهراً. كان كل تدريبها هو تأكيد أعتقادها أنها يوماً ما سوف تُرسل إلى طوكيو للعمل كجاسوسة. لم تكن تعلم أن مهمتها التالية سوف تجعلها قاتلة بالجملة، وستغير مجرى حياتها إلى الأبد.

وفي يوم ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٧ استدعيت كيم إلى قسم البحوث في بيونغ يانغ حيث كان المستر كيم بانتظارها. كان من المقرر أن يرسلا من جديد كأب وابنته، كما أخبرها، في مهمة خاصة جداً. أصيبت الصبية بالصدمة من مظهر السيد كيم، فهو في السبعين الآن، لكنه كان يبدو في أسوأ حالات المرض. لم يكن لديهما وقت لمزيد من المحادثة. فقد أدخلا إلى مكتب المدير.

كان على مكتبه بعض الأوامر في غاية الأهمية جاءت مباشرة من كيم جونغ-ايل، ابن القائد العظيم والمعروف عادة باسم «القائد العزيز».

«قرر الحزب أن ينسف طائرة كورية بهدف إيقاف محاولات كوريا الجنوبية ترسيخ تقسيم الكوريتين، واستضافة الألعاب الأولمبية لعام ١٩٨٨ في بلادها.

«وهذا المشروع الذي سينفذ في فترة حاسمة من الزمن، سيصب الماء البارد على رغبات جميع أمم العالم في المشاركة في الألعاب الأولمبية وسيوجه إلى نظام كوريا الجنوبية المسخ ضربة قاتلة.

«ويجب تنفيذ هذا المشروع دون فشل، كما يجب أن يبقى في أقصى غايات السرية».

تلك كانت الأوامر. ولقد تقرر أيضاً أن الفريق الممتاز المكوَّن من الأب الياباني وابنته هما من سيقومان بالتنفيذ. صُعقت الآنسة كيم لهول المهمة التي أمامها، لكنها سُرَّت لأنها اختيرت لها. فاذا نجحت في مهمتها سينهال التكريم عليها. ولا مجال للرفض كما أوضحت: «لم يكن بامكاني عصيان الأوامر، حتى لو كنت أرغب في العصيان. لأنني لو فعلتُ لكنت وُضِعت فوراً أمام فرقة الإعدام. وربما وُضع أفراد عائلتي أيضاً ان من يصبح عميلاً عليه الاستمرار واذا كُلِّف أحدٌ بمهمة، ليس هناك من مجال للرفض الشخصي، ولا حتى للتفكير في ذلك، لأن فعل ذلك يعني القول أن الحزب يمكن أن يخطىء. وذلك مستحيل.

«وبالرغم من أنني ذهلت لهول المهمة فقد قررت انجازها وبالإضافة إلى ذلك فانني كنت أنتظر وانتظر ذلك اليوم النهائي، انتظر المهمة الخطيرة. كانت الرحلة السابقة إلى أوروبا تبدو الآن لا شيء تماماً مثل ثوب تجربة لدور في مسرحية. لقد تدربت مدة سبع سنوات وثمانية أشهر من أجل هذا، وإنه لشرف عظيم. ان الكثير من العملاء الآخرين قد انتظروا مدة أطول مما انتظرت كي يكلفوا بمهمات، ولم تكن مهماتهم شيئاً يذكر بالمقارنة مع مهمتي».

ألح المدير على العميلين أن هذه المهمة يجب أن تنجح. «وقال لنا أنه في حال أي طارىء يتوجب علينا البقاء على الطائرة مع القنبلة وأن نتابع. قال اننا نحارب في الطليعة من أجل إعادة التوحيد، وسنُكرَّم من أجل ذلك.

«شعرت بالتصميم الهائل على النجاح، حتى ولو كان ذلك عن طريق التضحية بحياتي. وكعملاء كانوا قد أخبرونا يوماً بعد يوم أنه اذا احتاج الأمر فانه يتوجب علينا أن نضحي بأرواحنا من أجل القائد العظيم، وكذلك يجب أن نكون مستعدين وراغبين في الموت لحفظ الأسرار التي تسلمناها».

أُرسل العميلان إلى بيت ضيافة آخر حيث أُجري لهما تدريب مكثف على المتفجرات لمدة شهر. ثم اعطيت الآنسة كيم إذناً خاصاً لزيارة عائلتها. وهذا امتياز

استثنائي لأنها - مثل بقية العملاء - لم يسمح لها بالعودة إلى البيت إلا خمس مرات في غضون السنوات السبع الماضية.

لكن السؤال: «هل كان والداك يعلمان بالمهمة؟» أحدث عندها ردة فعل مريرة وسريعة.

«لم يكن هناك من طريقة يعرفان بها ذلك. فقد اصبَحتُ فرداً من عائلة الحزب. وللحزب الكلمة الوحيدة بشأن مستقبلي. لم يكن مستقبلي شيئاً يستطيع والداي أن يتدخلا فيه. فقد كنت ابنة الحزب ولقد سمح لي برؤية والديَّ بسبب روابطي السابقة بهما». وتحولت عيناها من الطاولة التي جلسنا حولها ولمحت عينا الأخت الكبرى، التي كانت جالسة وظهرها نحونا، لكنها كانت تراقب كيم بامعان من خلال مرآة على الجدار. لا شك أن والدي كيم الآن في معسكر الاعتقال على الأقل، أو قد أعدما منذ زمن طويل، في أسوأ الأحوال. وفي الزيارة الأخيرة لعائلتها أخبرتها والدتها الحزينة أن أخاها الأصغر قد توفي في وقت سابق من سرطان الجلد. وحاول والداها أن يخبراها. لكن قسم البحوث قد منع ذلك، لأنه قد يعرقل تدريبها.

كانت صدمة شديدة للآنسة كيم، لكن تصورها لمهمتها القادمة تركها فاقدة الإحساس.

ولدى عودتها إلى بيت الأمان أعطيت قليلاً من الوقت للتفكير. كان يجب أن تطير مع المستر كيم من بيونغ يانغ يوم ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) على رحلة تدشينية من كوريا الشمالية إلى برلين الشرقية عن طريق موسكو. وكان سيرافقها في الجزء الأول من رحلتهما رئيس القسم وضابط الإرشاد. ثم سيسافران لوحدهما من موسكو إلى فيينا حيث سيزودان بالمتفجرات. وبعد زرع القنبلتين عليهما النزول في أبو ظبي والعودة بالطائرة إلى فيينا حيث سيكون رئيس القسم وضابط الإرشاد بانتظار مرافقتهما في رحلة العودة إلى بيونغ بانغ.

كان على الآنسة كيم أن تستعد وتُعِدَّ القنبلتين الزمنيتين. وطُلب اليهما أن يقتلا نفسيهما بابتلاع السيانيد إذا ألقي القبض عليهما.

وفي الساعة السادسة من صباح يوم ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) سُلِّم الأمر الكتابي إلى الآنسة كيم والمستر كيم رسمياً، والذي كان قد كتب من قبل كيم جونغ ايل شخصياً بنسف الطائرة الكورية الرحلة ٨٥٨. ثم أخذا إلى صالة في بيت ضيافة حكومي ووضعا أمام صورة كيم جونغ-ايل.

وبصوت ثابت رددت الآنسة كيم: «في هذه الفترة الحاسمة، بينما الأمة بأسرها تقوم بعمل البناء العظيم للاشتراكية على خطى الثمانينات في حين الثورة في الجنوب في أوجها (شغب طلابي)، ومحاولات الأعداء لترسيخ فصل الكوريتين يزداد حقداً، فانني - بعد أن عُينتُ في مهمة قتال خارج الحدود، سأحفظ في ذاكرتي ثقة الحزب واعتباره، وانني سأتقيد بالرموز الثورية الثلاثة: (التنظيم، المهمة، الحياة) وسأقوم بمهمتي بإخلاص بعد التعاون الوثيق مع زميلي، وسأقاتل حتى الموت من أجل السلطة العليا والمقام العظيم للقائد المحبوب».

وبعد انتهاء مراسم قسم اليمين، تناولا طعام الفطور وعند الساعة السابعة صباحاً غادرا بيت الضيافة إلى المطار. تذكرت الآنسة كيم أن المضيفة الجوية قد أعطتها الكثير من الهدايا على متن الطائرة: ورق لعب، حمالات مفاتيح، محافظ صغيرة كذكرى للرحلة الأولى للطائرة. «لقد رسخ ذلك في ذهني لأنني لم أتعوَّد أن تُقدَّم لي الهدايا». أوضحت ذلك ببساطة. وقابلهما عند الوصول عميل كوري شمالي مركز عمله السفارة في موسكو، وأخبرهما أن أمامهما ست ساعات قبل أن يستقلا الطائرة إلى بودابست. أخذهما إلى الغداء، ثم ودعهما عند الرحلة الثانية من رحلتهما.

وصلا الساعة الرابعة بعد الظهر واستقبلهما عميل كوري شمالي آخر وأخذهما إلى بيته. وعملا لمدة خمسة أيام كسائحين يزوران ساحة بودابست وجسر الأسد وقصر بودا، أو على الأقل فعلت ذلك الآنسة كيم لوحدها. كان المستر كيم يبدو مريضاً جداً بحيث لا يستطيع أن يفعل الكثير. وأفضى للصبية أنه قد أجريت له عدة عمليات جراحية في معدته في الآونة الأخيرة. وقال عنه الأطباء أنه مريض بشكل خطير. لكن الحزب أصرَّ على أنه يجب أن يتابع المهمة. رفض أن يخبرها طبيعة مرضه، لكنها خمَّنت أنه السرطان. لقد قلقت بشأن زميلها، لأنه إن أصبح مريضاً جداً فانها ستقوم بالنسف لوحدها. ناهيك عن الولع بهذا العجوز.

«لم يكن يستطيع أن يأكل بشكل جيد، ولم يكن يستطيع أن يتناول الطعام الدسم أبداً. كان عليَّ أن أتأكد أنه تناول مسكنات الألم في الوقت الصحيح، وأنه يحمل أدويته معه دوماً. لم يكن يعتني بنفسه كثيراً، فقد كان يشرب ست فناجين من القهوة يومياً وعندما كنت أصيح قائلة أن ذلك سيهيج معدته كان يقول: «لقد عشت طويلاً ما يكفي. ثم أنني أحب القهوة».

ذهبت الآنسة كيم لشراء الثياب والمجوهرات إلا أنها ألحت أنها لم تكن تحب التسوق، أو أن تأخذ الصور على جسر الأسد قبل أيام قليلة من زرع القنابل. «كان عليَّ أن أبدو كالسواح، وكانت الثياب الجديدة ضرورية لأنني يجب ألا أظهر وأنا

أرتدي البذلات الكورية الشمالية».

أخذهما العميل في مركز بودابست بسيارته إلى فيينا وأنزلهما في فندق. وفي اليوم التالي ذهبت الآنسة كيم إلى مكتب خطوط جوية نمساوي كي تشتري بطاقتين إلى بلغراد ثم إلى فيينا ثم بغداد حيث سيستقلان الطائرة التي سينسفانها - الطائرة الكورية الجنوبية الرحلة ٨٥٨ إلى سيؤول. كان لا يزال أمامهما عشرة أيام قبل نسف الطائرة.

أمضيا الوقت في ارتياد الأماكن الجميلة وأخذا الصور لبعضهما البعض، واشتريا المزيد من المعدَّات: ثياباً وأحذية. طارا إلى بلغراد وحجزا في فندق آخر. وفي الساعة السابعة من صباح يوم ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) طرق زائر بابهما. كان رئيس قسمهما وضابط الإرشاد قد وصلا من بيونغ يانغ ومعهما المتفجرات. وقد حُزمت في جهاز الراديو وزجاجة الويسكي.

كان يوم ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) هو اليوم الموعود للعملية بالنسبة للعميلين. وفي حلول الليل يجب أن يكونا قد وضعا الحقائب على متن الطائرة. وفي الساعات المبكرة من الصباح يجب أن يكونا قد نزلا - هذا اذا لم يحدث خطأ. وإلا فانه من المحتمل أن يكونا قد ماتا. وفي صباح يوم ٢٨ حاول المستر كيم والآنسة كيم أن يرتاحا لكنهما وجدا ذلك مستحيلاً. لم يكن أيٌّ منهما قد نام كثيراً طيلة الستة عشر يوماً الماضية. وعند الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد الظهر طارا من بلغراد إلى بغداد. وصلا في الساعة السابعة مساءً. كان أمامهما انتظار أربع ساعات ونصف قبل أن يستقلا طائرة الخطوط الجوية الكورية الرحلة ٨٥٨.

ولقد مرَّا في لحظة توتر عصبية قبل الصعود إلى الطائرة عندما فتشت موظفة في المطار الآنسة كيم وأمتعتها الشخصية. أخرجت الموظفة الراديو من الحقيبة البلاستيكية ورمت البطاريات التي كانت ضرورية لبدء الانفجار. ومن سوء حظ الركاب الآخرين، أنقذ المستر كيم الموقف بسرعة بديهته: فقد تذمر بصوت مرتفع قائلاً أنه لم يحدث أن عامل مسؤول آخر في أي مطار ابنته بهذه الطريقة. والتقط البطاريات وأعادها إلى الراديوا وشغَّله. هزت المسؤولة كتفيها وتركت الآنسة كيم والمستر كيم يمرَّان.

قبل عشرين دقيقة من الصعود ضبطا ساعة الراديو على موعد بعد تسع ساعات. قالت الآنسة كيم أنها لا تستطيع أن تتذكر أنها نظرت إلى المسافرين الآخرين عندما بدؤوا يصعدون الطائرة «كنا متوترين وقلقين بحيث أنني لا أتذكر أي شيء من أي نوع». قالت. وضعت المحفظة على الرف العلوي وإستوت جالسة تعدُّ الدقائق الباقية للوصول إلى أبو ظبي.

وقبل الساعة الثالثة بعد الظهر دخل السيد كيم والآنسة كيم إلى المطار ولو كانا يعتقدان بإله لكانا يصليان له وقتها، لكن كل ما كانا يستطيعان فعله هو الأمل أن تعمل القنبلتان. كان أكثر الأعمال خطورة أمامهما هو أن يهربا. ولكن فجأة بدأت الأمور تسير في المسار الخاطىء. كانا قد قررا أن ينتظرا في المطار عدة ساعات قبل الطيران إلى روما. لكن مسؤولي الهجرة طلبوا رؤية تأشيرتيهما إلى أبو ظبي، ولم يكن لديهما تأشيرة. عندئذ طلب المسؤولون بطاقتيهما فكان عليهما إظهارهما كاشفين بذلك أن البحرين كانت وجهتهما القادمة. كانت الوجهة إلى البحرين مجرد خداع (شرك) لكنهما أجبرا على صعود الطائرة من قبل مسؤولي المطار الذي ظنوا أنهم يساعدونهما بفعل ذلك. واصبح المستر كيم والآنسة كيم خائفين أن يصبحا أهدافاً سهلة في البحرين اذا فحص أي من مسؤولي الطيران الكوري أوراقهما.

كانا لا يزالان يأملان أن يتمكنا من الطيران إلى روما فور وصولهما البحرين. لكنهما وجدا أن كل المقاعد محجوزة لليومين التاليين. بحثا عن فندق في المدينة واستعدا للانتظار حتى النهاية.

وفي تلك الاثناء كانت الطائرة ٨٥٨ قد اختفت بعد آخر اتصال لها مع برج المراقبة في رانغون. وفي الحال اشتبهت الحكومة الكورية بعمل تخريبي، وربما من قبل عملاء كوريين شماليين. وبدأت شركة الطيران الكورية تتفحص القائمة بأسماء الركاب خصوصاً أولئك الذين نزلوا في أبو ظبي. وظن رئيس فرع الطيران الكوري في أبو ظبي أن الشبهة تدور حول شخصين يابانين: وهما مايوم هاتشيا، وهي فتاة في السابعة والعشرين، ووالدها شينيتشي، وهو في التاسعة والستين.

وعندما تفحص خط رحلتهما السابق على الكمبيوتر وجد أنهما قد زارا عدة أماكن يتردد عليها عملاء كوريا الشمالية: بلغراد وفيينا. ومع أنهما كانا في رحلة طويلة فانهما لم يسجلا أية أمتعة. كما أنهما لم يستعملا اسمي عائلتيهما على البطاقتين وأعطيا بدلًا عن ذلك اسميهما الأولين - الشيء الذي لا يفعله اليابانيون.

والأغرب من ذلك، أنهما استخدما الطائرة الكورية ٨٥٨ مروراً ببغداد وأبو ظبي وتحملا من ٣ إلى ٦ ساعات انتظار في الترانزيت في الوقت الذي كانا يستطيعان فيه الوصول إلى وجهتهما - البحرين - بطريقة مباشرة من بلغراد. وطلب من مكتب الطيران الكوري في البحرين أن يحاول تحديد مكان هذين الشخصين الغامضين باسم هاتشيا.

بدأ أحد الموظفين هناك يتصل بالفنادق، واكتشف أن المشبوهين قد حجزا في

فندق «ريجنسي انتركونتيننتال». حصل على رقمي جوازي سفرهما من إدارة الهجرة البحرانية وأرسلهما للسفارة اليابانية.

وعادت معلومات مدهشة: كان رقم جواز سفر السيدة يخص رجلاً: كانت تستعمل جواز سفر مزوراً.

كانت الآنسة كيم والمستر كيم قد أمضيا يوم ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) في الحصول على بطاقتين في رحلة إلى روما في صباح اليوم التالي، وكذلك في التجوال في الأماكن الجميلة في مدينة البحرين. عادا إلى غرفتهما في الفندق في أوائل المساء ليجدا جرس الهاتف يرن. كان المدير يطلب اسميهما وتاريخي مولدهما ورقمي جوازي سفرهما. ورن جرس الهاتف من جديد: كانت السفارة اليابانية توجه الأسئلة نفسها. ثم رن الجرس للمرة الثالثة: هذه المرة دبلوماسي من السفارة الكورية الجنوبية يقول أنه سيزورهما حالاً.

وصل الدبلوماسي ليجد الآنسة كيم قد آوت إلى فراشها على ما يظهر. رحب به «والدها» الذي أبدى دهشته لهذا التدخل. وشرح الدبلوماسي بمزيج من اليابانية والانكليزية أن الطائرة التي غادراها من أبو ظبي قد تحطمت: تنهدت الآنسة كيم تنهيدة الارتياح: لقد انجزت المهمة.

لكن ضيفهما لم يطل البقاء عندهما. وبالرغم من أنه ارتاب في أن هذين الاثنين قد يكون لهما علاقة باختفاء النفاثة فانه لم يكن متأكداً أنهما ليسا يابانيين. وإن كانا كذلك فإن اليابانيين قد يريدون استلام التحقيق.

وبعد أن تركهما لوحدهما، كانت كيم «ووالدها» متهللين لكن خائفين «علينا الابتعاد. كان ذلك هاجسنا الأول». قالت الآنسة كيم. أكد لها زميلها العميل أن كل شيء سيكون على ما يرام. سينطلقان إلى روما في الساعة الثامنة والنصف صباحاً.

استغرقا في النوم، واستفاقا في السابعة صباحاً. وبينما كان يحزمان أمتعتهما القليلة، ذكّر السيد كيم رفيقته بكبسولة السيانيد في حقيبتها. كانا يعلمان أن موتهما بأيديهما قد أصبح احتمالاً كبيراً.

وبينما كانا يغادران إلى المطار في سيارة أجرة، وصل دبلوماسي ياباني ليستجوبهما، وعندما وجد أنهما قد غادرا، أسرع وراءهما. ولمح الإثنين يدخلان عبر إدارة الجوازات، فطلب من مسؤولي البحرين اعتقالهما.

تذكرت الآنسة كيم: «أخذانا إلى غرفة وأخبرنا الرجل الياباني أن جوازي سفرنا مزوران» يجب أن نرسل إلى اليابان للاستجواب.

تركونا وحيدين وقال المستر كيم أننا انتهينا. فلو أرسلونا إلى اليابان فانهم كانوا سيعذبوننا حتى ينتزعوا الحقيقة منا بشكل أو بآخر. كان علينا أن نأخذ السم فوراً.

«وفي تلك اللحظة دخل الشرطة البحرانيون وأخذونا إلى غرفتين منفصلتين ليفتشونا مع أمتعتنا. كان فحصاً جسمياً دقيقاً. لكنهم لم يفحصوا علبة سجائري. ثم أعادونا معاً، لكن كان معنا حارس من الشرطة.

«همس لي السيد كيم وهو يشعل سيجارة. «أنا عشت حياتي لكن أنت، يا سيدتي الجميلة الشابة، انني آسف لأنك لا بد مائتة؛ أخذت علبة المارلبورو وكنت مستعدة لعضّ «الفلتر». فكرت أن هذا كل ما في الأمر: فهذه هي الطريقة للموت. لكن وجه أمي ظهر أمامي. لكنني قلت: من الأفضل هكذا. ولن يعرف أحد سرنا».

«رأى الشرطي السيجارة في فمي فاختطفها مني بسرعة. لكنني، غرزت أسناني في «الفلتر». وفقدت الوعي.

* * *

وقعت السيجارة من فمها قبل أن تستنشق من السيانيد ما يكفي للموت. استعادت وعيها في البحرين، تحت الحراسة المشددة وقد سيطر عليها شعور الأشمئزاز من نفسها لفشلها في محاولة الانتحار. أخبروها أن شريكها قد توفي فوراً. ولم تشعر تجاهه بغير الحسد. «لقد نجح حيث فشلت. وسيطر علي شعور بالقرف من نفسي لأنني ما زلت حية. ظننت أنهم الآن سيجرونني إلى كوريا الجنوبية حيث يتم تعذيبي. كان لديَّ شعور بالعدمية: كمن يتلمس طريقة في الظلام. شعرت بالقرف من نفسي، والثورة على الحياة».

كانت تشعر بالذعر من محققي وكالة الاستخبارات الكورية الجنوبية عندما أخذوها على متن الطائرة الذاهبة إلى سيوول، فلم تنظر إليهم. «ظننتُ أن نهاية العالم قد دنت. لذلك أغمضت عينيَّ ولم أفتحهما». وفي محاولة يائسة أخرى للانتحار بدأت تعض لسانها، لذلك وُضع لها كِمام[1] في فمها.

وهكذا كانت مكعومة ومرتجفة عندما أنزلوها شبه محمولة على درجات سلم الطائرة حين وصولها إلى سيوول. صُعقت «الأخت الكبرى» - وهي صبية لا تكبر أسيرتها بأكثر من عدة سنوات. وقالت: «لقد توقعت إرهابية قاسية، حسنة التدريب

(١) كِمام: شيء يُقحم في الفم لابقائه مفتوحاً أو لمنعه من الكلام والصراخ.

لكنها كانت مثيرة للشفقة، ضعيفة. انني لم أشعر بالأسف من أجلها، بل كنت مذهولة».

أخذوا كيم إلى بيت أمان ووضعوها في الفراش. وصوروا لها أفلاماً، وسجلوا لها بالسر. كانت أول لقطة تظهرها مستلقية على ما يبدو أنه سرير في مستشفى، مرتدية «بيجاما» حريرية بيضاء، فاترة الهمة عندما يفحص الطبيب ساقها اليسرى التي أصيبت عندما وقعت بعد أن عضّت الكبسولة: يرفعها بعناية ويمسكها نحو الأعلى ثم يحنيها. وفي الصورة التالية، بعد يوم أو اثنين نرى كيم جالسة قرب طاولة يُحقن لها سائل في ذراعها لرفضها الطعام.

ثم بدأ الاستجواب: الآنسة كيم ترتدي بنطالاً وسترة قصيرة (جركينه) وتتظاهر أنها يابانية. تجلس إحدى الأخوات الكبيرات قربها، وفي الغرفة عدة رجال، واحد جالس أمامها يرشقها بوابل من الأسئلة، والأخت الكبرى تحمل طبقاً من الطعام، وتتحدث الكورية وتحث السجينة على تناول الطعام. لكن كيم تجيب باليابانية، تأنف أن تأكل من الطعام الوطني المفضل والمكون من عشب البحر المجفف. وتسأل: ما هذا؟ ورق محروق؟».

وبعد ذلك بقليل تظهر أكثر استرخاء وهي ترتدي ثياب الأخت الكبرى وفي إحدى مراحل فيلم الفيديو تقول باليابانية أنها يتيمة والأخت الكبرى تضع ذراعها حولها في تعاطف. ويتحدث المحقق إليها بالصينية والكورية واليابانية، وتبدو الآنسة كيم عصبية تشد كمّي كنزتها وتستظهر الشعر الصيني.

وببطء تبدأ قصتها بالإنهيار. سئلت باليابانية إن كان لديها جهاز تلفاز في البيت. تجيب بنعم. ما الطراز؟ يسألها المحقق. وتقول الآنسة كيم: أزاليا. كانت غلطة. إن أزاليا هو اسم الجهاز الوحيد الذي يباع في كوريا الشمالية. وسئلت عن اسم رئيس وزراء اليابان السابق. وتعطي الإسم خطأ. وما هو جانب الطريق الذي يسير عليه السائق في اليابان. تقول أنه الجانب الأيسر. وهذا خطأ جديد.

وفي اليوم الثامن تنهار. وبينما هي تضحك وتلف شعرها للخلف، تكتب اسمها الحقيقي وعنوانها على قطعة من الورق. يبدو لي غريباً حقاً أنها كانت تضحك بينما كانت تعترف أنها نسفت الطائرة. كانت بذلك مثل ابنة عشر سنوات تخربش كلمات وقحة على اللوح. لكن المحققين أوضحوا لنا أن الضحك هو الطريقة الكورية لإظهار الحيرة الشديدة والندم. غريب، لكن صحيح. فقد أخبرني صديق من الغرب يسكن كوريا الشمالية كيف أن أحد زملائه الكوريين انفجر ضاحكاً عندما أخبره أن ابنته الصغيرة قد أُصيبت إصابات خطيرة في حادثة سيارة.

بدأ المحققون يأخذون كيم بالسيارة في شوارع سيوول حتى تستطيع أن ترى بنفسها الناس يمشون في الشوارع بكل حرية وتشاهد البضائع في المحلات. جعلوها تشاهد التلفاز وترى برامج الأخبار. وبالتدريج حدث تغير في حال السجينة. أصابتها الحيرة وانتابها الغضب عندما عرض التلفاز لها صورة يوم كانت في سن العاشرة تقدم الزهورُ إلى دبلوماسي من كوريا الجنوبية. أصدر الكوريون الشماليون بياناً يقولون فيه أن كيم هيون هوي كان اسماً مختلقاً. وأنها لم تكن أبداً من سكان بلادهم. بالإضافة إلى ذلك ادعت امرأة كورية شمالية أن الصورة لها.

«وعندما بدأت تثق بنا أخيراً». قالت إحدى الأخوات الكبيرات، «شعرت أن الشماليين قد خدعوها، وأنهم يكذبون».

وأضاف رئيس المحققين: عندما وصلت كيم إلى هنا للمرة الأولى دُهِشتْ عندما تكلمنا عن كيم ايل سونغ دون أن نستعمل لقب القائد العظيم. لكنها الآن يتصبب العرق منها وتصرخ عندما تراه على شاشة التلفاز.

لقد أصبح مولعاً بالآنسة كيم. فعلى مكتبها في بيت الأمان يوجد حجر ثمين صغير كان قد أعطاه لها. ولما سألته عن السبب دافع عن نفسه بالقول «لآنني أحب أن اعطيها هدايا». انه ينفجر في وجه أسيرته بالطريقة نفسها التي ينفجر فيها البروفسور هنري هيجنز في وجه إلايزا، ولديه السبب المعقول لفعل ذلك.

ومنذ اعترافها أجرت الآنسة كيم تغييراً كاملًا في أفكارها التي اكتسبتها منذ الطفولة ولتدريباتها كعميلة. «انني الآن أكرس نفسي للتخلص من الإرهاب في العالم، ولفضح شرور كوريا الشمالية». أعلنت. وأضافت ببساطة: «أتمنى لو يولِّ الارهابيون».

وتنهدت تقول: «في مثل حالتي، كنت أظن أنني في مهمة قتالية مقدسة. لكنني انتهيت واحدة منهم: إرهابية. انني أفهم لماذا حدث هذا لي. لكن من الصعب أن أفهم أعمال الإرهاب في المجتمعات الحرة. انهم ناس يعيشون في المقام الأول في عوالم منفتحة، حيث يستطيعون رؤية كل شيء بأعينهم وسماع كل شيء بآذانهم حيث يستطيعون أن يتخذوا قرارتهم الخاصة بالإستناد إلى ما يعلمون.

«لا أستطيع أن أدرك كيف يصبح من الممكن لهم أن يقوموا بأعمال إرهابية وهم يعيشون في مثل هذه الظروف الجيدة. إنه لعمل مأسوف له جداً ذلك الذي يفعلون. انه لعمل رهيب جداً وانني أعتقد أنهم يجب أن يختفوا عن وجه الأرض. أظن أنهم

ناس فقدوا كل محاكمة عقلية، أولئك الناس الذين يختارون القيام بأعمال إرهابية بمحض إرادتهم دون أن يُدفعوا إليها». لذلك فإن الآنسة كيم من المدرسة التي تعتبر الثوريين السياسيين مجانين.

ولها كلمة خاصة تقولها للنساء اللواتي ينخرطن في مثل هذه الحركات: «وبالنسبة للنساء اللواتي يحترن الإرهاب، أظن أنهن يجب ألا يتنافسن مع الرجال في هذا المجال. لا مانع أن تحاول النساء أن يصبحن مساويات للرجال من أجل مصلحة المجتمع، لا لإلحاق الضرر به».

كانت فكرة غريبة جداً عليها أن النساء قد يشعرن بالغضب والإحباط لكونهن مكبوتات، وأنهن يردن توجيه ضربة عنيفة للنظام. لكنها كانت تعتقد أنها اختيرت لمهمتها لأنه ليس من أحد يظن أن امرأة كورية ستنسف طائرة. إن جمالها ومظهرها المحتشم قد استُغلاّ بحساب دقيق من قبل أسيادها.

كان هكذا الصنف نفسه من النساء هو الذي يستخدم لحمل «قنابل تحت ستار أطفال». من سيظن أن امرأة تظهر أنها حامل ستخفي شيئاً تحت ثوبها الخارجي غير جنينها؟ ان طموح الآنسة كيم للنجاح ورغبتها في نيل مديح الحزب وشعورها العميق بالالتزام قد استغلت أيضاً. لم يكن عند أسيادها أي شك في أنها إذا لزم الأمر ستصبح قاذفة قنابل انتحارية، مطواعة حتى النهاية.

«في المجتمع الكوري يُظن أن النساء يخشين أن يسرن لوحدهن، لذلك سيكون من غير المتوقع أن امرأة ستزرع قنبلة على متن طائرة. كما أنني لم أكن فتاة متشائمة. لقد كنت مرحة وعندي سجل جيد في تدريبي. أعلم أن المستر كيم كان يريدني شريكة له لأننا كنا على وفاق».

لم تُظهر أية عواطف - سوى الحسد - عندما أخبروها أن المستر كيم قد مات. لكن المحققين لم يعتبروا ذلك غير طبيعي. قال «الأخت الكبرى»: «انني أعرفها منذ سنتين حتى الآن، إنها لم تظهر أية عواطف. لا لي ولا لأي شخص آخر». كانت أية مشاعر عند الآنسة كيم قد مُحيت أثناء تدريبها. ويتذكر المرء ردة فعلها عندما سئلت إذا كان عند والديها أية فكرة ولو صغيرة عما كانت ستفعل عندما زارتهما للمرة الأخيرة. قالت بنزق: «ليس مستقبلي شيئاً يحشر والداي فيه أنفيهما. لقد كنت ابنة الحزب». لقد وجدت في البداية أنه من الصعب أن أفهم كيف استطاعت الآنسة كيم الذهاب للتمتع بالمناظر الجميلة في البحرين، وهي تعرف أنها تركت قنبلة على متن طائرة؟ أو أن تذهب للتسوق وشراء الثياب قبل المهمة مباشرة؟ شرحت لي أن مثل هذه النشاطات كانت

ضرورية لضمان تغطيتها بصفة سائحة بريئة. وبعد لقائها فهمت أنه ليس من الإنصاف أن نتوقع منها أن تشعر كما يشعر الآخرون: لأنها لم تعد شخصاً، بل أصبحت آلة. ويبدو أن ما فعلوه بعواطفها كان ذا أثر مستديم.

لم تكن الأخت الكبرى ناقدة جارحة للآنسة كيم بل كانت رحيمة. «لا أظنها امرأة ماكرة. لكن تدريبها جعلها بهذا الشكل. أذكر مرة أنه كان في غرفتها صرصور فرفضت أن تقتله. لقد جعلوها تصبح - كما هي - باردة عاطفياً».

ورفض المحققون فكرة أن الآنسة كيم بحاجة إلى إرشاد خارجي أو مساعدة نفسية!! كما ألح رئيس المحققين: «أن كل ما تحتاجه هو نحن». لكن بعد عدة أشهر من اعترافها وقبل محاكمتها مباشرة اعترف أن أسيرته بدأت تُظهر بعض علائم الحزن العميق. قدم لها الكتاب المقدس وبعض المقاطع من كتب البوذية، فقرأتها بنهم، ثم طلبت أن ترى كاهناً. أحضرنا لها واحداً تحت إجراءات أمنية مشددة، وبعد ذلك بفترة قصيرة أعلنت أنها اعتنقت المسيحية. أعلنت أن عقيدتها الجديدة قد ساعدتها كثيراً. «قبل أن أبدأ الإيمان بالمسيح كنت أنوح لقَدَري أن أقتل هذا العدد من الناس. لقد حزنت على طريق الحياة الملتوي الذي سرت فيه. ولكم قاسيت من جراء ذلك. ببساطة كنت أريد أن أموت، بل أن أموت مئة مرة جزاء ما فعلت يداي. لكنني طالما بدأت أؤمن بالله شعرت أنني مُنحت هبة الحياة. انني اقرأ في الإنجيل في المكان الذي يقول أن خطايانا قد غفرت وأننا وُلدنا من جديد. لو أن الأمر بيدي لعشت حياة ندم وتأمل. والآن بعد أن أصبحت في مجتمع حر صرت أشعر بالندم على ما فعلت. عندما تركت القنبلة على متن الطائرة لم يكن لديَّ ولا ذرة من تأنيب الضمير. آه، كم كنت غبية.! إنني الآن أفكر كثيراً بالناس الذين قتلتهم وكيف أنه لا يمكن لأي شيء أفعله أن يغفر لي هذا العمل. الشيء الوحيد الذي بقي لي هو أن أتحدث عن شرور كوريا الشمالية، وأحارب الإرهاب وهذا ما سأفعل، أو أن أعيش كما أرجو في عزلة».

هناك فرصة ضئيلة في أن يسمح للآنسة كيم أن تحيا حياة منعزلة عن العالم، بالرغم من أنها الآن امرأة حرة تقريباً. لقد أبقت كوريا الجنوبية على حياتها، لكن لا تزال هناك ارتباطات. فكلما شاغب طلاب وطالبوا بالشيوعية، يجلبون كيم كي تشجب هذا السلوك الجنوني. وكلما أرادت الإستخبارات الأميركية أو وحدة الإستخبارات اليابانية، أو أية قوة أخرى صديقة للغرب أن تراها، فانها سوف تظهر أمام وسائل الإعلام.

ولو ترك الأمر لها لما سمحت الآنسة كيم بهذه المقابلات أبداً. فهي تقول أنها مصابة بالصدمة من الطريقة التي ينظر فيها الناس إليها كنجمة. «يا لها من فكرة غريبة!

انني استحق العقاب، لا أن تخرج الأفلام عني. أنا مجرمة وأحب أن يُشار إليَّ كذلك في البقية الباقية من عمري». هناك شيء واحد يخيفها وهو عندما تتصور أن يتخلى عنها محققوها. «انهم أعز أصدقائي الذين كشفت لهم مكنونات روحي على حقيقتها. انني أشعر حقاً بالأسف للطريقة التي تصرفتُ بها تجاههم في البداية، بادعائي انني يابانية أو صينية». وأضافت بكل تعبير صادق: «سيعتنون بي، وسيخلقون مني إنساناً مختلفاً تماماً».

وهؤلاء المحققون يقومون بدورهم في إعادة خلق الآنسة كيم بكل جدية. فنادراً ما يسمح لها بالبقاء لوحدها باستثناء فترة قصيرة جداً في الصباح، عندما تقرأ في الكتاب المقدس. ومرة كل عدة أيام يأخذونها في نزهة سيراً على الأقدام في المدينة. «كي تتأقلم مع الحرية». لكن على غرار أيام تدريبها على التجسس تخرج الآنسة كيم دائماً متنكرة. وعندما بدأت تسمن بعد عدة أشهر بدون عمل في بيت الأمان، طلب إليها المحققون أن تبدأ حمية خاصة.

كم يصعب علهيا أن تفكر في نفسها. وعندما سألها أحد المحققين لماذا لا تكتب مذكراتها اليومية، أجابت بعصبية واضحة: «لأن أحداً لم يطلب مني فعل ذلك».

* * * *

لا بد للمرء أن ينتهي إلى الشعور بدرجة من العطف على الآنسة كيم، للطريقة التي حولوها فيها - إذا كان الناس يصدقونها - إلى آلة تنفذ نزوات دكتاتور. يبدو أنها استعادت سلامة عقلها بعد أن حولت وجهتها إلى الجانب الآخر، ووضعت كل اللوم في نسف الطائرة على تربيتها واستغلالها من قبل أسيادها الأشرار. وهي الآن ليست في أيدي الأخيار وحسب، بل حصلت على حياة جديدة من خلال عقيدة، عقيدة دينية تمحو وصمات الماضي. وعندما سئلت اذا كانت تتحمل أية مسؤولية عن أعمالها الماضية، طقطقت بلسانها بنفاد صبر. «أعتقد ان هناك مجال للمسؤولية في المجتمعات الرأسمالية حيث يملك الإنسان الإختيار الحر. وليس ذلك ممكناً في كوريا الشمالية».

لكن طالما أنها تعيش في مجتمع حر، كما أضافت، فانها تتعلم اتخاذ القرارات بنفسها. ويتساءل المرء في أية درجة من الحرية هي الآن في الواقع؟. لو أنها كانت قد وضعت في قالب كي تصبح إرهابية، فانها الآن موضوعة في قالب أيضاً لتكون ناطقة بلسان الجنوب. كانت تكره أن تقف أمام المصورين كثيراً. لكن لا خيار لها في ذلك حقاً. لقد أخبرها المحققون أنه يجب التقاط الصور. وعندما سألتها ان كانت، ربما، ترغب في أن تصبح محققة؟ برقت عيناها ونظرت في عيني «الأخت الكبرى» وطأطأت رأسها وقالت بهدوء: «لم أفكر في ذلك بعدُ...».

نساء الضفة الغربية

«الانتفاضة ولدي»

الوقت بعد منتصف الليل بقليل، والمرأة بالسواد بدت هناك ثانية تقف وحدها في ضاحية القرية. وعندما تبدأ برشق الحجارة على سيارة جيب للجنود يقتحم نور كشّاف سماء الليل كما ينطلق انفجار مدفعية ينذر بالخطر. فتختفي المرأة ثم تعود لتظهر مرة أخرى بعد عشر دقائق في قلب الظلام وتتطاير الحجارة من جديد. يدوم ذلك لساعتين كاملتين. إنها الليلة الثانية التي تنفّذ فيها مظاهرتها الانفرادية، ولم يكن في القرية أحد يعرف من هي ومن أين أتت.

بدت السماء مملوءة بالأشياء المتطايرة، حجارة وحصى ـ كان يقذف بعضها شاب بارع في الحادية عشرة من عمره. ويقذف غيرها طفل دارج يمشي الهوينا على قدميه الغضّتين الضعيفتين. وأضرمت النار في اطارات السيارات لتضيء المكان حيث كان دخانها اللاذع يحرق الأنوف وردّ الجنود على ذلك برشقات من بندقياتهم وقنابلهم المسيلة للدموع. كان الجميع يركضون لكن صبياً ربما في العاشرة من عمره القي القبض عليه فصارت صرخاته تشق عنان السماء عندما كانت هراوة أحد الجنود تنهال ضرباتها على ظهره وساقية... وظهر من وراء الغيب جمهور من النساء يركضن كإلاهات الانتقام نحو الجندي الذي يحتجز الصبي وأحطن بالاثنين، أما الجندي، وقد أخذه الرعب، توقف عن ضرب الغلام وحاول ابعاد النساء عنه لكنّهن صمدن في مكانهن صارخات ان الصبي ولدهن. وفي وسط هذه الفوضى العارمة اختطفت احداهن الصبي وطارت به بعيداً.

وكان أزيز الرصاص والصراخ يتعالى في المخيم ـ فالجنود هنا، والأم ترفس طفلها الذي يبلغ الثامنة من عمره وهي تجلس مأخوذة بالحوار بين أخته والترجمان فيقفز

الصبي أحمر الوجه وينطلق خارجاً فيفسّر الترجمان قولها: لقد قالت: عار عليك..
أخرج وقاتل مع اخوتك وأخواتك...

هذه هي الانتفاضة، ثورة الفلسطينيين التي بدأت في تشرين أول (اكتوبر) عام ١٩٨٧ ضد الاحتلال العسكري الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة، وقد يمكن التساهل مع من يعتقد ان الحجارة والحصى التي تشكل الترسانة الرئيسية للمقاتلين لن تكون بكفاءة أسلحة الارهاب، وخصوصاً ضد جيش جيد التدريب والسلاح. مع ذلك فان السلطات الاسرائيلية قد أصدرت أمراً تعتبر فيهُ كل من يرمي حجراً على جندي اسرائيلي خطراً على أمن الدولة.

ولقد علّقت الانتفاضة بصورة مؤقتة عند انفجار الحرب ضد العراق. وعندها وضع الفلسطينيون الذي يعيشون في الأراضي المحتلة بصورة دائمة تقريباً تحت نظام منع التجول. ولكن في نهاية الحرب ولدت الانتفاضة من جديد وهي أعنف مما كانت عليه من قبل.

وعندما زرت المنطقة عام ١٩٨٩ كانت الانتفاضة في أوج عنفوانها، وبدا الجميع يشتركون فيها من أطفال رشق الحجارة حتى رجال الثمانين عاماً ومع ذلك لم يكن أحد من هؤلاء أقوى من النساء في مجالها، مما حدا بأحد قادة المخيمات الى القول مكشّراً مغموماً «ان المرأة الواحدة كعشرة رجال».

كانت الفتيات تشكّلن على الأقل نصف الشباب ـ نصف جيش الشباب الذي رشق القذائف على الجنود. لقد كنَّ خبيرات في فن قتال الشوارع لذلك فقد عوملن كما عومل الشباب. وفي قطاع غزه حيث بدأ الهياج وحيث بدا الرمل الأبيض الناصع مسوّداً بالنار، أقام الصبيان والبنات، من سن الثامنة وما فوق حواجز الطرق من السيارات المحترقة وبراميل الزيت وحطام المخيّمات قبل أن تبدأ المُظاهرة. كان الكثيرون يرتدون الأسود من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم وتلمع عيونهم من خلال فتحات في قبعاتهم ـ كانت أسلحتهم العصيّ والحجارة، المقلاع وسلاسل الدراجات، وكانت هذه الأشكال السوداء الصغيرة تسمّى نفسها «النينجا». وفي أيام الاضراب العام، التي كانت تحدث مرتين في الأسبوع تقريباً، كانت الفتيات ينضممن إلى الفتيان في رشق الحجارة على أي شخص يقود سيارة أو يحاول أن يعمل. كان الشباب قوة هائلة؛ وكانت الفتيات يصوّبن الحجارة أو قذائف مولوتوف إلى أهداف لا يخطئنها، مثلهن مثل اخوتهن. فاتن فتاة شقراء،زرقاء العينين في العاشرة من عمرها من مخيم الجالازون قرب الرملة على الضفة الغربية صارت تمثل صراعاً باليد دخلته مع جندي

يوم أمس، فأُعطي أهلها انذاراً مدته عشر دقائق كي يخلو بيتهم قبل ان يدمر باعتباره حصناً للارهاب. كان كفاحها بشأن لوح من الزجاج كان والدها على وشك أن يركبه. لقد قاتلت فاتن بشجاعة فائقة كما قال والدها، لكن الجندي حطّم لوح الزجاج. وكانت تقف الى جانب فاتن اختها التي تبلغ العشرين من عمرها ترفع صورة شعاعية تظهر رصاصتين قد استقرّتا في صدرها. . . كان ذلك نتيجة وجودها خارج المنزل أثناء سير المظاهرة.

أمّا نساء الانتفاضة الأكبر سناً فانهن يقمن بأعمال متعددة. فبعضهن كان يقف أمام المظاهرات معتقدات أن الجنود لا يطلقون عليهن النار كما لو كنّ رجالاً. وكنّ ينظمن أعمال الشغب مشكّلات حراساً أثناء القتال وينذرن الشباب باشارات نظمت مسبقاً بوجود جندي مختبئ أو بوصول المزيد من فرق العدو كما كنّ ينزلن على الجنود أسراباً وجماعات لينقذن من وقع في الأسر.

وكانت النساء من أعمار مختلفة يقمن بشبكة من الأعمال المتنوعة الفعالة الذكية. فتخبّئ ثيابهن التقليدية الفضفاضة كميات من الأسلحة، فهن يحملن أسلحة الانتفاضة من حجارة وزجاجات حارقة والعلم الفلسطيني غير الشرعي، ويسرن بجرأة بين مجموعات الجنود. وكان الاسرائيليون يعرفون كل المعرفة ان النساء هن الحاملات الرئيسيات للأسلحة. ومع أنه قد ألقي القبض على بعض النساء وفتّشن فانه يبدو أن هناك عدم رغبة واضح في صفوف الجيش بمخاشنة النساء لأنه عندما يحدث مثل ذلك فعلى الجنود أن يكونوا مستعدين لمواجهة الكثير من فوضى وغضب الفلسطينيين المسلمين وهم في حالة هياج شديد لكون نسائهم قد مُسسن بأذى جسدي على يد انسان كافر.

وهكذا أصبحت النساء أكثر جرأة وصرن يهرّبن المال من منظمة التحرير الفلسطينية الى داخل الأراضي المحتلة، فيما تؤمّن نساء أخريات منازل آمنة للرجال والنساء الهاربين فينشطون ليلاً، كما تنقل بعضهن الرسائل الى أقربائهن.

كما توجد جماعة من النساء ذوات الالمام بأعمال التمريض والأسعاف الأولى يخصّصنَ للعناية بأولئك الذين أصيبوا أثناء أعمال الشغب. ولإيصالهم إلى أطباء موثوقين، لأنه كثيراً ما يرفض الفلسطينيون الذهاب الى المستشفى بسبب الهجمات المتكررة التي يقوم بها الجنود على أجنحة ذلك المشفى. قال الدكتور جورجن روزندال مدير المستشفى الأهلي العربي في غزه بأن شراذم الاعتقال هم باستمرار زوار دائمون للمشفى، وكثيراً ما كان يتلقى بعض أعضاء هيئة المشفى الضرب اذا حاول التدخل عندما يجرّ الجنود بعض المشبوهين المصابين من أسرتهم.

وتنشط النساء كثيراً وبشكل خاص أثناء منع التجول عندما يكون محظوراً عليهن حتى الظهور على النافذة اذ ان عقوبة ذلك اطلاق النار فور مشاهدتهن هناك. ويشكلن شبكة لتوزيع الطعام فيتسلّلن ليلًا لأخذ التموين الى المنازل التي فرغ منها ذلك. ففي مدينة نابلس، وهي مدينة عربية على الضفة الغربية كانت خاضعة لمنع التجول العسكري لمدة تزيد على الشهر، كانت النساء يخرجن راكبات على الدواب ليلاً الى قرى مجاورة للحصول على الطعام وكان بعضهن يقعن في أيدي العدو فيتركن لهذا السبب مقيدات طول النهار في الشمس كعقوبة على ذلك.

كما تدير بعض النساء أنواعًا أخرى للانتفاضة ـ كحرب اقتصادية ضد اسرائيل، وكان هذا طبعاً استجابة لدعوة قيادة منظمة التحرير الفلسطينية (PLO) الموحّدة والمؤلفة من الأحزاب الرئيسية الأربعة: فتح، الجبهة الشعبية ـ والجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين ـ والحزب الشيوعي. ان القيادة التي تصدر الأوامر عن طريق نشرات الانتفاضة قد أوعزت إلى المليون والنصف فلسطيني بمقاطعة البضائع الاسرائيلية وأن يصنعوا بأنفسهم اقتصادهم الخاص.

وقد قبلت لجنة النساء الرباعية التي تمثل الأحزاب السياسية الأربعة هذا النداء بحماس شديد، فقدمت سلسلة من البرامج التدريبية في الخياطة وصناعة الألبان والمعادن قُدمت حصيلتها للبيع الى السكان المحليين. كما أدارت اللجنة برامج للعناية الصحية وحدائق الأطفال مقدمة تعليمها الشعبي لأطفال الضفة الغربية حيث أغلقت المدارس من قبل السلطات العسكرية باعتبارها «مراتع للشغب والفتنة».

كما ان كثيراً من النساء التقليديات يدرن أعمال الخير والبر التي تقدم النوع نفسه من البرامج ولكن معظمها متمركز في المدن. لكن لم يكن يُنظر الى تلك النساء التقليديات، ولا إلى النساء الناشطات في اللجان على انهن منظمات نسائية، من قبل العسكريين. فكثيرات منهنّ يدّعين انهن ضربن وحُبسن بسبب أعمالهن.

كما أن كثيراً من النشرات والمواد قد صودرت، وأغلقت أبنيتهن. وكان يُرى انه من غير الشرعي أن تعطى الهبات والتبرعات الى جمعيات خيرية يُنظر اليها كمراكز للتحريض مع الانتفاضة.

وتعرف النساء الفلسطينيات جيداً أنّهن في الطليعة وفي واجهة كل انتفاضة، فعندما أُعلن التمرد على السلطة والخروج عليها وعشرات آلاف الرجال احتجزوا من قبل العسكريين، اضطلعت النساء بأمور القتال، فبعد غياب رجالهن، لم يكن هناك غيرهن من يقوم بذلك. لكن الأمر كان أكثر من ذلك. فالنساء أصبحن عارفات

بأهميتهن ولم يعدن مستعدات لأن يكنّ مجرد متفرجات أو أرامل، فالمشاركة هي كل شيء. وتتذكر النساء حتى في حالة الحرب أوجه الشبه بينهن وبين النساء الجزائريات في الحرب ضد الحكم الاستعماري الفرنسي بين ١٩٥٨ـ ١٩٦٤. في ذلك الوقت حملت النساء المسلمات الأسلحة تحت ثيابهن وضحّين بحريتهن وحياتهن من أجل القضية... وبعد أن نيل الاستقلال أكّد الرجال على ضرورة عودتهن إلى البيت والى دورهن التقليدي كزوجات مسلمات ـ وبلغ ذلك حدود إرغامهن على ارتداء الحجاب مرة أخرى.

والنساء الفلسطينيات مصممات تماماً ألا يواجهن نفس المصير عندما تُربح المعركة وعندما توجد الدولة الفلسطينية المستقلة. فلديهن المثال الجزائري كما أنهن يعرفن رجالهن، فهن لسن جاهزات لأن يكنّ جنوداً الآن ثم مواطنات من الدرجة الثانية فيما بعد، فإن معركتهنّ للاستقلال كنساء يجب أن تستمر جنباً الى جنب مع الانتفاضة بينما هنّ في مركز القوة.

إنه درس يمكن للنساء الفدائيات في المجتمعات الأخرى تعلمه ويمكن التفكير هنا بنساء الـ (ETA ...) وتصميمهن الأكيد على القضاء على التعصب الذكري الذي تشرَّبه رجالهن في أعماقهم. كما ان النساء (الـ IRA نساء جيش التحرير الارلندي) قد أدركن ان نضالهن من أجل حقوق المرأة يجب أن يسير جنباً الى جنب مع نضالهنّ لطرد الوجود البريطاني في ايرلندا. لقد استلمت النساء الفلسطينيات القيادة في الحرب على جبهتين. ولتحاشي الوصول الى حصيلة مشابهة لما وصلت اليه النساء الجزائريات شكلت مجموعة صغيرة منهن ما يدعى «المجلس الأعلى الموحد للنساء». وفي حزيران (يونيو) من عام ١٩٨٩ وضعن مسودة للائحة الحقوق المتساوية للنساء ووضعنها أمام القيادة الموحدة. أما رجال الحركة ونظراً لاعتمادهم الكبير على دور النساء الفعّال فقد وافقوا على اللائحة ولو على مضض منهم، ولقد قالت احدى نساء المجلس الأعلى الموحد «طبعاً لا سبيل هناك لايقاف نشاطاتنا، لكننا نريد من الرجال أن يعرفوا أن لنا أسناناً أيضاً».

لقد أعطي الجنود الاسرائيليون الأمر بعدم اطلاق النار على النساء. ولكن أحياناً في لهيب المعركة وبسبب الطريقة العشوائية التي يطلق بها الرصاص على المشاغبين لا مناص من أن تقتل بعض النساء. فأثناء الحرب مع العراق وبينما كان الفلسطينيون محجوزين في بيوتهم بموجب حظر التجول العسكري قُتلت أمّ شابة من نابلس وهي من مدن الضفة الغربية بنار الجيش الاسرائيلي لأنها خرقت منع التجول بالوقوف على شرفة منزلها.

في كانون الثاني (يناير) من عام ٩١ أطلقت النار على سبع وتسعين من النساء (اثنتا عشرة بالمئة من مجموع القتلى) فسقطْن قَتلى. وكثيرات قُتلْنَ في المظاهرات بعد ضربهن بالرصاص المطاطي او بالذخيرة الحية سواء أكنّ مشتركات او متفرجات بريئات.

ثم ان ألوفاً من النساء قد تضررن فبعضهن صرْن مشوَّهات ومقعدات عاجزات مدى الحياة بسبب الضرب. وتشكل النساء المجموعة الكبرى التي تتطلّب معالجة في المستشفيات بعد عمليات الضرب. فقد هوجمن بينما كنّ يحاولن حماية اولادهن. ولقد استُهدفن بشكل خاص عندما اقتحم الجنود منازلهن بحثاً عن المشبوهين. وتتوفر الأدلّة على أن الجنود يحاولون عمداً إرهاب عائلات برمّتها بإظهار شتى صور الوحشية امام النساء.

وقد أعطي الجنود تدريبات مفصلة على ضرب المشاغبين واولئك الذين يحمونهم، فخلال الأيام الثلاثة الأولى من التدريب عُلّموا كيف يوجهون الضربات الجافة التي تكسر العظام بسهولة وسرعة دون إراقةٍ للدم. وقد لاحظ الأطباء نماذج من الإصابات مطابقة لذلك الضرب المنسّق، وقد جاء هذا الأمر من القادة الأعلين، فوزير الدفاع أصدر أمراً بأن كافة المشاغبين يجب أن يحملوا ندوباً لأنه لا يكفيهم أن يعرفوا أن خطر السجن ينتظرهم فحسب، بل أن عظامهم قد تكسر عمداً حتى تظل الضحية عاجزة عن الاشتراك في اعمال شغب لاحقة. وتدل آخر الأرقام عام (١٩٩١) أن / ١٠٥,٠٠٠/ من الناس قد نالهم أذىً خطير بسبب الضرب أثناء الانتفاضة.

والنساء أكثر حساسية بالغاز المسيل للدموع الذي كان يطلق مباشرة إلى داخل المنازل، وأن عدداً غير معروف من النساء قد عانين من حوادث إجهاض وحتى أن بعضاً منهن قد مُتْن بسبب تأثيراته.

إن كل مَن يلقي حجراً على جندي اسرائيلي يعتبر ارهابياً كما أن أي طفل في الخامسة من عمره يرمي حجراً على جندي يهدّد أمن دولة اسرائيل. والبيوت ذات الارهابيين المشبوهين تهدم ويحظر على أصحابها إعادة بنائها، كما تختم بعض المنازل ويرغم أصحابها من العائلات أن يعيشوا خارجها، وهناك حوالى ١٧٩٠ منزلاً على الأقل قد هدمت أو ختمت.

وتعتبر جريمة أن تكون عضواً في منظمة التحرير الفسلطينية أو أن تظهر أي دعم لها. لأنها تعتبر منظمة إرهابية محظورة في اسرائيل مع أن كل الفلسطينيين باستثناء جماعة الأصوليين (حماس)، ينادون بمنظمة التحرير الفلسطينية كحكومة لهم وبياسر عرفات كرئيس لهم.

وتعتبر نشاطات النساء معروفة تماماً لدى السلطات العسكرية كما ينظر إليها بخوف ورهبة من قبل مكتب الأمن الاسرائيلي، وكان يزعجهم بشكل خاص انعقاد اللجان النسائية في المجتمع الفلسطيني ونجاحها في شن الحرب الاقتصادية. وتعتبر (ثيري بولاطه) ممن ستجرى مقابلتهن فيما بعد كواحدة من أخطر قادة الانتفاضة ليس بسبب نشاطاتها الخاصة فحسب، بل لأنها نالت شهرة عالمية بسبب مواقفها، كما كانت موضع احترام الجيل الثاني من المقاتلين.

أما السيدتان ناديا وعائدة فهما امرأتان من الطبقة المتوسطة وفي الثلاثينات من عمرهما تعيشان في ضواحي رام الله وهي مدينة على الضفة الغربية، وكانت كلتاهما ناشطتين إلى حد كبير في لجان الانتفاضة السرية، تنظمان المظاهرات وتقويان شبكة المخابرات في الأراضي المحتلة. ولم يسبق أن ألقي القبض عليهما، مع أن امتداد واتساع نشاطهما يضع في التصور ان حريتهما ستكون قصيرة العمر. وكانت كل منهما أمّاً ـ عائدة ام لثلاثة صبية اثنان منهما في السجن وفتاة في الرابعة من عمرها، أما ناديا فكانت تشعر أن اشتراكها الكامل في أعمال الانتفاضة يكفي بالنسبة لكل عائلة، لذلك احتفظت بولدها ذي العشرة أعوام والآخر ذي الثلاثة عشر عاماً خارج اية نشاطات.

عند اول اجتماع لهما في فندق في القدس كانت كلتاهما منفعلتين إلى حد كبير وهما تصرّان على الجلوس في الشرفة المشمسة بعيداً عن نوافذ وأبواب غرفة النوم، وكانتا تتحادثان بهدوء يستحيل معه سماع الكلمات، لكن بعد ذلك أصبحتا متحمستين فبدأتا تصرخان. . وتدريجياً وبعد عدة اجتماعات كشفتا عن المزيد من خفاياهما وعن المخاطر التي تقتحمانها.

كانت ناديا تجمع الأخبار وعادت ضاحكة. «لقد تعلمت اليوم شيئاً مدهشاً سينقذ كثيراً من الأولاد، كنت أراقب إحدى المظاهرات وكان الأولاد كالمعتاد جريئين، وألقوا الكثير من القذائف وكان الجنود يطاردونهم بهراواتهم المرفوعة الجاهزة للضرب وكنت أنا أوجه طريق نجاتهم. وكان يقف على مسافة غير بعيدة مني صبيّان صغيران يأكلان البوظة فأسرع الجنود نحوهما فرأوا من مقدار ما أكلاه أنهما لم يشتركا في رمي الحجارة فتابعوا جريهم. . .»

والآن صرنا نعرف أن الاولاد الذين يُشاهدون وهم يتناولون البوظة هم في أمن وسلام فبدأ بيع البوظة يتسارع. وصرنا نشتري مجموعات من أقماع البوظة قبل المعركة ونخبر الأولاد الذي يشكلون قوى الاضراب اين يجدوننا عندما ينبغي عليهم الهرب. وسنتناول لقمتين من البوظة قبل أن نناولها لهم فيبدو عندئذ أن الأود لا علاقة لهم بالقتال كما حدث مع الصبيّين اليوم.

كانت ناديا تتكلم في غرفة مليئة بالرفيقات الموثوقات وفي حلول الليل سيكون هذا الجزء من المعلومات التي أتت بها قد انتشر في كل أرجاء البلاد. بدت ناديا صغيرة شاحبة الوجه وذات عينين قاتمتي الحواشي لا تعرف النوم وتتلألأ بإيجابية غريبة، لكن مزاجها تبدل سريعاً وغمر الحزن وجهها عندما صارت تفكر بتأثير حرب الشوارع على الجنود الأطفال.

«غالباً ما كنت أتساءل ماذا نفعل لأولادنا! لقد حولناهم إلى مقاتلين في سن الثالثة، فنحن لا نعاملهم كأطفال كما أنهم لا يتصرفون كأطفال، وهم من نواحي كثيرة قادتنا لأنهم أكثر عرضة للخطر في الخط الأمامي. لقد فقدوا طفولتهم في سن الثالثة ولا يستطيع أحد أن يردها إليهم. إنني أتساءل بقلق كيف سيكون الأمر عندما يكبرون، لكنني أعرف تماماً أنهم سيكونون ممتلئين بالكراهية والمرارة إذا لم نربح المعركة.

تذكرت الأطفال الصغار ذوي الثياب السوداء الذين رأيتهم في قطاع غزة (النينجا) فهم لم يبدوا كالأطفال أبداً بل ظهروا خطيرين فعلاً.

كانت ناديا قلقة ايضاً حول التأثير النفسي الذي سيتركه غيابها الضروري واحياناً الطويل على أولادها. فكانت تتنازعها عاطفتان، حبها لهم وحبها لآلاف الأطفال الفلسطينيين الذين تشعر انها مسؤولة عنهم. لقد أكّدت لي وربما لنفسها أيضاً أن أولادها يملكون الثياب والطعام بينما آخرون كثيرون لا يملكونها، لكنها كانت تعرف أن الأشياء المادية لا تكفي، «أعتقد أن اولادي سوف يكرهونني لأني اهملتهم من أجل اطفال آخرين. فأنا لا أستطيع أن أمنحهم الرعاية والحب اللذين يحتاجون إليهما، فقبل الانتفاضة كنت أنا التي آخذهم إلى السباحة وأعيدهم من المدرسة. بينما الآن يقوم شخص مستأجر بأخذهم إلى كل مكان.»

كانت ناديا أيضاً تحسّ بالذنب لحرمان اولادها من طفولتهم مع أن ذلك كان ضرورياً نظراً للطبيعة الحساسة لعملها «انهم يسمعون ويرون كل شيء وحتى انهم يشتركون في المناقشات حول خططنا الحربية، لكن كان يحظّر عليهم أن يتفوهوا بكلمة لأصدقائهم. إن كل طفل فلسطيني ـ وطفلي أكثر من غيره ـ يعرف كيف يحفظ السرّ. فأولادي يسمعون تفصيلاً عن كل شيء ـ وحتى عن أكثر المهمات خطورة ـ ويحفظونه كاملاً دون أن يكرروا كلمة واحدة منه. إنني أجهل تأثير ذلك عليهم. عندما كانوا صغاراً جداً ويركضون إليّ بأسرارهم الطفولية كنت حينذاك أعلمهم أيضاً، فكنت لا أبدي أي اهتمام بأي شيء يقولونه إذا بدؤوا القول بأن الأمر سرّ، وكنت أردّ عليهم

ببرود قائلة لا تخبروني شيئاً. . كان يزعجهم ذلك لكني كنت أعرف أنني يجب أن أعدّهم لمثل هذا اليوم. . والآن أصبحوا مدرّبين تدريباً جيداً لذا فهم في أمان.»

«إن أولادي يعودون باللائمة عليَّ وعلى والدهم بسبب ما يجري لهم اليوم، فهم يسألون لماذا لم نبدأ بالانتفاضة قبل أن يولدوا، وكنت أجيبهم أننا نحن الفلسطينيين كنا السبب في تأخيرها لذلك فإن كافة جهودنا وتضحياتنا يجب أن تكرّس من أجلها.

«لكن ذلك ليس شعور الأولاد فقط. . انظروا إليَّ. . هل أبدو مستمتعة بحياتي؟ هل أبدو بصحة جيدة؟ ليس لدي شيء من الراحة سوى ساعات قليلة من النوم عندما يتوجب عليّ أن استريح قبل أن أنهار. لم أعدْ أجد لذة في الطعام، فأنا أتناوله لأن جسمي بحاجة إليه وعلى جسمي أن يتابع النضال. هل تعرفون أنه قبل الانتفاضة كان لدي الكثير من الأحاديث أتبادلها مع زوجي؟ كما كنا نهتم بمواضيع كثيرة. كان العالم كله ممتعاً. . أما الآن فإنه يعني الانتفاضة، يعني التخطيط، المظاهرة القادمة، وكيف نقود المُطاردَين من منزل آمن إلى آخر وكيف نتملّص من حظر التجول وكيف نتحاشى الاعتقال.»

وتنهّدت: «الانتفاضة تؤثر في كل انسان. . لقد جاء ابن أخي من اميركا يزور البلاد وهو في الثالثة من عمره، ولم يمضِ على وصوله أسبوع واحد حتى جاء إليّ يسألني كيف يصنع مدفعاً يدوياً ورشاشاً وقال انه سيستخدمه لقتل الجنود وبدأ يغني إحدى الأغاني: (بدمنا بأرواحنا سندافع عن فلسطين) انه طفل آخر خسر براءته».

وتنفست ناديا الصعداء وبدت كأنها تستجمع قواها وشجاعتها. إن حياتها الخاصة وحتى حياة أقربائها يمكن أن تقدم تضحية، واستمرت تقول إن الشيء الهام هو أن الانتفاضة يجب ألاّ تموت. . كانت تستفز بكلماتها هذه الآخرين وتبينّ كيف تستطيع امرأة قوية كهذه أن تملأ الآخرين بالشجاعة. لقد مكّنتها الانتفاضة كما مكّنت الآلاف الآخرين أن يمتلكوا القوة.

«إن حياتنا لا تساوي شيئاً بصورة فردية عليكم أن تفهموا ذلك، انكم تستطيعون نسفها لكن آخرين سيبرزون ليأخذوا مكاننا. يبدو لنا الأمر وكأننا في سجن كبير، وإن الشيء الوحيد الذي يجب أن نفقده هو ذلك السجن. تصوّروا ماذا يمكن أن أكون وأنا المرأة الفخورة المثقفة التي سافرت إلى كثير من البلدان. تأمّلوا كيف نستطيع أن نشعر أننا حشرات لأن هذا ما كان يدعوننا به الجنود: صراصير، كلاب، حشرات. تصوري نفسكِ وأنت تملؤكِ عزة النفس والثقة يقترب منكِ جندي في السابعةِ عشرة في الشارع ويأمرك: أن افعلي هذا فتفعليه وأنت مفعمة بالعار. هكذا كان الأمر قبل الانتفاضة.

كان الجندي يسحقنا تحت حذائه كالحشرات، عندئذ قلنا يكفي هذا، لا نستطيع تحمله اكثر من ذلك. نحن كائنات بشرية. لقد ولدت انتفاضتنا ولن نسحق مرةً أخرى بعد الآن.

إن كثيرات من النساء اللواتي تحدثت إليهن قد أشرْن إلى هذه الثورة بمثل هذه العبارات. وبدا الأمر وكأنهن حوّلن مشاعر الأمومة إلى القتال. أما النساء الإسرائيليات اللواتي تحدثت اليهنّ فكان بعضهن مملوءات بالإعجاب بالطريقة الشجاعة التي كانت النساء الفلسطينيات يقاتلن بها في سبيل المساواة. لم يعدْن متحيّرات للطريقة التي كانت ترسل فيه تلك النساء اولادها إلى القتال، إن امرأة اسرائيلية قتل لها ابن في العقد الثاني من عمره في هجوم فلسطيني أوجزت تلك المشاعر بقولها: «بالنسبة لي وللنساء الإسرائيليات الأخرَياتّ يجب أن يُحمى أولادنا مهما بلغت التكاليف، فالنساء الفلسطينيات يتوقعن من أولادهن أن يقتلوا وأنا لا أستطيع أن أفهم ذلك.» إنه لتناقض غريب كيف أن النساء الفلسطينيات اللواتي بلا شك يعبدن أولادهن يستطعن أن يرسلنهم مسلّحين بالعصيّ والحجارة إلى القتال ضد قوة اسرائيل العسكرية. ربما يعود السبب في ذلك، كما قالت ناديا، إلى أن الانتفاضة هي الابن الأغلى.

إن هذا التحويل في عواطف الأمومة أمر برز في مقابلات مع نساء أخريات من مختلف الفئات والايديولوجيات، فنساء الـIRA كنَّ مصممات بشكل مشابه ومساوٍ ان قتالهن يجب أن يؤدي إلى مستقبل أفضل لأولادهن، لكنهن لم يرسلن اولئك الأولاد إلى الخط الأمامي.

إن السيدة سوزانا رونكوني التي أسست جماعة ثورية ايطالية كانت تكن لها الإخلاص اكثر مما لحبيبها، وهي لم تستطع أن تأخذ أي مأخذ على حركتها هذه في وقت تخلّت الأخريات عنها، فبالنسبة لها كانت هذه الجماعة ابناً لها.

كانت ناديا عندما لا تسمح لأولادها بالاشتراك في معارك الشارع تبدو أمّاً غير عادية، ولم تكن تستطيع أن تتحمل من أجلهم الأذى كما كانت راغبة بأن تضحي بنفسها عن طريق عملها السرّي.. كان كلامها التالي متحمساً قليلاً معترفاً انها تفتقد الشجاعة من أجل القتال المباشر.. «أحياناً أتمنى أن تكون لي الشجاعة الكافية لرمي الحجارة كالأولاد أو كبعض النساء لكنني أخاف ألم الضرب أو ألم الرصاص. أنا أعلم ان ما أعمله خطير، لكن كوني فلسطينية فقط خطير. يمكن للمرء أن يعمل ما يجيده بشكل أفضل، فالانتفاضة تحتاج إلى كل واحد منا وخصوصاً إلى النساء، فالنساء هنَّ دائماً في قلب كل شيء.

وسألتها: «ماذا عن الرجال؟ ومع ذلك هناك آلاف منهم لم يحجزوا أو يحبسوا؟ ضحكت بفتور وقالت: أما الرجال ـ فإنني أخشى أن أقول ـ أنهم عندما يبلغون الخامسة والثلاثين يخرجون من العمل. إنهم يخافون وتصبح لديهم مسؤوليات، يحبون أن يتحدثوا بالسياسة لكنهم سيئون في مجال العمل» كما قالت نساء فلسطينيات أخريات الشيء نفسه عن الرجال ـ إنهم يحبّون الجلوس والحديث، ويظنون أنهم يجب أن يتولوا أمر كل شيء. أما في الوقت الحاضر إن النساء هنّ اللواتي يعملن.

وأعطتني ناديا امثلة أخرى عن شجاعة النساء، فهناك امرأة عجوز كانت تخرج مع الشباب في كل مظاهرة حاملةً سلة كبيرة مملوءة بالحجارة التي كانت تناولها للأولاد. وامرأة عجوز أخرى من مخيم الدهيشة قرب بيت لحم دُمّر بيتها لأنها جلست على السطح ترشق الجنود بقطع البلاط. كما كانت تروي قصة عن امرأة في نفس المخيّم انقذت صبيّاً في الرابعة من عمره عندما هرب من الجنود ودخل بيتها فخبأته تحت ثوبها. . وعندما اقتحم الجنود المنزل بحثاً عن الصبي لم يجدوا إلّا امرأة تجلس على الأرض. «انك ترى ان كل واحد منا يعمل ما يقدر عليه. . هذه طريقتنا في الحياة وحتى ننتصر لا يوجد شيء آخر يمكن أن يكون أكثر أهمية.»

* * *

كانت عائدة امرأة أقل حماسة من ناديا وألطف منها، اذ كانت عيناها تمتلئان بالدموع عند مناقشة ما يعانيه الشعب الفلسطيني. . لقد سجن زوجها عدة مرات، وأبنها الأوسط وعمره خمسة عشر عاماً قد حكم عليه بالسجن لمدة عام ويوم بسبب رشق الحجارة. كان ذلك قبل ثلاثة أيام من لقائنا الأول وقبل عام من ذلك كان قد اختطف وعُذّب من قبل «الشن بيت Shin Bet». اما ابنتها التي تبلغ الرابعة من عمرها فكانت تكره الإسرائيليين كرهاً شديداً.

التقطت عائدة كأس ماء وغرفته بيديها وقالت: «يكفي هذا. هذا ما نفكر به أحياناً عندما يؤخذ منا حبيب آخر. . لكننا أقوياء جداً. . حتى عندما يكون الكأس مملوءاً نستطيع أن نأخذ المزيد» إن قوة كلماتها كانت تُؤكِّدها بساطة وسذاجة عملها. .

لقد شاهدت ابنها لفترة دقائق قليلة بعد أن حكم عليه بالسجن فقالت «كنت أحاول أن أكون شجاعة لكنه استطاع أن يرى قلقي عليه فناداني إلى القفص الذي كان يحتويه مع الرجال الآخرين وقال: «كوني قوية يا ماما. . وتذكّري أنني ابنك. .»

وابتسمت عندما رددت كلماته فقد جعلتها تشعر بالشجاعة من جديد ـ كانت تعرف أنها اعدّته الإعداد الصحيح من أجل محنته وانه لا يمكن أن يعترف بشيء أبداً. وأكّدت لي ان هذا هو أبسط ما تستطيع الأم الفلسطينية أن تفعله لولدها.

ثم قالت «عندما علمت أن الجنود جاؤوا إلى البيت بحثاً عنه ذهبت سريعاً إلى مدرسته وأخرجته منها وصرت خلال الخمسة أيام التي تلت أنقله من منزل آمن إلى آخر لكي ألقّنه كيف يتعامل مع مستجوبيه وكيف يتحاشى مكائدهم. وأنذرته أن (الـ شين بيت) Shin Bet سيكونون قساة جداً معه لأنه اعتقاله الأول وقد يضربونه بقسوة. وبعد الضرب سيتركونه في زنزانة حيث يأتي إليه رجل واحد بوجه لطيف فيربط يديه وراء ظهره وسيقول له «لا تبك اكثر. إن هؤلاء رجال سيئون وأنا صديق لك أخبرني كل شيء» لقد نبهت ولدي ان هذا الرجل هو مَن يجب أن تحذره كثيراً.. ربما يجلب لك السجائر والطعام، لكن كن حذراً جداً منه.»

وتابعت تقول «وأخبرته انهم قد يضعونه في زنزانة يستطيع أن يسمع منها صوت شخص يبكي وصوت آخر يُضرب ويعذّب.. إن ذلك شريط مسجّل، وسيقول الرجل ايضاً (أرجو ألا تقطعوا أذني.. أرجو ألّا تقتلعوا أظافري)، تجاهل ذلك». قلت لولدي: «وتجاهل الصبي الذي من سنّك الذي يوضع في زنزانتك والذي يُسمعك الكثير من الفخر برميه زجاجات مولوتوف.. ومباهاته بشجاعته، إن ذلك سيكون جاسوساً أُرسل إليك ليرخي لسانك ويدعك تتكلّم.

«وبعد أن لقّنت ولدي كل شيء أخذته إلى البيت فاعتقل. وعندما رأيته فيما بعد قال «ماما، أنتِ على حق لقد فعلوا كل شيء قلته لي، في البداية كنت مرعوباً، لكنني سمعت صوتك بعد ذاك» وعندما قال لي هذه الكلمات كنت فخورة وعرفت أنني قمت بكل شيء بشكل صحيح وأنني ربيّت ولدي تربية جيدة. لقد علّمته أحسن قواعد الحياة وهو أن يكون نفسياً أقوى من أي إنسان آخر، وأخبرته أنه إذا كان ضعيفاً فسيشعر المحقق بالقوة، لكن إذا كان قوياً فإن المحقق سيشوّش ويشعر بالضعف».

لم تبدُ السيدة عائدة كواحدة من تلك النساء القادرات على تعليم الأولاد قواعد الحرب النفسية ثم تسلمهم إلى العدو للاختبار، كما لم تبدُ أنها تملك تلك الأعصاب الحديدية اللازمة لعملها السرّي. كانت ظاهرياً صاحبة دكان وكانت لطيفة تبيع اللّعب من مخزنها في القرية. إن خبرتها وخبرة أفراد أسرتها قد علمتها ما كانت تعلم. قالت مرة «لقد عانت عائلتي الكثير وخصوصاً اولادي.. فلما كان ولدي في الثالثة عشرة اختطف. كان يلعب مع أخيه الأصغر في الطريق عندما توقفت سيارة وخرج منها رجل اسرائيلي وسأله عن اسمه ثم ألقاه في مؤخرة السيارة وقاد به بعيداً. أخذ ولدي الأصغر وهو في الحادية عشرة رقم لوحة السيارة وركض اليَّ. أعلمت حالاً كافة وكالات الأنباء العربية ثم ذهبت إلى قسم الشرطة. بدا لي انهم يعرفون كل شيء عن

المسألة وأخبروني ان ولدي قد أُخذ من قبل احد المستوطنين وطلبوا إلي أن أعود إلى البيت وأنام وان ولدي سيكون في البيت صباحاً. فطلبت أن يحضروا ولدي ورفضت الذهاب إلى البيت. وبعد ثلاث ساعات قال لي رجال الشرطة انه هنا في القسم وان عليَّ العودة إلى البيت لانتظاره. فذهبت إلى البيت ووجدت ولداً هناك في حالة صدمة، لقد ضرب على بطنه وعلى حنجرته مما استوجب استدعاءنا للطبيب.. وظل ولدي يوماً كاملاً لا يستطيع الكلام.. اقتفى أحد رجال الصحافة اليهود وهو صديق رقم السيارة فكشف لنا انها مستأجرة. ولما أصبح ابنها قادراً على الكلام أخبرها كيف أخذ في السيارة لساعات عدة من قبل رجلين اسرائيليين تناوبا عليه بالضرب كما كانا يضعانه على الأرض ويرفسانه بأقدامهما. وعندما أمره خاطفوه أن يقول بالعبرية «احب اسرائيل» لم يستطع لأنهما كانا قد حشرا قدميه في فمه.

وأصرّت عائدة على أنها لا تكره اليهود بل الاسرائيليين فقط الذين يقومون بمثل هذه الأعمال، كما كانت غاضبة على بقية العالم الذي بدا أعمى عن معاناة شعبها.

أما ابنتها ذات الأربعة أعوام فكانت تظهر إشارات الانزعاج الواضحة مع أن عائدة كانت تحاول دائماً أن تؤكد أنها لم تصبح عدوء السامية، وبدا لها ذلك مهمّة عسيرة وتساءلت عائدة ماذا سيكون التأثير على الطفلة عندما سوف تفتش بطريقة غير وديّة من قبل جندي اسرائيلي، وقالت «كانت ابنتي في الشهر التاسع من عمرها عندما أخذتها معي لزيارة بعض الأقارب في الأردن. فتشني الاسرائيليون أولاً ثم فتحوا ساقيها ونظروا داخلهما بحثاً عن رسائل مخبأة.

ولما أصبحت في الثانية من عمرها بدأت ترشق الحجارة لكنها كانت تبدو مرتبكة وترشق الحجارة على أية سيارة.. وجب عند ذاك أن تُعلّم على الهدف الصحيح، فتقول مثلاً «هوذا يهودي» فأصحح لها «كلا هذا اسرائيلي.. نحن لا نكره احداً بسبب الدين.»

عندما كنا ننتظر خارج المحكمة العسكرية اصدار الحكم على أبيها مشت نحو جندي اسرائيلي ورفسته بقدمها. ولما سألها لماذا فعلت ذلك أجابت «لأنكم أخذتم أبي بعيداً» فحاول أن يشرح لها انه لم يعتقل والدها أصرّت قائلة «نعم، انكم كلّكم قد اعتقلتم أبي.»

«أصبح الآن زوجي خارج السجن لكنه لو تأخر في الخروج ساعة واحدة لأصبَحت عصبية المزاج معتقدة انه اعتقل ثانية. ان كل ما تتحدث عنه هو البندقية، انها كبقية الأولاد: حتى لعبهم هو الانتفاضة فهم يلعبون احياناً كيف يقاومون

الاستجواب ويختبرون بعضهم البعض فيهاجمون واحداً أو واحدة منهم ليروا كيف سيكافحون ضد المحققين. ولعبة أخرى هي ان الأولاد يقفون في صف مقابل جدار، واحد منهم جندي ببندقية خشبية ويتظاهر انه يضرب الآخرين، ولما رأيتهم يلعبون هذه اللعبة لأول مرة سألت الصبي لماذا تضرب اصدقاءك، أجاب «أنا أحضِّرهم» خُيّل إليّ أنني سأنفجر في الداخل عندما سمعت ذلك.»

ثم هزّت كتفيها باستهجان وقالت «إن النساء يتحملن الأكثر وهن الأكثر نشاطاً في القتال، ربّما كان السبب وجود أولادهن الذين تجب حمايتهم لذا فهنّ دائماً يقظات.

ثم انحنت عائدة قليلاً كما لو أنها أُنهكت فجأة ولكنها عندما رفعت رأسها ثانية بدا وجهها مغموراً بالحب عندما تكلّمت عن ولدها المفضّل «**انك ترى ان الانتفاضة هي ولدي**، سأغرق بدونها، فنحن لا يهمنا شيء آخر لأننا بدونها سوف نموت.»

* * *

وعندما أُزيحت الستائر بشكل أمين خرج طفل كان قد تمركز على الدرجات الأمامية من البيت ليلقي نظرة حذر واستطلاع، عندها فتح جهاز الفيديو، حيث كان يجلس على ارض الغرفة أولاد من مختلف الأعمار يناقشون بعض خططهم الحربية ويصغون بكل الطاعة بينما كانت نادية وعائدة تدليان ببعض الأفكار. كان أحد الصبية يصنع بندقية تقليد من حديد الصب حيث كانت تبدو وكأنها بندقية حقيقية، فطلب إليه أن يضعها جانباً لأن الجلسة الآن مخصصة للتدريب. كان الفيلم قد صوّر بالتعاون بين الشباب وقوة الإضراب من قبل امرأة كانت تعيش في قريتهم على الضفة الغربية. وكان صوت الفيديو يقاطع بين الحين والآخر بصوت ابنتها تطلب أن يسمح لها بالذهاب لرشق الحجارة.

صورت المرأة الفيلم سراً من منزل نصف مهدّم، فبدأ بإظهار الشباب وهم يسلّحون أنفسهم (إعجاب عظيم من الأولاد لدى تركيب قذائف المقلاع). ثم وجهت الكاميرا نحو الخارج لتظهر الجنود المتقدمين. وظهرت امرأة ترتدي الثياب التقليدية في طليعة المتظاهرين. ثم أعطتهم إشارة خاصة فهاج الشباب وانطلقوا نحو الأمام يرشقون قذائفهم. واستمرت المرأة تشجعهم وترشدهم للتقدم بعيداً عن نيران الجنود وقريباً من أهدافهم التي يبغون رمايتها. . كانت اتصالاتها معهم تتم بالإشارات وأحياناً بالصرخات، لكنها عندما تصبح على مرأى من الجنود تتظاهر وكأنها امرأة عجوز تجتاز الشارع فيمرّ الجنود ويتجاهلونها. وتستمر خدعة السن الكبيرة بأن تأتي إليها امرأة بريئة لمساعدتها.

وشرحت ناديا ان الغرض من الفيلم كان مزدوجاً وهو تشجيع الأولاد على القتال وعلى أن يكونوا أبطالاً ثم لكي يتعلموا من أخطائهم، ثم قالت «انكم ترون كم هو هام أن يكون لطريق الهرب خطة موضوعة. أنظر إلى ذلك الصبي الذي اعتقل، ثم أنظر إلى ذلك الآخر المختبىء، إنه لم يَرَ الجندي وراءه. تذكر أن تلتفت إلى كل مكان وأن تصغي بدقة. ولا تثق بطريق هرب قديم يمكن أن يكون الجنود قد عرفوه من قبل.»

ولو أن الجنود هاجموا ذلك البيت خلال عرض هذا الفيلم الخاص لكان كل الشباب والأولاد فوق الثانية عشرة قد اعتقلوا وحجزوا، ولكان البيت قد تحول إلى كومة من الأنقاض عند عودتهم بدلاً من أن يروه منزلاً عادياً.

* * *

كانت الفتاة «بانه بسّام السايح» وهي في الرابعة عشرة من عمرها قيد الاعتقال المنزلي وعلى وشك أن يحكم عليها بالسجن لمدة أربعة عشر شهراً بسبب رشقها الحجارة على باص اسرائيلي، وبالرغم من انها أنكرت بشدة ذلك الحادث الخاص فقد اعترفت به لكثير من شبيهاتها وتشوّقت للوصول إلى الخطوة التالية من ثقافتها السياسية ألا وهي اعتقالها مع نساء أكبر منها وسجنها في سجن النساء السياسيات الفلسطينيات.

واعتدلت في جلستها بجديةٍ في منزل أهلها في بيت حَنينا ترافقها اثنتان من زميلاتها في المدرسة. أما جدّها الأمين العام للمجلس الوطني الفلسطيني فقد كان يعمل وهو متستر. ووالدها الذي قضى الثماني سنوات الأولى من حياتها في السجن بسبب نشاطاته السياسية فقد كان في غرفة أخرى. ومقابل ابنتها الجميلة التي ترتدي الجينز كانت ام «بانه» وهي امرأة صغيرة سخية الدمع لكنها ذات كبرياء.

أعلنت بانه لأمها كما أعلنت لي «إنني لم أعد طفلة» وكانت على صواب في ذلك ولو من ناحية ما، فلقد اتخذت دور مقاتل كبير وكانت تتوقع انها قد تعامل كواحد منهم، ثم قالت «قبل أن اعتقل سمعت ورأيت كل شيء واشتركت في المظاهرات ولكني في الحقيقة لم أفهم شيئاً. اما الآن فانني أعرف ماذا يعني أن تكون فلسطينياً وأن تعاني بسبب ذلك.

«أحياناً أخاف قليلاً من الذهاب إلى السجن وترك أمي واصدقائي، لكنني أنظر إلى ذلك واعتبره مثل الذهاب إلى الجامعة، لقد قضيت الشهرين الأخيرين منذ أن رجعت إلى البيت أقرأ الكتب السياسية التي أستطيع أن أجدها بدلاً من حل الوظائف التي كان يرسلها لي أساتذتي من المدرسة، انه لأهمَّ بكثير أن أتعلم المزيد عن فلسطين

حتى أصبح قادرة على فهم كل شيء تعلمني إياه النساء في السجن. وبعد السجن أردت أن أتدرّب لأكون محامية وأدافع عن أطفال فلسطين».

إن الغضب والخيبة من معاملة الاسرائيليين لهم كانت السبب الذي عزا أولاد الأربعة عشر ربيعاً ـ والذين يجب أن استمر في تذكير نفسي بأن «بانه» منهم ـ آليه الثورة الفلسطينية.

وقالت «لست أعلم لماذا أشعل جيلي هذه الثورة، كان كل واحد يشتعل غضباً وخصوصاً في المدرسة حيث تتعلّم ان العالم كله حرّ ما عدانا. كنا نعلم أنه لا يهمّ كم أنت ذكي، لأنك وإن كنت تحمل درجة علمية فإن الاسرائيليين لن يسمحوا لك أن تكون أكثر من غسّال للصحون.»

وقد وافق اصدقاؤها على ذلك، لأن كثيراً من أهلهم كانوا يتمتعون بثقافة عالية ومع ذلك كان عليهم أن يتوسّلوا من أجل عمل في اسرائيل، لذلك فإن الموت في الشوارع لمثل هؤلاء الأولاد هو أفضل بكثير من هذا الإذلال.

واستمرت «بانه» في وصف أهمية رشق الحجارة. وكانت تعلم كم هي دعاية رائعة.. وتحثّ الفلسطينيين على جعل أولادهم يسلطون قذائفهم هذه ضد قوى الجيش الاسرائيلي. وكانت تعلم بأن الصور التلفزيونية التي تعرض في كل العالم تستدعي العاطفة وهي مستعدة أن تستدر تلك العاطفة لما تستحقه. واعترفت بابتسامة الشباب المؤكدة بأن اساتذتها بدأوا يلحظون انتباهاً أقل لها في الصف وقالت «اعتدنا أن نقرر خلال الدروس بأننا سنقوم بمظاهرة في اليوم التالي، ثم نحضر الحجارة إلى المدرسة في الصباح ونخبئها تحت السلم، وكان بعض اساتذتنا يعرفون ذلك وصار بعضهم يشجعنا، لكن ذلك كله كان يتم بقرار منا. لم يكن الصف بكامله يشترك بذلك ففي مجموعتي كان يوجد سبعة منا فقط.

كان من الهام جداً أن تكون الواحدة منا داخل مجموعة من الصديقات لأننا نستطيع أن يحرس بعضنا بعضاً. وننقذ أية صديقة تقع في يد أحد الجنود. ليس لدينا المتسع من الوقت لنولي الأولاد الصغار بعض الانتباه، فكل مجموعة تركّز على أفرادها. لقد ضربنا جميعاً من قبل الجنود وطبعاً إن ذلك يؤلم كثيراً جداً ولكن منّ الأفضل بكثير ألا نستسلم للبكاء، ولقد رفست ذات مرة على وجهي وعلى كامل جسمي من قبل الجنود.

«إننا نتدرب على رشق الحجارة لأنه بعد ذلك يكون تسديدنا أفضل، كان لكل

واحدة منا طريقتها، فبعضهن يستعملن الحذَّافة[1]، وهذا أمر صعب التعلّم لكن بها يبتعد الحجر ضعف المسافة والتسديد يكون جيداً جداً. أحياناً كنّا نحرق اطارات السيارات في ذكرى شهيد ونلقي زجاجات مولوتوف الحارقة كما نضع المسامير في الطرقات مما يؤدي إلى انفجار إطارات سيارات جيب الجنود» وسألت: كيف كان صبيان الجماعات يعاملون الفيتات؟ فعبرّت «بانه» عن ذلك قائلة: «كان هناك صبي أعرفُه جيداً كان يخاف من الاشتراك في المظاهرات فقلت له «إنّ من واجبك أن ترشق الحجارة وتصبح شهيداً. إنه واجبك الوطني.»

«ونحن الفتيات في قوى الإضراب (رماة الحجارة) ماهرات مثل الصبيان، لأننا نستطيع الجري سريعاً بقدر ما يستطيعون ونرمي الحجارة ايضاً، فالجنود ايضاً أغبياء، فهم يفكرون أن الأهم أن يمسكوا الأولاد لذلك فإننا نحمل الرايات ونوزع نشرات الانتفاضة، وهم يخشون تفتيشنا ايضاً لأن الرجال سيهاجمونهم إذا فعلوا ذلك.»

أمضت «بانه» وزميلاتها من رماة الحجارة وقتاً طويلاً جداً يحاولن ايجاد طرق جديدة للهرب قبل منازلة الجنود. ويبدو أن العدو قد اعتقلهن وضربهن من قبل. لذا يجب أن يكون كل واحد يقظاً على الدوام باحثاً عن طرق جديدة. فالمخازن كانت تشكّل أماكن جيدة لأن الفتيات تستطعن التظاهر بالعمل هناك لكن على كل واحدة ان تعرف صاحب دكان يرضى بذلك، ثم قالت «إن إحدى الفتيات اعتقلت من قبل الجنود عندما طلب منها صاحب الدكان أن تخرج من دكانه، لذا كنا نتحدث مسبقاً إلى أصحاب الحوانيت لنكتشف ماذا يمكن أن يفعلوا في حال لجوئنا إلى حوانيتهم.. ثم كنا نوصل اسماء هؤلاء إلى كافة الشباب».

ورغم كل تصرفاتها الكاملة الناضجة كان لا يزال في «بانه» بعض بقايا الطفولة، فهي تبتهج صراحة وبوضوح بسعير المعركة واثارها ثم بالروعة التي كانت تجتذبها لتكون عضواً في الشباب. لم تكن تحظى باحترام الصغار فقط بل باحترام الكبار ايضاً. وكم من مرة اعترفت بأسفها لعدم اشتراكها بالمظاهرات والتمتع بروعة المطاردة.

وانطلقت عاصفة من الضحك من صديقاتها عندما قالت بحزن أنها منذ احتجازها في البيت وهي تتوق للخروج في نزهات قصيرة، وبعد دقائق قليلة من التشاور همساً قررت «بانه» أن تطلعني على أحد الأسرار.

(١) الحذافة: (يسميها العامة النقّافة) عود على شكل حرف Y تشد اليه قطعة مطاط لقذف الحصى. أو المقلاع. هو أداة من جلد لقذف المادة باليد. (المترجم).

«أخرقُ نظام احتجازي في البيت وأذهبُ لأزور بعض الصديقات مختبئة في خلفية سيارة. أنا أعلم أنني سأذهب إلى السجن لذلك لم يعد يهمّني إذا اعتقلوني، سأكون في احدى الزنزانات زمناً طويلاً، لذلك فإنني أريد أن أخرج الآن قدر ما استطيع.»

كانت «بانه» تلميذة في مدرسة (روزري سيسترز سكول Rosary Sisters School) في بيت حنينا في فترة الاعتقال. تقع المدرسة في منطقة القدس لذا سمح لها أن تظل مفتوحة على عكس مدارس تبعد حوالي ميلين على الضفة الغربية.

«كنت مرة مع أربع من صديقاتي فور خروجنا من المدرسة، وكنا داخل احد المخازن نختار هدية عيد ميلاد عندما سمعنا صوت حجارة ترشق، نظرنا خارجاً فرأينا الشباب يرمون بالحجارة باصاً اسرائيلياً، كما رأينا اسرائيليين مسلّحين يقفزون خارج الباص ويطلقون النار في الهواء. رأونا نراقب المشهد وبدأوا يركضون نحونا، خفنا فبدأنا نركض لكن إحدى صديقاتنا سقطت على الأرض فتوقفنا لمساعدتها، فأمسكنا الرجال. كانوا يحملون هراواتهم فضربونا ثم أرغمونا على الجلوس على الزجاج المحطم من نوافذ الباص. كان الرجال من المستوطنين فقالوا ان سبعة رجال رأونا نرشق الحجارة. أخبرناهم الحقيقة لكنهم ضربونا وسلّمونا إلى الشرطة. قلنا لهم أننا كنا في المخزن امام الباص وان النافذة الخلفية للباص هي التي كسّرت لذا لا يمكن أن نكون نحن من رمى الحجارة على الباص لكنهم لم يصغوا إلى كلامنا.

أخذنا الشرطة إلى سجن (راشن كومباوند) وجرى استجوابنا لمدة أربع ساعات وطلبوا إلينا أن نعترف لكننا لم نفعل، ثم وضعونا في زنزانة مع اربع عشرة سجينة أخرى. كان ذلك رهيباً جداً لأن السجينات الأخريات كنّ مجرمات فصرن يحتقرننا ويبصقن علين وكنا نخاف منهن كثيراً فكنّ يلتهمن كل الطعام دون أن يتركن لنا شيئاً كما كنّ يهددننا بالضرب، فتجمعنا في إحدى زوايا الزنزانة نواسي بعضنا بعضاً.»

وبعد ثمانية أيام عُرضت قضية الفتيات أمام احد القضاة الذي اقترح وضعهنّ تحت الحجز المنزلي في الناصرة أو عكا أو القدس الغربية، ووافقت عائلات الفتيات على وضعهنّ في احد أديرة روزري سيسترز في القدس حيث يطبق نظام المدرسة أيضاً.

وقالت «بانه» «إن الوضع أفضل لأن الراهبات كن لطيفات، لكن لم يكن يسمح لنا بالخروج، لم يكن في الدير سوى مُدرسة ابتدائية فكان علينا أن نقوم بالفروض التي يرسلها إلينا اساتذتنا. بقينا هناك مدة شهرين وكان من الغريب انه سمح لنا بالعودة إلى بيوتنا.»

رغم ان البيت كان يعتبر سجناً لها فإن له بعض مميزاته الجيدة، وكانت كأية

طالبة تنعم بالحرية من المدرسة وتتلقى زيارات متكررة من صديقاتها، لكن «بانه» ـ بعكس الصغار ـ أبدت فهماً ذكياً لوضعها ـ فقالت «تعتقد صديقاتي انني بطلة لكن كل ما أنا هو أنني مقاتلة مثلهنّ. فلست اشجع منهنّ، لكنني الآن أعرف الأكثر ـ أعرف ان الاسرائيليين لا يستطيعون قتلنا جميعاً لأنهم سيخسرون عطف العالم الذي يحتاجون اليه من أجل بقائهم. لا يعرفون ماذا يفعلون لأنهم يعرفون أن عليهم أن يكونوا حريصين ألّا يقتلوا الكثير منا.

وبالعودة إلى دورها كمحاربة غير نظامية تفوهت بكُلمات سمعت مثلها بعد سنة من امرأة بضعف عمرها ـ متطوعة في الجيش الجمهوري الارلندي، وبما انها صدرت عن «بانه» فقد بدت حزينة ضعف تلك. قالت «أستطيع أن أتذكر كيف كان الأمر من قبل، اعتدت أن أذهب إلى الحفلات للتنزّه في الحدائق العامة، كان ذلك يبدو لهواً لكن الآن لا يحدث شيء مثل ذلك.. إنه أفضل الآن لأننا نقاتل ونعرف ما نريد». ثم أردفت قائلة «ان الانتفاضة أكثر من حرب، فالحرب تدوم أياماً وشهوراً لكن بالنسبة لنا انها الطريق إلى الحياة.»

* * *

كانت الفتيات الأربع اللواتي يبلغن السابعة عشرة، يعلمن انهن قد يعتقلن بسبب ما كنَّ يعملن ـ وهو حيازتهنّ الكتب. فقد كن يواظبن على مدرسة في الضفة الغربية كانت قد أغلقت منذ بداية الانتفاضة، وقد استنكر اساتذتهن ـ وهم مزيج من الفلسطينيين والأجانب - أمر الإغلاق معرّضين أنفسهم للاعتقال. اما التلاميذ وأعمارهم من الستّة وما فوق فقد أصبحوا ماهرين بالتملّص من الدوريات العسكرية في الطريق. إن كل طفل فوق الثانية عشرة يمكن أن يعتقل بسبب حيازته الكتب، لكن بالنسبة لهذه الفتيات انها مجازفة جديرة أن يقام بها. كن يُعرفن من قبل معلميهن كناشطات الصف الخلفي، لأنهنّ كن يجلسن في مؤخرة الصف ويضعن خطط المظاهرات.

راميا، وهي أهدأ رفيقاتها الأربع، كانت من نوع خاص، كما كانت تشن حربها الخاصة حرباً ثقافية، شرحت مرة قائلة «ان الاسرائيليين يريدون ان يحوّلونا إلى نساء مزارعات جاهلات وذلك بإغلاق مدارَسنا واعتبارها غير شرعية لتعليمنا، لذلك فأنا أقاتلهم عن طريق التعلّم.

«لقد أخذ الاسرائيليون كل حقوقنا، حتى أنه علينا أن ندفع لهم الضريبة من أجل ما يقومون به من أجلنا، فهم لا يريدون العيش معنا، يريدون أخذ أرضنا ويدعوننا بالارهابيين اذا قاتلنا.

«منذ أن كنت في التاسعة من عمري رأيت الجنود يطلقون النار على الناس. وكانت صديقتي تصرخ وتهرب عندما ترى العساكر، فكان علينا أن نوقف ذلك. فعندما تفقد إحدانا أخاها أو أباها أو أمها تشعر بالكراهية الأكيدة ولا تريد السلام بعد ذلك.

«يجب علينا أن نقاتلهم على مختلف المستويات فنرمي الحجارة ونشترك بالمظاهرات، لكن الحكومة الجديدة تحتاج اناساً يحملون درجات علمية، لا أولاداً أو بنات يتقنون رمي الحجارة. لذلك كان علينا أن نُوزِّع أنفسنا بين رمي الحجارة والتعلّم. «من الصعب أن يواظب بعضنا احياناً على التعلّم» كما اعترفت «راميا» و«ذلك بسبب إغراء المعركة». كانت مدرستهن قريبة من مكان أكثر مظاهراتهن لذلك كان من الصعب أن تركّز الواحدة منهن على الكتاب وهي تسمع الجنود يطلقون النار. «تفكر واحدتنا «هل يجوز أن أبقى في الداخل في حين تكون اخوتي واخواتي في الخارج مستعدين للموت؟» أحياناً لا مفرّ من الخروج والانضمام اليهنّ.

مع أن «راميا» كانت تكرّس نفسها للنجاح في امتحاناتها والالتحاق بالجامعة، لكن دوام المدرسة المتقطّع جعلها تقلق وتخشى ألا تعرف كيف تجتاز بنجاح. وكان على معلميها أن يقسموا أوقاتهم بين تعليم الفتيات الكبيرات وتعليم الفتيات الصغيرات. وقد يأتي يوم لا يوجد فيه معلمون لامتحان الفتيان. حاولت الدرس في البيت لكن كانت هناك مشاكل أخرى أيضاً. ففي أيام الاضرابات كان بعض الأهل يرفضون السماح لأولادهم بالدراسة. وكانت «راميا» تعرف فتاة كانت تدرس سراً (في الحمّام).

لم يبق للامتحانات سوى اسبوعان ولكن لم تكن تعرف أي من الفتيات اذا كانت ستجري هذه الامتحانات «انه فحص رسمي عام» قالت «راميا»، «فقد لا تسمح السلطات لنا بالاشتراك فيه لأنه سيشكّل اجتماعاً عاماً».

واذا وُفّقت «راميا» بالاشتراك في الامتحان والنجاح فيه فسوف تواجه مشكلة أخرى ـ ان كافة الجامعات الفلسطينية قد أُغلقت لذا ستضطر للذهاب إلى مصر لمتابعة دراستها. وذلك يتطلّب الحصول على اذن من والدها، ومع أن حقوق المرأة قد بدأت تغزو طريقة الحياة التقليدية فانها كانت تشك فيما اذا كان والدها سيسمح لها ـ أن تعيش كامرأة وحيدة في بلد غريب. وكانت «راميا» تعرف انها ستواجه مستقبلاً كئيباً نوعاً ما وان دورها الوحيد سيكون في العام القادم من حياتها هو أن تصبح مقاتلة. لقد كانت ماضية بعزم رغم كل العوائق في طريقها فقالت «آمل في النهاية أن اكون كاتبة وأعالج رسالة الشعب الفلسطيني بهذه الطريقة، وسأكون مقاتلة كالأخريات، لكن ليس هذا ما أريد فعله دوماً.»

ألهبت كلمات «راميا» حماس إحدى الفتيات الأخريات ـ «رُبا» التي وافقت أن الدراسة أمر حيوي لكنها كانت ترى في قتال الشوارع الدور الرئيسي والهام.

وأصرّت قائلة: «إن أول واجبات الفتاة هو أن تكون في الشارع ترشق الحجارة ـ فعندما ترمين حجراً تشعرين أنك تفعلين شيئاً ما. . انظري. اننا قد نوضع في السجن بسبب الدراسة فلما لا نرشق الحجارة أيضاً؟ ان لكل انسان في العالم الحق في التعلّم والدراسة ما عدانا ـ إنها حرب وعلينا أن نقاتل على الجبهتين.»

ووافقت على ملاحظة «راميا» انه احياناً من الأسهل أن تقاتلي في الشارع من أن تدرسي. «ان هناك ضغط من الشابات اللواتي في أعمارنا كي نقاتل، كما انه من الصعب أن تجلسي في البيت مع الكتب.

«انه من السهل أن تكوني شجاعةً في الشارع وألا تصرخي عندما يضربونك. رأيت مرة جندياً يجرّ فتاة من شعرها ويلقي بها إلى الأرض ثم يركلها بحذائه الكبير. كانت شجاعة جداً فلم تصرخ. ثم نهضت وراحت تركض فلحقها الجندي إلى أحد السطوح وبدأ يضربها من جديد وهو يهدد بأنه سيرميها من هناك، فطلبت اليه أن يستمر في ضربها فدهش كثيراً لدرجة انه توقف من تلقاء نفسه.

واستمرت تقول «ان الفتيات شجاعات مثل الفتيان بل انهنّ أشجع أحياناً». ووضّحت ذلك بقصة أخرى، كانت زميلاتها قد سمعنها من قبل وبوضوح لأنهنَّ قاطعنها برواياتهن الخاصة لهذه القصة وحوادثها.

«فتاة أخرى كانت ترمي الحجارة عندما شاهدت جندياً يسدّد بندقيته نحو احد الصبيان فألقت بسترتها فوق الصبي وسحبته بعيداً. عندها بدأ الجندي يطلق النار عليها فأسرعت إلى احد الباصات لكنه لحق بها فانطلقت خارجة من مؤخرة الباص ودخلت إحدى الأبنية صاعدة احدى الشرفات. . وظل يلازمها مطارداً إياها فقفزت من الشرفة على أحد السطوح وتمكنت من النجاة.»

وقد وافقت هي كالفتيات الأخريات. . انه لأمر بسيط جداً كألعاب الأطفال أن تكون شجاعاً في المعركة ولكن الشيء الرهيب في نظرهن جميعاً، الرهيب بشكل مطلق والأسوأ من الألم الجسدي، هو صراخ الجنود وهم يتفوّهون بالكلام البذيء.

فكّرت في ذلك الوقت ان هذا الاشمئزاز من الشتائم الشفوية يعود ببساطة إلى الطريقة التي رُبيت بها هذه الفتيات، لكن وجدت شيئاً مشابهاً لذلك عند نساء من الجيش الجمهوري الارلندي وكذلك مع امرأة ثورية ايطالية هي سوزانا رونكوني ـ انه

خط ثوري عام ـ وبدا كما لو أن اطلاق النار عليهن شيء، واطلاق السباب والشتائم شيء مختلف تماماً.

كانت «رُبا» مرتبكة جداً فلا تستطيع تكرار الكلمات التي خاطبها بها الجنود لكنها كانت فقط تقول «إن تلك الكلمات سيئة جداً لدرجة انه يجب عدم التفوّه بها، ان ذلك عار كبير.

«كنا نسير مرة في الشارع ورأينا جندياً يضرب صبياً ولما سألناه عن السبب ردّ علينا بكلمات شنيعة كنّا مجرد فتيات وكان ذلك علانية.. قد ارتبكنا كثيراً عند توجيه الإهانة إلينا. صار يطاردنا وجرّنا من شعرنا إلى سيارة الجيب وضربنا.. لم نهتم بذلك كثيراً انما الكلمات البذيئة هي التي آلمتنا أكثر».

لقد وجد الجنود حقيقة واضحة هي ان الكلمات تستطيع أن تؤذي فتيات «الشباب» أكثر مما تفعل الهراوات. «يستعمل الجنود احياناً مكبرات الصوت ليوجهوا الينا الكلمات البذيئة في الشارع. ومرةً بدأنا نبكي لسماع ذلك لكن صبياً صغيراً قال لنا «تجاهلن هذه الكلمات لأننا لا نستطيع ابداً أن نكون حقيرين مثلهم.» لكن من الصعب تجاهل ذلك. فنحن من عائلات تقليدية ويُصرّ أهلنا على مراقبة تربيتنا وسلوكنا.»

ووافَقت طبعاً على ان الانتفاضة كانت تبدّل ذلك. ومن صميم الضرورة كان على الفتيات في الشباب أن يقابلن الصبيان وغالباً سراً، لمناقشة خطط المعارك ـ وكان ذلك شيئاً لا يُريده أهل الفتيات. ورغم عدم موافقتهم على ذلك فقد استمرت الفتيات يقمن بذلك. كان ذلك الإشارة الوحيدة التي تدل على تمرّد المراهقة. وبعد كل ذلك فإن تلك الفتيات كن يقمن ـ وفي أعمال الخط الأمامي ـ فقط بما كان ينال استحسان عالم الكبار منهم، فمن هذه الناحية كنّ تماماً يطبّقن ذلك. وإذا كان تورطهن في القتال يفرض عليهن ان يتكلمن مع الصبيان فإن ذلك يشكّل ثمناً على الأهل أن يدفعوه من أجل النصر المنشود.

إن الفتيات، وقد لمحن طريقاً للحياة أقل تقييداً، كنّ مصممات مثل النساء الكبيرات ألّا يدعنه يغيب عن أعينهن. فقد اعترفت «رُبا» ان الانتفاضة قد غيّرتها وغيّرت صديقاتها فقالت «كان علينا أن نكتب في المدرسة مقالات عمّا نريد أن نكون عندما نصبح في عمر امهاتنا، فكنا نكتب جميعاً بأننا سنعامل أبناءنا وبناتنا على السواء ولن نتوقع من بناتنا ألا يفعلن شيئاً سوى الزواج. لقد حصل تبدّل في شخصياتنا وأعتقد أن الانتفاضة تساعدنا على أن نكون استقلاليات».

وقد انعكس هذا الموقف الاستقلالي في اخوتهن واخواتهن الصغار «عندما أخبرت
ختي الصغيرة أن عليها أن تدرس في البيت أجابت انها مشغولة جداً فهي تقتطع من
الصحف تقارير عن الانتفاضة وتلصقها في دفتر وظائفها. كما انه من الطبيعي ايضاً ان
الصبيان عندما لا يستطيعون الذهاب إلى المدرسة يرغبون بالخروج إلى القتال.»

وتابعت قائلة أنه لا تستطيع أم أن تنكر على ابنتها هذا الحق. لم تَرَ في كلماتها شيئاً
غير عادي. وكنت انا الوحيدة الذي بدا عليها الذعر.

«عندما يذهبن إلى المدرسة يتعلمن بسرعة كيف يتحاشين إلقاء القبض عليهنّ.
يجب أن نعلّم الصغيرات أولاً لكن ليوم واحد. تذهب كل واحدة منا إلى المدرسة بثيابها
العادية، وليس بالزي الموحد بعد الآن. وغالباً ما يتواجد الجنود عند بوابة المدرسة،
لذلك نخرج على شكل زمر صغيرة لا تزيد الواحدة على ثلاث، وبفواصل خمس دقائق
على الأقل.

«كان معلمونا جيدين جداً، وكنا دائماً ندعهم يعرفون اذا كنا سنذهب إلى
المظاهرة، وكنا احياناً نتخذ القرار بذلك قبل بدء الدرس بدقائق قليلة. لا بدّ انه من
الصعب على المعلمين الا يعرفوا أنهّ سيكون هناك صف فارغ.»

وبسبب حماستها كلّها أقدمت «رُبا» على مجازفات كبرى لكسر الحظر المفروض
على التعليم الفلسطيني. ففي وقت مبكر من السنة كانت هي وصديقاتها معلمات
سرّيات يُدِرْن مدارس صغيرة خاصة بهنّ وفي منازل صديقاتهن. لكنهنّ أقلعن عن ذلك
بعد أن هُدّدْنَ.

«تلقيتُ ذات ليلة مكالمة هاتفية قال خلالها أحد الرجال: (اننا نعرف ما تفعلين
وهذا خطير جداً. وعليك أن تتوقفي عن ذلك). وهكذا فعلت. وكانت هناك فتاة
تعيش في الجوار وتعلّم مجموعة صغيرة من الأطفال بعمر ست سنوات فجاء اليها أربعة
عشر جندياً وهاجموا البيت واعتقلوها، لهذا كانوا يعتبرون ذلك أمراً خطيراً.

وبالرغم من اختلاف شخصياتهن ومن التأكيد المختلف الذي يضعونه على
المعركتين اللتين كن يخضنهما، كانت الفتيات متحدات. «ان فلسطين تحتاج منا أن
نكون مثقفين وأن نقاتل. لكننا عندما سنحصل على دولتنا الجديدة سينبغي علينا أن
نتعلم كل شيء من جديد. اننا حالياً نتبع نظام التعليم الأردني وليس في ذلك أي ذكرٍ
لفلسطين، فالاسرائيليون لا يريدون أن نعلم اي شيء عن أنفسنا. فنحن لا نعرف شيئاً
في التاريخ إلّا ما يتذكره الأهل. كم نأمل أن يأتي وقت نتعلم فيه بشكل مناسب عندما

نتتصر، نحن لا نعرف ما يخبّئه الغد، إلّا أننا نأمل بأننا سنعيش حتى نرى حكومة فلسطين الخاصة، إلّا أننا غير متأكدين من ذلك.»

* * *

«تيري بولاطه» أحرزت مكانة البطل بين صغار المقاتلات من النساء بسبب المعاناة التي تحمّلتها على أيدي شين بيت (الشرطة السرية الاسرائيلية). كان يرى فيها رجال الشرطة امرأة خطيرة إلى حد كبير وقائدة بارزة للانتفاضة. وفي بداية وقوعها في المرض في السجن ظنّوا انها تتمارض، وحجبت عنها العناية والمعالجة في المستشفى لمدة ثلاثة أشهر وعندما عوينت بعد ذلك تبيّن انها تعاني من التهاب الكبد الشديد الحاد. وحتى في هذه الحالة، وبعد أن أُرسلت إلى البيت، استمر رجال الشرطة السرية يقبضون عليها ويسجنونها ويعذبونها.

كانت تيري جالسة في الغرفة الأمامية لبيت ريفي حديث خارج القدس حيث كانت تبدو مثل امرأة متوسطة السن شاحبة اللون في حين انها في الثالثة والعشرين وكان ذلك بعد خروجها من السجن حديثاً بعد حملة دولية للعفو عنها توَّجها طلب شخصي من الرئيس الفرنسي ميتران. كانت حريتها مؤقتة وقد سمح لها بالسفر إلى شيكاغو للمعالجة بشرط أن تعود إلى اسرائيل لتواجه التهم الموجّهة اليها.

عندما تحدثتُ اليها في حزيران (يونيو) من عام ١٩٨٩ لم تكن متأكدة من التهم المتعددة التي ستواجهها، فهي متهمة بكونها عضوة في منظمة التحرير الفلسطينية وبتوزيع نشرات هذه المنظمة وبشراء القماش لصنع العلم الفلسطيني. ومع ذلك يوجد اضبارة سرية عنها حيث لم يسمح لها ولا حتى لمحاميها بالاطلاع عليها.

انه من الصعب أن ترى في هذه الشابة النحيلة والمحترمة تهديداً لأمن اسرائيل. اعتدلت في جلستها على أريكه يغطيها قماش مزهر تتذكر تفاصيل مرضها ومعاملتها على يد الشرطة السرية الاسرائيلية: شين بيت.

لقد وقعت في المرض حالاً بعد سجنها كمعتقلة امنية، وبعد الشهرين الأولين لاحظت تورماً في أطرافها وشعوراً غريباً بالإعياء لكنها عزت تلك الأعراض إلى آثار حياتها في السجن، ولما أُطلق سراحها أصر أهلها على مراجعة الطبيب.

لقد أُرسلت إلى المستشفى وأُجري لي فحصان لأنسجة الكبد، لم يكن أحد يعرف فعلاً ما كنت أعاني منه. إن كل ما قالوه لي أن الأمر خطير جداً، أُجري لي الفحص النسيجي الثاني في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٨٨، أي قبل يوم من إعلان

حكومة فلسطين المستقلة. وكان ظهور نتيجة الفحص يحتاج لبعض الوقت فتوسّلت إلى الأطباء كي يسمحوا لي بالذهاب إلى البيت لأكون مع أهلي واصدقائي في يوم الاستقلال، لكنهم لم يكونوا راغبين بذلك وسمحوا لي أخيراً شريطة أن أرتاح كل الوقت.

«وصلت منزل أهلي ظهراً وكان ذلك اليوم طبعاً يوماً مميَّزاً لم أستطع القيام بالكثير سوى النوم. وعند منتصف الليل سمعت سيارات الجيش «الجيب» تصل خارج البيت وكان هناك العديد من الجنود فأحاطوا به. ثم دخل الغرفة رجل من شرطة اسرائيل السرية كنت أعرفه من خلال استجوابات السجن. بدا مبتهجاً عندما قال: (نريد أن نحتفل بيوم الاستقلال معك يا تيري، وستأتين معنا إلى حفلة حيث توجد الموسيقى والزينة) قال أهلي انني مريضة جداً ولا يمكن أن أخرج. فصار يضحك ويتحدث عن تفويت الحفلة. فأُخذت من البيت ووضعت في سيارته بجانبه، وراح يقود السيارة لمدة أربع ساعات في أرجاء الضفة الغربية كانوا خلالها يعتقلون المزيد من الناس. كان البرد قارساً وكنت أشعر وكأنني فاقدة الحس، لكن رجل الشرطة السرية ظل يتحدث ضاحكاً عن الحفلة المسلية التي سنقوم بها.»

سُلِّمت تيري إلى سجن راشن كومباوند بعد الساعة الرابعة صباحاً وظلّت في زنزانة ثلاث عشرة ساعة ثم أخذت إلى الاستجواب، «لقد ناداني المحقق بالحمارة وقال انه سيرفسني كحمارة حتى اعترف. لقد بدا غاضباً جداً واستمر يقول انا لا أعرف لماذا يحضرونك دائماً إلى هنا وأنتِ لم تعترفي بشيء. إذهبي إلى جهنم.

«ثم دخل الغرفة رجل الشرطة السرية ذاته مبتسماً وعاملني كصديق قديم قائلاً (مرحباً يا تيري سنجري حديثاً قصيراً معاً). لم يناقش أية تهم لكنه صار يتحدث عن السياسة، انه يريد أن يعرف أين سينتهي الأمر، وماذا كنت أظن يعني اعلان الحكومة الفلسطينية المستقلة، فقال: مبروك ـ تهانٍ يا تيري، هذه طريق فلسطين؛ وأحضر لي جرائد عبرية لم أحاول أن اقرأ فيها شيئاً لكنه حاول أن يعرف رأيي حول الاقتراح الاسرائيلي باجراء انتخابات في الضفة الغربية.»

وتذكرت ايضاً أنه سألها عن حزب الليكود والمستوطنين وعن رأيها في عدد من المسائل السياسية الحساسة. «واستمر على ذلك فترة من الزمن، لم أكن أشعر بالرغبة في النقاش، كنت أعاني من ألم شديد من الخزعة. فالجرح ما يزال مفتوحاً والغرفة رطبة وكانت رجلاي متورمتين، وبعد ثلاثة أرباع الساعة اخذوني إلى التابوت. كان التابوت عبارة عن زنزانة ارتفاعها ١,٧٠ متراً وبعداها ٨٠/ ٦٠ سنتمتراً والجدران من الاسمنت

والباب من صفيحة حديدية. وكان السجناء المحتجزين في التوابيت لا يسمح لهم بالذهاب إلى «التواليت» لذلك كانوا يبولون ويتبرّزون ويتقيؤون على أنفسهم.

«كانوا يعلمون بجرح الخزعة، ومع ذلك فقد دفعوا بي إلى هناك. لم يكن لدي ساعة. استطعت فقط أن أقدّر أنه مضى على وجودي هناك ساعة ونصف أو ساعتان عندما بدأت أشعر بالدوار والمرض فوراً، فبعد مرور دقيقة من وجودك هناك تشعرين بحرارة السجينة السابقة التي كانت قد أخرجت لتوها من هناك. كان المكان حاراً جداً وذا رائحة قوية. كان يوجد البول والعفن في كل مكان. لم استطع تحمّل ذلك فأغمي عليّ. وعندما استعدتُ وعيي بدأت أقرع على الباب. جاء رجل الشرطة السرية وفتحه ثم ضحك وسألني «الا تريدين أن تموتي؟» وأخذني إلى زنزانة أخرى حيث يوجد عدد من النساء وكنت مريضة طوال الليل.»

في صباح اليوم التالي وبعد أن قضت ثمانية واربعين ساعة في السجن أُخذت تيري إلى المحكمة حيث طلبت السلطات هناك تمديد اعتقالها. لم تذكر أية تهم ضدها لكن المدّعي أشار إلى اضبارتها السرية، وافقت المحكمة على التمديد بالرغم من التقارير الطبية التي قدمها محاميها ثم أُعيدت إلى سجن راشن كومباوند.

«أصبحت الآن نصف مشلولة لا أستطيع الحركة ولا تناول الطعام، وكنت أشعر بألم شديد في أطرافي. ولمّا فحصني طبيب السجن قال أنه يجب نقلي إلى المستشفى الحكومي وبقيت في أحد أقسامه حتى الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي. شعرت بشيء غريب جداً كان الماء يملأ جسمي. وقال طبيب المستشفى ان حالتي نادرة جداً وأنه يجب أن أعود إلى مشفاي الخاص، رغم ذلك أخذتني سيارة شرطة إلى السجن ثانية.

في صباح اليوم التالي شعرت تيري أنها سوف تموت لا بد. دُعيتْ إلى الاستجواب لكنها لم تستطع الحركة وظلّت مستلقية على الأرض. وعندما دخل رجل الشرطة السرية الذي أصبح المعذّب الخاص بها إلى الغرفة ناداها بمرح «ما هذا يا تيري؟ ترفضين الاستجواب؟» وحاول عندها أن يحرّك ساقيّ فرأى انني مشلولة، فأُرعب وقال: «حسناً يا تيري، لا تموتي.. لا تموتي هنا.. سأطلق سراحك خلال عشر دقائق.»

وأُطلق سراح تيري بكفالة، وجاء أهلها ليأخذوها ونقلوها فوراً إلى المستشفى حيث كان التشخيص الأول هو التهاب كبد حاد، وبعد المعالجة الضرورية سمح لها بالذهاب إلى البيت على أن تعود إلى المستشفى كل أسبوع... وقد رأى الأطباء أن عليها أن تذهب إلى شيكاغو أملاً في الحصول على الشفاء، لكن السلطات العسكرية

رفضت في هذا الوقت الموافقة على هذه الفكرة.

وخلال شهر أعيدت إلى السجن من أجل المزيد من الاستجواب، ولكن هذه المرة أخبرت بغرابة ان السلطات لم تعد مهتمةً بها. بدوا وكأنهم يريدون ممارسة لعبة القط والفأر، فبعد أسابيع قليلة وصلت قوات من الجيش إلى منزلها. «كان هناك مئات من الجنود الذين أحاطوا بالبيت، ودخل جندي من الباب الأمامي وطلب اليَّ أن أجمع ثيابي، فأخبرته أنني لا أزال مريضة جداً لا أستطيع العودة للسجن، لكن الجندي قال «ربما سوف تموتين» فحملوها خارج البيت.

وهكذا وضعت في السجن الانفرادي وفي زنزانة لا نوافذ لها، لكنها كانت شاكرةً لأنه يوجد مراحيض على الأقل ـ كما كان هناك بعض التفاصيل الأخرى في الزنزانة رقم (١٠): ـ فراش صغير يعجّ بالبقّ وفجوات في السقف تتساقط منها الفئران، وقالت ايضاً انها عندما كانت تقف كانت الفئران تتساقط على رأسها ووصفت الطعام الذي كان يقدم لها بأنه مقرف جداً.

في صباح اليوم التالي، الساعة الحادية عشرة أُخذتْ إلى غرفة الاستجواب ولكن لم يأتِ أحد لاستجوابها حتى الساعة الثالثة إلّا ربعاً بعد الظهر، وقالت أنه بين اللحظة والأخرى كان يأتي إليها رجل من الشرطة السرية الاسرائيلية في الغرفة ليقول: «آه! انت تيري بولاطه» قبل أن يغادر تاركاً إياها وحيدة ثانية. وعلى الرغم من أنهم حاولوا إضعافها بمثل هذه الأساليب، فقد ظلّت هادئة قوية متحدّية. «وعندما دخل واحد منهم طلبتُ اعطائي مخصصات السجن لي من السجائر: اربع لفافات مجانية، فقدم لي بعض سجائر من نوع «كنت» مما كان يحمله «كلا يا سيدي لن آخذ منك شيئاً. فقط ما يسمح به لي في السجن.»

واخيراً وصل رجل الشرطة السرية المعروف من قبلها سابقاً. فسألته ما هي التهم الموجّهة ضدها، فأجابها مبتسماً «ليس هناك تهم لكننا نريدك عندنا في السجن، لقد افتقدناك ونريدك دائماً أن تكوني هنا» ثم راح يسألها أن تعرّف له كلمة «إرهاب وارهابي» ثم سألها عن المجلس الوطني للانتفاضة فظلّت تيري صامتة تماماً أمام هذه المواضيع، لكن عندما تذكرت ذعره وخوفه عندما انهارت من قبل، حذّرته من انها قد تصبح مشلولة ثانية.

«أخبرتهُ انه ليس من الخير له أن يحتفظ بي في السجن لأن التورّم قد يبدأ ثانية، وطلبت اليه ألا يضعني ثانية في الحبس الانفرادي بل مع الفتيات الأخريات في الغرف ذات الثمانية أسرّة». فضحك وربما أُعجب بشجاعتها ففعل ما طلبت منه.

«كان وجودي مع الأخريات أفضل بكثير، حيث يوجد حمامات الماء والطعام

يقدم على صواني صغيرة، لكن بعد ثمان واربعين ساعة بدأت أشعر بالألم ثانية. كانت الفتيات يطعمنني ويغسلنني ويمشطن شعري» ثم توقفت قليلاً وقد احمر وجهها عندما تذكرت «في إحدى الليالي خجلت من نفسي إذ لم استطع الحركة للذهاب إلى المرحاض، وبصراحة بللت فراشي.

«في صباح اليوم التالي جاء الطبيب وسألني لماذا أنام على شرشف مبلّل، فأمر أن يسمح بخزانة صغيرة إلى جانب السرير وبطعام حميةٍ خاص من امي لأن الطعام الذي كان يقدّم لي في السجن كان مملوءًا بالفلفل.

احتجزت تيري لمدة ستة أسابيع أخرى ثم أخذت إلى محكمة عسكرية في اللدّ. في هذه الجلسة أبلغوها اخيراً بالتهم الموجّهة ضدها ـ عضوية منظة التحريرة الفلسطينية، دفع سبعين شاكل لشخص ما ليشتري مواد لصنع اعلام فلسطينية، توزيع نشرات الانتفاضة. ثم ذكرت اضبارة الشرطة السرية الاسرائيلية ثانية ولكن محتوياتها لم تُعلن. عند هذه المرحلة كانت قد أشرفت على الموت. لكن القاضي أمر أن يُخلى سبيلها بكفالة. وظلّت في بيتها أسبوعين تماماً عندما التقطت ثانية، كان ذلك بتاريخ الثامن من آذار (مارس) لعام ١٩٨٩ وهو يوم النساء العالمي، «كانوا يحضرون كل واحدة يعتقدون انها قد تنشط في هذا اليوم أو في أي يوم مظاهرة» قالت ذلك وأطلقت ابتسامة نادرة واستطردت «أعتقد انهم يعتقلونني لأن منزل رئيس الشرطة هو في أعلى الطريق المؤدي الى بيتي، لذلك كان سهل المنال عليه.»

وأُحضرت أمام المحكمة ثانية في آذار (مارس)، وفي هذه الجلسة لم يكن لدى القاضي أي عطف عليها فقبل ادعاء المدعي بأن اخلاء سبيلها بكفالة قد يعرّض للخطر أمن الدولة وأمر أن تحبس حتى محاكمتها في ٢٩ أيلول (سبتمبر). خاف أهلها وصديقاتها انها قد تموت في السجن فحرّكوا حملة دولية عامة حولها فأُطلق سراحها في حزيران (يونيو) من عام ١٩٨٩.

كنت أتحدث إليها قبل ثلاث أسابيع من سفرها إلى شيكاغو للمعالجة الطبية. فقد كانت حكيمة بنظرتها إلى مستقبلها «ينبغي عليّ أن أعود من أجل المحاكمة، لكن طالما أنا بصحة جيدة فلا يهمّني أن أكون في السجن.»

بعد المعالجة عادت تيري إلى اسرائيل لكنها لم تُدعَ للمثول أمام المحكمة ولا تزال دعواها مفتوحة، لكن الشهرة التي تحيط بها أوقفت السلطات الاسرائيلية عن اتخاذ أي إجراء آخر. في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٩٠ تزوجت تيري ولكن في ليلة زفافها اعتقل زوجها وسجن مدة أسبوع وهي الآن تعمل لحساب «مكتب استعلامات الحقوق الانسانية الفلسطينية» في القدس ولا تزال تتلقى العلاج بسبب حالتها الصحية.

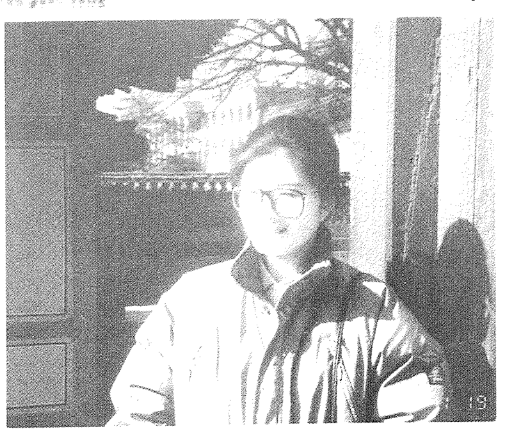


١ الآنسة كيم «قاتلة ١١٥ شخصاً أثناء اقتيادها على سلم الطائرة في كوريا الجنوبية بعد اعتقالها في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٧ . يمسك بها أفراد من وكالة الاستخبارات المركزية الكورية ومن بينهم المرأة (على يسارها) التي صارت تطلق عليها الآنسة كيم اسم الأخت الكبرى، فيما بعد. كانت تحاول الانتحار وقتها لذلك وضع لها شريط على فمها لمنعها من أن تعض لسانها وتنزف حتى الموت.



٢ الآنسة كيم صُوِّرت في سيؤول، كوريا الجنوبية، نيسان (أبريل) ١٩٨٩، بعد صدور العفو عنها من قبل الحكومة الكورية بعد نسفها طائرة الركاب، وهي الجريمة التي حكم عليها بالموت لأجلها.

٣ متنكرة بالنظارات: صَوَّر الآنسة كيم أحد حُراسها خارج قصر دوك سو، في سيؤول بعد العفو عنها. وهي الآن امرأة حرة، لكنها بقيت تحت حراسة مشددة ٢٤ ساعة في بيت آمن من بيوت الاستخبارات المركزية الكورية.





٤ ليلى خالد ـ الفدائية الفلسطينية ـ اتخذت هذا الوضع من أجل صورة في مخيم تدريبها في الأردن في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٩ـ أصبحت نجمة حركتها وهي: الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، بعد أن اختطفت بنجاح طائرة ونسفتها في سوريا.



٥ بعد سنة وخمسة أشهر من العملية الترقيعية لتغيير مظهرها، أخذت هذه الصورة لليلى خالد في القاهرة. كانت قد أخلي سبيلها للتو من قبل الحكومة البريطانية بعد القاء القبض عليها في مطار هيثرو عندما فشلت محاولتها الثانية لاختطاف طائرة.

٦ ليلى خالد معها ابنها في الرابعة من عمره، على شرفة بيتها في دمشق في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٩.







٧ أطفال فلسطينيون يقفون على أنقاض بيتهم في مخيم الجلازون في الضفة الغربية. كان البيت قد دمره الجنود الاسرائيليون لأنه كان «معقل الارهابيين». حزيران (يونيو) ١٩٨٩.

٨ بانه بسّام السايح، ١٤ سنة، رهن الاعتقال المنزلي لرميها الحجارة على باص اسرائيلي، رام الله قرب القدس. حزيران (يونيو) ١٩٨٩.

٩ بعض أعضاء «النينجا» من فتيان وفتيات، الذين تبدأ أعمارهم من الثامنة، والذين يشكلون القوات الضاربة في الانتفاضة. وهم يرتدون ألبسة سوداء وأغطية للرأس، ويكسبون احترام الكبار ـ قطاع غزة، حزيران (يونيو) ١٩٨٩.







١٠ ريتا أوهاري، كانت قد أطلقت النار عليها من قِبَلِ الجنود البريطانيين وأشرفت على الموت في ايرلندا الشمالية في ١٩٧١. وبعد أن اتهمت بمحاولة القتل ـ وهذا ما كانت تنكره دوماً ـ هربت الى دبلن حيث عاشت طيلة التسع عشرة سنة الماضية. وهي اليوم رئيسة تحرير جريدة «الأخبار الجمهورية» جريدة الحركة الجمهورية. يقال أن لها علاقة وثيقة بمجلس الجيش الجمهوري الارلندي. أُخذت الصورة عام ١٩٨٣، وأعطتها بنفسها إلى المؤلفة.

١١ نساء الجيش الجمهوري الايرلندي في موكب جنازة في ديري.

١٢ سوزانا رونكوني وراء قضبان قفص من فولاذ بُني لمحاكمة الارهابيين في قاعة محكمة في فلورنسا. كانت الآنسة رونكوني ـ مؤسّسة منظمة الخط الأمامي وقائدتها المشتركة ـ قد اعتقلت ثانية للتو بعد أن نفذ عشيقها لها أمر الهرب من السجن. شباط (فبراير) ١٩٨٢.





١٣ أنجي ڤييت، واحدة من أشهر أعضاء منظمة الجيش الأحمر الالماني وأكثرهم قسوة. هربت في عام ١٩٧٦ من السجن بعد أن نشرت القضبان في زنزانتها وتوجهت الى فرنسا حيث اطلقت النار على شرطي. ولكنها أخيراً القي القبض عليها في ماجدبورغ في عام ١٩٩٠ وهي في المانيا الشرقية سابقاً حيث بقيت تعيش لمدة سبع سنوات.



١٤ سوزان البريشت، التي قادت فدائيي الجيش الأحمر الالماني إلى بيت العم جورجن بونتو بقصد اختطافه. وقتل من قبل أحد رفاقها فهربت إلى العراق، حيث قامت مجموعة فلسطينية بحمايتها. ألقي القبض عليها في حزيران (يونيو) ١٩٩٠ فيما كان يدعى سابقاً برلين الشرقية، وحكم عليها بالسجن لمدة اثنتي عشرة سنة في ١٩٩١.



١٥ أستريد برول، عضو قديم في مجموعة بادر ماينهوف التابعة للجيش الأحمر الالماني. أخذت الصورة في لندن عام ١٩٨٨. قبل ذلك بتسع سنوات كانت قد سلمت من بريطانيا الى المانيا الغربية بعد أن اكتشف انها تعمل ميكانيكية في كاراج، في شرق لندن. اسقطت عنها تهمة محاولة قتل ضابطين في الشرطة وأطلق سراحها. انها اليوم تعمل صحفية في هامبورغ.





bittet um Mithilfe.

Terroristen

Im Zusammenhang mit den Straftaten der »Rote Armee Fraktion« fahndet die Polizei unter anderem nach folgenden Personen



Sabine Elke
CALLSEN



Wolfgang Werner
GRAMS



Birgit Elisabeth
HOGEFELD



Andrea Martina
KLUMP



Friederike
KRABBE



Barbara
MEYER



Horst Ludwig
MEYER



Christoph Eduard
SEIDLER

50 000 DM

Vorsicht Schußwaffen!



Hinweise an jede Polizeidienststelle.

١٦ لوحة الارهابيين الالمان، تعود الى عام ١٩٩٠، تظهر ثمانية من أعضاء منظمة الجيش الأحمر الألماني، خمس منهم نساء. وجه فريديريك كرابي (اليسرى في الأسفل) تعلوه ابتسامة تشبه ابتسامة مونا ليزا (الجوكوندا).

ليلى خالد

هل تتوقّعون مني أن أتحدث عن الأزياء

لقد أنجزت ليلى خالد في ساعات قليلة ما فشل في فعله حياة وموت المئات من المقاتلين الفلسطينيين الآخرين سواء قبل أو بعد ذلك. لقد استأثرت بانتباه وسائل الاعلام العالمية وسحرتها. ان الطريقة التي قامت فيها بذلك - استيلاء على طائرة واخلائها من الركاب ثم تفجيرها - جعلتها أداة خطيرة الى حد كبير - لكنها أيضاً على النقيض من ذلك رومانتيكية وشجاعة في نفس الوقت. فهي لم تقتل أحداً وذلك (بسبب حظها السعيد أكثر مما هو بسبب التصميم)، وعرضّت حياتها للخطر. وان حقيقة كونها جميلة وشابة كان لها علاقة كبيرة بالاحساس الذي كونته.

وأصبحت رمزاً لجنسها بالعنف وحطّمت أكثر من مليون من المحرمات بين ليلة وضحاها. وألهبت الثورة في أفكار المئات من الشابات الغاضبات حول العالم.

وكان الجميع يردن أن يكنَّ ليلى خالد - من نساء منظمة الأحوال الجوية الأمريكية الى الأعضاء المؤسسين في جماعة (بادر منهوف Badder Meinhof) ونساء (الفوج الغاضب Angry Brigade) في بريطانيا. لقد استحوذت على القوة وكنَّ يردن جميعاً أن يقتفين خطواتها. لقد زينت صورها الجرائد والمجلات في عرض العالم وطوله مظهرة رأسها مغطى بحشمة ويديها تعانق بندقيتها، حتى شُهد لها انها المرأة الأولى في احتجاز الطائرات. لكن حقيقة أنّ امرأة أرجنتينية قد سبقتها في هذا المجال فعلاً قبل ثلاث سنوات في محاولة «غزو جزر فوكلاند» لم تكن ذات تأثير. . . كما أنّ انتباهاً طفيفاً أعطي الى زميلها الشاب في عمليات الاستيلاء والاحتجاز. لكنها هي بالذات التي استحوزت على انتباه الجمهور.

وكما حدث للآنسة «كيم»، كتب كثير من الرجال إلى ليلى يطلبون منها الزواج،

فأعلنت ليلى أنها أهينت بسبب هذه العروض. لقد كانت فتاة فلسطينية طيبة لم تقبل ولا حتى الاطراءات من الرجال.

كتبت الصحف في ذلك الوقت انها خبأت الأسلحة والخطط المتعلقة بخطف الطائرات وغيرها في ثيابها الداخلية. فنحن أمام امرأة جميلة لكنها بلا شك مميتة، وبسبب ذلك، فهي في غاية الروعة.

ان الجانب الساحر من حياتها الثورية هو الجانب الذي أحبته بلا حدود، فبعد عملية خطف الطائرة قامت بدورة في الشرق الأوسط مع حاشية من الشباب الحراس فاستقبلت وأقيمت لها الولائم في عدد من السفارات. لقد أحبت ليلى ذلك كلّه، كالرعاية والمداهنة، لكن شعبيتها كانت تهدّد ما كانت تشتهي أكثر من أي شيء آخر: فرصة القيام بذلك مرة أخرى.

لقد حصلت على غبطة وطرب بالغين من اختطافها طائرتها الأولى، بدفعها القنبلة اليدوية تحت أنف الطيار ثم نزعها لمسمار الأمان ثم شعورها بالقوة الذي لا يتسنى الا للقليل من النساء العربيات ـ بحيث أنها كانت مستعدة لتحمل الألم في سبيل تكرار ذلك. لقد أراد رؤساؤها في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وهي فئة ماركسية، أن يستخدموها مرة أخرى في عملية اختطاف رباعية رائعة في العام التالي، لكنهم كانوا يخشون ان وجه ليلى أصبح معروفاً لذلك من الأفضل استعمال شخصية أخرى غيرها فلم تقبل ذلك. لقد أقرّت أن وجهها يمكن أن يكون مشكلة فقررت أن تُغيّره. وخلال عدة أشهر بدّلت وجهها متحملة الألم وذلك بواسطة عمليات ترقيعية.

في السادس من أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ حاولت مع شاب شريك لها احتجاز طائرة «العال» لكنهما فشلا وأُطلق النار على شريكها فأُردي قتيلاً من قبل بعض مارشلات الجو الاسرائيلي الذين استبقوا على حياتها، وقد أُلقيت من الطائرة عند قيامها بهبوط اضطراري في مطار «هيثرو Heathrow»، ثم سجنت في قسم شرطة إيلينغ Ealing في لندن.

ورغم أن عمليتها قد فشلت، فان ثلاث نفذت من قبل فريق من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في نفس الوقت وكانت كلها ناجحة. أرغمت طائرتان منها بالطيران الى «حقل دوسنز» وهو مطار تابع للجبهة في الأردن حيث كانت ستجري مقايضة ركاب الطائرات بالفلسطينيين المعتقلين في السجون الاسرائيلة. ولما اعتقلت الآنسة خالد أصدرت الجبهة أمراً ان طائرة ركاب بريطانية يجب أن تحتجز وتؤخذ الى حقل دوسنز أيضاً. وسيكون ثمن اطلاق سراح الركاب هو اطلاق سراح ليلى من سجن البوليس في

لندن. ما ان قُرّر ذلك حتى نفذ حالاً، فاحتجزت طائرة VC10 بريطانية ووضع ركابها الثلاثمائة في الحقل الجوي بعد ثلاثة أيام. لقد أصبحت الفتاة ذات البندقية كما كانت تعرف ليلى مركز أزمة دولية.

قضت ثلاثة أسابيع في قسم الشرطة هناك بحسب روايتها الخاصة، وحاولت إغراء المشرف الذي حاول استجوابها. ومما أثار حفيظة اسرائيل ان الحكومة البريطانية أذعنت لمطالب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وأطلقت سراحها.

ان حادثة حقل دوسنز جعلت الملك الأردني حسين يطرد الفلسطينيين من بلاده، وكان قتالاً دامياً نتج عنه موت المئات من الفلسطينيين. وقد ذهل العالم العربي للحرب بين الأشقاء. وقد عرفت هذه الحرب باسم **«أيلول الأسود»** ولدت بعده فئة من أكثر الفئات تطرفاً حملت نفس الاسم. وفي عام ١٩٧٢، كانت جماعة أيلول الأسود مسؤولة عن عملية ميونيخ التي قتل فيها احد عشر رياضياً اسرائيلياً.

وفي تلك الأثناء توارت ليلى عن الأنظار وقد وضع ثمن غال لرأسها ولكن حركتها لم تكن تريد أن تخسر نجمتها الأولى. في عام ١٩٨٠ ظهرت في كوبنهاغن تقود وفداً لمنظمة التحرير الفلسطينية الى مؤتمر النساء لعشرة أيام في الأمم المتحدة، وأصبحت امرأة سياسية كبرى وانتهت أيام القتال عندها. لقد استغرق أمر تتبعها بعض الوقت، فقد قيل لي أنها من الممكن أن تكون في لبنان أو العراق. وقد أخبرني أحد مستشاري ياسر عرفات انها سمنت كثيراً ورزقت ثمانية أولاد وأن كلّ ما تهتمّ به الآن هو تحضير الطعام. لكن قادني طريق آخر الى اجتماع في فندق في لندن مع أحد المتعاطين مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. فأوصل طلبي الى مركز القيادة في سوريا ثم أعطاني رقم هاتفها. وبشعور يشوبه عدم التصديق ردَّت على الهاتف «نعم. هنا ليلى خالد» قالت بلكنة انكليزية بسيطة، «متى ستأتين؟».

أما الآن فهي تعيش في مخيم اليرموك للاجئين في دمشق، والمخيّم مدينة بحد ذاته يتألف من الخيام المقدمة من جمعية الصليب الأحمر منذ أربعين سنة والتي حل محلها اليوم بيوت ومخازن ومدارس ومكاتب. وبعد شارع فلسطين مباشرة في قلب المخيم يوجد مركز اللجان الشعبية للنساء الفلسطينيات، أي قسم النساء في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. ولقد أقلعت هذه المنظمة من زمن طويل عن الارهاب وكرّس قسم النساء نفسه بصورة رئيسية لأعمال الصالح العام: مثل تربية الأطفال والعناية بهم. وكانت كل فتاة تريد الالتحاق بالجماعات الضارية توجه الى اتجاه آخر.

وتُنفَّذ أعمال اللجان الشعبية في أجنحة عامّة وفي الطابق الأرضي لأحد المنازل

المشغولة من قبل عدة أُسر، وفي القسم الخلفي يوجد مكتب السكرتيرة الأولى للحركة السيدة ليلى خالد. وهو يتألف من غرفة مربعة واسعة ذات أثاث عاتم. فالكراسي مكسوة بقماش بني وممتدة على طول الجدران ويشغل إحدى الزوايا مكتب خشبي مغطى بورق الجدران والى جانبه خزانة مكسورة لاحتواء الأضابير. للغرفة نافذة واحدة يحجب النور الطبيعي عنها دفتان معدنيتان كثيفتان أوصدتا في وجه الحرارة الشديدة. ينير الغرفة مصباح كهربائي لكن وضع على المكتب مصباح غاز جاهز للاستعمال في حال انقطاع التيار الكهربائي في المنطقة... ولا يسمع في هذه الغرفة سوى صوت مروحة السقف.

لقد حذّرت ليلى بشكل دقيق ان لا سائق تاكسي من دمشق يمكن أن يعرف عنوان مكتبها وعيّنت احدى وكالات السفر في المخيم لتكون مكاناً للقاء بها. كانت جالسة داخل الوكالة أمام صورة بالحجم الطبيعي مقصوصة من الكرتون لمضيفة طيران مبتسمة وهي تحمل بيديها صورة طائرة لشركة الطيران الفرنسية. لم يبدُ عليها انها ترى غرابة موقفها.

وفي وقت قصير صارت تُعرف بليلى الصغيرة، لكنها بدت مدهشة غريبة بسبب كل تلك العمليات الجراحية في وجهها، وشرحت لي أنها بعد العملية الثانية لاختطافها الطائرة عادت إلى الجرّاح وطلبت أن يُعاد لها وجهها الأصلي. كانت تعاني من الصداع بسبب تلك العمليات، لكن هذا الألم هو من النوع الذي اعتادت عليه منذ سنوات. بدأت حالات الصداع مع العملية الأولى لتبديل أنفها عام ١٩٦٩، وربما كان من السهل التعرّف على شخصيتها فوراً بسبب ملامحها البارزة وعينيها السوداوين اللتين تنحرفان بشكل ملحوظ نحو الأعلى، وسألتها فيما إذا كانت الجراحة سبباً في ذلك، كلا، أنّ هذا طبيعي.. وهي فخورة بذلك.

لقد سمنت ليلى ولكنها ظلّت جذابة، فشعرها قصير حسن القصّة لكن ثيابها كانت من النوع الخاص بامرأة عربية محافظة لكن عصرية: تنورة سوداء ومحتشمة فوقها بلوزة ذات ألوان براقة. وعندما دخلنا مكتبها سألتها عن أولادها الثمانية فأجابت: «كلا، لدي فقط ولدان، وهذا يكفي» وضحكت، وسألتها عن الطبخ فأجابت قائلة: أنها تكرهه.

وعندما جلسنا معاً أخبرتني كم كانت متعبة بسبب أشغالها الزائدة، ثم قالت انها لا تعرف كم من الوقت ستمنحني أو تستطيع أن تمنحني. قالت هذا وهي تصب القهوة. ثم أخرجت نسخة عن سيرة حياتها كتبتها بنفسها عام ١٩٧٣ فلمع وجهها

بشكل ملحوظ. إنها المرة الأولى التي ترى فيها الكتاب في لغة تستطيع أن تفهمها، لأن النسخة الوحيدة الأخرى التي أعطيت لها كانت باللغة اليابانية، قلّبت الصفحات الأولى المصوَّرة بشغف وأشارت الى آثار عملياتها الجراحية في بعضها.

وبدأت قصتها متحدثة بلغة انكليزية متردّدة ولكنها لما وصلت فيها الى أيام خطف الطائرات بدأت الكلمات والضحكات تتدفق بطلاقة وقد أضاء وجهها ولمعت عيناها. كانت تلك الفترة بلا شك ذروة حياتها، مع ذلك فقد ادَّعت ان عملها اليوم هو أعظم مغزى وأكثر خطورة.

إن بهجتها بتلك الأيام كانت من الأهمية بحيث جعلتها تلقى صدىً عند عدّة نساء أخريات. فالمرأة الثورية الايطالية سوزانا رونكوني أومأت متعاطفة عندما أخبرتها عن حماسة ليلى في سرد حوادث ماضيها. لقد وافقت قائلة «نعم، يوجد شيء مثير في الأعمال التي نقوم بها، ويوجد بُعد بطولي لحياتنا». كما أن واحدة من نساء ايتا (ETA) أيضاً قارنت «عناء العمل السياسي الشرعي بتأثيرات استعمال البندقية فقالت «أعتقد انك بالسلاح تستطيعين أن تتغلبي على هذا العمل وأن تنجزيه كاملاً وتحصلي على النتائج سريعاً». ان النساء ـ ربما أكثر من الرجال ـ يظهرن تقديرهنّ لقوة السلاح. وللثقة التي يعطيها لهن.

وتزوجت ليلى من طبيب كزوج ثان، ولأسباب أمنية كانت تشير اليه ببساطة باسم «بدر»، مع انها لا تزال معروفة في المخيم باسم عائلتها حيث يحترمها أبناء جيلها تماماً. أما زواجها الأول فكان من رفيق في حرب العصابات لكن هذا الزواج انتهى بالاتفاق بعد سنتين فقط وقالت ببساطة «لم نرَ بعضنا البعض أبداً»، أما الآن فلديها صبيان صغيران في السابعة والرابعة، وقالت انها لم تكن تقصد أن تنجبهما متأخرين هكذا، لكن كيف ذلك، وهي لم تقابل والدهما إلاّ منذ ثمانِ سنوات.

ان حياتها مشغولة جداً، وعملها في المكتب يبدأ في الساعة الثامنة صباحاً، وفي الساعة الثانية بعد الظهر تبدأ فرصة أربع ساعات تمكّنها من الذهاب إلى البيت لرؤية اولادها ورعايتهم بعدها تعود إلى المكتب لتبقى فيه أحياناً حتى العاشرة ليلاً. وهكذا فهي ليست أقل نشاطاً كامرأة متوسطة منها كشابة. قالت بابتسامة فاترة ان السطو على الطائرات هو من عمل الماضي، أما الآن فالانتفاضة هي الأمر الهام، واستطردت قائلة «إن عملي الآن هو تجنيد النساء من اجل الانتفاضة، وانه لعمل صعب: انه أصعب حتى من القتال، لكن أصعب مهمة عرفتها هو كوني أماً».

أعتقد انها كانت تعني ما تقول، فلقد أحبّت ولديها لكنها رزقت بهما متأخرة

فأتعبها ذلك، فهي تشعر انها مشتتة بين العناية بهما وبين عملها السياسي. وأخبرتني انها شعرت بعقدة الذنب بسبب الساعات الطويلة التي تقضيها بعيدة عنهما. واعترفت انها لكي تعوض ذلك كله فقد دلّلتهما بشكل رهيب.

وتابعت تقول انها منذ عهد بسيط فقط اعتبرت ان ابنها الكبير أصبح في سن مناسبة لتطلّعه على حياتها الأولى «لقد انفعل كثيراً واستدارت عيناه في وجهه، وسألني إن لم أكن أشعر بالخوف عندما كنت استولي على الطائرات فقلت لا بالطبع لا، فقال لي طالما الأمر هكذا فسأكون خطّاف طائرات أيضاً.»

وبحكم دورها أمينة اولى كان على ليلى أن تزور بلداناً كثيرة لتجنيد النساء، لكن عملها هذا كان مقيداً ومحصوراً لأنها تدعي ان الاسرائيليين ما يزالون مصممين أنها يجب أن تمثل إلى المحاكمة بسبب اختطاف طائرة العال، لقد ذهبت إلى روسيا حيث التحقت بالجامعة في أول الثمانينات وإلى ليبيا حيث استقبلت باحترام كسياسية كبرى. ومع أنها دعيت لحضور مؤتمرات أخرى في العالم فإن عليها أن تكون حذرة من اتفاقات تسليم المجرمين الفارين ومن احتمال اغتيالها، ولم تخلُ حياتها من عدة محاولات على ما يبدو. فقد وضعت قنبلة تحت سريرها في الشقة التي كانت تسكنها في بيروت لكنها عثرت عليها في الوقت المناسب عندما كانت تبحث عن «شحاطتها»، لكن اختها كانت اسوأ حظاً، ففي اليوم الذي كان يفترض أن يكون يوم زفافها والذي يصادف عيد الميلاد لعام ١٩٧٦ أُطلق عليها النار فأرديت قتيلة في منزل اختها ليلى في صور ويعتقد أن ذلك تمَّ من قبل عملاء الموساد ـ المكتب السري الاسرائيلي الذين اعتقدوا انها ليلى. لقد قلقت ليلى على اولادها بسبب نشر صور لهم خشية ان عملاء الموساد أنفسهم يمكن أن يصبوا جام نقمتهم الخائبة عليها عن طريقهم.

وبالتأكيد لم يكن يعوز ليلى مشاعر الأمومة فقد لاحظتُ عندما كانت تتحدث عن النضال الفلسطيني استمرار الوقاية الخاصة بالأمومة الذي رأيته عند مواطناتها من نساء الانتفاضة. فقد كانت تشعر أنها أم لآلاف الأطفال الفلسطينيين وكان ذلك الإدراك وتلك الرغبة في حصولهم على مستقبل أفضل هما اللذان دفعاها الى الاستمرار عندما رأت الأطفال على الطائرة التي كانت على وشك اختطافها.

* * *

كانت ليلى خالد في الرابعة من عمرها عندما قررت أمها الهرب من فلسطين مع أولادها الثمانية. كان ذلك عام ١٩٤٨ عند ولادة الدولة الاسرائيلية. لقد ألقيت القذائف على حيفا حيث كانت العائلة تعيش حياة رغدة كعائلة من الطبقة المتوسطة،

وهرب كثير من الفلسطينيين من الارهاب إلى لبنان المجاور وبعضهم هاموا على وجوههم. اما والد ليلى وكان صاحب أملاك ورجل أعمال فقد التحق بمقاتلي المقاومة واختفى.

وكافحت أمها وحدها في تلك المدينة التي مزقتها الحرب ترعى أطفالها في القبو اثناء القذف واطلاق النار. وأخيراً وبعد اقتناعها انهم سيموتون جميعاً اذا بقوا في المدينة استأجرت سيارة لنقل العائلة إلى صور في جنوب لبنان حيث يعيش بعض أقربائها. تذكرت ليلى ذلك تماماً فقالت «سمعت والدتي تخبر أحد الجيران ان سيارة تنتظرنا لتقلّنا بعيداً، فركضت إلى المطبخ لأن والدي كان قد ترك لنا بعض التمر مخبأ في سلال هناك، فاختبأت بين السلال ولم أكن أريد الخروج، شعرت أن عليّ أن أحمي سلال التمر لأننا اذا تركناها فسيأخذها اليهود. وفجأة دوّى انفجار كبير، لقد ضربت السيارة بقذيفة وانفجرت، لقد كنت سبباً في منع أهلي من أن يكونوا في السيارة.

«أتذكر قول والدتي إلى الجيران انه ربما كانت تلك إشارة فبقينا المزيد من الوقت. واستفحل أمر القتال وأصرّت والدتي اننا يجب أن نذهب. في هذه المرة ركضت واختبأت تحت السلّم بينما كان الآخرون يصعدون إلى السيارة. نسف المنزل وقتل رجل امامي فصرت أصرخ. وخرج كل الجيران إلى الرجل الميت وكان على أمي أن تساعد ايضاً، وهكذا ولمرة ثانية لم نغادر حيفا ذلك اليوم.

«لكن في المرة الثالثة جاءت اختى وسحبتني من شعري من تحت السلّم وقالت: «هل أنت غبية؟ اذا بقيت هنا فسيقتلك اليهود».

وظلّت ليلى تبكي طول الطريق إلى لبنان، ثم تذكرت ضاحكة الآن كيف حملت معها كرتونة من علب «بودرة التالك» لأختها الصغيرة طول الطريق، «كنت مصممة ألا يأخذ اليهود علب البودرة ـ لقد كان ذلك الشيء الوحيد الذي أخذته معي.»

ومضت العائلة لتقيم عند عم لها في صور، ومع أنه قُدمتْ لها غرف في المنزل فإن السيدة خالد أصرّت على أن تعيش في الطبقة السفلى من البيت. لقد اتخذت هذا القرار اولاً على امل العودة القريبة الى منزلهم الخاص وثانياً كإشارة رمزية: فقد اخبرت الأولاد انهم بسبب طردهم من فلسطين لا يملكون الحق بالعيش في بيوت الآخرين.

لم تنس ليلى أبداً احساسها بالمنفى «لقد كان منزل عمي محاطاً بحديقة واسعة فيهاالكثير من أشجار البرتقال. ولما كنا في بيتنا كنا نقطف البرتقال عندما نجوع لكن هنا اختلف الأمر فأمي كانت تضربنا على أيدينا قائلةً أن هذه البرتقالات ليستْ لكم، ولا

يسمح لكم بأكلها، ومنذ ذلك الوقت لم يكن باستطاعتي تناول البرتقال. كم تجلب لي شعوراً بالحزن رؤية هذه البرتقالات والتفكير بأن أشجار البرتقال في حديقتنا لا تزال في حيفا وهي الآن تخصّ اناساً آخرين.»

وبعد حوالي سنة تقريباً في صور ظهر والدها، لقد هرب من وطنه مع جماعةٍ من المقاتلين الفلسطينيين ووضع في مخيّم للاجئين في مصر. لقد عانى من نوبة قلبية هناك وتمكّن الطبيب الذي كان يعالجه أن يهرّبه من مصر إلى لبنان فعاد إلى اسرته رجلاً محطماً مريضاً، كما تقول ابنته، فقد ذهب كل نشاطه، فهو غير قادر عن العمل وظلت عائلته تعيش لسنوات كثيرة على رواسب غذائية وثياب من معونات الامم المتحدة (UNRWA) حتى أصبح الابن الاكبر قادراً على العمل.

كان غياب الأهل سواء من خلال الموت أو السجن او المرض شيئاً واضحاً لاحظته عند كثير من النساء. فتساءلت فيما إذا كان ذلك ما يقودهنَّ لأن يصبحن اكثر غضباً وأكثر تصميماً على ضرب النظام الذي سلب منهن الأم او الأب.

وظلت عائلة خالد التي أصبح عدد أفرادها اربعة عشر ولداً تعيش في منزل ذي غرفتين لمدة ستة عشر عاماً وداومت ليلى على المدرسة الوحيدة لأولاد اللاجئين الفلسطينيين. وهي عبارة عن خيمة كبيرة ضربت في الطريق. وهنا تحدثت بمرارة عن اوضاع تلك المدرسة: كان أكثر من مئة تلميذ من مختلف الأعمار يجلسون على الأرض وتحوي المدرسة اربعة صفوف تدار معاً. في الصيف يكون الحر شديداً وفي الشتاء يكاد الأطفال يتجمدون. وكانت كافة الشكاوى إلى امها تلقى آذاناً صماء. إن كافة مشاكلهم سببها اليهود، «كانت أمي تعزو سبب كل شيء إلى اننا لم نعد في فلسطين، والسبيل الوحيد لجعل كل شيء أفضل هو العودة وليس لدينا وسيلة من اجل ذلك. أن كل شيء لنا هو في فلسطين، كما أخبرتنا، وطالما أننا لسنا هناك فليس لنا الحق في ان نعترض او نتذمر مما يحدث لنا هنا في لبنان. اننا عندما نعود إلى فلسطين سيكون لنا كافة الحقوق وعندها نستطيع أن نعيش حياتنا الطبيعية.

«وسألت لماذا غادرنا بلدنا؟ لماذا نحن هنا؟ فقالت أمي: «لأن اليهود أخذوا فلسطين. كانوا مسلّحين ونحن لم نكن أقوياء كي نقاتلهم»، واعترفت ليلى حينذاك انه «من تلك اللحظة بدأ في قلبي حقد عظيم على اليهود» وقالت ان تلك اللحظة كانت بداية إدراكها السياسي.

ومنذ سن العاشرة بدأت ليلى واخواتها يلتحقنَ بمظاهرات الأولاد الفلسطينيين الآخرين في شوارع صور وبمناسبة الأعياد الوطنية الفلسطينية. في البداية استحسنت

والدتها مثل هذه النشاطات، ولكن عندما كبرت فتياتها وأصبحن اكثر نشاطاً صارت تخشى على سمعتهنّ وحاولت منعهنّ عن ذلك. كانت صور مدينة محافظة ولم يكن ينتظر من الفتيات فيها ان يذهبن إلى اجتماعات سياسية يحضرها الرجال. لكن زوجها الذي كانت صحته قد تحطمت من أجل القضية لم يوافقها على ذلك وقال: «إنّهن يرذْن وطنهنّ لذلك يجب عليهنّ ان يقاتلن».

كان ذلك موقفاً ثورياً نوعاً ما بالنسبة لأب عربي، جعل ليلى بعد سماع أبيها قادرةً على التمرّد على تعاليم أمها ومجتمعها وأن تكون ابنةً مطيعة تعرف واجبها وذلك في عيني أبيها.

حاولت السيدة خالد أن تناقش زوجها في ذلك. وبرأيها إن ولدها الذي يدرس في الجامعة يمكن أن يشترك في القتال إذا أراد ذلك. اما بناتها، طالما يعشْنَ في البيت، عليهنّ أن يأخذن بعين الاعتبار وضعهنّ كعازبات واحتمال بقائهن كذلك، اذا بدأن يسخرن من التقاليد. لكن لم تقع حججها إلّا على آذان صمّاء لذلك لجأت إلى حجز ابنتها العنيدة في المنزل واقفال الأبواب عليها.

«وذات ليلة يئست من الذهاب إلى احد الاجتماعات وكانت امي قد أخذت ثيابي من البيت، فنهضت وتسللت خارج المنزل وانا أرتدي ثياب النوم فقط، فعبرت المدينة مرتدية هذه الثياب، وعندما وصلت الاجتماع انتقدتني رفيقاتي لارتدائي ثياباً غير ملائمة. وعندما رجعت إلى البيت صفعتني أمي لخروجي من المنزل بثياب النوم». وضحكت ليلى لدى تذكرها ذلك، مما أظهر بوضوح تصميمها الأكيد كي تكون جزءاً من القضية.

وبعد عام من ذلك أي عام ١٩٥٨ عندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها تفجّر العنف في شوارع صور بين الجيش اللبناني والحركة العربية الوطنية التي ينتمي اليها اخوة واخوات ليلى الأكبر منها، ومع انها كانت تعتبر أصغر من ان تقاتل فقد أوكلت اليها مهمة نقل الطعام في منطقة المعركة إلى المقاتلين الفلسطينيين، وتذكرت الرعب الذي شعرت به عندما كانت مع الأولاد الآخرين يسيرون في لهيب النار وأواني الطعام تتأرجح فوق رؤوسهم.

«كانت القذائف تنتشر حولنا ونحن نسير وشعرت بالخوف لكنني شعرت أيضاً انني يجب أن أقوم بذلك وكنت سعيدة انني كنت أساعد.» وعندما وجدت اخوتها واخواتها توسلت ان يسمح لها بالانضمام إليهم فأجابوها فوراً ان عملها هو إحضار الطعام لهم، وسيأتي دورها للقتال عندما تكبر. تألمت ليلى لفشلها في الانضمام وتابعت

مهمتها الخطيرة ثمّ كافؤوها في نهاية القتال بجعلها عضوةً في الحركة العربية الوطنية.

وأخذت ليلى دورها بجدية فائقة، وكان من واجباتها توزيع نشرات الحركة على المتعاطفين معها، كانت مهمة خطيرة جداً عندما تكون المدينة خاضعة لحظر التجول. كاد أن يقبض عليها، ولكنها تظاهرت كفتاة عربية محترمة بالغة التأثر قائلة: «كان الوقت شتاءً والساعة حوالي السابعة مساءً إذ لا يفترض أن يكون احد خارج منزله، فوضعت النشرات في جيب سترتي وخرجت.

«لم أبتعد كثيراً حتى أوقفني أحد الجنود وسألني أين كنت ذاهبة. عرفت أنني أواجه الاعتقال، لكنني أجبته بسرعة ان عليّ أن أحضر القابلة، ولما سألني أين أعيش أشرت إلى إحدى الجهات وتوسلت إليه قائلة: «أخشى أن أسير وأتجول اثناء منع التجول.. أرجو ان تنتظرني هنا.. هل ستفعل؟ وانطلت الحيلة عليه بشكل رائع وراح الجندي ينتظر ليلى التي بدأت تنتقل من منزل إلى منزل تطلب القابلة المزعومة، وهي تزجّ النشرات تحت كلّ الأبواب. وفي النهاية أخبرتني بفخار واعتزاز أنها وزّعت كل النشرات وبعدها أوصلها الجندي إلى منزلها. «لقد سرّت الحركة فيّ كثيراً، كان ذلك أشبه ما يكون بامتحان اجتزته بنجاح».

كانت ليلى مثل الآنسة «كيم» تحب ثناء الكبار عليها، وكانت تحفظ تفاصيل أمثال هذه الحوادث بدقة عظيمة. ولم يعد يُنظر إلى شبابها كمشكلة، فقد زارت بصحبة رفيقاتها الضفة الغربية ـ وهي الجزء المتبقي من فلسطين ـ وحضرت المزيد من الاجتماعات هناك.

وفي الوقت نفسه برزت ليلى كطالبة علم لامعة، ففي سن السادسة عشرة نالت منحة دراسية في مدرسة داخلية في صيدا، ومن هناك ذهبت بمنحة أخرى عام ١٩٦٢ إلى الجامعة الأمريكية في بيروت. أرادت ان تصبح صيدلانية لكن نقودها نفدت فاضطرت إلى ترك ذلك بعد سنة. كانت تلك، كما كانت تعتقد، واحدة من أكبر خيبات الأمل في حياتها. وقد يتساءل المرء هل كان من الممكن أن يسمع العالم بليلى خالد لو أنها استطاعت أن تتابع دراستها؟

سافرت بعد ذلك لتعيش في الكويت حيث كانت تكسب معيشتها كمدرّسة للغة الانكليزية وكانت ترسل جزءاً من راتبها إلى أهلها. لم تجد ليلى العمل مشجّعاً فانغمست في السياسة الفلسطينية. وفي عام ١٩٦٦ انضمت إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ وهي منظمة غير شرعية في الكويت ـ وبدأت بتجنيد الأعضاء في الحركة. وبعد سنة من ذلك ـ حدثت حرب الأيام الستة المذلة واحتلال الضفة الغربية من قبل اسرائيل.

فأصبحت ليلى مقتنعة بعد ذلك ان مستقبلها هو مقاتلة في حرب العصابات وتوسّلت إلى قيادة الجبهة الشعبية ان يرسلوها إلى التدريب في إحدى قواعدهم العسكرية في الأردن.

وطلب اليها أن تصبر قليلاً، وهذا ما لم تحبه، أن تنتظر سنة. . . فإذا استطاعت أن تجنّد عشرة أعضاء جدد باستطاعتها الذهاب بعد ذلك. كان تصميمها وقدرتها ظاهرتين: فقد استطاعت أن تجند عشرين انساناً في فترة عشرة أشهر. وفي صيف عام ١٩٦٩ أعلنت لأمها (بعد وفاة أبيها) انها سوف تشترك في حرب العصابات. ولم تكن السيدة خالد لتفاجأ بهذا الخبر كما لم تكن مسرورة به أبداً، لكن ليلى أصبحت الآن شابة مستقلة في الخامسة والعشرين من عمرها وقد صممت على ذلك. وكان ردّها على التماس أمها التي طلبت منها قائلة «دعي اخوتك يذهبون ليصبحوا مقاتلين واما أنت فيجب أن تعودي إلى الكويت، أجابت على الفور: «سأعود إمّا ميتة أو مقاتلة مدرّبة». انطلقت بمحض اختيارها لكنها أخذت أخويها الأصغرين معها الى المخيّم أيضاً وما أصعب على النساء ان تقيّد بالرجال.

كان ذلك بداية أسعد فترة في حياتها. «كان المخيّم في الجبال وكان التدريب شاقاً: خارجاً في الهواء الطلق. كان الجو بارداً حتى في الصيف وكنا نعيش في الخيام الممتدة على سفح الجبل. لم أهتم بالصعوبات. فقد كنت سعيدة لأن حلمي بأن أصبح مقاتلة قد تحقّق. وهكذا أصبحت الآن أقوم بشيء ما لأمنع احتلال بلادي الذي دام خمسة عشر عاماً. بلغت بي السعادة حداً لم أستطع معه النوم خلال الأيام الثلاثة الأولى مع لياليها.

«كان يوجد في المخيم فتيات غيري لكن الصبية كانوا أكثر. ومع ان معظم التدريبات كانت منفصلة وكان الصبية والفتيات ينامون في خيام في أجزاء منفصلة من المخيّم، فكنا نتدرّب معاً على بعض الأشياء كاستعمال البندقيّة والرمانات اليدوية والاستماع الى محاضرات عن الخطط الحربية وقتال الالتحام القريب.

كانت مختلف الفصائل السياسية الفلسطينية تُمثَّل في مخيم تدريب حرب العصابات بالاضافة الى ممثلين عن الجماعات الثورية الأوروبية بما فيها عصابة بادر ماينهوف. وبعد شهر واحد من وصول ليلى الى المخيّم ضرب المخيم بالقنابل من قبل الاسرائيليين لكن لم يُقتل أحد. وانتقل جنود العصابات ووجدهم الاسرائيليون ثانية وظلت الحال كذلك طيلة فصل الصيف. وفي نهاية ذلك عاد أخوا ليلى الى البيت اما هي فبقيت.

لم يستغرق منها سوى أسابيع قليلة كي تقرر انها يجب أن تذهب الى مجال العمل.

«وعندما انتهى التدريب بقيت أقول انني أريد أن أذهب الى قتال الاسرائيليين، فقال القائد (انتظري، سوف يأتي دورك) ودُعيت ذات ليلة وطلب اليَّ أن أغادر المخيم بمهمة. لم أصدق ذلك، اعتقدت أن أمي أرسلت في طلبي وأن في الأمر حيلة ما لإعادتي اليها، قلت انني لا أريد الذهاب لكن القائد أصرّ على ذلك. وحتى عندما أعطاني أسلحة لأنقلها الى بيروت لم أصدّق انني أرسلت في مهمة حتى وصلت الى هناك. ولما قدّمت نفسها للقائد في بيروت قال: حسناً، حضّري نفسك، هل أنت جاهزة للموت؟، وكان جوابها جواب مقاتلة كاملة (نعم بالطبع ـ أنا عضوة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.»

ثم سألها فيما اذا كانت مستعدة للقيام بخطف طائرة فاستقبلت ليلى ذلك بنوبة من الضحك وعبّرت عن سرورها قائلة «تصورت في ذهني صورة لي وأنا أحمل طائرة على ظهري والجميع يركضون نحوي لأخذها؛ أراد القائد أن يعرف ما هو المضحك في ذلك ثم قال لي بغضب أن اختطاف الطائرات ليس لعبة مضحكة». شعرت ليلى وكأن المهمة قد سحبت منها فقالت «بذلت بعض الجهد لخنق ضحكاتي خشية أن يغيّر رأيه، ثم أخبرني قائلاً «حسناً، ستؤخذين الى مكان ما لتبدئي التدريب من أجل هذه المهمة».

وفي نوع من الذهول عُلّمت ليلى خطوة خطوة ميكانيك الطائرة التي ستحجزها. كان عليها أن تستوعب كل التفاصيل العملية لطائرة «بوينغ ٧٠٧» حتى أصبحت في النهاية قادرة على قيادتها. لم يكن الأمر صعباً عليها لأنها كانت كما قالت جيدة في الفيزياء والرياضيات والكيمياء. لم تكن حالة الذهول التي عانتها بسبب مشاكل المسؤولية بقدر ما كانت بسبب ضخامة تلك المسؤولية وروعة اختيارها لها.

وهنا ذكّرتني الى حد كبير بالآنسة «كيم»، وبهجتها بسبب اختيارها لمهمة كبيرة مثل هذه. ومثل تلك المرأة الكورية اختيرت ليلى لهذا المجد من بين رفيقات أكبر منها وأكثر خبرة. ومثلها أيضاً صمّمت على انجاز مهمتها على وجه تام.

«كنت سعيدة لأنني سأقوم بعملٍ كبير مثل هذا، لقد فكرت بسعادتي وليس بالخطر، ولا حتى بالركاب الذين سيرعبون وربما سيقتلون.

ولما سألت قادتها «لماذا وقع اختياركم عليَّ بالذات؟» كان جوابهم لأنها كانت جيدة في التدريب ومصممة على القتال. لقد أرادوا امرأة لهذا العمل لكي يظهروا للعالم ان النساء أيضاً مشتركات في الثورة.

لا يعرف أحد فيما اذا كانوا قد تكهنوا بمدى التأثير الذي سيكون على العالم

لامرأة جميلة شابة تحتجز الطائرات. لكنهم حتى لو تكهنوا به فانهم لن يستطيعوا أن يتصوّروا الشعبية الضخمة التي ستستقطبها حولها، مع ان المهمة قد تفشل بشكل خطير في النهاية.

وأرسلت ليلى الى منزل أمها لتحضر جواز سفرها ولتخبرها أنها عائدة الى الكويت للدراسة ولم تذكر أبداً مهمتها المقبلة لأنها تعرف ان أمها ستبذل قصارى جهدها لتمنعها من الذهاب. عندئذ سألتها ماذا فكرت أمها عندما سمعت باحتجاز الطائرة.

«لقد عرفت ذلك لأول مرة منذ سماعها الأخبار من الراديو ـ كان ذلك قبل أن يذكر اسمي ويبدأ الطيار باعطاء أوصافي ـ جميلة، فتّانة وذكية، قال اخوتي واخواتي، انها ليلى، لكن أمي لم تصدق ذلك وقالت: ان ابنتي ليست جميلة وليست فتّانة الى هذا الحد وبالاضافة الى ذلك فهي موجودة في الكويت الآن، ولما أعلن عن اسمي كانت فخورة جداً بي وقالت ان ذلك طبيعي بالنسبة لي وانه الطريق الذي اخترته بمحض ارادتي».

يبدو ان السيدة خالد قد قبلت في هذا الوقت الدور الذي اختارته ابنتها في الحياة وكان مسرورة به أيضاً. انها مثل بقية أمهات الانتفاضة تبدو قادرة أن تضع جانباً ما يعتبره المرء مشاعر الأمومة الوقائية الطبيعية وذلك من أجل الخير الأعظم للقضية.

* * *

في يوم ٢٩ آب (أغسطس) ١٩٦٩ هبطت طائرة تابعة لخطوط (ترانسولداير لاينز TWA) في رحلتها رقم ٨٤٠ في روما للتزود بالوقود وهي في طريقها الى تل أبيب من لوس أنجلوس وكذلك لأخذ المزيد من المسافرين، وكان في مخططها الهبوط ثانية في أثينا قبل المرحلة الأخيرة من رحلتها. وكان من المقرر أن الاستيلاء على الطائرة سوف يتم بين روما وأثينا.

وفي استراحة المسافرين في مطار روما جلست ليلى وشريكها وهو شاب عربي يدعى سليم وقد تقابلا لأول مرة قبل ساعات قليلة في المطار وتعرّفا على بعضهما من الصور ومن تبادل اشارات متفق عليها سابقاً للتعرف على شخصيتهما، وقد حرصا على أن يجلسا قرب بعضهما في الطائرة ولكن في استراحة المسافرين تجاهلا بعضهما البعض بشكل تام.

لم تتذكر انها كانت عصبية المزاج رغم أنها كانت تحمل المتفجرات والقنابل اليدوية

في حقيبتها ومسدساً محشوراً في زنار سروالها. كانت تبدو كامرأة شابة غنية وكان ذلك جزءاً من التغطية التي اعتمدتها لأنها كانت مسافرة هي وسليم في الدرجة الأولى. كانت تتذكر كافة التفاصيل المتعلقة بلباسها ـ سروال أبيض فاخر وحقيبة يدوية وقبعة تتناسب مع لباسها.

لقد اشترت تلك الثياب من أحد المحلات في روما حيث طارت اليها من بيروت قبل أيام قلائل. ومع أنها أصرّت انها كانت قليلة الاهتمام بالثياب ألا أن المهمة كانت تتطلب هذه اللوازم بالضرورة ومع هذا فقد أحبت قبعتها البيضاء. «لقد صنعتُ لها شريطاً بحيث إذا دفعت أثناء عملية احتجاز الطائرة لا أخسرها». هذا ما تذكرته. لقد صرفت ليلى بعض وقتها في روما في رؤية المناظر المختلفة وقد أعجبتها. وقالت ببساطة «إن روما مدينة جميلة حقا».

من الصعب أن نفهم كيف يستطيع المرء أن يتمشى في أرجاء المدينة يتمتع بمناظرها قبل لحظات من عملية احتجاز طائرة وارعاب ركابها الى حد كبير. لقد قضت الآنسة «كيم» بعض الأيام قبل مهمتها بنفس الطريقة. هل كانت هؤلاء النساء قاسيات القلوب أم انهنّ شاذات أم أن ضخامة ما سيقمن به يحطم العاطفة في قلوبهن؟ ومع ذلك فانها لم تكن مجردة تماماً من أية أحاسيس. لقد تذكرت أنها لم تكن قادرة على تناول أي طعام قبل أربع وعشرين ساعة من العملية كما أنها عانت بعض وخزات الضمير بينما كانت تنتظر الصعود الى الطائرة. «كنت جالسة في قاعة الانتظار حيث كانت هناك طفلة صغيرة تلعب بمرح مع اختها. لقد تحقق لي لأول مرة انني سأعرض حياتها للخطر. فإذا انفجرت الطائرة أثناء العملية أو اذا أسقطت بنيران اسرائيلية مضادة للطائرات فان هؤلاء الأطفال الأبرياء سيموتون».

كيف استطاعت أن تفكر بهذا ثم تستمر بهدوء في تنفيذ خططها؟ هل فكرت بأنها ليست هي حقاً التي توشك أن تعرض للخطر حياة هؤلاء الأولاد؟ لقد تساءلت ان كان من المهم أن تقول: لو أن الطائرة تفجرت بنفسها. أو أن تقول «إذا فجّرتُ الطائرة بنفسي».

كان تبريرها لذلك هو أيضاً امتداد لشعور الأمومة: «ثم تذكرت الآلاف التي لا تُحصى في مخيمات اللاجئين. انهم يعتمدون عليَّ لأخبر العالم عنهم، عندما تذكرت وجوههم شعرت بالقوة تغمر قلبي».

وتفقدت عدتها وهي جالسة في الباص الذي ينقل المسافرين الى الطائرة المنتظرة، وكان يجلس الى جانبها رجل يوناني مرح بدأ محاورته معها سائلاً الفتاة من أين هي، ولما

لم تكن ترغب بفتح حديث معه بسبب انشغال عقلها بالحوادث التالية أجابته بقولها «احزر!» فسرد لها عدة بلدان من أمريكا الجنوبية ثم ايطاليا واسبانيا ولم يذكر أي بلد عربي، مما أبهج ليلى كثيراً: كلما قلّ شكّ الناس بجنسيتها كلما كان الأمر أفضل. وقطع الرجل سلسلة أفكارها مرة أخرى، فأخبرها انه كان يعيش في أمريكا وأنه عائد الى وطنه اليونان لأول مرة بعد خمسة عشر سنة لكي يرى أمه. لقد هزتها كلماته وجعلتها تتحقّق مما هي على وشك أن تفعل. «لقد صُدمت. كنت على وشك أن أطلب اليه أن يمضي ويأخذ طائرة أخرى، تذكرت عندما ذهب والدي الى القدس عام ١٩٦٤ ليلاقي أمه، فسمح له أن يقابلها عند البوابة، وانتظر ثلاثة أيام لكنها لم تأت. وجاءت بعد يوم رحيله بيأس، ولم تسمع شيئاً عنه ولا عن موته. كنت أعرف تماماً ماذا يعني أن تكون بعيداً عن وطنك وعن أمك وأخوتك. كنت أفكر بذلك بينما كان هذا الرجل يتحدّث إليّ، ولم أعد أصغي اليه بعد ذلك لكنه بعد قليل راح يستعرض احدى الجرائد قائلاً إنه يدعوني الى أثينا لقضاء بعض الوقت معه.

* * *

عندئذ شعرت ليلى بالذنب حول تأثير أعمالها على المسافرين الذين استطاعت أن تتصور نفسها في مواقعهم. وبعد عملية اختطاف الطائرة كانت قادرة أن تصلح الوضع مع رفيقها اليوناني. فاقتربت منه بينما كان جالساً يبكي وأخبرته «الآن - إنك بخير، سنرسل إلى أمك برقية بحيث تستطيع أن تقابلك.» لم يكن لديها الآن وقت للعواطف. وعندما انصرفت تحضر نفسها للدخول في العملية، كانت هادئة تماماً. كانت مصممة تماماً كما أخبرتني مردّدةً كلمات الآنسة كيم «ستنفذ مهمتها بشكل كامل». إنّ دورها في العملية هو أن يكون معادلاً لدور سليم إن لم يكن أعظم منه. كانت لديها كافة المعرفة التقنية للطائرة وان عليها أن تضطلع بضبط الطيران. أما سليم فكان خبير المتفجرات الذي سيفجر الطائرة عند هبوطها. كان ينبغي أن يثير اختطاف الطائرة المشاعر بشكل أكبر مما فعل، لأنه كان من المفروض أن يكون الجنرال اسحق رابين، سفير اسرائيل في واشنطن حينذاك ورئيس الأركان الاسرائيلي السابق على متن الطائرة ذاتها. وكان الخاطفون سيأمرون الطائرة بالتوجه الى سوريا حيث يُقدَّم رابين الى المحاكمة أمام محكمة ثورية. لقد حول رابين خط سيره في آخر لحظة دون علم ليلى وسليم.

كان مقعداهما في الدرجة الأولى قريبين من مقعد الطيار، وكان ينبغي أن يبدأ الاختطاف بعد نصف ساعة من الإقلاع. «واستمرت مضيفات الطائرة يسألننا ماذا نريد أن نأكل أو نشرب، لم نكن جائعين لكن في النهاية طلبنا بعض القهوة، وأخبرتُ

المضيفة انني أشعر بالبرد فأحضرت لي بطانية وضعتها فوق ركبتي وعندها أخرجت الرمانات اليدوية من حقيبتي لأحضرها وكانت البطانية تغطي كل ما كنت أفعل.

«وعندما نهضنا لنسرع إلى مقعد الطيار ظهرت المضيفة تحمل صينية فرأت الرمّانة فألقت بالصينية في الهواء وصرخت بأعلى صوتها» كان هذا المظهر هو مظهر العنف الوحيد خلال هذه العملية. طلبت اليها أن تهدأ في حين دخل سليم حجرة الطيّار وطلب منه أن يصغي إلى ربانه الجديد. ومضت تتبعه لكنها وجدت طريقها مسدودة بسليم ذاته، لقد كان طويل القامة وعريضاً، ولم يسمح لها حجمه بأن تضغط نفسها وتمرّ. لكن ليلى الشجاعة الجبارة تسلّلت من بين ساقيه ورماناتها جاهزة في يدها. لقد قالت أن عليها أن تدخل إلى هناك لأنها كانت تحمل الرمانات والمسدس، ولما كانت نحيلة الجسم حينذاك فقد تسللت من بين ساقي سليم. يمكنكم تصور ردة الفعل عند طاقم الطائرة لدى رؤية عملاق تتبعه امرأة صغيرة تحمل الرمانات.

لم تلاحظ ليلى نفسها اية ردة فعل، ربما لأنها مشغولة وهي تتحسّس داخل سروالها بحثاً عن شيء ما. ضحكت عند تذكرها، وربما لم يكن ذلك مناسباً كما شعرتُ. «لقد وقفت والرمانات في يدي، وبحثت عن المسدس فوجدت أنهّ قد انزلق إلى أسفل ساقي. كنت قد حشرته في وسطي لكنني لم أتناول الطعام منذ اكثر من يوم كامل فأصبح السروال واسعاً.. ضحكتُ وهززت ساقي حتى ظهر المسدس.. التقطته والتفت إلى الطيار قائلة «أنا ربانك الجديد»، وتابعتْ قائلة ان طائرته قد أصبحت في عهدة وحدة من الكوماندوس التابعين للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

ثم راحت تصف بالتفصيل كيف شرعت تلقي الرعب في قلوب الطيار والطاقم. ان مثل هذا التصرف يمكن أن يكون ضرورياً لكي يقرّر من هو المسؤول ـ لكن ما فعلته كان قاسياً، ومع ذلك فقد بدت مستمتعة بذلك. وربما كان وجودها في مركز القوة هذا هو نوع من الخبرة المتهورة، خصوصاً اذا كان مَن يشغل هذا المركز امرأة.

«نزعت مسمار الأمان من الرمانة وأريته للطيار وسألته (هل تعرف ما هذه)؟ فأجاب بالنفي فأريته الرمانة عن قرب اكثر فأومأ برأسه بالإيجاب.»

وسألها ماذا تريد فأجابت الطيران إلى اللّدة في فلسطين، فتشوّش الطيار، لقد أصبح اسم اللدة بعد خلق اسرائيل اللّد، وسألها اذا كانت هذه هي الوجهة التي تريد. عرفت انها كانت تلعب لعبة، لكنها اللعبة التي تريد ان تربحها.. وكررت اسم اللدة مضيفة انهم لن يتوقفوا في أثينا بعد الآن.

سألتها عن شعورها وهي تحمل الرمانة في يد والمسدس في أخرى، فأجابت بكل بشاشة «لم أبدُ أنني أقوم بشيء خاص، لقد بدا ذلك طبيعياً حقاً. هذه هي المرة الأولى التي أقوم فيها بعمل كهذا، وشعرت بالهدوء، هكذا كنت أشعر دائماً داخل نفسي، خصوصاً عندما يحتاج عمل عنيف إلى التنفيذ. والحقيقة انني كنت أستطيع أن استخدم عقلي بالكامل وأكون باردة هادئة.»

- إن صفة العملية المطلقة هي ميزة جديرة بالملاحظة الخاصة عند النساء الثوريات. هذا ما أخبرني إياه مرة مكتب المخابرات الالماني.

كانت تريد أن تنفذ مهمتها بطريقة كاملة. وفي حين نسيت أن شخصاً ما كان يمكن ان يهزّ ذراعها فتنفجر الطائرة، قالت «فضلاً عن ذلك فان لدينا تعليمات دقيقة الا نؤذي احداً، وان كل ما علينا هو حماية أنفسنا والدفاع عنها دون أن نعرّض الطائرة للخطر.» وأغلق سليم ما وصفته بصمام الغاز في السقف لأنهما حُذّرا من أن الطيار يمكن ان يفتح ذلك الصمام وعندها ينخفض الضغط في الطائرة، عندها ستصاب ليلى وسليم بالاغماء اذا لم يستعملا قناع الاكسجين. لكن ليلى نفسها جلست وتناولت السماعة ومكبر الصوت وخاطبت برج مراقبة أثينا، وفي الوقت نفسه أرادت أن توحي للطاقم انها على اطلاع واضح بمسائل الطائرات خشية ان يلجؤوا إلى وسائل الخداع. سألت المهندس كم من الوقود لديه فكذب عليها فاستشاطت غضباً، كما تذكرت، قائلة «لقد اخبرته: (اكذب علي ثانية وعندها سأكسر عنقك). غضب المهندس لكن الطيار أخبره ان يقول الحقيقة.. عندما عرفوا انني على علم بشؤون الطيران والطائرات.

وبعد ان ألقت الرعب في قلوب الطاقم إلى حد الطاعة والاذعان انتبهت إلى المسافرين وبدت لهم وكأنها تستمتع بوقتها وتريدهم أن يشاركوها ذلك. «استريحوا وتناولوا الشمبانيا اذا اردتم ذلك». بدا الطيار بعد ذلك طوع بنانها فبدلت خطة طيرانه بخطتها فأمرته «اتبع خط الطيران هذا» وتذكرت كيف صار يكرر الكلمات كالببغاء «حسناً.. هذا الخط». لقد اقتربوا من اللّد حيث بدأت ليلى تلهو وتمرح اكثر مع برج المراقبة. ضحكت لنفسها قائلة «أصبحوا كالمهووسين» فأخبرتهم «لم تعد هذه طائرة خطوط عبر العالم TWA ٨٤٠ هذه طائرة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ فلسطين العربية الحرّة. رفضت اللّدة أن تدعونا كذلك، وأخبرونا أنهم لا يتحدثون إلينا. وطلب مساعد الطيار أن يسمح له بالكلام الى البرج ليطلب اليهم استعمال الاسم الذي أريده فأعطيته مكبر الصوت، وبدا صوته كالصراخ «هذه الجبهة الشعبية، فلسطين

العربية الحرة، وعليكم ان توافقوا على هذه التسمية. يوجد قنابل يدوية هنا». «غضبت منه كثيراً»، «لماذا قلت هذا؟ هل أهددك بالقنابل اليدوية؟».

لم يستطع الرجل أن يجيب كثيراً قال: «كلا، لكن على اللّد أن تدرك جدية وخطورة الوضع. عندئذ نادتنا اللّد مستعملة الاسم الصحيح». إنّها لاجئة فلسطينية.. وامرأة ايضاً ـ ربطت العدو بإصبعها الصغير.

أخبرت اللّد أنها ترغب بالهبوط فكان الجواب ظهور ثلاث مقاتلات اسرائيلية الى جانب الطائرة. وهنا لعبت ورقتها الرابحة ففتحت مجموعة الاتصال الداخلي حتى يستطيع المسافرون أن يسمعوا كل كلمة، فحذّرت اللّد «سوف نفجّر الطائرة» وأخبرت برج المراقبة أن مصير المسافرين يتوقف على تصرفاتهم، وللحال انطلقت المقاتلات مبتعدة.

لماذا أخضعت المسافرين إلى هذا الرعب الإضافي بهذا التبادل؟ كان الجواب ان ذلك كان لرفع اللوم والاحساس بالمسؤولية من نحوهم. «كان من الهام أن نطلع الركاب اننا نريد أن نهبط بسلام، وان الاسرائيليين هم الذين يمنعوننا من ذلك. وأخبرت المسافرين إن الاسرائيليين يهددونكم.»

وفي اللحظة التي كنت أجد فيها تلك الإنسانة صلبة، رأيتها تتحوّل فجأة إلى رقيقة تريد اكتساب عطفنا. قالت «كنا نطير فوق فلسطين ولا أستطيع حتى الآن أن أصف مشاعري ـ كنت أنظر اليها لأول مرة كما كنت أشعر ماذا يعني كوني بعيدة عنها. ثم رأيت وجه والدي. كان يبتسم لكنه ميت. لم أستطع الكلام. أردت من الطيار أن يهبط فقال انه لا يستطيع بسبب الطائرات المقاتلة. فخاطبت البرج وأخبرتهم أن يأخذوا طائراتهم بعيداً.»

وصمتت فترة لدى تذكرها تلك اللحظة، كانوا يصرخون ويقذفونني بالكلام البذيء. كنت أصرخ وأنا أردّ عليهم، وأخبرت الطيار أن يهبط، لا يهم ما يحدث وليكن ذلك.. فتوسلوا اليّ أن أنتظر خمس دقائق وأمرت ليلى الطائرة أن تنزل إلى ارتفاع عشرة آلاف قدم فصارت تطير فوق المدرج الذي بدا لنا كثكنة مدججة بالدبابات والجنود. لقد أعطاها دفعاً قوياً أن ترى ما فعلت.

لم تقصد ابداً أن تهبط، كما أخبرتني، انما كان ذلك نوعاً من عرض القوة. فمن خلال برج المراقبة وجّهت كلمة ثورية إلى الفلسطينيين، ثم أمرت الطيار أن يتجه نحو دمشق. كان واضحاً جداً انها هي التي فعلت كل شيء ولم يلعب سليم دوراً في ذلك.»

ومرة أخرى وجهت انتباهها إلى المسافرين تحثّهم عن طريق مضيفات الطيران أن يأكلوا اي شيء يريدون وكانت تمازحهم بقولها «كل ذلك على حسابنا». وفي حجرة الطيار انفعلت كثيراً من مساعد الطيار. لقد كان الطيار هادئاً، أما مساعده فكان يلتهب غيظاً، لقد بدا ذلك في وجهه. «عندما نظر إليّ كانت عيناه مملوءتين خوفاً وكراهية، فقلت له: «أبعد وجهك وعينيك عني، فانها لا تعجبني». كان يشرب لكن كأسه كان فارغاً وظل يرفعه إلى شفتيه ويضعه إلى فمه. لقد وجدت ذلك شيئاً مسلياً حقاً. ثم اخبرتني انها سألته اذا كان يريد شيئاً يشربه لأنه كان يشرب الأوكسجين فقط.

كان ذلك مثلاً على عدم قدرتها على فهم الناس الآخرين كما لو أنهم يشكّلون خيبة أملٍ لها كما يصعب عليهم ألا يكرهوها. أرادتني أن أفهم ماذا فعلت، مع ذلك بدت غيرَ قادرة على أن تفعل الشيء نفسه للآخرين.

وقاربت الطائرة مطار دمشق الذي كان جديداً رائعاً وكان على وشك أن يستخدم لأول مرة من قبل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. اما السوريون، وقد رأوا الحماية الاسرائيلية بالنفاثات، فكانوا سيسقطونها بنيرانهم لو لم تؤكد هي لدمشق أنّ لديها ركاباً على متن الطائرة. لم تستطع ان تقاوم الرغبة في وخزة أخيرة عند النهاية فأنذرت القبطان«اهبط برفق، فقد تسقط رمانتي اليدوية» وعندما هبطوا حيّته وشكرته على تعاونه. وتذكرت انه كان بالغ الحيرة عند ذاك.

«ثم ذهبت لأخاطب المسافرين، وكنت ما أزال أحمل رمانتي اليدوية لكنني كنت أضعها جانباً حتى لا يستطيعوا رؤيتها، وطلبت اليهم أن يغادروا في خمس دقائق. وأخبرت طاقم الطائرة أن يحضروا الركاب للخروج عن طريق منزلق الطوارئ، لكن الركاب لم يصغوا، وفرغت الطائرة بعد دقيقة واحدة، وقفت هناك أقول: «حسناً، لا تتزاحموا»، لكن كل واحد كان قد خرج.

وجاء دور سليم في العملية فأعطته ليلى المتفجرات من حقيبتها فوضعها في حجرة الطيار. عبرّ الصمّام فقفزت ليلى من منزلق الطوارئ يتبعها سليم الضخم بسرعة فكسره ووقع فوقها، وانتظرا الانفجار لكنه لم يحدث، لذلك فإن سليم، التي قالت ليلى انه في منتهى الشجاعة، عاد فتسلق ثانية ليعيد معايرة الصمام.. فاشتغل هذه المرة..

اما الطاقم المؤلف من اربعة رجال وامرأتين فقد اسرعوا إلى الملجأ عندما انفجرت حجرة الطيار، اما ليلى فوقفت في مكانها تراقب الحريق وقد عمرت قلبها نشوة النصر فأسرع اليها جندي سوري طالباً إليها أن تبتعد سريعاً وسألها عما اذا كانت خائفة. لقد اذهلها السؤال فقالت انها لم تكن في حياتها أقل خوفاً مما هي الآن. لم يكن

السوريون عندئذ متأكدين مما حدث، فأمروا خاطفَي الطائرة أن يصعدا إلى باص المطار مع الركاب. لا شك أن ذلك كان أشد كابوس على الناس الذين ظنوا انهم نجوا الآن من معذّبيهم، كان عدد منهم يبكي، وكان الجميع في حالة من الصدمة الكبرى. لقد رأت ليلى اثنتين من النساء المسافرات وقد تعلّقتا ببعضهما البعض وهما ترتجفان وتجهشان بالبكاء. كانت قد لحظتهما لفترة قصيرة في وكالة السفريات في روما حيث اشترت بطاقة سفرها. . أما الآن وقد انتهت المهمة فباستطاعتها اظهار العواطف.

«قلت لهما: (نحن آسفون) فهمست واحدة منهما (لقد بللنا أنفسنا) قلت لها: «حسناً باستطاعتكما تبديل سرواليكما.»

استطاعت ليلى أن تشعر بروح عدائية نحوها وبالخوف منها في باص المطار فلم يعجبها ذلك. كان شعورها أنها أنهت الآن أروع لعبة في حياتها وتريد أن ترى السعادة تعمّ جميع مَن حولها. كانت كالطفلة على ما أعتقد. واعتذرت ثانية قائلة «انها الطريقة الوحيدة لنا»، ثم حاولت كسب الأصدقاء بأسلوب مرح فبدأت توزيع الحلوى. ففي الحقيبة نفسها حيث كانت تخبيء المتفجرات كانت تمتلك السجائر والحلوى، فصارت تتجول في الباص موزعة قطع الحلوى. . لقد تألمت وما زالت غير قادرة تماماً على تقبّل بعض ردود الفعل التي صدرت عن بعض المسافرين «كان بعضهم ينظر اليّ كما لو انهم يكرهونني ولا يريدون أن يأخذوا مني شيئاً، ولم استطع فهم كراهيتهم.

لم يبدُ أن الركاب فهموا لماذا اختطفنا الطائرة. جلست ليلى في الباص قرب إحدى النساء، التي سألتها فوراً فيما اذا لم تكن خائفة ان تختطف طائرة. لقد حيرّ هذا السؤال ليلى، لأن جوابها يبينّ ما يستطيعه الالتزام بهدف وحيد أن يفعل بالعقل، فأجابت: لماذا ينبغي أن أخاف؟ فتنهدت المرأة وهزّت رأسها قائلة «أنا لا أفهم. . ثم سألت من هم الفلسطينيون؟

لقد أوقف هذا السؤال ليلى في طريقها، مع انها كررته لنفسها اكثر من عشرين سنة «إن هذا السؤال يقول كل شيء، فهي لم تسمع بقتالنا، كما لم يسمع أحد بذلك. . ولم تكن تعرف حتى اننا موجودون، لكن بعد عملية اختطاف الطائرة عرفنا كل انسان. . ذلك هو السبب الذي من اجله قمنا بذلك.»

* * *

حكم وزير الدفاع السوري بإطلاق سراح المختَطِفين بعد أن أعلن أنهم أحرار. فعادت ليلى وسليم إلى قواعدهما في الأردن حيث وجدت هذه الشابة نفسها مشهورة ذائعة الصيت. وكان قادة الجبهة الشعبية مبتهجين لهذه الشهرة فأرسلوا رفيقتهم النجمة

في رحلة واسعة إلى دول الشرق الأوسط وجهزوها بحاشية خاصة من الحرس لأنهم يدركون انها ستكون في رأس قائمة من ستختطفهم أو تقتلهم اسرائيل. كانت بالنسبة للعالم العربي شخصية بطلة: فطلاب الجامعة الامريكية في بيروت احتشدوا حولها وأقيمت الحفلات والولائم على شرفها. . وعبّر أحد رجال الأعمال الانكليز عندما قدّم إليها في إحدى حفلات سفارته في قطر قائلاً: «لقد استقبلت ليلى بحفاوة وكأنها رائدة فضاء تقوم بإحدى الزيارات.»

لقد تذكرت ليلى تلك الأشهر القليلة كفترة رائعة في حياتها مع انها كانت منهكة. «صحيح ان كل انسان كان مسروراً مني، لكن رحلتي في الشرق الأوسط كانت عملاً شاقاً إذ كان عليّ أن ألقي المحاضرات في تلك البلاد كلها محرّضة الجماهير للانضمام الى النضال الفلسطيني. وكنت أذكّر دائماً بالحاجة الماسة الى هذا النوع من المهمّات الذي مارسته. سيكون من الرائع جداً أن يكون هناك المزيد من أمثال هذه المهمة. فمنذ خمسة عشر سنة ونحن نتظاهر ونصرخ ونهتف من أجل أرضنا، وكان العالم يجيبنا بقرارات لم تكن لتنفذ أو تطبق. . . كل ما كانوا يفعلونه هو تزويدنا بالمزيد من الخيام والثياب القديمة وبالسكن والطحين. . . لكن لدينا الآن سؤال كبير «من هم الفلسطينيون؟» تماماً كما سألت تلك المسافرة في الباص. كنا نعلم انه ليس هناك جواب فوري لهذا السؤال. . . ولكن العالم بكامله قد استفاق أخيراً على حقيقة ان شيئاً ما يحدث في الشرق الأوسط. . انها البداية».

لم يكن باستطاعة امرأة ثورية أن تطلب أكثر من ذلك، فهي لم تدل النساء الأخريات على الطريق فحسب لكنها بكل عزم وتصميم قد وضعت وحدها تماماً المشكلة الفلسطينية في مفكرة العالم، ومع ذلك فهي ما تزال غير راضية.

وعندما عادت الى مخيّمها في الأردن أصبحت قلقة بتزايد واستمرار بسبب الشهرة التي أحاطت بها. لقد وُعدت بأنها سترسل في مهمة أعظم خلال أشهر قليلة لكنها كانت تخشى أن يكون وجهها قد أصبح مألوفاً ومعروفاً بشكل لا يسمح لها بالاشتراك بذلك. لذلك كانت تحاول دائماً التملّص من الصحافيين الذين كانوا يحتشدون حول مخيمها لكن بنجاح بسيط. «جاء مرة طاقم فيلم ايطالي الى المنزل الذي أقيم فيه وقرعوا الباب ففتحته، سألوني: أين ليلى خالد؟ فأجبت انني لا أعرف ليست هنا. غضب رفاقي من ذلك وأمروني أن أرفع تقريراً بذلك إلى الأمين العام جورج حبش، فغضب مني وسألني لماذا لا أتحدث الى الصحفيين. وقال «لقد نفذت تلك المهمة وعليك الآن أن تشرحي لماذا. إنني آمرك بأن تتحدثي الى طاقم الفيلم». وأخبرني ان ذلك واجبي

لأنّ العالم قد بدأ لأول مرة يسمع وأني أنا التي يريد العالم أن يسمعها. لم أخبره السبب الحقيقي فبدأت أبكي وقلت أنني أخشى ارتكاب أخطاء سياسية. لم تنفع الدموع مع الرفيق حبش. لم يكن هناك رفيق أقل احتمالاً من الوقوع في مثل هذا الخطأ. أمرها أن تخرج إلى مكتبه الخارجي حيث ينتظر طاقم الفيلم. فأطاعته وهي ما تزال تبكي. . لقد أبدى الطاقم دهشة كبرى وقالوا: «أنت الفتاة التي فتحت لنا الباب» لم تكن مقابلة ناجحة وعندما سئلت: «كيف نستطيع امرأة أن تحتجز وتختطف طائرة؟»، أجابت ليلى بغضب ولكن ليس بوضوح تام «أنا لست خائفة. . . لقد قمت بذلك، أريد أن أحرّر أرضنا». ثم لم تقل شيئاً آخر، ثم تذكرت قائلة «حدّقت بهم لا أكثر». وفي ربيع ١٩٧٠ أمرت أن نبلّغ مخيّم الجبهة الشعبية في لبنان ـ حيث يبهجها ذلك كثيراً ـ بأن عليها أن تبدأ التدريب من أجل مهمتها الثانية. ان عليها أن تختطف طائرة العال في أيلول (سبتمبر) وذلك لتوضح للعالم رأي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باسرائيل.

كان في الأمر بعض الصعوبات، لأن مخاوف ليلى من أنها أصبحت معروفة جداً كانت صحيحة جداً. كان رؤساؤها قلقين حول إرسالها فقد تفشل المهمة إذا عرفها أحد ما. فاقترحت عليهم بهدوء ان وجهها يجب أن يتبدَّل ورغم أنها لم تعترف لي، فقد كان واضحاً أنها ـ عندما رأت الفرصة قد تضيع منها ـ كانت مستعدة لأن تقوم بأي شيء لتستمر في تلك المهمة. لم يكن بامكانها القول أنها الوحيدة التي تستطيع القيام بها، فقد كان هناك العشرات من المرشحات اللواتي كن على قدر مساو من التدريب، لكنهن أقل شهرة منها. ويستطيع المرء أن يستنتج أنها قد أحبّت هذا العمل، أحبت القوة والرعشة اللتين تشعر بهما وهي في وضع الآمر، وأنها قد أصبحت مدمنة عليها.

كان رؤساؤها لا يزالون يرتابون ما اذا كانت الجراحة في وجهها قد تجدي حقاً، لكنهم عندما وجهوا باصرارها سمحوا لها بأن تمضي قدماً. في بيروت وجدت جراحاً تجميلياً مشهوراً فرأته في عيادته. عرف من هي وكان مرتاباً في البداية، لأنه لم يكن يريد أن يتورط مع الجبهة ونجمتها المشهورة. «أخبرته آن خطيبي في أوروبا يدرس، ويريدني أن أذهب وألتحق به حيث نستطيع الزواج. لكنه لأن وجهي كان معروفاً من قبل الشرطة الدولية (الانتربول)، فقد كان سيسبب لي المشاكل. من المحتمل أن يقبضوا عليّ لمجرد رؤيتي. لذا فانني بحاجة لتغيير مظهري».

عَلمت أن الجراح لم يصدق كلمة مما قالته، لكنه ربما خاف منّ الرفض. أخذ بعض الصور لوجهها للدراسة، وقال أنه سيفكر فيما يستطيع فعله. وعندما عادت إليه أخبرها أنه من المستحيل تقريباً تغيير وجهها بسبب خط فكها القوي جداً وعظام

وجنتيها، وكذلك بسبب شكل عينيها غير العادي. لا شك أنه كان يأمل أن ذلك قد يقنع هذه المرأة الخطيرة بشكل كبير.

لكن ليلى لم تقتنع بسهولة. فقالت للجراح: «لا. ان ذلك سهل. ما عليك إلا أن تضع غرزة عند زاوية كل من عينيَّ، هنا وهنا، وعندها سأبدو كفتاة يابانية».

ذُهل الرجل، ونصحها ألا تكون حمقاء، وأنه إن فعل ما اقترحت فان عينيها قد تصبحان مفتوحتين بشكل دائم أو مغلقتين بشكل دائم. لكن لم يكن ليثنيها عن عزمها شيء. «حسناً». قالت: (دعهما مفتوحتين بشكل دائم إذن)، لكن الجراح رفض قائلاً أن فعل هذا الشيء سيكون أمراً غير انساني.

وانتقلا إلى دراسة تقويمية لأنفها: كانت هي متحمسة لها وإما هو فكان ممتعضاً. ظن الجراح أن أنفها يمكن تحويله قليلاً. تذكرت أنه سألها ما سيكون رأي خطيبها بوجهها الجديد، وهل كان على علم بما تفعل. وأجابت ببرود أنه طبعاً يعلم: إننا مصممين على الزواج، وهذه هي الطريقة الوحيدة.

أخبرتني أنها كانت تعلم أن هذا الرجل كان يأمل أن يثنيها عن عزمها. وفي النهاية، بعد أن أنهكته، وافق على اجراء العملية، بعد أن جعلها توقع وثائق تعفيه من كل مسؤولية. لأن العذاب والألم اللذين مرت بهما كانا هائلين: اذ أصرت على ألا تعطى أية مواد تخدير.

«أجري العمل الجراحي أولاً على أنفي. كان ذلك مؤلما جداً لأنني لم أعط أية مواد تخدير. وكان يجب اجراء العملية سراً في عيادة الطبيب الصغيرة حيث لم تكن هناك وسائل لاعطاء مواد التخدير. كنت أشعر بكل شيء يجري أثناء العمل الجراحي.

«لم تحدث العملية أي تغيير، لذلك قام بها للمرة الثانية، لكن التغيير هذه المرة أيضاً لم يكن كافياً. وعندما طلبت اليه أن يحاول مرة أخرى، قال أنه لا يعتقد أنني سأتزوج». لكن ليلى لن تُهزم، من قبل طبيب جراحة تجميلة، فقالت له: «حسناً. مهما يكن ما تفكر به فانك قد بدأت فعليك أن تتابع». فنظر اليها الرجل وقال: أتهددينى؟ فعلاً كانت تفعل ذلك. لكنها اتبعت اسلوباً آخر فبدأت تتوسّل اليه أن يتابع وأن يساعدها. «لقد رجوته أن يقوم بذلك» فرضخ الجراح ونفّذ عدة عمليات أخرى وأخيراً، وكأنّما أخذته الرحمة على مريضته، تابعا القصة التي كان كل منهما يعرف زيفها. فاعتذر عما سببه من ألم لها... «كل ذلك لأنك تريدين الزواج».

نظرت اليه فعرفت أنه يعتقد انني ماضية في مهمة جديدة، فسألته، حتى ولو

كان يعرف الحقيقة، أن يستمر بعمله ـ ولكي تدعم موقفها حاولت بعض الابتزاز قائلة انها ستحفظ سرّه ان هو حفظ سرّها.

لقد تورط الطبيب حتى عنقه في المسألة... لقد وافق على مضض أن يتابع العمل لكنه توسّل إليها ألا يرى وجهها ثانية بعد أن يجري لها ما يستطيع.

وبعد خمسة أشهر من هذه العمليات كان كل جزء من وجه ليلى قد أخذ الوضع العادي بما في ذلك فمها. وأخيراً اقتنعت هي وقادتها ان أصدقاءها وأقرباءها المقرّبين فقط يستطيعون التعرّف عليها كما كانوا متأكدين أن رجال الأمن في العال لا يستطيعون التعرف الى شخصيتها من مجرد صورة سابقة لها. لقد أصبح واضحاً لوحدة اختطاف الطائرات أن مثل هذه الاحتياطات الواسعة أمر ضروري جداً.

في أيار (مايو) من عام ١٩٧٠ كانت ليلى ورئيسها يعملان في وضع خطط للمهمة وذلك في منزله في لبنان، وذلك الى ساعة متأخرة من الليل. لقد ضرب ذلك البيت بالصواريخ وأصاب الأذى زوجة الرجل وولده الوحيد دون غيرهم من الرفاق. ولم تكن اسرائيل قد ضربت لبنان قبل أن توجد ليلى وأمثالها هناك.

لقد قضت ليلى ورئيسها الأسابيع القليلة التالية في المستشفى حيث كانت الزوجة والولد يتلقيان المعالجة. لقد ساعد ذلك الهجوم على تأجيج ثورتهم فضلاً عن كونه جعلهم يراجعون تقييم حكمة خططهم، لقد أصبحت إحدى غرف المستشفى مكتباً لهم ومركزاً لتجنيد الشباب لأنه تقرّر توسيع العمليات لذا فقد برزت الحاجة الى مزيد من مختطفي الطائرات. لقد شملت الخطط الجديدة احتجاز طائرات من الخطوط السويسرية وخطوط عبر العالم بالاضافة الى طائرة العال. سيكون ذلك حدثاً جديراً بالمشاهدة.

إنّ وجه ليلى في ذلك الوقت، بعد أن أصبح مملوءاً بالندوب ويلونه الأسود والأزرق، لا بدَّ أن يكون قد أصبح منظراً مرعباً. ولسوء الحظ ان صديقة من صديقاتها القديمات، التي كانت ممرضة في المستشفى، قد عرفتها. وبدون أن تظهر أية دهشة أرادت أن تعرف ماذا حدث لصديقتها، فكذبت ليلى عليها قائلة انها أصيبت ببعض الأضرار اثناء التدريب. لقد قامت بذلك لكي تحمي أمها. كما قالت. «لم أكن أريدها أن تبكي لمظهري الجديد ولا أن تتساءل لماذا غيّرت وجهي، ومن الغريب أن الرئيس لم يُعد النظر في مسألة إرسال ليلى في المهمة على ضوء تعرّف الممرضة عليها. إن الأمر غريب جداً باعتبار أنهم يعتقدون ان طائرة العال ستضم شخصية اسرائيلية هامّة على متنها ـ رئيس الأمن العسكري ـ لا أقل من ذلك، والذي أكّد بلا ريب أن الطائرة

لا يمكن أن تخطف. وكانت ليلى ورئيسها يعرفان ايضاً ان اجراءات الأمن في طائرة العال قد شدّدت إلى حد كبير منذ عمليتها السابقة، فعلى الطائرة سيوجد مارشالات الجو المسلحين لذا فإن الركاب سيجتازون تحقيقات واستجوابات صارمة.

ونظراً لهذه الاجراءات فإن نصف فريق ليلى المعدّين لخطف الطائرة منعوا من صعود الطائرة. فقد رُفض اثنان منهم فاشتريا بطاقتيهما على طائرة بان اميركان التي اختطفاها وفجّراها في القاهرة.

لم يكن ذلك كله معروفاً من قبل ليلى عندما وقفت مع شريكها باتريك أرغويلّلو امام حاجز طائرة العال في مطار امستردام صباح يوم السادس من ايلول عام ١٩٧٠.

كان باتريك شاباً من نيكاراغوا تطوّع في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وقابل ليلى قبل ذلك بيوم في بلدة شتوتكارت. لم يكن يعرف هويتها الحقيقية بل كل ما كان مفروضاً أن تمثل هو دور صديقة له وان اسمها المستعار هو ماريا سانتشيز من هندوراس، وكانت هي تحمل الرتبة الأعلى بين الاثنين.

وانطلقت ليلى مرة أخرى في دور مقاتلة عصابات. أما طائرة العال التي كان من المقرر أن تنطلق في الساعة ١١,٢٠ صباحاً قد تأخرت بسبب تدقيقات أمنية ومع ذلك ظلّت محافظة على هدوء أعصابها، لقد كانت كتلة من المتفجرات تسير: «كان لدي قنابل يدوية تحت صدريتي وخطط الطيران ومجموعة التعليمات في ثيابي الداخلية».

وبينما كانت واقفة تنتظر دورها (وكانت تبدو وكأنها في مباراة للجمال تنتظر في الجناح، هكذا فكرت عندما سردت القصة)، رأت على لوحة الإعلان شيئاً ذكّرها بعمليتها السابقة ـ لقد وصلت طائرة بان اميركان رقم ٨٤٠ إلى امستردام «لقد تذكرت بسرور عملية ـ الطائرة السابقة TWA ٨٤٠ (طائرة عبر العالم) التي نفّذت في العام الماضي، دون أن أعرف ان اثنين من رفاقنا كانا على وشك اختطاف طائرة الـ بان آم.»

وبينما كانت الدقائق تمر أصبحت ليلى قلقة من انه قد يفوتهم زمن الاختطاف المحدد سابقاً للتنفيذ وهو الساعة ١٢,٢٠، لأنه من المفروض ان كافة الاختطافات يجب أن تتم في وقت واحد.

عندئذ كادت تقع الكارثة فقد رأت ليلى ثلاثة أشخاص من العرب يقتربون وعرفت واحداً منهم، لقد خافت كثيراً خشية ان يحييها باسمها الحقيقي امام رجال أمن طائرة العال، فما كان منها إلا ان ألقت بذراعيها حول باتريك وراحت تضمّه اليها. «كان باتريك مندهشاً لكنه لم يدفعني عنه» كانت ليلى تتذكر ذلك والابتسامة تعمر وجهها.

ومرّا عبر تدقيقات الأمن - ليلى وأسلحتها المخبأة وباتريك ومسدّسه. . لقد قالت ان أسلحتهما كانت مصنوعة من مادة خاصة لا يمكن كشفها بسهولة بواسطة الآلات الفاحصة. وتذكرت هنا ان أحد رجال الأمن سألها فيما اذا كان بحوزتها اي سلاح خطير. . فضحكت وقالت «لماذا تحمل فتاة مثلي أسلحة خطيرة؟؟»

وهكذا انطلت اللعبة المسجلة في يوميات تلك المقاتلة على حارس الأمن فاعتذر لها. ثم سألها حارس آخر فجأة عما اذا كانت تتكلّم الاسبانية «سي سينيور» اجابته بالكلمتين الوحيدتين اللتين كانت تعرفهما من اللغة الاسبانية. غضب باتريك وسألها ماذا كانت ستفعل لو ان حارس الأمن حدّثها بالاسبانية. لكن ليلى التي كانت تقضي وقتاً ممتعاً، والتي كانت تحب مثل هذه التجارب الصغيرة قالت لباتريك «اطمئن، انه لا يعرف الاسبانية والا لكان تحدث اليَّ بها.»

وذهب الاثنان الى قاعة المسافرين، ومرة أخرى وقع بصرها على أطفال مسافرين على الطائرة نفسها، لكنها شددت عزمها قائلة «لقد قطعت عهداً على نفسي ان لا احد منهم سيصاب بأذى، كان من الصعب جداً تأمل هؤلاء الأولاد، شعرت وكأنني لا استطيع الحركة». عندئذ دُعي ركاب الطائرة وانقضى زمن مثل هذه الوعود وصعدت إلى الطائرة.

كانت ليلى وباتريك يسافران في قسم السائحين، ظلّت الطائرة مستقرة على المهبط بعض الوقت، ثم بعد ساعة من زمن التنفيذ أقلعت. عندئذ بدأ باتريك يشكو من الجوع لكن ليلى، العملية أبداً، أنذرته أنه ليس من الحسن ان يتناول الطعام قبل العملية فبدا متوتر الأعصاب. غضب هذا الشاب من رفيقته فخاطبها قائلاً «من تظنين نفسك؟ - الملكة اليزابيت ام ملكة خطف الطائرات؟» قال ذلك همساً. فأجابته: كلا، لكن نظراً لخبرتها البسيطة عن خطف الطائرات فانها تعلم انه من الأفضل الا يأكل المرء قبل العملية ليبقى ذهنه متيقظاً، نظر باتريك اليها عن كثب وتمتم قائلاً: «انني اتذكر وجهك»، فردّت عليه قائلة: إنه بعد نصف ساعة سيكون قادراً على تناول الطعام والشراب الذي يريد لأن الطائرة ستكون لهم.

وفجأة عرفت بقلق ان رجلاً جالساً في مؤخرة الطائرة كان يحدّق بها فاستدارت وحدجته بنظرة مماثلة حتى أشاح بنظره عنها بعيداً، لكنها خافت حقاً أن يكون احد مارشالات الجو والذي رأى وجهها مألوفاً لديه، فقررت على الفور ان زمن التنفيذ هو الآن.

أومأت برأسها لباتريك فأخرج مسدسه «وأخرجت انا قنبلتيَّ اليدويتين، وقفنا ورحنا نجري عبر قسم الدرجة الأولى باتجاه حجرة الطاقم. كان باب الحجرة مقفلاً

فطلب باتريك من احدى المضيفات أن تفتحه. كنت عند ذاك ارفع الرمانتين وأطلب من المسافرين أن يلزموا الهدوء، وقالت «إن كثيراً منهم كانوا يصرخون. وفجأة بدأ بعض الناس يطلقون النار علينا. انهم مارشالات الجو. كان واحد منهم ذلك الرجل الذي كان يجلس في المؤخرة ويتفرّس فيّ. رفع باتريك مسدسه مدافعاً عني بإطلاق النار لكنه أصيب بعد ذلك. لم يكن لديّ الوقت كي أساعده، لأن الفكرة الرئيسية كانت هي المهمة وكيف تنجح، لا يستطيع أحد ولا حتى رفيق جريح أن يوقفها.

«بدأت ارفس باب حجرة الطيار رافعة القنبلتين اليدويتين وهما منزوعتا المسمار. لم يفتح أحد الباب. بدت الطائرة كلها مملوءة بصوت الطلقات، وسمعت شخصاً يصرخ قائلاً: «لا تطلقوا النار عليها انها تحمل قنابل يدوية». ثم اندفع اليَّ رجلان اعتقد أنهما من مارشالات الجو وأمسكا بي وبدأ الضرب ينهال عليّ منهما».

سَقَطَتْ ووقعتْ من يدها احدى الرمانات وتدحرجت على الأرض. لكن وبصدفة عظيمة لم تنفجر. «اعتقدت انها انفجرت وان الطائرة انفجرت ايضاً واننا جميعاً نطير في الهواء. ولكن عندما فتحت عيني كان الناس يضربونني. كنت لا أزال أحمل القنبلة اليدوية الأخرى، كنت امسكها بقوة وكان اثنان من المسافرين يمسكان بها ايضاً. ضربني احدهم على رأسي كما كان المسافران يضربانني في محاولة لأخذ القنبلة. وارتفعت الصرخات واقترب مني رجل تلطخ وجهه بالدم. لقد أراد أن يقتلني، لقد عثر على مكان فارغ ليضربني. كان ذلك المكان رأسي، ثم أمسك بشعري وصار يشدّه، فخرج شعري في يده: إذ كنت البس جمّة، ووقف هناك ينظر إليها. رفعت نظري اليه وضحكت فقفز نحوي يضربني بحذائه الثقيل. أغمي علي فترة من الزمن لكنني عندما استفقت من غيبوبتي كانوا ما يزالون يضربونني.

وبعد عشر دقائق هبطت الطائرة فطلبت المضيفة «من المسافرين أن يُغنّوا لأنهم غلبونا. استطعت أن أرى باتريك ممدّداً على الأرض يتنفس بصعوبة. كانت عيناه مفتوحتين لكنه أصيب اصابة سيئة. اقترب منه رجل يحمل بندقية فرفسه برجله ووضع بندقيته على عنقه حيث افرغ اربع طلقات فيه. لقد أطلق النار عليه وهو ممدد على الأرض.

وعندما هبطت الطائرة نشب قتال كبير عند بابها. لقد ربطني رجال الأمن بربطات العنق، كنت مشدودة بها ولم استطع الحركة. ثم جاء إليّ رجل، اعتقد انه الطيار، ورفعني عن الأرض ورفسني بقوة فسقطت بعنف على الجانب الآخر للطائرة.

وكانت هناك جولة من الجدال تستمر. ثم دخل الطائرة رجال يتكلمون

الانكليزية وحاولوا أخذي، لكن رجال الأمن كانوا يصرخون «إنها سجينتنا، انها ارهابية وسنأخذها إلى اسرائيل» وتشبث بي رجال الأمن كما تشبث بي الانكليز ايضاً، أوشكت أن يُغمى عليّ، وكانوا جميعاً يجذبوني كل إلى ناحيته وهم يتشاجرون. وكان ذلك مؤلماً جداً، وكان كل شيء في جسمي يؤلمني كما كنت مغطاة بالدم. ثم اجتذبني نحوه احد رجال الانكليز على السلّم محرراً إياي ورماني خارج الطائرة، وصرّح لآخرين كي يعتقلوني فأمسكوا بي بأيديهم على حاشية الدرج المفروشة بالاسفلت. ثم أخبرني رجال الشرطة ان ما حدث لي هو من مسؤوليتهم لأن الطائرة هبطت في بريطانيا. واستطاعوا أن يلاحظوا أن مارشالات الجو الاسرائيليين قد يقتلونني لذا رأوا ان عليهم أن يخرجوني بسرعة.

«ووضعت في عربة الاسعاف إلى جانب باتريك حيث وضع قناع على وجهه لكنني عرفت انه ليس حيّاً فصرت افكر في نفسي انه من نيكاراغوا وليس فلسطينياً فالذي يجب ان يموت هو أنا وصرت أبكي بمرارة عليه، فسألني الرجال في عربة الاسعاف عن سبب بكائي ومن أنا؟ لم استطع أن أجيب وكل ما استطعته هو البكاء على باتريك. وقال احدهم: ربما هو زوجها او صديقها.»

وأُخذت ليلى إلى المستشفى وتذكرت انها وهي على طاولة المعاينة كان الناس يتوافدون لتوجيه الأسئلة إليها. وكان كبرياؤها وشجاعتها كاملين حتى في ظروف كهذه. وسألني احد الرجال أين أعتقد انني موجودة فقلت، في انكلتره، فسألني كيف لي أن اعرف ذلك فشرحت له قائلة: لأن الجميع يتكلمون الانكليزية لذا فأنا لست في فرنسا أو في امستردام.»

سألها الرجل عن اسمها لكن ليلى لم تكن تجيب سوى انها فدائية من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وأخيراً وصل إلى المستشفى صحفي كان قد قابلها في الأردن - ولما ألقى عليها نظرة واحدة أعلن قائلاً: «انها ليلى خالد»، فالعملية الترقيعية لم تكن بالجودة التي كانت تتمناها.

وجاء الطبيب ليفحصني، وكنت قد وضعت في مقدمة ثيابي كافة الأوراق المتعلقة بعملية خطف الطائرة. حاول أن يفتح ثيابي لكنني لم أدعه يفعل. فنادى رجلاً آخر قائلاً: يوجد شيء ما هنا، فجاء رجال الشرطة وسألوني عما أخبئ، فابتسمت لهم، وقال الطبيب أنني بحاجة إلى صورة شعاعية وكان يتحدث عن وجهي الذي بدا متورماً جداً بسبب العملية الجراحية الأخيرة، فقلت لهم أنني لست بحاجة إلى أية صور شعاعية لأنني خشيت ان يعرفوا كل شيء عن العملية الجراحية، وقال الطبيب: «إن

أنفك غريب جداً لأن عظامه تبدو نافرة. وأحضر لي جمجمة وأراني كيف يبدو الأنف لو أنهّ مكسور. إذ لو أنه كذلك لكانت العظام تبدو داخلة وليست بارزة وسألني «لماذا يبدو انفك هكذا؟» فأجبت: «اني لا أعرف، لقد ولدت هكذا».

«وتذكرت كيف أخبرتني إحدى الشرطيات أن ذلك الطبيب كان يهودياً فأجبت بأنّ ذلك لا يهمّني. فسألتني «هل أنت جادّة في ذلك؟ فأجبتها بأني لست ضد اليهود لكنني ضد الصهيونية وان الطيب لم يكن اسرائيلياً بل بريطانياً. فلم تفهم الفرق في ذلك وكنت اتألم كثيراً فلم استطع أن أشرح ذلك.

وفي نهاية الأمر سلمت ليلى المستندات التي كانت مخبأة في ثيابها الداخلية. ثم عولجت الجراح والكدمات التي كانت تعاني منها ثم نقلت إلى قسم شرطة «إيلنغ». اخبرتني أنها لم تستطع أن تنام لأن كل بوصة في جسمها قد ضربت كما أن حزنها على باتريك كان بالغاً. مع ذلك فإنّ جزءاً مدهشاً حقاً من البيروقراطية البريطانية جلب الابتسامة إلى وجهها عندما تذكرت تلك الليلة.

جاء في احدى المرّات إلى زنزانتي رجل يحمل بعض الاستمارات وأخبرني انه موظف الهجرة وأنه يريد أن يعرف لماذا دخلت بريطانيا دون تأشيرة دخول. لقد أحضر هذه الاستمارات باللغة العربية والانكليزية، وأخبرني قائلاً «عليك ان تعودي إلى المكان الذي جئت منه» فضحكت منه لأنه كان يتهمني بانني مهاجرة غير قانونية. فسألته: أين يجب أن أعود؟ إلى امستردام؟ فأنا لم يكن في مخططي دخول بريطانيا والا لكنت حصلت على فيزا. فقال: حسناً، وتركني وحدي مع الاستمارات.

وكان على ليلى أن تقضي ثلاثة أسابيع في قسم الشرطة كسبت خلالها الإعجاب والاحترام عنوة من قبل معتقليها. لم تكن تعرف الخوف حينذاك كما لم تكن آسفة لما حدث وراحت تلعب لعبة القطة والفأر مع مستجوبيها. ان الشخصية التي تذكرتها أكثر كان المراقب (دافيد فرو) الذي سببت له مشاكل كثيرة. وكثرت في هذه الفترة طلبات الزواج التي بدأت تصل إلى قسم الشرطة كما ان الصحافة البريطانية بدأت تتعاطف معها. وكان يشار اليها في الأعمدة الرئيسية باسم (ليلى) حيث تورد هذه الأعمدة تقارير عنها ـ كيف تقضي وقتها وماذا كانت تقول وكيف كانت تكره تعابير المجاملة من الرجال.

وبدأت ليلى دورها مع المراقب (فرو) في اليوم التالي لوصولها إلى (ايلنغ). فعندما دخل زنزانتها اخبرته قائلة «لن أتحدث اليك ما لم تعتبرني فدائية من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين». انسحب (فرو) شاكراً وقال أن عليه ان يستشير رؤساءه. ولم يظهر

ثانية مدة خمسة أيام بدأت خلالها ليلى اضرابها عن الطعام وقالت «لقد اعتدت أن أشرب الماء وأدخّن السجاير وكنت كلما احضروا لي الطعام أجهش بالبكاء. سألتني احدى الشرطيات لماذا أبكي عندما أرى الطعام، فأجبتها لأن رفيقي مات جائعاً، ولم استطع أن أنسى ابداً أنني لم أسمح لباتريك ان يأكل قبل أن يموت، لذا لم أشعر انني أستطيع تناول الطعام بنفسي.

«كان في زنزانتي شرطيتان ورجلان خارجاً يحرسان وكانوا جميعاً يتعاطفون معي، وظلوا يبدلون هذين الحارسين كما استمر ورود رجال الشرطة وكانوا جميعاً يتساءلون «هل هذه هي المرأة؟»

أعتقد انهم تصوروني امرأة صخمة وقد دهشوا عندما رأوا انني امرأة نحيلة ولست ملاكماً. وتحدثت إلى يالحراس عن سبب ما فعلت. كانت احدى الشرطيات ظريفة جداً، لقد كنت اكتب اليها باستمرار لكنني أضعت العنوان في النهاية، لكنها أخبرتني ذات مرة «لا أعتقد انها طريقة جيدة ـ الا وهي خطف الطائرة لأنكم ترعبون المسافرين» وكانت تنقل اليَّ كل ما يحدث في الخارج».

وفي اليوم الخامس لاعتقالها جاء المراقب (فرو) وأخبرها ان هناك أشياء يريد أن يناقشها معها، فأخذت إلى غرفة الاستجواب وتركت وحدها لعدة دقائق مع ضباط الشرطة الرجال. لقد استغلت ليلى هذه الدقائق بشكل جيد.

«لقد قرأت الأنظمة المتعلقة باستجواب السجناء المعلنة على الجدار فعلمت أنه ينبغي ان يكون هناك شرطية معي في الغرفة. وعندما عاد السيد (فرو) قلت له «اعتقد انك تخالف القانون» «ماذا؟» صرخ بصوت عال، فشرحت له: «وفقاً لقوانينكم إن المرأة السجينة يجب أن يكون معها ضابط شرطة امرأة في غرفتها اثناء استجوابها، فدهش فاغراً فاه، ثم قال: «صحيح.. اعتذر» وخرج باحثاً عن شرطية امرأة لكنه لم يستطع ان يجد واحدة بالرتبة المناسبة، فطلبوا من احدى الشرطيات اللواتي كن يحرسنني ان تدخل. كانت تلك الشرطية واحدة ممن لم أحبهنَّ.. كانت توقظني باكراً في حين لم أكن أرغب بذلك لأنني كنت اسهر متأخرة في الليل أفكر. كان اسمها على ما أذكر «هيزيل». أخبرت السيد فرو انني لا اريدها معي في الغرفة لأنني لم احبها وعليه ان يحضر اخرى بدلاً عنها. اضطربت هيزيل قائلة: «ماذا فعلت يا ليلى؟» «فهززت رأسي دون أن أتكلّم، فأحضروا شرطية اخرى مكانها.»

لقد أخبرتني عن دهشتها لأنها فازت بنصرها الصغير لكنها ذُهلت عندما وقف فرو والرجال الآخرون فجأة. وخاطبها فرو قائلاً: «باسم صاحبة الجلالة وباسم

حكومة صاحبة الجلالة نعترف بك كمقاتلة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وكمقاتلة من اجل شعب فلسطين»، فأجابته شاكرة، لكن لدي الآن سؤال: أليس عندكم في بريطانيا حذاء خفيفاً (شحاطة)؟ لقد أخذتم ثيابي وحذائي والآن تعاني قدماي من البرد». . بدت وكأنها تصبح صاحبة اليد العليا، فنظر إلى قدميها واعتذر.

لقد صمّمت ليلى من ناحيتها الا تقدم شيئاً. «اخبرتهم عندئذ انني أسيرة حرب وان لهم الحق فقط في أن يسألوني عن اسمي وعن وحدتي». قال السيد فرو «لكننا لسنا في حرب معكم» فخالفته الرأي وقلت له. . . «انه منذ عام ١٩١٧ ووعد بلفور أعلن البريطانيون الحرب ضد الفلسطينيين.» حاول فرو أن يشرح انه قد مضى على وعد بلفور زمن طويل وان الشعب البريطاني قد تبدّل، فأصرّيت قائلة انه لم يتبدّل كثيراً، وأنه لا يزال يعلن الحرب علينا بسياسته. . كان فرو يتحدث ببرود وكان يحاول ان يحصل على جواب لسؤاله، لكنني قلت: «بما اننا في حالة حرب فسأرد على سؤالين فقط: اسمي ليلى خالد وأنا عضوة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.»

«في هذه المرحلة بدا السيد فرو منهكاً، فأمر شخصاً ما أن يحضر للآنسة ليلى شحاطتها. . وبدأ أسلوباً آخر. . نظر إليّ بإمعان وتجهّم لعدة دقائق ثم قال «أنا لا أصدق انك ليلى خالد» وكان لديه عدد من الصور الفوتوغرافية أمامه وكذلك صورة جواز سفري الذي استخدمته في امستردام. ثم التقط احدى الصور وأراني اياها وقال: إن صورة ليلى خالد هذه وصورة جواز السفر ليست الشخص نفسه، فسألته: مَن أنا اذن؟ وطلب مني أن أخبره. . كان يجب أن يعرف. فاقترحت عليه ان ننسى الاسماء وان باستطاعته ان يدعوني فدائية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. ثم قال لي: هل تعلمين يا ليلى انك امرأة ذكية، فأجبته: بل أنا امرأة عربية. . نحن شعب محافظ وأنا شخصياً لا أقبل اطراءات الرجال» فتنهد قائلاً: «انظري لقد شاب شعري» كان يحاول أن يقول أنه رجل عجوز وأن عليّ أن أساعده وأنه لم يقصد أية اطراءات. فأخبرته ان شيب شعره كان بسبب زوجته وليس بسببي ولم أشأ أن أتحدث إليه.

«لكنه تابع يقول: (أنت شخصية هامة تماماً مثل السيد جورج حبش قائدك). اعتقدت أنه يقدم بعض الاطراءات ثانية فقلت له ببرود ان ذلك تقديره، وانا لست الاّ امرأة عادية في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. فأصرّ قائلاً: كلّا لست كذلك. . فإنه بعد ثلاثة أيام من اعتقالك اختطفت الجبهة الشعبية طائرة بريطانية. لقد طاروا بها إلى «دوسونز فيلد» ويطالبون الآن بتحريرك مقابل الإفراج عن الركاب. . هل فهمت الآن انك خطيرة جداً؟»

بدت ليلى وقد صعقها هذا الخبر، وسرحت بصرها إلى البعيد وعلّقت بقولها «لقد اختطفت طائرة من أجلي؟!».

«ثم تابع (فرو) قائلاً: «لقد اشترك في عملية الخطف اكثر من مئة رجل على الأقل. أخبريني كيف لم يتسرّب جزء زهيد من المعلومات عن ذلك؟» فأجبته: ان تلك مشكلتكم. . لكنني لا أعتقد إن مائة شخص قد اشتركوا في التخطيط لتلك العملية. . فسألني كي اخبره عن ذلك. فشرحت له قائلة: يدعوني القائد اليه ويقول خذي جواز سفرك وبطاقة السفر وخذي الرمانات اليدوية واذهبي إلى اختطاف طائرة، فقطب فرو وجهه وقال: كما قلت لك انت امرأة ذكية جداً، فعرفت أنه يلمّح إلى خبرته وأنه لم يصدقني.»

ثم استدعى مستجوبها شرطياً آخر أحضر معه الرمانة اليدوية التي اسقطتها ليلى في أرض الطائرة ومسدساً في حقيبة بلاستيكية. . فسألها (فرو) اذا كانت تعرف ماذا كان في حقائبها. فأجبته «نعم إنها رمانة يدوية» فقال: آه، انها رمانتك اليدوية التي رميتها في الطائرة. فصرخت: أنا لم أرمِ الرمانة في الطائرة! هل تتهموني بذلك؟ أريد العودة إلى زنزانتي «فأجاب «لا أحد يتّهَمك بأي شيء، اعتذر، اننا لا نتهمك، لكن كل الركاب قالوا انك رميتها. فقلت له: لو أنني رميتها فعلاً لما كنت الآن هنا.» فوافق على ذلك لكنه قال إنها لم تنفجر. لكنني لو كنت مكانك لكنت رميتها لأنقذ نفسي أو على الأقل لأدافع عن نفسي ـ ثم سألني: (ألم تكوني خائفة؟ هل أنتِ جبانة؟ هل تخافين من الموت. . لقد هاجموك ولكي تحمي نفسك رميت واحدة من رماناتك. أليس كذلك؟) لقد عرفت ماذا كان يحاول أن يفعل. . انه يستفزّني كي يحملني على الكلام. لكن الأسباب التي دعتني ألا أرمي الرمانات هي: أولاً: كان لدي أوامر شديدة بألّا أفجّر الطائرة لأننا لسنا قتلة بل مقاتلون من أجل الحرية، وثانياً: كان من السهل عليّ أن أفجّر الطائرة وأنا في مقعدي، أخبرت فرو أنه إذا كان يريد أن يصدق الركاب فباستطاعته ذلك لكن المسافرين أعداؤنا وان الحكومة البريطانية قد أعلنت الحرب على الفلسطينيين.»

وبدا فرو قد قطع كل أمل في استدراج سجينته إلى الاعتراف وأخبرها انه سيضع بعض الأسئلة لها وعليها بالإجابة عليها بنعم او لا، وأنذرها قائلاً: لا تكذبي. لكن تأثير تحذيره هذا كان مفاجئاً.

«غضبت منه كثيراً ونهضت صارخة: ها أنت الآن تتهمني بالكذب. . . وقبل ثلاثين دقيقة كنت تعترف بمكانتي السياسية. أريد العودة الى زنزانتي. . . ونهضت

لأخرج من الغرفة لكنه توسل إلي أن أعود وأجلس ثانية. ثم سألني عما اذا كنت أريد بعض القهوة أو الشاي... فقلت انني لست متأكدة من قدرتي على تقبل أي شراب... فأكّد لي ان ليس فيه أية مخدرات... فأخبرته قائلة: هذه اولى زياراتي الى بلدكم وتفترض انني أظن ان يوجد شيء ما في الشراب. فهل من عادتكم أن تضعوا أي شيء في الشراب؟ فصرخ قائلًا: «تدعينها زيارة؟ ثم استطرد قائلًا: كلا ليس ذلك من عاداتنا انما أنت ذكية جداً، فشرحت له ثانية انني لا أقبل أي إطراء من الرجال.

«وجاءني في اليوم التالي بمقالة في جريدة عني.. في نهاية المقال كتب «ليلى لا تقبل اطراءات الرجال» وسألني إذا أعجبني ذلك.»

إنّ الشيء الوحيد الذي كانت مستعدة دائماً للحديث عنه هو السياسة. وعندما سألها (فرو) عن سبب اضرابها عن الطعام، أجابت انها معتادة على الجوع.. إنها جائعة للعودة الى وطنها لقد كانت جائعة هكذا كل حياتها. ثم أراد أن يحطم بعض دفاعاتها عندما قال ان اسرائيل تريد منهم تسليمها. فأجابت على الفور: ذلك عظيم... أريد العودة الى فلسطين... أفضل الذهاب الآن أكثر من أي وقت لاحق. لقد اعتقد فرو أنها أخطأت فهم الخطر الذي يتهددها اذا ما أرسلت الى اسرائيل، فأخبرها انها قد تعذّب وقد تسجن، فأجابت ليلى على الفور «إذن تعرفون أنهم يعذّبوننا ـ من أجل هذا نحن نقدم على اختطاف الطائرات... وتذكرت هنا أن فرو تنهد عميقاً وقال: ها أنت ثانية تتكلّمين عن السياسة ولا تريدين حديثاً عنها من الآخرين. فردّت عليه بعنف: «أنا متورطة سياسياً... **هل تتوقع منيّ أن أتحدث عن الأزياء؟...»**

وسألتها عما جعلها تستفز رجل الشرطة هذا فأجابت: «كنت أتحدث اليه هكذا لأن عمليات الخطف الأخرى منحتني الثقة، وكذلك بسبب عملية التبادل التي أخبروني عنها، كنت أعلم أن المسألة ليست إلّا مسألة زمن.»

وبعد أسبوع من ذلك، أذعن فرو إلى حقيقة ان لا معلومات يمكن أن تؤخذ منها. فنظم لها فرص ممارسة بعض الرياضة وتنس الطاولة مع بعض الشرطيات... وان تتلقى حماماً يومياً وأن تقدم لها الصحف والمجلات... وقد جنّ جنونها مرة عندما قدمت لها مجلات عن المرأة وتذمّرت عالياً انها تريد جرائد وليس نماذج للنسيج والخياطة.

وتذكرت يوم ١٧ أيلول (سبتمبر) حين قرأت ان القتال بين الفصائل الفلسطينية والجيش، فعلّقت على ذلك: «إنه من الفظيع أن أكون في زنزانتي غير قادرة على المشاركة في القتال، وعندما طردنا من الأردن فكرت: في نفسي الى أين يمكن أن

أعود؟ لن يقبلني أي بلد إذا أطلق سراحي». . . وكانت مصممة لكنها لم تكن تريد أن تظهر مخاوفها للسيد فرو وخصوصاً عندما أخبرها أن المقاومة الفلسطينية قد انتهت، أجابته بكل جرأة. «حسناً، سأخرج من هنا وسوف أتزوج وأنجب عدداً كبيراً من الأولاد وهكذا أستطيع أن أنشئ مقاومة جديدة». ثم قالت ان فرو لم يكن يعرف هل يصدقها أم لا.

ومرّت الأيام وبدأت الرسائل تصل الى قسم الشرطة بخصوص السجينة. . . كان بعض تلك الرسائل معادياً ويعج بالكراهية، لكن تضمنت بعض الرسائل الأخرى عروضاً للزواج منها. لقد قرأ فرو كل هذه الرسائل متسائلاً إذا كانت ليلى تعرف كل هؤلاء الناس ولماذا يكتبون اليها، لكنه لم يكن مسروراً لهذه السمعة الواسعة التي كانت تتمتع بها.

وبعد ثلاثة أسابيع أخبروها انهم سيطلقون سراحها، وسألها فرو الى أين تريد أن تذهب. أجابته الى فلسطين. وقبل أن تغادر لم تستطع أن تقاوم رغبةً ملحةً في أغاظته قليلاً أيضاً، فأخبرته: «لقد أحببت هذا الفندق انه يستحق أن يصنف بعشر نجوم، فالخدمة فيه ممتازة وسأطلب الى رفاقي أن يأتوا إليه. . آمل أن تكون قد أخذت انطباعاً جيداً عني».

أجاب: «ربّما، لكن أرجوك إلا تعودي»، ووعدت أن أكتب اليه ولآخرين من رجال الشرطة وأن أرسل لهم هدايا الميلاد.

وكما وعدت فقد أرسلت فعلاً بطاقات تحية الى المشرف فرو وزملائه في قسم شرطة إيلنغ. . لقد استخدمت في ذلك بطاقات طيران مزيفة وضمنتها بعض الصور للطائرة التي فجّرت في «دوسنزفيلد».

وفي صباح يوم إطلاق سراحها قال فرو أنه سيفتح باباً في قسم الشرطة يؤدي الى الشارع مباشرة. . فكان عليها عندئذ أن تسير مباشرة الى سيارة الجيب التي كانت تنتظرها فتدخلها ثم تستلقي على أرضها كل تلك الإجراءات كانت من أجل سلامتها كما قال فرو لأنه هناك احتمالات قوية لاختطافها. . . فسألت: «من قبل من؟. . الصهاينة؟. . إذن انها مسؤوليتك في أن تتأكد انهم لن يفعلوا. وكم كان ارتياح فرو عظيماً عندما ودّعها أخيراً.

«وعندما وصلتُ الى الباب وجدتُ عدداً من المصوّرين ينتظرون. فاجتزتهم وسرت مباشرة نحو سيارة الجيب. . كنت أرتدي ثياب شرطية بريطانية. . جاكيت

وتنورة سوداوين. . لم يعرف أحد من أنا. . كان معي رجلان مسلحان وأربع من ضباط الشرطة. . نقلوني الى مطار عسكري ثم بواسطة طائرة هليوكبتر الى المطار حيث استقليت طائرة من طائرات القوات الجوية الملكية.»

لقد حذّرتها الشرطية التي كانت تحرسها مازحةً ألّا تفعل أي شيء بهذه الطائرة قائلة «لا اختطاف هنا» ضحكت ليلى لذلك. . ثم أرادت أن تمازح الطيار فقالت انها ترجو أن تكون الطائرة متوجهة الى حيفا. . لكن الطيار لم تعجبه هذه المداعبة وشعرت ليلى بخيبة الأمل. . «لقد كان جديًّا جدًّا ولم يشأ أن يتحدَّث إليَّ.»

هبطت الطائرة أولاً في ميونخ ثم انتقلت الى زيوريخ لتجمع الفلسطينيين الآخرين الذي أطلق سراحهم من السجن من أجل انقاذ حياة رهائن الطائرة المخطوفة. ثم طارت الطائرة الى القاهرة وفيها الفلسطينيون الذين كانوا يخضعون لحراسة مشددة كما كانوا يجلسون في أماكن متباعدة تفصلهم عن بعضهم صفوف المقاعد، خشية حدوث أي شيء.

وفي القاهرة سُلّموا الى السلطات المصرية التي احتفظت بهم في مكان آمن لمدة أحد عشر يوماً. وبعد ذلك انضم اليهم مختطفو الطائرة التي أوصلت بنجاح الى دوسنز فيلد فكانت فرصة للاحتفال. أما ليلى التي ظنت انها ستكون في موقف مُشين لفشل عمليتها الأخيرة وجدت أنها لا تزال بطلة من أبطال القضية. . وراحت الصحافة العالمية تضج طالبة مقابلتها.

ثم عادت ليلى وزملائها من فصائل القتال إلى وحداتهم المتمركزة الآن في لبنان. وأصبحت الحاجة ملحةً لكل فلسطيني كي يقاتل اسرائيل التي قطعت على نفسها عهداً، بعد عمليات اختطاف الطائرات، أن تستأصل جذور الارهابيين كافة للأبد. التحقت ليلى بوحدة قتالية. . وكانت في فترات ما بين القتال تتجول بين مخيمات اللاجئين تحرّض النساء على الانضمام اليها. . كانت ملهمةً لهنّ. . «لأنه بعد ما فعلت كانت النساء جميعاً يصغين اليَّ مؤمنات بما أقول ومصممات على تنفيذ ما أطلب».

وجاءت أمها لتزورها بعد عودتها الى لبنان بفترة قصيرة «جاءت في منتصف الليل ولكن لمدة خمسة عشر دقيقة لأسباب أمنية، فنظرت الى وجهي الذي لم تره منذ فترة ما قبل العمليات الترقيعية فصرخت: (ماذا حدث لك؟ شرحت لها أنّ ذلك كان بسبب القتال وسأكون على ما يرام قريباً) فقالت (أنت تعلمين كم أنا فخورة بك، ولكنني كنت قلقة لا أستطيع النوم أكثر الأحيان). سمعت اشاعات أن عينيّ قد قُلعتا وأن أضلاعي قد كسّرت».

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٧٠ تزوجت ليلى فجأة من زميل مقاتل، كان كل ما قالته عنه أنهما قضيا أسبوعاً معاً قبل أن يعودا الى وحدتي القتال المنفصلتين، وان ذلك الزواج لم يكن ناجحاً.

لقد اعترفت ليلى صراحة انها كانت مهتمة بالقتال أكثر من رغبتها في تأسيس منزل وعائلة. لقد أخبرته وهي قانعة، أنه لن يكون هناك اختطاف طائرات بعد الآن. لقد قررت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أن ما قاموا به كان وافياً بالغرض. وكانت تريد أن تكون في الخط الأمامي في المهمات الأخرى (لكنها لم تذكر هنا شيئاً عن تلك المهمات الجديدة) لكنها اكتشفت أن وجهها رغم التغيير الجراحي كان يمنعها من ذلك.

وبتصميم قوي عادت الى الجراح الترقيعي في بيروت الذي أرعبته عودتها. . «لم يسرّ برؤيتي تذكرت وهي تبتسم، «أخبرني الا آتي الى عيادته أثناء النهار خشية أن يرانا أحد. كان يخشى أن يورط في المسألة فوعدته أن سرّنا لا يزال بخير وطلبت اليه ألاّ يخاف. لقد أجرى لي عدة عمليات جديدة وخصوصاً في أنفي وخدّي ومع أن وجهي لم يبدُ كما كان من قبل فانه عاد قريباً جداً لما كان.»

ونشرت اسرائيل تصريحاً عاماً انها ستعتقل وتقدم الى المحاكمة في القدس، وقد بدا وبشكل أقل وضوحاً ان (الموساد) كانوا يريدون قتلها، ثم قالت: «كنت مرة عائدة الى شقتي في منتصف الليل، ولم أعرف لماذا نظرت تحت سريري، ربما كنت أبحث عن شحاطة. . فرأيت علبة ملصقة الى جانب السرير، غادرت الغرفة حالاً وذهبت الى المكتب. . . كان مكتباً سريًا وقد غضب رفاقي لأني جئت متأخرة في مثل هذا الوقت. . . (قد يتبعك أحد. . .) صرخوا بي. لقد خالفت النظام لكني شرحت لهم أنهّ يوجد شيء في شقتي. . غادر أحدهم المكتب فوراً وعندما عاد قال (إنها متفجرات، لو جلس شخص على السرير لانفجرت.)» لقد أرعبت محاولة الاغتيال هذه قادتها فأمروها أن تختفي. ولمدة سنة كاملة قضتها في أماكن مختلفة وعلى عناوين سرية تتنقل بينها بحذر لتتحاشى الاكتشاف. . لقد سمح لها أن تقاتل فقط عندما تُهاجم مخيمات الفصائل القتالية.

وادعت ليلى انها لا تتذكر فيما إذا كانت قد قتلت أحداً في هذه المعارك اليائسة، ثم تنهّدت قائلة «من الصعب أن تعرف ماذا أنجزت أو فعلت وأنت تقابل بمثل هذه الطريقة، فإمّا أن تُقْتَل وإمّا أن تَقْتُل. عندما يحدث اطلاق نار فإنك تختبئين وتطلقين النار. ان القتال في الشوارع يختلف كثيراً عن قتال الجبال والغابات كما كنت أفعل من قبل. . . وفي وسط المعركة عندما تصيب انساناً لن يكون لديك الوقت لتتأكد من انه

مات، وعليك أن تنتقل إلى آخر».

وخلال السنوات القليلة التي تلت كان نمط حياتها مستمراً كفدائية مقاتلة، وضابطة تجنيد أو مدرّبة. وفي يوم عيد الميلاد من عام ١٩٧٦ قُتلت أختها الصغرى وخطيبها في بيت ليلى. «ذهبت الى البيت لأننا قررنا أن نذهب الى صور لحضور عرسهما، فرأيت جثمانيهما.. . لقد قتلا باطلاق النار عليهما وكانت صدمة كبرى لي، كنت أحضّر نفسي لحضور عرس أختي وكانت أمّي تنتظرنا في صور. لست أدري فيما اذا كان الاسرائيليون قد اعتقدوا أنهم قتلوني، لأن ذلك كان في منزلي».

وبعد عامين من ذلك قبلت دعوة من الاتحاد السوفييتي لمتابعة دراستها الجامعية في موسكو، ولقد توافقت هذه الدعوة مع رغبتها ورغبة ضباطها المباشرين. لقد كانت ترغب كثيراً بالحصول على درجة علمية وأراد قادتها أن تكون بسلام. قضت عامين كاملين وحافلين بالسعادة في روسيا. لكنها فشلت ثانية في متابعة دراستها. لقد قطعت فترة دراستها دعوة من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الى كافة الطلاب ليعودوا ويدافعوا عن قواعدهم في لبنان وعادت ثانية الى حقل المعركة.

تزوجت ليلى ثانية عام ١٩٨٢ من الدكتور (أوم بادر) وهو أيضاً من الرفاق في الجبهة الشعبية». ثم جاء الغزو الاسرائيلي للبنان فكان الاثنان أثناءه يعيشان ويقاتلان في بيروت.. . وتذكّرت ليلى خيبة أملها عندما أرغمت أن تختبئ وإلاّ تقتل اسرائيلياً كان يقف على بعد عدة أقدام منها وذلك خشية أن يعتقلوها فيعرفوها.. .

في هذه الفترة كانت ليلى **حاملاً** وكانت المدينة تتعرض لقصف مدفعي من قبل اسرائيل.. . وخلال ثلاثة أشهر من ذلك هربت ليلى مع زوجها وآلاف الفلسطينيين الآخرين الى دمشق حيث ولدت طفلها الأول في منزل احدى صديقاتها.

ولما بلغ الصبي عدة أشهر من عمره عادت لتعمل مع الجبهة الشعبية. وفي عام ١٩٨٦ تأسست اللجان الشعبية للنساء الفلسطينيات فانتخبت السكرتيرة الأولى لها. فأصبح معظم وقتها مشغولاً في العمل لتحسين ظروف النساء والأطفال في المخيّم مع أن الهدف النهائي هو تحرير الأمهات من المهام التقليدية حتى يتاح لهن المساهمة في أعمال الانتفاضة. افتتحت الجبهة الشعبية دوراً لحضانة الأطفال وتغذيتهم في المخيم وذلك للاطفال الذين تتراوح أعمارهم بين شهرين وست سنوات، سميت كل دار باسم شهيد من شهداء القضية وهناك كان يُعَلم الأطفال أغاني الحرية الفلسطينية، وكثيراً ما كانوا ينشدون: «سنكبر ونصبح أقوياء كي نستطيع أن نقاتل أيضاً».

هل كانت تحنّ الى تلك الأيام وخصوصاً يوم احتفل بها كخاطفة للطائرات؟ لقد سرحت بتفكيرها وغابت عيونها لحظة عندما قالت ببطء: «لا، كان ذلك هو الوقت المناسب للقيام بتلك الأعمال وكنت مسرورة انني شاركت. كم أتمنى لو يكون لديّ بعض الصور لي عن تلك الأيام كي أُريها (لـِ بادر) لكنها أُتلفت جميعها في بيروت. كانت أمي تحتفظ بكل الصور لكن شقتها تعرضت للهجوم». وتابعت أن يكون المرء مقاتلاً من أجل الحرية هذا كل شيء بالنسبة لها.. والآن وباستعادتها للماضي استطاعت أن تدرك أن ركّاب الطائرات التي حاولت اختطافها أو التي اختطفتها لا بُدّ أنهم أرعبوا كثيراً «لو حدث ذلك لي كنت سأكون مثلهم كنت سأصلي... لكن لا أخاف أن أسافر أبداً.

«إن عملي كمقاتلة من أجل الحرية قد جلب السعادة. يمكن للمرء أن يتعرف على نفسه في الكفاح وهذا هو الفرق بين المقاتل من أجل الحرية وبين الشخص العادي. فأنا كفلسطينية لم أكن لأسعد بوجودي لو لم أكن مقاتلة من أجل الحرية. أنا سعيدة أنني فعلت الكثير.»

وفي النهاية.. خرجت بنتيجةٍ.. أن ليلى لم تكن امرأة قاسية بلا قلب، رغم أن أعمالها وسلوكها أثناء تلك الأعمال كانت توحي خلاف ذلك، فهي لم تكن تبدو أن بمقدورها أن تحلّ مكان أي شخص آخر... إن سرورها في سرد الطرق التي أرعبت بها الناس كان مزعجاً. ومع ذلك كلّه فقد كانت بعيدة تماماً عن كل خداع وغش في حديثها اليّ وبكل صراحة عن كافة أعمالها. واعتبر ان أعظم انطباع عنها والذي دام طويلاً لديّ هو أنها امرأة تشبه الطفل في تصميمها لبلوغ الهدف وهنا بالتأكيد: «يكمن السرّ في كونها بالغة الخطورة».

نساء الحركة الجمهورية الايرلندية

«محاربة اضطهاد النساء يجب أن تترافق مع النضال الجمهوري»

نظر ألبيرت كوبر إلى ساعته عندما توقفت سيارة «الفوكسهول آسترا» في مرآبه. كانت الساعة تشير إلى التاسعة و٤٥ دقيقة صباحاً، والمرأة الشابة التي كانت قد اتصلت بالهاتف منذ ساعة، بينما كان ينادي أحد مستخدميه، وصلت في الوقت المحدد.

خرجت من السيارة بجسمها الصغير وهي ترتدي سترة سوداء كالتي يرتديها قاذفو القنابل، وبنطالاً للتزلج أسود اللون وقد دفعت بشعرها الأسود إلى الوراء على شكل ذيل الحصان: تبسمت ووقفت تتجاذب أطراف الحديث مع السيد كوبر لمدة دقيقتين، ومن ثم ابتعدت وفي نيتها العودة لأخذ السيارة فيما بعد.

بعد ثوان انفجرت السيارة، والسيد كوبر الذي كان يُرجع السيارة إلى الوراء ليُدخلها إلى مشغله قتل على الفور. كان في الثانية والأربعين من العمر وترك زوجة وثلاثة أطفال صغار بعد عدة ساعات في ذلك اليوم، وهو الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٩٠، ادَّعى الجيش الإرلندي مسؤوليته عن هذه الحادثة: آلبيرت كوبر من كوكستاون، مقاطعة شيرون، أرلندا الشمالية، كان جندياً بدوام جزئي في فوج دفاع آلستر. يعتقد أنه قتل بعملية انتقامية لموت عضو من منظمة سين فين كانت قوات موالية شبه عسكرية قد قتلته قبل أسبوع.

خُصّص في الصحف البريطانية لهذه المرأة، التي قامت بعملية التفجير والتي كانت قد ولَّت هاربة عن مسرح الحادثة، حيّزاً أكبر مما كان يُخَصَّصُ في العادة لمثل هذه الهجمات الطائفية. «إمرأة من الجيش الجمهوري الإرلندي بثياب سوداء تغتال جندياً من فوج دفاع آلستر» قالت جريدة التايمز. ونقل عن الكاهن وليم ماكري الذي أشرف على تأبين المتوفي قوله: «يصعب التصديق أن إمرأة، بفعل قدرة الله، تستطيع أن تلد

حياة جديدة، يمكنها أن تكون منحرفة على هذا النحو وأن يكون الحقد قد ضَلَّلها بحيث أنها تجلب الموت لضحية بريئة».

مضى على بدء الصراع في ارلندا الشمالية حوالي أربعمائة سنة تقريباً، وكان للنساء على الدوام دور في هذا النزاع. النساء اللواتي قابلتهُن في هذا الفصل سبق لهنّ أن تورَّطن في أحدث هذه المراحل وأشدها دموية وإثارة للجدل. لقد شَهَرْنَ السلاح في القتال ضد الجيش البريطاني الذي أُرسل في أول الأمر إلى أرلندا الشمالية لحماية الكاثوليك من غوغائية الجماهير البروتستانتية.

لقد كانت النساء هُنَّ من حَضَّرنَ أكواب الشاي للجنود عندما وصَلَتْ طلائع القوات البريطانية إلى ديري وبلفاست عام ١٩٦٩، وتكشف الصور الفوتوغرافية لتلك الفترة كيف أن النساء الكاثوليكيات كنَّ يبتسمن ابتسامات الإرتياح والإطمئنان مع القادمين لحمايتهن، لكن فترة شهر العسل هذه لم تدم طويلاً.

سُرعان ما بُعث بالجنود في أرلندا الشمالية إلى المساكن الكاثوليكية، بحجّة «مساعدة السلطة المدنية» ليجدوا مخابىء للأسلحة والذخائر الحربية التي كانت قد خُزنَتْ احتياطاً من أجل الدفاع عن الجماعة الكاثوليك ضد البروتستانت. وكانت بعض عمليات البحث عن الأسلحة تتم بطريقة وحشية بحيث ما إن جاء صيف عام ١٩٧٠، حتى بدأ الكثيرون من الكاثوليك ينظرون إلى الجيش الإنكليزي نظرة عدائية، والفتيات الكاثوليكيات اللواتي كن يلتقين أو يتواعدن مع جنود إنكليز كنَّ يُعاقَبن من قبل نساء أخريات من جماعتهن.

بدأ الجيش الجمهوري الإرلندي، الذي عيبَ عليه فشله في حماية الكاثوليك والذي أصبح موضع استهزاء وسخرية منهم، يعيد توطيد نفسه وإثبات وجوده. في سلسلة من الحوادث تضمنت عمليات تفتيش من بيت لبيت قَتَل الجيش الإنكليزي وجَرح عدداً من المواطنين الكاثوليك. وفي عام ١٩٧١ بلغت القوات الإنكليزية مرحلة صار البعض ينظر إليها على أنها جيش احتلال جاء ليحافظ على الوضع الراهن وليقوي الهيمنة البروتستانتية على أرلندا الشمالية. أصبح الصديق عدواً. في تلك السنة إمرأة تدعى ماري درام، وهي عضو في السلطة التنفيذية لمنظمة سين فين والتي قتلها الموالون فيما بعد بطَلْق ناري، خاطبت حشداً من الناس بقولها: «مَضْيعة للوقت أن نصْرخَ: «فلينهضَ الجيش الجمهوري الإرلندي»، الشيء المهم هو أن نلتحق». بعد ذلك، على ما يبدو، اصطفّ الأعضاء الجدد ليسجلُوا في صفوف المتطوعين – مجندين من الرجال والنساء في الجيش الجمهوري الإرلندي، وهكذا ابتدأت الإضطرابات مرة أخرى.

* * *

لقد لعبت نساء الجيش الجمهوري الإرلندي، خلال العشرين سنة الماضية، دوراً متزايداً في عمليات «الخط الأمامي» ضد القوات البريطانية والقوات البروتستانتية شبه العسكرية المساندة لها - وضد الشعب البريطاني أيضاً. استُخدمت النساء في بادىء الأمر بمثابة طعم لإغواء الجنود البريطانيين، يعدنهم بقضاء أوقات ممتعة في أماكن يتواعدون على اللقاء فيها، حيث كان يُطْلَقُ عليهم النار من قبل قتلة محترفين. نساء أخريات كنَّ يحملن «قنابل أطفال» في عربات أطفال إلى مراكز التسوق. وسرعان ماتمكنت النساء أنفسهن من فرض سلطانهن على أية ممانعة كانت تبديها قيادة الجيش الجمهوري الإرلندي حول تعريض النساء لخطر العمليات المباشرة. كنَّ يردْنَ القتال، وأن يعاملن على قدم المساواة مع الأخرين.

وفي مقابلة معها، قبل موتها بعام، قالت ميريد فاريل التي قتلت من قبل ال SAS في جبل طارق عام ١٩٨٨، أن الذي شدَّها إلى الجيش الجمهوري الإرلندي هو انها كانت تُعامل بنفس الطريقة التي كان يعامل بها «الرجال». موتها جعل منها شهيدة، أولادها من الجمهوريين أطلق عليهم اسمها، تخليداً لذكراها.

عُرِفَتْ فاريل قبل موتها بآرائها المتطرفة حول المساواة بين الجنسين سياسياً واقتصادياً واجتماعياً: عندما كانت في السجن تُنفذ حكماً بالسجن لمدة أربعة عشر عاماً لقيامها بعملية نسف لأحد الفنادق، قامت بحملة تنادي بالمساواة ضمن بنية الجيش الجمهوري الإرلندي. أثناء فترة الحكم تلك اختيرت فاريل من قبل (سين فين) لتكون إحدى المرشحات في انتخابات كورك. استعْمَلَ القائمون على الحملة آنئذ صورة لها كانت تبدو فيها في ذلك الوقت - قَذِرة مُشَعَّثة الشعر نتيجةً لإشتراكها في الإضراب عن الإغتسال في سجن أرماغ. انزعج والدها لهذه الصورة وحاول أن يستبدل بها صورة أخرى تظهر فيها إبنته على حقيقتها كشابة جميلة جذابة. شكت فاريل قائلة: «راح والدي يتنقل قائلاً، (لا تعرضوا تلك الصورة، إنه عمل رهيب. لا تعرضوا صورتها تلك. ها هي صورة قديمة لها، إنها جميلة، إليكم بها) لقد أُخِذَ كلٌّ ما هو أنيق ولائق. لم يكن يُريد أن يتقبَّل الحقيقة أو الواقع لأنه من الصعب تقبلهما. نظر إلى الأمر من وجهة نظر عاطفية. بيّنوا الصورة الجميلة لأن هذه هي الإبنة التي أراد أن يصوروها وليس الحقيقة الفعلية. أعتقد أن المجتمع بكامله وجد أنه من الصعب أيضاً تقبل الأمر».

وبالفعل، فقد وجد المجتمع صعوبة في تقبل نساء الجيش الجمهوري الإرلندي. فعندما تم إلقاء القبض على الأختين برايس لإشتراكهما في حملة تفجير عام ١٩٧٣ في

لندن، تلك العملية التي جُرِحَ فيها ١٨٠ شخصاً، أطلق عليهما إسم «أُختَي الموت». يتذكر البوليس السري الذي ألقى القبض على إحدى الأختين وهي ماريون كيف أنها تطلّعت إلى ساعتها وعلا الإبتسام وجهها عندما انفجرت القنبلة في الأولد بيلي. وَصَفَتْ وسائلُ الإعلام الشابتين بالهمجية وبأنهما لا تمتلكان من الأنوثة شيئاً، وهي صفات لا زالت تطلق على جيل اليوم من نساء الجيش الجمهوري الإرلندي.

عندما سُئِل المكتب الإرلندي الشمالي، ادّعى أن الجيش الجمهوري الإرلندي أوقَفَ استخدامه للمتطوعات من النساء - ادعاء وَجَدْتُ من الصعب قبوله أو تصديقه خاصة بعد مقابلتي العديد من النساء من بينهن واحدة تقوم الآن (بالخدمة الفعّالة) وإذا ما عدنا إلى السنوات العشرين الماضية نجد أن النساء لعبن وباستمرار دوراً مهماً، وأحياناً دوراً رئيسياً، في عمليات الجيش الجمهوري الإرلندي.

حكم على جوديث وورد التي ولدت في لندن وناصرت قضية الجيش الجمهوري الإرلندي، بالسجن مدى الحياة عام ١٩٧٤ لزرعها قنبلة في عربة لنقل الجنود البريطانيين انفجرت عند الميل ٦٢ وقتلت إثني عشر منهم.

استأثرت الدكتورة روز دوغديل بالعناوين الرئيسية كونها إبنة عائلة إنكليزية ثرية كانت قد تمردت والتحقت بالجيش الجمهوري الإرلندي. سرقت لوحات زيتية من والدها واختطفت مروحية وحاولت أن تُلْقي مَمَاخِضَ لَبَنٍ مليئة بالمواد المتفجرة على ثكنات الـ RUC. عندما ألقي القبض عليها كانت **حاملاً** من إدي غالاغر وهو واحد من أشد رجال الجيش الجمهوري الإرلندي قسوة وأكثرهم سوء سمعة.

لكن غالاغار هذا أثْبَتَ أنه لم يبلغ في قسوته ما بلغته إمرأة أخرى في الجيش الجمهوري الإرلندي تدعى ماريون كويل. اختطف الإثنان معاً في عام ١٩٧٥ أحد أصحاب المصانع الهولنديين وطالبا بإطلاق سراح دوغديل كجزء من الفدية. خلال محنته التي دامت واحداً وثلاثين يوماً قال الضحية أنهّ توصّل إلى تكوين نوع من الإلفة والمودة مع غالاغر بينما بقيت كويل فاترة وغير مبالية وبعيدة طوال الوقت. عندما بلغ الضغط أشدّه كانت هي التي تولت أمر المسدس والمفاوضات، وعندما اقتحمت الشرطة البيت في نهاية الأمر سقط غالاغر على الأرض وقد تملكه الرعب بينما احتفظت كويل بعُدوانيّتها ورباطة جأشها حتى النهاية.

في عام ١٩٨٣ حكم على أنامور بالسجن المؤبد لتورطها في نسف حانة في لولي كيلي بالقرب من ديري. كانت تلك الحانة مكاناً يتردد إليه جنود بريطانيون كانوا يذهبون إلى هناك للإلتقاء بفتيات محليات. قتل في تلك العملية إثنا عشر جندياً وخمسة من المدنيين.

كانت إلّا أودوير ومارتينا آندرسون ممن حكم عليهن بالسجن المؤبد عام ١٩٨٦ لاشتراكهما في مؤامرة لرمي قنابل في لندن وستة عشر مُنْتَجعاً بحرياً. وُجدت بصمات أصابع أودوير على لائحة قنبلة، مخبأة بين مواد متفجرة عندما أغارت الشرطة على «مقر الأمان» للوحدة في غلاسكو. أما آندرسون التي كانت في الثالثة والعشرين من العمر عندما قبض عليها، فقد كانت ملكة جمال محلية سابقة.

لقد أصبحت قضية إيغلين غلينهولمز دعوى تثير الرأي العام بالنسبة للجيش الجمهوري الإرلندي وبُعْبعاً بالنسبة لسكوتلانديارد. غلينهولمز مطلوبة في بريطانيا كي تُسْتَجْوَبَ حول سلسلة من التفجيرات كان منها: قنبلة مسمارية في ثكنات تشيلزي في لندن قتلت إثنين من المدنيين، وهجوم بالقنابل في سيارة ستيوارت برينغل القائد العام السابق لجنود البحرية الملكية، ومحاولة أخرى لإلقاء قنبلة على منزل السير ميشيل هافرز، وتفجير حانة في شارع أوكسفورد قتل فيه خبير في إبْطال مفعول القنابل.

أصدر سكوتلانديارد عام ١٩٨٦ تسع مذكرات تطالب بتسليمها من دبلن، فقد كانت أول إرهابية من الجيش الجمهوري الإرلندي تُسلمها دبلن كي تحاكم في بريطانيا. ونظراً لأمور قانونية تقنيّة قضت المحكمة أن هذه المذكرات لم تكن شرعية، وهكذا أطلق سراحها. مجموعة من ضباط الفرع الخاص، كانوا قد تميزوا غيظاً لهذا القرار، لاحقوها في وسط المدينة فحاولت الإختباء في قسم النساء من فرع تابع لمحلات تجارية محلية. أُلْقيَ القبضُ عليها مرة أخرى وقُدمت إلى قاضٍ آخر، لكنَّه هو أيضاً أطلق سراحها معتبراً أن إلقاء القبض عليها لم يكن شرعياً. ومنذ ذلك الحين وهي تعمل بنشاط.

* * *

إن الحقائق البيّنة للجرائم والفظائع التي تورطت بها هؤلاء النسوة هي حقائق تقشعر لها الأبدان. ومع ذلك، فالنساء اللواتي قابلتهن لم يكنَّ في منتهى البشاعة والوحشية. كان البعض منهن ودوداً، وكان البعض الآخر أقل وداً، لكنهن بالإجمال كنّ عاديّات. تورط معظمهنّ في مثل هذه النشاطات وهنَّ مراهقات أو في أوائل سن العشرين. الكثيرات منهن لم تقْدِمْن على الزواج عندما كنَّ في أوج نشاطهن. لم تلتحق واحدة من النساء بالجيش الجمهوري الإرلندي نتيجة إقناع من صديق أو تأثير من عشيق على الرغم من أن الكثيرات منهن كنَّ قد نشأن في بيوت شديدة التعصب للجمهوريين. ولا بد أن يكنَّ قد تأثرن بأصدقاء أو أخوة أو أخوات. كان الردّ على سؤال عام «لماذا التحقتِ؟» هو دوماً «كيف لنا ألّا نفعل؟» لقد أخبرتُ المرة تلو

الأخرى عن الطريقة التي كان الجنود البريطانيون يُعامِلون بها الجماعة الكاثوليك، وعن ذكرى حوادث قوية قاسية ظالمة جائرة كذكرى يوم الأحد الدامي، عن ذعر الأطفال وهم يواجهون البروتستانت المتنَمِّرين، عن الشعور بالإحتقار والإزدراء وعن الرغبة في المواجهة. كان يجمع بين كل هذه النساء مشاعرُ الحقد والكراهية نحو الجيش البريطاني، وإيمان راسخ بأن لجوءهن إلى العنف كان له ما يبرره. ما يجب ذكره أيضاً هو أن اللغة البذيئة والأخلاق الفاسدة عند القوات البريطانية كانت سبباً من أسباب ذلك الحقد. لقد ولَّد مثل هذا التصرُّف عند هؤلاء النسوة شعوراً بالقرف والإشمئزاز كالذي أفصَحَتْ عنه النساء الفلسطينيات تجاه الجنود الإسرائيليين في الضفة الغربية.

ربما كانت هذه المقابلات هي أصعب ما في هذا الكتاب، ذلك لأنني كنت خائفة من الجيش الجمهوري الإرلندي أكثر مما خفت من أية منظمة أخرى سبق لي أن تناولتها. بمقدور الخوف أن يجعل المرء أقلّ موضوعية، فلهذا كان لا بد لي من السيطرة على هذا الخوف. كنت قد قابلت العديد من النساء الأخريات اللواتي قَتَلْنَ أو شاركن في عمليات تخطيط للقتل، لكن لم تنظر إليَّ واحدة منهن على أنني عدوة لها. كثيراً ما قالت لي نساء جمهوريات أنه عندما كُنَّ يَقْتُلْنَ بأنهن كنَّ يُرِدْنَ أن يَقْتُلْنَ ما يَسْتَطِعْنَ من البريطانيين ما كُنَّ يقصدنني أنا، وإنما كنَّ يقصدْنَ الجنود البريطانيين، ومع ذلك كنت أشعر بأنني عَدوَّة بالولادة.

لقد تمتِ الموافقة على هذه المقابلات بالإتفاق على أن تُعْرضَ نسخة من هذا الفصل على سين فين قبل النشر.

* * *

يوجد خارج مركز مطبعة سين فين في الفولز روود كتل صخرية على الرصيف لمنع السيارات المفخخة. أجهزة تصوير خفية تنقل صورتك إلى شاشة تلفاز صغير في غرفة الإستقبال، ومتى أُعطيتَ تصريحاً يُسمح لك بالدخول إلى البناية من خلال بابين تتشابك عليهما الأسلاك الشائكة. الجو مظلم في الداخل - نظراً لقلة النوافذ - لذلك فالمصابيح مضاءة طوال الوقت. غرفة الإستقبال هي أيضاً مكان للزيارات غير المتوقعة لأفراد من جماعة الكاثوليك الذين يكونون بحاجة للنصيحة حول مطالبتهم بالضمان الإجتماعي أو بشأن تعويضات عن الأذى الذي لحق بهم أو بمنازلهم أثناء تفتيش البريطانيين لها، ومكان يلتقي فيه العاطلون عن العمل أيضاً. في الطابق العلوي توجد مكاتب المطبعة وغرف فُرِدتْ من أجل المقابلات.

في حوالي الساعة الحادية عشر من صباح يوم أحد وصلت إلى المكاتب كما أُمِرْتُ

كانت العاملة الشابة من سين فين والتي كانت قد هيأت لي مقابلات في الأشهر القليلة الماضية تنتظر. انطلقنا معاً في رحلة انتهت بنا إلى بناء هادىء حيث كان كلب ألزاسيّ ينام تحت أشعة الشمس الباهته في الحديقة الأمامية. في داخل البيت وفي غرفة لطيفة جيدة الأثاث جلست إمرأة متطوعة لها علاقة بالعمليات الحربية في الثامنة والعشرين من عمرها.

لم يسأل المالك الذي كان قد فتح الباب الأمامي أية أسئلة، بل تركنا وشأننا في مرحلة من مراحل المقابلة دخل شاب في سن المراهقة، قدم لنا الشاي وشطائر الجبن والكعك المسطح المدور وبسكويت البطريق وانسحب بهدوء.

كانت المتطوعة إمرأة جذابة بشعر أسود وعينين سوداوين، وكانت ترتدي بنطالاً من الجينز وكنزة فضفاضة كالتي يرتديها الرياضيون. بدت هادئة مسترخية رابطة الجأش وأكثر هدوءاً مما كنت أتوقع. رحت أفكر بغرابة موقفي وأنا أتناول بسكويت البطريق مع إمرأة أَثْبَتَتْ قُدْرتَها كعضو عامل في وحدة خدمة فعّالة في الجيش الجمهوري الإرلندي. بدت المرأة صادقة بشكل ملحوظ. وصفت حياتها السرية بكونها محدودة ومزعجة ومملّة بعض الشيء. وما كان يزعجها خاصة، على ما يبدو، هو عدم قدرتها على النزول إلى المدينة لحضور حفلة سكر حقيقية وذلك خوفاً من أن يُلقى القبض عليها أو تُقتل. التَقَتْني كإمرأة كَرَّستْ حياتها لقضية، وكانت مُسْتَعِدَّة للمقابلة بعد أن أَمْعَنَتِ النظر في الأمور من بدايتها حتى نهايتها. في الحقيقة كانت جديرة بأن تُحبّ. . . ومن ثم راحت تضحك وهي تتذكر ذلك الصقيع ليلة وضعت لغماً أرضياً لبعض القوات البريطانية، وَرُحْتُ أتساءَلُ كم عدد الأشخاص الذين قتلَتهُمْ هذه المرأة وكم سيكون عدد من ستقتل.

كان لديها قائمة بالأسئلة التي كنْتُ قد تقدَّمتُ بها إلى مجلس الجيش الجمهوري الإرلندي قبل شهر. كان بجانب بعض هذه الأسئلة علامة شطب – على سبيل المثال، «ما هو عدد النساء الجاهزات للقيام بالعمليات في الحركة الجمهورية؟» ما كان يمكن الإجابة على مثل هذه الأسئلة.

وبطريقة تشبه طريقة رجال الأعمال قرأت السؤال الأول: «لماذا أصبحتِ متورطة»؟

«شعرت أنه كان بمقدوري أن أساعد على طرد البريطانيين من أرلندا وأنه من الصواب أن أستعمل أية وسيلة في متناول اليد لأن أفعل هذا – متفجرات وقنابل ونحو ذلك.

«لقد رأيتُ في حياتي الطريقة السيئة التي يعاملنا بها الشعب الإنكليزي. إنهم يسعون جاهدين كي يُبيدوننا ثقافياً وحضارياً. لقد شاهدتهم يضايقون ويغتالون بعض أصدقائي وعائلتي، وخَبِرْتُ الطريقة التي يَسْتَغِلّون بها الموالين لمساعدتهم.

«أشياء أكيدة حدثت في طفولتي. في فترة من الفترات كانت عائلتي تسكن في منطقة غالبيَّة سُكانها من البروتستانت، بينما كان شارعنا كاثوليكياً. فرض الـ UDA أو UVF الحصار على شارعنا. كانوا يروحون ويجيئون في الشارع بينما كان علينا أن نلازم بيوتنا. حدثت بيننا وبين الموالين معركة شرسة بالمسدسات، فقد كانوا يحاولون إحراق منازلنا. وفي حوالي الثالثة صباحاً وصل الجيش الإنكليزي وقرر مع سكان الشارع أنه من الخطر الشديد البقاء فيه. كان في الشارع عدد من الأولاد، وكان علينا أن ننتقل إلى ثكنة عسكرية مشياً على الأقدام. كان لا بدّ لنا من أن نركض عبر الأزقة مختبئين ننتظر وقف إطلاق النار ليتسنى لنا العبور لمسافة قصيرة. كنت طفلة في التاسعة أو العاشرة من عمري وأدركت أننا كنا في خطر لكن لم أكن أدري إلى أي مدى».

ألم تكنْ تنظرُ إلى القوات البريطانية، وهي تحت نيران الموالين، على أنها مُنْقِذَة الضحايا ومخلصتهم من مهاجميهم؟ «كلا» أجابت بحزم. «كانوا المخرجيْن والموزعين لهذه الأعمال والمقسِّمين لجماعتنا. قبل أن يأتوا كان يُسمح لنا باللعب مع أولاد من البروتستانت، وكنا نذهب كي نشاركهم مِشْعَلَتَهُمْ في الثاني عشر من تموز، لكن بعد أن جاء الجنود لم يعد الأمر كذلك وتقسَّمت الجماعات.

«لا أحمل أية ضغينة نحو الشعب البروتستانتي رغم أنني أعرف أنه يوجد بينهم بعض الموالين الخطرين جداً. تفهُّمُهمْ للوضع منافٍ للعقل. ينظرون إلى كل شيء بمنظار مختلف تماماً ويحاولون أن ينتزعوا منا هويتنا.

«بينما كنت أنمو وأترعرع في البيت الثاني، أُخرِجْنا مرة أخرى. ومرة أخرى وَجَدْتُ أن الجيش البريطاني والحكومة البريطانية اللذيْن أثارا هذه التحركات، كانا بمثابة أدوات رعب وتخويف. كانوا يعتبرون أنفسهم أسياداً لنا يحق لهم أن يخيفوا ويرعبوا عائلتي. فكرت إذا كان بمقدوري أن أفعل شيئاً أساعد فيه في إخراجهم فلن أتردد.

«جئتُ لأحدهم وكنت أعرف أنه عضو وسألته إذا كان بإمكاني الإنضمام. اخترت من الحركة ما كان يتعلق بالعمليات الحربية لأنني كنت أومن أننا نمتلك الحق الشرعي في اللجوء إلى السلاح في كفاحنا». وهنا توقفت لتأخذ رشفة من الشاي ومن ثم استأنفت الحديث.

«تلقيتُ التدريب الكامل على استعمال المتفجرات. أُخذت إلى معسكر لا أعرف موقعه. والمعسكر مجرد مكان نلتقي فيه. لكن المواقع تتغير باستمرار. قد يُقام المعسكر أحياناً في بناء مهجور، أو يُقام بناء كي يُستعمل كمعسكر. يوجد ضابط تدريب، وعادة عدد متساو من الرجال والنساء. يوجد نماذج مختلفة من التدريب - منها ما هو أساسي فقط، وإذا أردت، هنالك تدريبات أكثر تفصيلاً. وبما أنني كنت مُدرَّبة تدريباً كاملاً لم أكن أشعر بالخوف أثناء إستعمالي للمتفجرات. تعلمتُ كيف أُعدُّ القنبلة للإطلاق وكيف أفجرها، وفي عدد من المعسكرات عرفت كل شيء عن قنابل[1] شَرَك الغَفْلَة ومثيلاتها من الأشراك ووسائل التحكم عن بعد.

«في المعسكرات كنا نخضع أيضاً لتدريبات سياسية، وكثيراً ما يحدث نقاش حول الطريقة التي كنا نرى بها الأمور. كانت المعسكرات تدوم عدَّة أيام، أما إذا كان المعسكر معسكر أسلحة، فكان يتخلله عندئذٍ فترة من التدريب وبعدها ينتهي المعسكر بالتَّصيُّد».

أشارت إلى كلمة «التصيّد» هذه بطريقة واقعية وكأنها في معرض الحديث عن حفلة كوكتيل. ثم راحت تشرح من دون أن تتخلى عن هدوئها كيف أنها تدربت على استعمال السلاح كما تدربت على استعمال المتفجرات كي تكون قادرة على حماية نفسها أثناء العمليات. «فمثلاً إذا كانت العملية التي كُلِّفت بها هي عملية سيارة مفخخة فأنت بحاجة لأن تكوني مسلحة أيضاً، فكان لذا من الضروري أن تتلقي التدريب في كل من المجالين. لا أقول أني كنت ماهرة في أيّ من هذين الحقلين، فالمرء يتعلم باستمرار ويكتسب الخبرة في العمليات التي يشارك فيها.

«في أول الأمر قد تنقصك الثقة. لقد أطلعوكِ على المعدات الأساسية وأصبحتِ الآن تعرفين الأجزاء الرئيسية للقنبلة، لكنك بحاجة لأن تشاركي في العمليات قبل أن تبلغي مرحلة الشعور بالثقة والمقدرة التامة».

متى تَّمت عملية التدريب وأصبح المتطوع جاهزاً للقيام بالعمليات فهو ينتظر الأوامر. في أغلب الأحيان يظل المتطوع ساكناً مع أهله، سواء كان رجلاً أم إمرأة. «لم تكن عائلتي تعرف في أول الأمر» قالت متذكرة. «عندما التحقت بالمعسكرات لا أستطيع أن أتذكر ماذا قلت لهم، لكنني واثقة تماماً أن ما قلته لعائلتي لم يكن «أنا ذاهبة لأتدرب». أخبرتهم في النهاية - أعتقد، لو لم أفعل ذلك لكانت حياتي صعبة جداً

---

(١) قنابل شرك الغفلة: وهي مقابل مخبوءة متصلة بشيء لا يثير الريبة، فهي تنفجر عندما يمس ذلك الشيء شخص قليل الإحتراس.

وقاسية وأنا أحاول دوماً أن أختلق الأعذار. وعلى الرغم من قلق والديَّ بشأن سلامتي فقد تفهّما ما كنت أفعل وأدركا الأسباب الكامنة وراء ذلك.

«بما أن كلَّ شخص متورط على نحو نشيط يتوقعُ بأن يُقْتَلَ أو يَذْهَبَ إلى السجن، لذلك تنشأ عادة زمالة قوية بين المتطوعين. أُفضِّل ألّا أَبقى في البيت لأسباب عدة. ما كنت لأنام هناك أكثر من ليلتين عندما أكون في مهمة. لكنني أحاول زيارة بيت والدتي بشكل منتظم. أشعر بالإرتياح عندما أعرف أنهما في مأمن من تدابير قوات التاج».

إلّا أنها لم تترك البيت في أول الأمر وحتى بعد مشاركتها في إحدى العمليات. يبدو أن هناك نوعاً من فترة شهر عسل يبقى خلالها المتطوع الجديد غير مكتشفٍ من قبل الشرطة واستخبارات الجيش، لكن في آخر المطاف، وهذا يعتمد، كما قالت، على «كم أنت ناشط» يصبح من العسير أن يترك عائلته. في كثير من الحالات يحدث شيء يعطيك دلالة تشير إلى أن الإستخبارات البريطانية تلاحقكِ. قد يوقفونك وأنتِ بصُحبة متطوع معروف في الجيش الجمهوري الإرلندي، أو قد يكون هناك من يبلِّغ عَنكِ، فلا يَسَعُكِ عندئذٍ سوى الخروج. كل المتطوعين هم أهداف للموالين والبريطانيين، فإذا استطاعوا أن يُحدِّدوا عنوانكِ، هذا يعني أنك تعرضين، نفسك للقتل. وإذا أراد الجيش البريطاني إلقاء القبض عليكِ فمن السهل جداً أن يعرف أين أنتِ».

قالت أنها عاشت مع والدتها حتى ألقي القبض عليها. وبعد أن قضت عدة سنوات في السجن أطلق سراحها وعادت لتلتحق بالحركة من جديد، لكن بما أنها أصبحت شخصية بارزة ومعروفة كان لا بد لها من أن تذهب للعمل السري، ومنذ ذلك الوقت أصبح البيت عندها عدداً من المنازل المختلفة لأصدقاء ورفاق كانوا يرغبون في استقبالها.

اعترَفَتْ أنه من الصعب أن يعتاد المرء على حياة يكون في معظمها ضيفاً على الآخرين: «إنه أمر يعكّر على المرء صفو حياته، لكنني على الأقل أعرف أنه سيظل يتوفر دوماً مكان أستطيع أن أنام فيه. لديّ ثياب في كل مكان، وهناك بيوت أستطيع الذهاب إليها في كثير من المناطق، وهكذا أستطيع العيش حيث يَصْدُفُ أن أعمل. إن هذا التحرك أمر طبيعي بالنسبة لنا».

على الرغم من أنها كانت حريصة على ألاّ تنتقد أسلوب حياتها الذي فُرِضَ عليها، فقد برز في كلامها الآن عُنْصُرُ تَوْقٍ لحياة طبيعية. «عدم قدرتك على التحرك بحرية يقيّد حياتك الإجتماعية. هذا يعني أنك مقيدة بالأماكن والمناطق المخصصة

للحركة عندما تريدين أن تجتمعي وتقيمي علاقات شخصية مع الآخرين. لا يمكنكِ الذهاب إلى وسط بلفاست حيث النوادي الليلية والحفلات لأنك قد تصادفين أناساً من جماعة الفرع الخاص أو RUC يقفون في البار. قد تصادفين أيضاً جماعة من الموالين. هذا بالإضافة إلى أن العودة من وسط المدينة إلى البيت قد تكون محفوفة بالمخاطر. فإذا وُجِدَ متراس تابع للـ RUC فقد تعانين من المضايقة، وإذا وُجِدْتِ في بقعة منعزلة فقد تتعرضّين للأذى.

«ولهذا علينا أن نبقى هنا. إنه مكان محليّ جداً ممِلٌّ ومضجر بعض الشيء لدينا الكثير من النوادي والبارات لكنك تقابلين فيها نوعاً واحداً من الناس. فأنت لست متحررة... هناك حفلات تقام في هذه المنطقة لكنها لا تستمر طويلاً بسبب قوانين الترخيص البريطانية».

ربما شَعَرَتْ أنها بَدَتْ مُمتَعِضَةً بعض الشيء، لذلك سارَعَتْ لتمتدح أسلوب حياتها بطريقة ذكَّرَتني بالمقاتلة الفلسطينية «بانه» التي تَصْغُرُ هذه المرأة بأربعة عشر عاماً وشاركَتْ في حرب مختلفة تَبْعُدُ مئات الأميال: «أنْ تجتمعي برفاقك وأصحابك المتطوعين أمرٌ يدعو إلى البهجة والأمان. إنني لا أحِنُّ إلى الذهاب إلى وسط المدينة أو إلى حفلات في مكان آخر. فَعَلْتُ كل هذا قبل أن أصبح متطوعة وعندما لم أكن معروفة نسبياً. أعتبر نفسي محظوظة، فقد عشنا تلك الفترة بينما لم يعشها متطوعون آخرون. لا أشعر أنني أفتقد شيئاً أريد أن أفعله». لا أعتقد أنني صدَّقتها.

راحت تروي قصة إحدى عملياتها كما كنتُ قد طلبتُ في جدول الأسئلة. «كان لغماً أرضياً ضد دورية مشاة من الجيش الإنكليزي. تقابلتُ مع عدد من الأشخاص في بيت مأمون وبحثنا العملية من بدايتها حتى نهايتها، وناقشنا المخاطر التي قد يتعرض لها المدنيون في المنطقة وتوصلنا إلى قرار أنْ لا خطر عليهم، وهكذا قررنا تنفيذ العملية. كان أحدنا سيقوم بمهمة الحراسة، وإذا ظهرت إمرأة أو ظهر طفل كان علينا أن نآوقف. حصلنا على كل المواد التي كنا بحاجة إليها وأخذنا معنا فتيل التفجير وأجهزة التوقيت التي كانت تشكل القنبلة. كنا جميعاً نلبس ثياباً سوداء لأن الوقت كان ليلاً.

«كانت العملية تتضمن تمديد سلك التحكم الذي كان لا بد من طَمْره في الأرض لأن تلك المنطقة بالذات، حيث كنا نمدّد السلك، كانت مراقبة من قِبل مركز مراقبة للجيش الإنكليزي. كانت منطقة كثيرة العشب يتخللها جدول مائي، وهكذا كان لا بد لنا من أن نستلقي على بطوننا ونزحف في الجدول ونحن نجر معنا سلك التحكم لنطمره أثناء تقدمنا.

«كان لدينا في المنطقة أشخاص يحملون أجهزة إرسال واستقبال بالإضافة إلى بيت

مأمون قريب منا. فإذا قَدِمَتْ دورية من الجيش البريطاني أو من RUC أمكن الإتصال بنا فيكون علينا عندئذٍ أن نترك كل شيء ونهرع إلى البيت المأمون. حدث هذا مرتين. شعرنا بالبرد الشديد وتبلّلنا ونحن نزحف في ذلك الجدول، لكن في النهاية كان كل شيء في مكانه. إستغرق تمديد الخط ساعتين بما في ذلك وصل سلك التحكم ومجموعة التفجير بالقنبلة. تفحصنا بعد ذلك كل المعدات وكان كل شيء في حالة صلاحية للعمل. وَوُضِعَتْ القنبلة في المكان المحدد. دعونا الحراس للدخول وعاد كل الأشخاص المشتركين في عملية تمديد السلك إلى بيت الأمان. شخص واحد بقي مع الجهاز وآخرون ظلوا يراقبون كي يوعزوا إلينا بوقف تفجير العبوة في حال مرور أحد المدنيين. انتظرنا في البيت لنسمع ما حلَّ بهدفنا».

توقَّفَتْ، وهنا سألتُها ماذا حدث؟ هزَّت رأسها وقالت: «لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك لأن التهمة لم توجه إلى أحد في تلك العملية». ومع ذلك فقد أردت أن أعرف الجواب لهذا السؤال، وبعد عدة محاولات لإقناعها قالت أنها ستتصل بي فيما بعد. وبالفعل، فقد اتصلت بي وقالت أن العملية كانت ناجحة ولم تعط أية تفاصيل أخرى.

تساءَلْتُ فيما إذا كانت تلك العملية بالذات قد اختيرت خصيصاً للمقابلة لأنها لم تشتمل على قتلى أو جرحى من المدنيين ولأن تدابير وقائية كانت قد اتخذت لضمان ذلك. ماذا كان موقفها من عمليات قُتِلَ فيها مدنيون؟ «إن عمليات الجيش الجمهوري الإرلندي لم تكن لتوجه ضد المدنيين أبداً - كانت توجه فقط ضد الجنود البريطانيين من الـ UDR و UVF ماذا تقولين عن إينيسكيلين أو هارودس «لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال يا إيلين» قالت بلطف وكأنها أُمِرتْ بألّا تتحدث.

لكنها كانت مستعدة تمام الإستعداد للإجابة عن السؤال التالي: «هل لا زلتِ مستعدة لأن تقتلي؟ «نعم» أجابت بكل بساطة. «لا معنى في أن تكوني على علاقة بالعمليات إذا لم تكوني مستعدة للقتل - طالما يوجد أهداف شرعية». هل سبق لها أن قَتَلَتْ؟ نظرتْ مباشرة إلى عينيَّ وقالت بلهجة لا تقبل الجدل: «لست مستعدة للجواب على هذا السؤال، يا أيلين».

كان عندها، على ما يبدو، شيء تقوله بشأن قتل الأبرياء أو جَرْجِهِمْ في هجمات قام بها الجيش الجمهوري الإرلندي. لقد كان جواباً سبق لي أن سمعتُه من مجموعات أخرى ولا بأس أن أسمعه الآن مرة أخرى: السبب هو أن البريطانيين لا ينصاعون لإنذاراتنا. عندما تكون القنبلة موجهة ضد هدف تجاري في قلب المدينة فإننا نعطي عادة

إنذاراً ضمن متسع من الوقت - وقت كاف لإخلاء المنطقة. والشخص المكلّف بمهمّة الإتصال هاتفياً لإعطاء التنبيه، يجري تقديراً ذهنياً عن الوقت الذي قام فيه بالمكالمة. الوقت هو دوماً من ٤٥-٦٠ دقيقة قبل القنبلة.

«من مصلحة البريطانيين أن يُجرح الناس، وفي كثير من الأحيان ما كانوا ليستجيبوا أو ليعملوا بموجب إنذارات الجيش الجمهوري الإرلندي، فَهُمْ بهذا يستطيعون أن يضعوا اللوم علينا». كانت تؤمن بهذا وتصدقه، أو أنها أوْحَتْ لي بطريقة جيدة كي أصدقه. لم يَسْبِقْ أن سمعنا أن الجيش الجمهوري الإرلندي اتصل مباشرة بالجيش الإنكليزي مُبلّغاً عن قنبلة أو مُنذراً بانفجار - الطريقة الطبيعية المتبعة هي أن يُبَلَّغ التحذير إما إلى جريدة أو محطة إذاعة، أو فاعلي الخير أحياناً[١]. المشكلة تقع في معرفة وتمييز الإنذارات الحقيقية من المكالمات الكاذبة التي تُبتلى بها السلطات يومياً.

انتقلنا الى موضوع العنف. طَلَبَتْ مني أن أُعرّف العنف. قلت «في هذا السياق، العنف ضدَّ الجنود». «أعتقد أنكِ تقصدين البريطانيين؟» سألَتْ بفتور. «أنا لا أحب أن أرى أي شخص يُقْتَل أو يُجرح نتيجة للحرب. لكن إن لم تدرك الحكومة البريطانية أنها هي السبب الأساسي لما يجري من عنف، وإذا لم تقرر بصدق وإخلاص إزالة السبب وإعادة توحيد البلاد بإزالة الوجود البريطاني، لن يكون هناك نهاية للعنف.

«إنني أتوق أن أرى اليوم الذي يُزال فيه الوجود البريطاني من بلدي، وأعتقد أن مثل هذا الأمر سوف يحدث وأنا لا أزال على قيد الحياة. فلهذا السبب أنا مستعدة لأن أبقى متطوعة خلال هذه الفترة من الحرب. قد تتغير حياتي الشخصية في مرحلة من المراحل وقد لا أظل دوماً متطوعة نشيطة فاعلة، لكن في الحركة يوجد وظائف شتّى وآمل أن أتمكن من إيجاد وظيفة مناسبة. أؤمن أنه علينا أن نعمل جميعاً معاً ضمن الحركة كي نزيل الوجود الإنكليزي من الجزيرة». أصرَّت أن كلمة «جميعاً» كانت تشمل النساء إلى حد كبير.

بدا أن الطريقة كانت هي أن النساء كنَّ يلتحقنَ وهُنَّ شابات، فإذا لم يُقْتَلْن أو يُسجنّ - رغم أن بعضهن، كهذه المرأة، عُدن ليكنَّ على علاقة بالعمليات لدى خروجهن من السجن - بقين عاملات حتى تزَوَّجْن أو صار عندهن أولاد. القليلات منهن تابعن السير بعملياتهن عندما أصبحن أمهات. هذه المتطوعة التي كانت قبل قليل جندية تبعثُ الخوفَ في النفس اتخذت الآن طابع الأم وهي تتكلم عن مصاعبها كأم وكإمرأة في الجيش الجمهوري الإرلندي.

---

(١) (Samaritans) الذين يشفقون على الناس الواقعين في مأزق وليساعدونهم... (انجيل لوقا: ١٠/٣٣) مثل السامري الصالح.

«إذا ما قُبِضَ على إمرأة متطوعة عندها أولاد وأُدْخِلَتْ السجن، تأخُذُ عائلتُها على عاتقها مهمة الإعتناء بهم، لكن في حال عدم وجود أقرباء كي يفعلوا هذا، فما على رفاقنا الجمهوريين إلّا أن يحتضنوهم. في الوقت الحالي توجد فتاة في السجن وصديقتها هي التي تعتني بطفليها الإثنين. هنالك دوماً من يقدم النصح والإرشاد. حول الأمور المالية يتم تعيين وصي ليحصل على بَدَلِ الوصاية من الحكومة البريطانية - تماماً وكأن الطفل قد تيتم. وكثيراً ما كان أطفال المتطوعات اللواتي ألقي القبض عليهن يفسدون بالدلال من قبل أي إنسان، إننا عائلة كبيرة.

«تحدُثُ مشاكلُ عندما تخرج الأم من السجن ذلك لأن الأطفال يكونون قد اعتادوا على نوع واحد من النظام، وينظرون إليها على أنها دخيلة. تحاول الكثير من الأمهات في مثل هذا الوضع شراء أولادهن بالحلوى والنقود والهدايا، لكن الأمر لا يجدي نفعاً. على الأمهات، في مثل هذه الحال، أن يتسللن ببطء إلى داخل العائلة. أسوأ ما في الأمر لإمرأة سجينة هو ما قد يحدث لعائلتها».

لم تكن قيادة الجيش الجمهوري الإرلندي لِتَعْتَرِضَ على كون المرأة متطوعة وأمًّا في آن معاً إذا كان هذا ما تريده هي. «كل فرد يُعامَلُ على قدم المساواة مع الآخر. فأثناء التدريب يتعلم الرجال والنساء بالتساوي استخدام المتفجرات والأسلحة. فأنا شخصياً لم ألاحظ أية تفرقة بسبب الجنس ضمن الحركة، لكن هذا لا يعني أن الحركة خالية من ذلك. قد يصدف أن يكون بعض الرجال ميالين إلى مثل هذه التفرقة الجنسية، لكن هذا يرجع فقط إلى الطريقة التي نشأوا عليها أو تربوا بها. إنها مسألة تربوية وهم يكتشفون النساء من خلال الأدوار التي يلعبنها في الحركة».

بدت كلماتها مثل كلمات نساء الـ ETA التي تعلَّم الرفاق الذكور فيها بالطريقة عينها على ما يبدو.

يعامل البريطانيون النساء المتطوعات بنفس الطريقة التي يعاملون بها الرجال. جيىء بامرأة إلى المحكمة وقد ازْرَقَّ جسمها من الكدمات واسودَّت عينها من اللطم. رأيتهم وهم يجرُّونها على الدرج ويضربونها بقوة. عندما كنت في كاسل ريغ شاهدةً ضُرِبْتُ ورُفستُ بطريقةٍ حَرَمَتْني من النوم. يعرف البريطانيون أن النساء يشكلن خطراً بقدر ما يشكل الرجال، إن لم يكن أكثر».

هل كانت ترى نفسها خطرة؟ ضحكت من قلبها لهذه الإشارة. «أنا، خطرة؟» أعرف أنني لست خطرة، لكن البريطانيين يعتقدون أنني خطرة. يوجد ملفّات عني. تؤخذ في كاسل ريغ ملاحظات عن كل شيء تقولينه. كل ما كنتُ أقوله عند الإستجواب هو إسمي وعنواني. هذا ما قلته طوال سبعة أيام.

«لديهم ملف آخر، ملف أَمْنيّ يشرح بالتفصيل كل تحركاتك مع رفاقك - أين تذهبين كل يوم وأين تجتمعين ومن تعاشرين. يوجد صور لكِ وأنتِ برفقة أناس آخرين.

«أنا بالطبع نزّاعة إلى الشك وأرتاب بكل شخص. إنني أشك بكِ، طبعاً. سجنت في كاسل ريغ بعد أن وشى بي واحد من أفضل أصدقائي. إنني لا أثق بأحد وهذا ما يحزنني.

«عندما قمت بأول عملية لي كنت خائفة ومتوترة الأعصاب جداً وكانت تنقصني الثقة. في قرارة نفسكِ لا تنقطعين عن التفكير بما تفعلين ولماذا تفعلينه، وهذا ما يعطيك الثقة. بعد العملية الأولى تظلّين متوترة الأعصاب لكن ليس للدرجة التي تجعلك تتوقفين عن الإستمرار بما تفعلين، طالما أنك تعودين ولا يُلقى القبض عليكِ...»

* * *

كانت ريتا أوهاري إمرأة متزوجة ولها ثلاثة أطفال عندما تورطت «مع شخص مجهول» في محاولة اغتيال جنديين بريطانيين. تفاصيل الحادثة غامضة لأنها أَغْفَلَتْ الكفالة وهربت إلى دبلن قبل أن تحاكم. رفضت أن تتكلم عن الحادثة ما عدا تمسكها بالقول أنها لم تكن تحمل مسدساً عندما ابتدأ إطلاق النار. أصابها الجنود بعيار ناري في رأسها وأوشكت أن تموت ولقد كان تفكيرها بأولادها هو الذي أبقى على حياتها.

بعد ثلاث سنوات من هربها إلى الجنوب سُجِنت لحيازتها مواد متفجرة. أُشيع أنها كانت قد هَرَّبت الجيليغنايت[1] إلى داخل السجن مُخَبّأً في ما وَصَفَتْهُ الصحف بحياء على أنه «جسمها»، لكنها لم تُتَّهم بتلك الجريمة وهي تنكرها بغضب.

اليوم، وهي لا تزال إمرأة مطلوبة في الشمال، ريتا أوهاري رئيسة تحرير جريدة الحركة الجمهورية التي تصدر في دبلن. إنها ليست وظيفة تستسيغها لكنها تعتبرها التزاماً سياسياً. كانت تفضل الكتابة بنفسها.

إنها إمرأة صغيرة الجسم ذات شعر أحمر ناريَّة المزاج ويقال أنها على علاقة وثيقة بمجلس جيش الجمهوريين. مُطلَّقة في السابعة والأربعين من العمر. «وجدّة عدة مرات» وصفت «بالراشدة» - عضو مدى الحياة في الحركة الجمهورية تستطيع أن تَنْتَقِدَ الجيش الجمهوري الإرلندي من دون أن يُوجَّه لها لوم سياسي. عندما تحدثت عن

(١) **الجيليغنايت**: نوع من الديناميت.

موت الجنود والشباب ظهر عليها الألم الحقيقي وتذكرت رعب الجنود الخائفين على حياتهم وهي ملقاة عند أقدامهم على وشك الموت. في دعواها أن الجيش يجب أن يخرج من أرلندا تلك الصفة التعليمية التي تتكشَّف عنها بلاغة العديد من زملائها. لكنها، من غير ريب، تؤمن أن هذه هي الطريقة الوحيدة لأنهاء العنف.

وافقت على الفور على مقابلة في مكتب جريدتها في بارنل سكوير لكنها حذَّرتني أنه من الأفضل لي ألاَّ أؤلف كتاباً عن المجرمين والقتلة المجانين.

كان تورطها في الحركة الجمهورية من خلال ارتباطها بالمسيرات التي تطالب بالحقوق المدنية. كانت في السادسة والعشرين من عمرها عندما كانت متزوجة ولها ثلاثة أطفال وتدرس اللغات في الجامعة كطالبة تامة النمو جسماً وعقلاً. قابلت في حركة الحقوق المدنية، وللمرة الأولى في حياتها، جمهوريين أوفياء. ولدت من أبوين من الطبقة الوسطى، وتذكرت أن طفولتها كانت في منتهى السعادة وعادية - يُستثنى من ذلك أمر واحد: وهو أن والدها، وهو بروتستنتي اسكوتلندي من الرعيل الأول، كان في شبابه شيوعياً، وكان بيتهم مليئاً بكتب تتحدث عن ثورات في جميع أنحاء العالم. كانوا يتحدثون عن السياسة بمنتهى الحرية من دون سياسة الجمهوريين. قالت معلقة: «كنت ملمَّة بأخبار كل ثورة عدا ثورتي». من خلال اتصالها بالجمهوريين أصبحت على علم أن حركة الحقوق المدنية لم تكن لتبلغ نتائجها: «كان بمقدورنا أن نحقق القليل من الإصلاحات التي لا معنى لها، لكن كان من الواضح أن الدولة الشمالية ما كانت ستتغيّر. لذلك أصبح من الواضح بالنسبة لي أن المجابهة العسكرية كانت السبيل الوحيد الذي يمكن أن يغير الأمور».

ترددتْ بعض الوقت قبل أن تقرر الإلتحاق بالجيش الجمهوري الإرلندي. كان لا بدّ لها من التفكير ملياً قبل أن تتخذ قرارها لأن العمل المباشر كان العثرة الوحيدة التي تقف في وجه مسؤولياتها كأم. وهي إحدى النساء القليلات جداً في هذا الكتاب، التي كانت أماً عندما اختارت العمل المباشر. معظم النساء الأخريات كنَّ عازبات وكنَّ يعتبرن أن كونهنَّ أمهات ولهنَّ أولاد قد يقلل من مقدراتهن كمقاتلات أو يتعارض معها. يبدو أن السيدة أوهاري شعرت أنه كان بمقدورها أن تحتال على الأمر وتلعب الدورين معاً بنجاح: كانت المعركة عنيفة خارج الباب الأمامي. كان الوقت أواخر الستينات وكانت الحرب في الشوارع حرباً حقيقية، كما تذكرت، وكان كل شيء في غاية التوتر. «كان الناس يُضرَبون بالهراوات في الشوارع وكل شيء يجري بسرعة كبيرة، أما الآن فقد تغيرت طبيعة الحرب.

«كانت الحاجة ماسة لإنضمام الناس إلى الحركة في تلك الأيام - كان عام ٦٩ ولم يكن الجيش الجمهوري الإرلندي موجوداً من الناحية الفعلية، وكانت صغيرة جداً. تكلمت إلى بعض الناس الذين كانوا يشاركونني الرأي، وبعد ذلك التحقت. تلقَّيت بعض التدريب لكنني لا أستطيع أن أقول شيئاً عن ذلك.

«اختبارات العضويّة في هذه الأيام أكثر شدة وصرامة مما كانت عليه سابقاً. في ذلك الوقت كان الإنتساب يتم بمنتهى الإنفتاح والعلانية، والناس ما كانوا يأبهون لمن كان يعرف أنهم التحقوا. كان الناس في الجماعة يعرفون من أنتِ بحيث أنه كان بمقدورك أن تتجولي وتدخلي أي بيت على أنك عضو في الجيش الجمهوري الإرلندي، والبيوت التي لم تكن آمنة كان عددها قليلاً. كانت هذه العلانية سيئة جداً بشكل من الأشكال - سمحت للبريطانيين أن يبثّوا جواسيسهم، وهكذا. كان الناس ينظرون إلى الأمور نظرة تفاؤل في ذلك الحين، وكان الإعتقاد والسائد أن الأمر برُمَّته سوف ينتهي بسرعة. سقطت ستورمونت وفي كل يوم كان يحدث شيء عظيم».

أعادت إلى ذاكرتها ذلك الإحساس الرائع، ذلك الشعور في أن يكون المرء جزءاً من قضية. كانت تعتقد أن بعض المتطوعين الشباب كانوا ينظرون إلى المسألة على أنها لعبة للتسلية أو اللهو على الرغم من أنه لم يكن أي واحد منهم يقف موقف اللامبالي تجاه القتال. «لم يكن الأمر غماً أو هلاكاً، فقد كنا نضحك الكثير. . . شعورنا بأننا في خضمّ التاريخ نقوم بصنعه كان شعوراً قوياً».

استلمتِ النساءُ دفَّة القيادة للمرة الأولى في تلك الأيام لأن الكثير من الرجال كانوا مسجونين أو معتقلين فمن الوجهة التاريخية والتقليدية، كان يُسمح للنساء أن يأخذن مكان الرجال إذا ما تغيَّبوا حتى في المجتمعات القمعيّة. كان الشيء نفسه ينطبق أيضاً على النساء الفلسطينيات في الإنتفاضة، ومثلَهُنّ، فقد استمتعتِ النساءُ الجمهوريات بالسلطة التي أُعطيت لهنَّ. كان عليهن أن يعتنين بأنفسهن، يُصنِّفْنَ الموارد المالية ونحو ذلك. كان هذا يعني أيضاً أن النساء خَرَجْنَ إلى الشوارع واشتركن مباشرة في الصراع: «بصرف النظر عما كنَّ يفعلن، حتى ولو اقتصرت مشاركتهن على الوقوف في الشوارع والتفرج، أو ساهمن في المسيرات خارقات بذلك قانون منع التجول، فقد كانت النساء على دراية تامة بأنهن كنَّ يفعلن شيئاً بمحض إرادتهن وبمبادرة خاصة منهن. لا اقول أن كل هذا كان صواباً، لكنه كان يحدث».

إن انبثاق هؤلاء النسوة كمشاركات عاملات جعل الجيش الجمهوري الإرلندي يغيّر تركيبته فيما يتعلق بأعضائه من النساء. كان يوجد ضمن الحركة حتى ذلك الحين

أقسام منفصلة للنساء، لكن في أواخر الستينات دُمجت كل هذه الأقسام في جيش جمهوري إرلندي واحد - كانت الحاجة ماسة لكل فرد من أجل حرب العصابات.

قالت السيدة أوهاري أن زوجها كان يعرف أنها كانت قد التحقت بالجيش الجمهوري الإرلندي، لكن لا شيء آخر. لم يكن مطَّلعاً على أعمال وتحركات زوجته خاصة أنه كان في تلك الفترة معتقلاً، وسرعان ما لحقت به إلى السجن - فقد حكم عليها بالسجن مدة ستة أشهر لإرتدائها بذلة كالتي يرتديها العسكريون.

«كانت البذلة، في الحقيقة، مجرد سترة قتال ذات فروة حول القلنسوة، لكن هذا كان كافياً لأن يجلب لكِ حكماً بستة أشهر في السجن. إذا رأوكِ تحملين عصاً كالتي يلعبون بها لعبة الهورلي (وهي لعبة غيليَّة)[1] اعتُبِر هذا سلاحاً عدوانياً هجومياً. أُلْغيت هذه الجريمة فيما بعد لأنها قوبلت باحتجاج قومي عنيف، لكن في تلك الأيام كان يوجد في السجن الكثير من النساء بسبب حملهن مثل هذه العصى أو ارتدائهن هذه السترات القتالية. كان ذلك تعصباً شديداً - إذ لم تكن تلك القوانين لتنطبق على UVF أو UDA الذين كانوا يلبسون الأقنعة.

«عندما كنت في السجن أدركت الكثير من الأمور - أدركت أن هذا الصراع كان صراعاً من أجل شعب مضطهد ولم يكن صراعاً ضد الإحتلال الإنكليزي فقط. لم تكن الأكثرية الساحقة من النساء السجينات تشكل تهديداً أمنياً للدولة، فعندما تشاهدين الوحشية والقسوة التي كنَّ يعاملن بها كان لا بدّ لك عندئذٍ من أن تعيدي النظر في الصراع برُمَّتِه. كانت تلك الأشهر الستة نقطة تحول كبير بالنسبة لي. كنت قد دخلت الحركة من وجهة نظر الحقوق المدنية، فقد كنت اشتراكية فكرياً. أقصد بهذا، أنني فعلت القليل قبل دخولي السجن، كنت مصدر عون، لكن السجن هو الذي حدَّد لي وجهتي».

عندما أُطلِق سراحها أصبحت أكثر نشاطاً من ذي قبل، وفي تشرين الأول (اكتوبر) من عام ١٩٧١ أصيبت بطلق ناري. «كنت في آندرسون تاون وكان الوقت ليلاً. لا أستطيع أن أخبرك أكثر من ذلك. كلا، لم أكن أحمل مسدساً. أصيب جندي أيضاً، لكن ليس بشكل مؤذٍ. أصبت في رأسي، في معدتي وفي ساقي وكنت على وشك الموت. أحد الأسباب الذي أبقاني على قيد الحياة هو أنني كنت قوية جداً وسليمة من الناحية الجسمية في تلك الأيام. لم أكن أدخن أو أتناول الكحول، فقد كنت على علم

---

(١) اسكتلندية أو ايرلندية.

بسلامتي من الناحية الجسمية. والسبب الآخر هو أنني لم أكن أفكر بالموت. لم أعرف كم كانت حالتي سيئة، ولقد مضت عدة دقائق قبل أن أشعر بأي ألم. في بادىء الأمر لم أعرف أنني أصبت، فلقد ظننت أن جندياً كان قد ضربني على رأسي بعقب بندقيته.

«قبض عليّ وأخذت إلى مشفى موسغريف بارك، وهو مشفى عسكري. ما كانوا يريدون إدخالي، لقد أدخلوا الجندي المصاب فقط. قالوا أنهم لا يمتلكون التسهيلات لعلاجي، الأمر الذي لم يكن صحيحاً. ربما كانوا ينتظرون موتي، لا أعلم.

«كنت في أثناء ذلك في حالة شديدة من الألم. حَقَنَني أحد الأطباء بحقنة مورفين لكنني تقيأتها. كنت في مؤخرة ناقلة جنود مصفحة وتمكنت من أن ألاحظ كم كان الجنود خائفين، فقد كانوا يرتجفون: أعتقد أنهم كانوا قد تعرضوا للكثير من إطلاق النار في تلك الليلة. كانوا في حالة شديدة من الرعب. أتذكر كيف كانوا يندفعون وهم مذعورون إلى الناقلة بعد أن كانوا قد أدخلوني إليها. كانوا من القلق أثناء الدخول إلى الناقلة بحيث أنهم كانوا يدوسونني وهم يفعلون ذلك. لم يكن بمقدورهم أن يفعلوا غير ذلك، فقد كان عليهم الدخول إلى حيث الأمان.

«أتذكر بوضوح كيف أن جندياً في مطلع عمره جثا فوقي مباعداً رجليه. كنت على أرض العربة وقد جثم ويداه ورجلاه فوقي كي لا يدع الآخرين يدوسونني. لن أنسى ذلك أبداً. وضع يده تحت رأسي - فقد كانت أرض العربة معدنية وكان رأسي يخبط صعوداً ونزولاً والعربة تنطلق. أبعد يده وقال: «إنها مصابة في رأسها. وقتها فقط عرفت ما كان قد حلّ بي.

«جاءني طبيب وفتح معطفي. كنت قد أصبت برصاصات SLR - إنها طلقات صغيرة تندفع لولبياً وتنفجر عند التصادم. الشيء الذي لعب دوراً في إنقاذي هو أنني كنت أرتدي معطفاً صوفياً ثقيلاً وكبيراً كان بمثابة ضمادة كبيرة على الشرايين. إن الصدمة هي التي تقتل معظم الناس الذين يصابون. معظمهم يقول «يا الله، إنني أموت» ومن ثم يموتون، لكنني لم أفكر على هذا النحو. كنت أحتضر وكان ذهني يقول «يا إلهي، الأولاد، علي أن أصل إلى البيت». يبدو أنه بدلاً من أن يكون الأولاد مصدر عرقلة لِمُقاتِلَةٍ أنثى في اللحظات الحرجة، يمكن لهؤلاء الأولاد أن يكونوا مصدر فائدة ونفع إيجابيين.

«اعتقد الجميع أنني كنت ميتة لا محالة. الحقيقة هي أن كلمة بلغت زوجي في تلك الليلة تنبئه بموتي. بعد ذلك أخبروه في الصباح بعدم صحة النبأ. ظنوا في مستشفى الرويال، حيث نقلت فيما بعد، أني كنت أحتضر. أجريت لي عملية بحضور

عدد من الجنود في مدرّج العمليات الجراحية. بقيت في المشفى مدة شهر. جاء أهلي لرؤيتي وهم في حالة شديدة من تحطم الأعصاب والإرهاق. لم تكن لديهم أدنى فكرة أنني كنت في الحركة. اعتنوا بأطفالي عندما كنت في المشفى. اتّهِمْتُ وأنا في المشفى بمحاولة اغتيال جندي بريطاني وبحوالي عشرين تهمة أخرى - لم أعد أتذكر ماذا كانت تلك التهم. أرادوا أن يستدعوني ولم يكن بمقدورهم أن يفعلوا ذلك من غير أن توجه لي تهمة، ولهذا عقدوا شبه محكمة في غرفتي من أجل هذا الغرض.

«شعرت بالعزلة خلال ذلك الشهر. حافظت على هدوئي وبرودة أعصابي لأنني كنت أعلم أنني إن لم أفعل فقد يؤدي ذلك إلى تأخير استعادة عافيتي الجسدية، وفي الوقت نفسه كان عليَّ أن أحتفظ بسلامة عقلي».

أُرْسِلَتْ إلى سجن أرماغ، وفي عيد الميلاد حَصَلَتْ على كفالة. اعْتَبَرَتْ أن الكفالة أُعطِيتْ لها لأنها كانت مصدر إزعاج في السجن، فقد كان عليهم أن يساعدوها في صعودها ونزولها الدرج، والأطباء الذين كانوا يأتون إلى السجن لمعالجتها طرحوا مسألة ما قد ينجم عنها مجازفة. حضرتْ إلى المحكمة مرتين، وبعد ذلك في نهاية كانون الثاني (يناير) بينما كانت تغادر المحكمة سمعت شيئاً قيل قصداً كي تسمعه: «كان ذلك في داخل فناء المحكمة وكان يوجد قضاة ومحامون و RUC يقفون في كل مكان. أحد الجنود قال بينما كنت مارَّة «كان يجب أن نُجهز على تلك العاهرة، لكن لا بد من أن ننال منها في آخر المطاف». ومن ثم قال شيئاً ما عن أطفالي، ظننت أنه حتى ولو فزت بهذه القضية سأظل أتوقع رصاصة تستقر في رأسي، وكنت خائفة على أولادي».

أصرَّت على القول أن فكرة الهرب من الكفالة لم تكن قد خطرت ببالها بعد. كان الخطر الذي يهدد أولادها هو الذي نبَّهها إلى وضع الفكرة موضع التنفيذ. كانت الرغبة في حمايتهم هي التي طغت على كل اعتبار آخر. ناقشت خطتها في الهرب معهم إلى الجنوب - أكبرهم سناً كان في الثامنة - كانوا يريدونها أن تهرب، لكن الجيش الجمهوري الإرلندي نصحها بعدم الهرب. كانوا يروْن أن الفرصة كانت متاحة لأن تكسب القضية، لكن أولادها رفضوا تلك النصيحة: «كانوا يريدون مني الذهاب إلى الجنوب لأنهم كانوا يعتقدون أن صحتي سوف تتحسن هناك وكانوا خائفين من دخولي السجن.

«كنت في ذلك الوقت لا أزال مريضة ولا بد أن يكون هذا قد لعب دوراً في قراري أيضاً. جئت إلى الجنوب. أحدهم عَبَرَ بي الحدود. لم يكن الوضع في ذلك الوقت كما هو عليه الآن من مراقبة كل شيء على الحدود. كنت جالسة في السيارة

ولست مخبأة في صندوقها. كان الأمر سهلاً بشكل يدعو إلى الإستغراب. أعتقد أنه لم يخطر ببالهم أنني سأهرب لأنني مثلْتُ مرتين أمام المحكمة منذ حصولي على الكفالة. جئت إلى دبلن لوحدي وبعد ذلك أرسل الأولاد إليَّ»

ضحكتْ عندما سألتها إذا كانت تعتبر نفسها عند هذه المرحلة قد فعلتْ ما فيه الكفاية. «فكَّرتُ فعلاً في أن أذهب لأعيش في كوخ مسقوف بالقش وأمْتَهِن حرفة الحياكة، لكنني كنت أعرف أنّ هذا ما كان ليُجدي نفعاً. كنت أريد أن أكون في دبلن لأنه كان بمقدوري أن أبقى على اتصال بما كان يحدث في الشمال رغم صعوبته. تجري الأحداث هناك كل يوم».

اعترفَتْ أنها شعرت بالحنين إلى بلفاست وخاصة إلى والديها اللذين لا بُدَّ أنْ يكونا الآن قد أصبحا في سن الشيخوخة، ورأت أنه كان من الصعب أن تسافر إلى دبلن للقيام بالزيارات. ثم هناك أصدقاؤها وهي هنا لا تستطيع أن تغادر مكانها. ارتاحت عندما راح أولادها يتكلمون بلهجة دبلن، وعندما وَبَّخَتْهم سألوها بأي طريقة كانت تتوقعهم أن يتكلموا. عندما بلغت إبنتها الكبرى سناً كافية عادت إلى بلفاست. «لقد عُدْتُ بنفسي، بعض المرات، لكنني أتحاشى مجازفة إلقاء القبض علي وتقديمي إلى المحاكمة». تبسَّمت، «هل لي أن أقول أنني عندما أعود لا أعود من أجل مناسبات اجتماعية؟

«كنت أعتقد في بادىء الأمر أن الأمور يمكن أن تنتهي في ظرف سنتين وان فترة فراري لن تدوم طويلاً. ولكن كما ترين لا أزال هنا. لا أتنقل كثيراً خارج حُدود البيت خوفاً من أن يتعرف علي أحد ما. أنا لا أقول أنني شديدة الشك بحيث يُفهم أن كل شرطة العالم تنتظر ريتا أوهاري لتعبر الحدود، لكن يجب ألَّا أنسى أن هناك معاهدات يُسلّم بموجبها الفارّون وأمور من هذا القبيل، هذا بالإضافة إلى الإنتربول.

«أعرف أني تحت المراقبة هنا، فهم لا يخفون هذا أحياناً. فمثلاً إذا عرفوا أني ذاهبة إلى فرنسا باستطاعتهم أن يُخطروا الشرطة هناك. قد لا تكلف فرنسا نفسها عناء تسليمي، لكن الإتفاقية الدولية حول الإرهاب التي وقّعوها لا تزال قائمة، وقد يُجبرون على تسليمي».

عند أول وصول لها إلى دبلن أمضت بعض الوقت في المشفى ومن ثم حصلت على عدة وظائف قبل شروعها بالعمل لصالح سين فين.

كان زوجها في ذلك الوقت يُنفِّذ حكماً بالسجن في سجن بورت لاوس. عندما

أُطْلِق سراحه تابَعَتْ السيدة أوهاري زياراتها للسجناء من الجمهوريين الذين لم تكن عائلاتهم تستطيع القيام بمثل هذه الزيارات. بعد إحدى هذه الزيارات قُبض عليها واتُّهمت أنها كانت تنقل موادَّ متفجرة: فقد ادَّعت الصحف أنها حاولت تهريب الجيلغنايت إلى داخل السجن وتركته مع أحد السجناء.

أنكرَتْ هذا الإدعاء بغضب شديد: «لم يكن يوجد دِليل. عَرِفْتُ أن السبب كان لأنهم كانوا يعرفون من أنا، وحاولوا أن يسلموني مرتين من قبل لكنهم لم يُفلحوا. وُجِدتْ المتفجرات في السجن بعد أن خرجتُ منه، وكانت الرواية أنني كنت قد تركت المتفجرات مع هذا الشخص الذي ما كنت حتى أزوره...

«أثناء المحاكمة قال سجَّان أنه كان قد رأى يَدَ إحدى النساء الزائرات تلمس سجيناً وكان يعتقد أن تلك اليد كانت يدي. وُجد أني مذنبة لحيازتي متفجرات في مكان وزمان غير معروفين على الرغم من أن القاضي قال أنه لم يكن يوجد شيء يؤيد الإدعاء بأنني كنت قد هرَّبتُ موادَّ متفجرة إلى داخل السجن».

أمضَتْ سنتين في سجن ليمريك ووجدت أنّ الأوضاع والوقت الذي قضته هناك أسوأ بكثير من الأشهر الستة التي عاشتها في سجن أرماغ. كان سجن ليمريك صغيراً ومعزولاً وما كان يُسْمَحُ بزيارتها إلّا للمقربين من عائلتها. كانت على الدوام قلقة بشأن أولادها. كان يسمح لها بأن تكتب رسالتين في الأسبوع، وسألت إذا كان بمقدورها أن تكتب صفحة لكل واحد من أولادها، وإذا كانت تلك الصفحات الثلاث تُعْتَبَرُ بمثابة رسالة واحدة. كان الردُّ بالإيجاب. لكن الوقت كان قد تأخر جداً عندما اكتشفتْ أن إحدى الصفحات كانت تُصادَر، وهكذا كان لا بد لواحد من الأولاد أن يعتقد بأنه كان قد أُهمل.

لا شك أن أولادها لاقوا من المعاناة الشيء الكثير. دبلن لم تكن بلفاست. في بلفاست كان وجود أم في السجن لحيازتها مواد متفجرة يُعتَبرُ أمراً يمكن قبوله. كان أولادها يُنهرون في ا لشوارع ولم يكن هناك نساء جمهوريات كي يعتنينْ بهم أو يُخفِّفْنَ عنهم كما يمكن أن تكون الحال في بلفاست. كان أولادها يسألونها لماذا كان عليها أن تكون في السجن ولقد حاولتُ أن توضح لهم أنَّ ذلك كان ثمن أن يكون الإنسان جمهورياً. «لم أحاولْ أن أبرِّر هذا لهم لأنهم كانوا قد ابتدؤوا يحسُّونه بعُمْق، ولكنني قلت، «على الأقل سأعود إليكم في البيت» ليس كبعض الأمهات اللواتي كن قد قُتلن، وكان أولادي يعرفون ذلك. كان وقتاً عصيباً جداً».

عندما خَرَجَت من السجن عام ١٩٧٧ آوت ابن إحدى النساء السجينات ـ وكانت قابلتها في السجن ـ وربَّته كولد من أولادها. استغرق الوقت معها سنة لتتأقلم

مع الوضع الجديد حدث في أثناء ذلك طلاق بينها وبين زوجها «لأسباب عدة» لم تشأ أن تذكرها.

كانت تعمل في ذلك الوقت في فرع الإدارة والحسابات لصحيفة آن فوبلاشت وعندما مات رئيس التحرير عام ١٩٧٩ تولَّت العمل مكانه. كانت تحب أن ترى في الجريدة مقالات أكثر تتعلق بالنساء وكثيراً ما كانت تكتبها بنفسها عندما كان يتسنّى لها الوقت.

على العموم، كانت تعتقد أن النساء ربما كنّ «أكثر إنسانية» من الرجال ذلك لأنهن يَقُمْنَ بالرّعاية. كانت تعتبر أنه من الصعب على المرأة أن تنضمّ إلى الجيش، لأن الجيوش كانت وقفاً على الرجال فقط. لكن جيوش التحرير كانت مختلفة لأن هدفها كان مختلفاً: «على جيوش التحرير أن تقوم بمسعى متعمَّد كي تكون مختلفة. هذا لا يعني أنه لا يوجد في الحركة الجمهورية رجال يتحفظون على النساء، بالطبع يوجد، لكنني أعتقد أن الأمر تغيرَّ في السنوات القليلة الماضية بالطريقة نفسها التي تغيرَّ فيها المجتمع ككل.»

أشارت مثلاً، إلى أن الأغاني الثورية التقليدية عن «الرجال» وعن أم فقدت أبناءها من أجل إرلندا لم تعد تكتب - «ذلك ليس مصادفة». لم يعد من المفترض أن يكون المحاربون رجالاً.

فيما يتعلق بموضوع العنف أعترفت السيدة أوهاري بوجهات نظر مخالفة. أولاً، كان العنف موجوداً في البيت: «أنا أَمْقُتُه. إنني أكره استعمال العنف من أي نوع، فأنا لا يمكن أن أضرب أولادي. إنني ضد العقاب الجسَديّ سواء كان في العائلة أو المؤسسة، وبالطبع العنف ضد النساء. أكره قبول فكرة ضرب الأولاد وصفعهم في المجتمعات الغربية بشكل خاص».

ثم العنف السياسي: «أكره الحرب وأكره القتل الذي يُفْرضُ علينا: لكنني أنظر إلى العنف عندما يُوجَّه ضد جنس مسلح نظرة مختلفة تماماً. العنف في كفاح إرلندا وكفاح البلدان الأخرى من أجل الحرية هو سلاح الشعب الوحيد. هذه هي القرينة الوحيدة التي أرى فيها العنف مبرراً».

توقفت عن الكلام، ومن دون أن يَحثها أحد تَطَرَّقَتْ إلى سؤال لم يُوَجّه إليها: «المواجهة صعبة. في ذلك اليوم الذي أُصِبْتُ فيه كنت في غرفة صغيرة في منأى عن الحراسة وكان يوجد عدد من الجنود الشباب مصابين بجروح إثر طلقات نارية. نصفهم

أخبروني أنهم كانوا قد أطلقوا النار على أنفسهم خوفاً من أن يُقتلوا في الشوارع. صعب جداً عندما تجدين نفسك تتحدثين مع شخص من الطبقة العاملة في العشرين من عمره مستعدٍ لأن يكون مُنْفَتِحاً معك، صعب جداً.

«ليسوا هم العدو. شعرْتُ بالأسى نحوهم لأنهم لم يعرفوا أن الطريق التي أجبروا على السير فيها على أنهم صانعو سلام كانت طريقاً مُضَلِلَة. هل تعتقدين أننا نبتهج عندما يتعرض باص بحمولته من جنود يوركشاير الشبان للنسف؟» بدتْ مهتاجة ومحزونة عندما سألتُ هذا السؤال.

«الناس الذين يستغلّونهم هم العدو. يستغلونهم ليُبْقوا على الدولة دولةً طائفية. فلأنهم هنا كجيش صاروا هم العدو. لكن إذا ما نظرتِ إلى كلّ منهم بمفرده لا ترينهم هكذا. إنهم جيش إطلاق نار وقتل وجيش رصاصات بلاستيكية وأنا أكره هذا.

«يعتقد الناس خطأً أننا نستمتع بالموت والقتل، لكن الحقيقة هي أنه لا يوجد من يكره هذه الحرب أكثر مما نكرهها نحن. إنها بلادنا ونحن نكره الحرب الدموية. أتمنى لو يرحل الجنود، لكن إذا لم يرحلوا نكون قد قطعنا شوطاً ومرحلة يصعب فيهما أن ننسحب. إن هذا ليس شعور مجموع أعضاء الجيش الجمهوري الإرلندي فقط، بل هو شعور الجماهير برمّتها.

«لو كان البريطانيون جادّين في رغبتهم في السلام لتوقفوا عن إصدار قوانين يحاولون بها القضاء على حركة سين فين السياسية. إرلندا هي آخر نقطة حدود للإمبراطورية وسنكون أحراراً وهذا ما سيحدث في نهاية المطاف. لقد بلغ الألم والبؤس مرحلة لا بدّ من أن تجبرهم على الرحيل. لقد مضى حتى الآن عشرون سنة على هذه الثورة لكننا لن نستسلم أو نُسحق هذه المرة.»

* * *

في عام ١٩٧٦ أزيلت صفَةُ الوضع الشرعي الخاص «للسجناء السياسيين» عن الذين حكم عليهم بجرائم إرهابية. على هذا الأساس صار الإرهابيون يُعاملون على أنهم مجرمون عاديون. امتيازات، كالحق في ارتداء ثياب مدنية وفرص العمل أُلغيت، وتركيبة السجناء من الجيش الجمهوري الإرلندي الذي دَرَجَ أن يكون لهم (ضابط مسؤول) بمثابة الممثل الحصري لهم في السجن، كان لا بد لها من أن تتفكك أيضاً.

قاوم الجيش الجمهوري الإرلندي داخل السجون. ثابر الرجال في وحدات مبنى السجن «على البطانية»: ورفضوا أن يرتدوا ثياب السجن. لفّوا أنفسهم بالبطانيات

وتوقفوا عن الإغتسال. كانوا يُفْرِغون أواني حجرتهم فوق الجناح ويلطخون الجدران بالبراز. بعد ذلك وفي عام ١٩٨٠ بدأ الإضراب عن الطعام، وبعد سنة مات عشرة رجال.

في سجن أرماغ للنساء كانت تحدث معارك مشابهة. بدأت النساء بقيادة ميريد فاريل، الضابط المسؤول، بالإضراب عن العمل، عدَّلْنَهُ فيما بعد إلى حملة أعمال تخريبية، ثم أضْرَبْنَ عن الإغتسال وبعد ذلك بَدأْنَ إضرابهن عن الطعام.

كان للنساء في سجن أرماغ معركة أخرى يسعينْ لكسبها – وهي إقناع الرجال في الحركة الجمهورية أنه يجب أن يُسمحَ لهنَّ بالمشاركة في الإحتجاجات. كان الردّ في أول الأمر عبارة عن استهجان شديد واستغراب من أن (الفتيات) يُفكِّرْن بمثل هذا الشيء. لم يصدر ذلك عن النساء في أرماغ كما أشارت عدة سجينات سابقات، بل دائماً عبر الفتيات. سينيدمور التي أمْضَتْ سبع سنوات في السجن لحيازتها مسدسات قالت موضحة: «كانت الحركة تقول، «يا للفتيات المسكينات، يكفيهنّ بشاعة أن يكنَّ في السجن، ما كان ينبغي أن يشاركن في الإضراب عن الإغتسال». لقد تعود الرجال بالفِطْرة على حمايتنا بصرف النظر عما يمكن أن يقولونه. إنها مشكلة واجهها الرجال في الجيوش التقليدية أيضاً. فقد أبطل الجيش الإسرائيلي عادة وضع النساء في الخط الأمامي لأن الجنود الذكور كانوا يفضلون أن يخاطروا بحياتهم على أن تجرَحَ إمرأة أو تقتل. طبقاً لما قالته إحدى الشرطيات البريطانيات إنه من الحماقة أن تدع ضابطاً أنثى تتواجد في مكان حادثة خطرة لأن رفاقها من الذكور سوف يحاولون عندئذ حمايتها بدلاً من أن يركزوا على العمل الموكل إليهم.

بعد نقاش مستفيض بين النساء في الداخل والرجال من الخارج تبين أن الطمث كان هو العلّة. كان الرجال محرجين في التحدث عن هذا الأمر، لكنهم كانوا، في الوقت نفسه، قلقين من احتمال تفشي الأمراض إذا لم تغتسل النساءَ وهنَّ في حالة نزف. لكن وقفة النساء الحازمة جعلت الرجال يَذْعِنون في نهاية الأمر، إنما ليس من غير تذمُّر وامتعاض. وهكذا سرعان ما أصبح قسم النساء في سجن أرماغ بمثابة بالوعة مجارير. كان الحراس يأتون كل يوم إلى العمل وهم يرتدون ثياباً واقية وأقنعة لإزالة البول والبراز عن الجدارن بخراطيم المياه. سجينة واحدة فقط أصيبت بالمرض خلال الثلاثة عشر شهراً من الإضراب عن الإغتسال، وكان يبدو أنها معتلَّة الصحة قبل بدء الإحتجاج.

كان قد مضى على استمرار أول إضراب عن الطعام في وحدات مبنى السجن

حوالي شهر عندما قررتِ النساء رَفْضَ الطعام أيضاً. كان وَقْعُ هذا النبأ شديداً على الحركة، وكل محاولاتها في إقناع النساء بالعودة عن هذا القرار أو إعادة النظر فيه باءت بالفشل. كان يوجد سبع وعشرون سجينة جمهورية فقط، وهكذا قررن فيما بينهنّ أن ثلاثاً منهن يجب أن يبدأن. كانت ماري دويل إحداهن.

كانت ماري دويل في الثالثة والعشرين من عمرها، وكانت تنفّذ محكوميتها الثانية في سجن أرماغ. أمْضَتْ محكوميتها الأولى، لِتسبُّبها في انفجار، في جوٍّ «مخيم العطلة» عندما كان الوضع الشرعي السياسي لا يزال ساري المفعول. احتجازها التالي بتهمة زرع مواد حارقة حصل قبل إلغاء الإمتيازات الخاصة بسنة. انضمت على الفور إلى الإضراب عن العمل والإضراب عن الإغتسال، وعندما اتّخذَ قرار بالإضراب عن الطعام وضعت إسمها في المقدمة. اختيرت مع ميريد فاريل ومارغريت نيوجينت.

«بدأنا إضرابنا في الواحد من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٨٠. تطوعنا جميعاً، لكن بدا لنا من المعقول أن نبدأ بثلاث منّا فقط، بحيث إذا ما توفيت واحدة أمكن لغيرها أن تحلّ مكانها». كانت تتكلم بوضوح وبساطة لا مجال للعاطفة فيهما، لكنها تابعت لتكشف لي كم عانت وتعذبت في تلك الفترة.

«لم يكن الأمر مسألة تستطيع أيّة واحدة منا أن تتقبلها بيسر. أمضينا أشهراً ونحن نتحدث فيها، وتوصلنا إلى النتيجة بأن الإضراب عن الطعام سيكون السبيل الوحيد إلى تلبية مطالبنا. قيل لنا بأن نناقش الأمر وأن نأخذ فكرة الإستمرار بالإضراب عن الطعام على محمل الجد - أن نفكر بالنتائج. كان احتمال الموت قوياً جداً لأننا لم نكن نتوقع من البريطانيين أن يستجيبوا لطلباتنا بعد أسبوع واحد من الإضراب عن الطعام.

«لم يكن تفكير واحدتنا مقتصراً على ذاتها، فهي أقل الناس أهمية في مثل هذه الأجواء. كان عليها أن تفكر بما يمكن أن يكون لهذا من تأثير على عائلتها وأصدقائها. كنت أفكر بوالدي وما يمكن لموتي أن يعني بالنسبة له.

«أتذكر بأنني فكرت في أن يكون لي طفل. لنفترض أنني بقيت على قيد الحياة، هل سأصبح عقيمة من جرَّاء فقدان الوزن؟ كان صراعها بالطبع صراعاً فريداً من نوعه، بالنسبة لإمرأة، وهو أن دورها كمقاتلة كان يمكن أن يعرض مستقبلها كأم للخطر. بعد أن انتهت المعركة، أو على الأقل بعد أن انتهى دورها فيها، أرادت ماري أن تكون قادرة أن تصبح كأية إمرأة أخرى. «حاولنا أن نتمسك بقدر ما نستطيع من معلومات عن الجوع. كي نعرف كيف يمكننا أن نتغلّب على مراحله المختلفة.

«في صباح الواحد من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٨٠ ميريد ومارغريت وأنا رفضنا الطعام. قالت السجّانة: «إنه خياركن» وتركتنا. أُذيع نبأ إضرابنا عن الطعام بالراديو وهكذا عرفوا. وضعونا نحن الثلاثة في زنزانة واحدة.

«كنا نشرب الماء ونأخذ حبوب الملح، وكانوا يأخذون عينات من دمنا كل يوم. قالوا أن هذا الإجراء كان من أجل تفقُّد حالتنا الصحية، لكننا كنا نعتقد أنه كان من أجل التأكد من أننا لم نكن نأكل.

«قررت سلطات السجن أن الطعام يجب أن يوضع في زنزاناتنا طوال الوقت لاغرائنا على تناوله. كنا نَسْخَرُ من هذا. عندما كنا مُضْرِبات عن الإغتسال كانوا يقدمون لنا الطعام بارداً وكانت الحصص صغيرة، لكن ما إن أَضْرَبْنا عن الطعام حتى صاروا يأتون إلينا بصحون كبيرة تكوَّمت فيها رقاقات البطاطس المقليّة الساخنة تتصاعد منها الرائحة لتملأ الغرفة. كانوا يأخذون الطعام فقط عندما يحين موعد الوجبة التالية.

«في نهاية اليوم الثامن أو التاسع على ما أعتقد بدأنا نشعر بالوهن. كنت في بداية الاضراب حوالي تسعة «ستون[1]». كانت ميريد أقلّنا وزناً، فوق الثمانية «ستون» بقليل. لكن لِأسابيع خَلَتْ كانت رفيقاتنا تعطيننا ما يستطعن من طعامهن كي نُبقي على أجسامنا قوية. كان وزن ميريد الطبيعي في الحقيقة سبعة «ستون» ونصف فقط، كانت نحيلة جداً. وبالتدريج أُصِبْنا بالدوار وازدَدْنا ضعفاً».

تحدَّثْنَ عن عائلاتهن، عن السياسة وعن الدين ومن ستموت أولاً. نُقلن في الأسبوع التالي إلى جناح المستشفى. أُصِبْن بالإكتئاب. كان أحد الرجال المضربين عن الطعام مريضاً جداً، وكن ينتظرن أخبار موته. قالت لي ماري دويل: «كنا نعتقد بأننا سنموت لا محالة. وفي اليوم الثامن عشر سمعنا بواسطة جهاز راديو كان قد هُرِّب إلينا، أن الرجال قد أوقفوا إضرابهم لأن ضمانات كانت قد أعطيت لتلبية مطالبنا. قررنا الإنتظار إلى اليوم التالي للتأكد من صحة هذا الخبر. علمنا فيما بعد أن قِسّاً جاء لمقابلتنا كي يخبرنا أن تعليق الإضراب كان حقيقياً، لكن لم يُسْمَحْ له بالدخول. وفي صباح اليوم التاسع عشر جاءنا حاكم السجن وقال: «باستطاعتكن الآن أن تتناولن فطوركن لأن الإضراب عن الطعام توقف». وعند وقت الغذاء سمعنا من جماعتنا أن النبأ كان صحيحاً. سررنا جداً لأننا كنا نُعِدُّ أنفسنا للموت».

فقدت كل من النساء «ستون» من وزنها، لكنهن لم يعانيْن من تأثيرات بعيدة

(١) ستون وهو وحدة وزن بريطانية تعادل ١٤ باونداً = ٦,٣٥٠ كغ

المدى من جراء هذا الصوم. لكن البهجة بهذا الإنتصار لم يدم طويلاً. في عيد الميلاد اكتشفت فاريل أن مكتب أرلندا الشمالية أنكر أنه وافق على أية مطالب. نوقشت مسألة القيام بإضراب نسائي ثانٍ لكن تقرر أن كل الإهتمام يجب أن يتركز على إضراب الرجال الثاني عن الطعام. تذكرت ماري دويل كيف كان هذا مبعث ارتياح شديد بالنسبة للحركة ـ حتى أنها تلقت رسالة من بوبي ساندز يقول فيها أنه سُرَّ كثيراً عندما سمع أن النساء لن يشاركن في إضراب آخر. وعندما تأكدن من أن الإعلان كان قد بلغ جميع المضربين عن الطعام في جميع أقسام البناء، قررت النساء وقف احتجاجهن بالإمتناع عن الإغتسال.

قالت ماري أن اللواتي أسفن لإنتهاء الإضراب كن قليلات. كانت جالسة تتحدث إليَّ في بيتها النظيف الذي لا عيب فيه تهزُّ طفلها سيموس في شهره السابع بين ذراعيها كي ينام. كانت إبنتها البالغة من العمر أربع سنوات تجلس بجانبها.

«من الصعب أن تجدي الكلمات التي تستطيعين بها التعبير عن الوضع ووصفه كما كان. كثيراً ما أجلس وأفكر في هذا. كنت قلقة وأخشى المرض عندما كنا مضربات عن الإغتسال، وخاصة في فترة الحيض ـ لا يسعك إلاّ أن تقلقي.

كنا نفرغ أواني الحجرة على الجناح. أتساءل كيف كنا نفعل ذلك. لو كنت قد أُخبرت قبل عدة أسابيع بما سأفعل لقلتُ أنه ليس لديَّ الرغبة من أن أفعل ذلك. أفضل كثيراً ألاَّ أكون قد فعلته».

كانت في الثالثة والثلاثين من العمر عندما أجريت هذه المقابلة، وكان زواجها من خطيبها سيتم في ظرف أسبوعين. سوف يتم الزواج في سجن كراملين حيث كان معتقلاً لإرتباطه بمقتل جنديين بريطانيين كان الجيش الجمهوري الإرلندي قد قتلهما بعد جرّهما من سيارتيهما. كانت أمام زواجٍ مهنئوها فيه من نزلاء السجن، لكنها كانت فرحة لما كانت تتوقع.

على الرغم من أن ماري كانت قد أُطلقت من السجن عام ١٩٨٣ ولم يُلقَ القبض عليها منذ ذلك الحين، فقد ظلَّت شديدة التمسك بجمهوريتها وبوجهة نظرها رغم أنها الآن تعتني بطفلين وتعْلَم أن هذا لا بد من أن يُحدَّ من نشاطها الشيء الكثير، فهي الآن تخصص جُلَّ فراغها للعمل لأجل سين فين.

لكن كل شيءٍ يُذَكِّرُ بحياتها كمتطوعة سابقة كان منتشراً حولها بشكل واضح. بيتها أشبه بقلعة حقيقية ذات نوافذ زجاجية تَثْبُتُ أمام الرصاص والقنابل، وصفائح من

الفولاذ تدعم الباب الأمامي. «تحصينات ضد هجمات الموالين» قالت لي وهي تدفع الباب لتفتحه لاعنة إيَّاي على سبيل المداعبة. «معظم الناس يستعملون الباب الخلفي، لكن ما كان بمقدورك أن تجدي المدخل على الإطلاق».

في غرفة الجلوس كان يوجد بطاقة تذكارية لِـ ميريد فاريل مثبّتة على جانب المرآة فوق الموقد. سألتها كيف كانت؟ أجابت: «طيبة المزاج. حسنة الدعابة وشديدة الإهتمام. إذا كنتِ مثقلة بالأعباء كنتِ تذهبين إليها بكل مشاكلك. كانت جمهورية ملتزمة جداً كرَّست جُلَّ حياتها للحركة، مئة بالمئة.»

التحقت ماري بالجيش الإرلندي وهي في السادسة عشر من العمر وذلك للأسباب المعروفة: «ترين وأنت في سن المراهقة ما يحدث لأصدقائك وعائلاتهم، اعتقالات، يوم أحد دام، أصدقاء يُضايقون باستمرار. نشأت في غرين كاسل على بعد حوالي ميلين خارج بلفاست. تحدَّرتُ من عائلة جمهورية لكن قراري بالإلتحاق كان قراراً اتخذته بنفسي، لم نتربَّى مع السياسة. هكذا تجري الأمور.

يصدف أحياناً أن يتحدث صديقان عن الإلتحاق فيلتحقان معاً، آخرون يفعلون هذا من تلقاء ذاتهم. تبدئين بالتدرب حالما تلتحقين ويوجد أشياء تستغرقين وقتاً أطول في تعلمها، وبالطبع قد يتعلم بعض الأشخاص الأشياء بسرعة أكثر من غيرهم. تبقين تحت التدريب حتى يشعر مدربك أنك أصبحت في أمان. لا يطلب منك إعادة القيام بأشياء لا تريدين القيام بها أولا تشعرين أنك قادرة على القيام بها. هذا هو المعنى العام لأن يكون المرء متطوعاً.

«إذا حدث وشعرت أنك لست مرتاحة لما تفعلين من الأفضل أن توحي بذلك، لأنك إن لم تفعلي معنى ذلك أنك تعرِّضين، ليس حياتك فقط للخطر، بل حياة رفاقك أيضاً. من الأفضل لكِ أن تقولي هذا إذا شعرت، بأي حال من الأحوال، أنك لا تصلحين لمثل هذا العمل. إنها مسألة وَعْي وتَفَهُّم».

على الرغم من حقيقة أن الرجال والنساء تلقوا تدريبات على حد سواء فقد كانت هناك عمليات تناسب النساء أكثر مما تناسب الرجال. قالت هذا وهي تعكس رأي نساء من ETAورأي رجل ألماني من الثوار الذي كان يقول أن مظهر البراءة الذي تتصف به النساء كان مفيداً في كثير من الأحيان. «فمثلاً إذا كان على أحدهم أن يحمل قنبلة في عربة أطفال فمن الأفضل أن يكون من يجر العربة إمرأة لأن الرجل قد يلفت الإنتباه. وإذا كانت المهمة هي وضع قنابل في دكان لبيع السلع النسائية فمن الأفضل أيضاً أن تفعل النساء ذلك».

عندما ألقي القبض عليها في سن الثامنة عشر بتهمة متفجرات لم يكن الأمر مفاجأة بالنسبة لوالديها: كثيراً ما كان على ماري، التي كانت تشتغل عاملة تيليكس، أن تتغيَّب عن البيت. «كانت لديهم ظنونهم بأنني التحقت رغم أنني لم أخبرهم. عندما تلتحقين عليك أن تكوني في منتهى الحذر والسرية لأنَّك قلَّما تجدين من تستطيعين إخباره. تحاولين أن تعيشي حياة طبيعية وتؤدي عملك الخاص بشكل عادي لكن حياتك تدور حول الحركة.

«أن تكوني عضواً في الجيش الجمهوري الإرلندي ليس عملاً محدداً بتوقيت معين الأمر يرجع لك في كثير من الحالات ـ كم من الوقت يمكنك أن تخصصي للحركة الجمهورية. لا تستطيعين أن تحسبي أو تقدري مسبقاً. إنك تحت الطلب طوال الوقت لأنك تريدين ذلك، لا لأنك مجبرة».

ألقي القبض عليها للمرة الأولى عام ١٩٧٤ لوضعها قنبلة مفخّخة للـRUC. لم يؤذَ أحد بشكل خطير حسبما قالت ماري. بعد ذلك بفترة قصيرة ألقي القبض عليها. كانت رابطة الجأش بهذا الشأن: «كنت عضوا في الفريق المكلَّف. فقد كنت أسكن في نهاية الشارع بالقرب من المكان الذي انفجرت فيه القنبلة. تمَّ إستجوابي، وكان خطئي أن أعطيت إفادة».

أمضيت سنتين ونصف كسجينة سياسية وكانت السنتان أخفَّ وطأة في السجن. كانت تخبر الضابط المسؤول، وتحضر اجتماعات أسبوعية. كما تذكرت أن السجّانين كانوا قد «اطمأنوا لنا وتركونا لوحدنا».

أطلق سراحها عام ١٩٧٦، وبعد سنة قبض عليها وهي تضع أجهزة إحراق في الحوانيت. حُكم عليها بالسجن لمدة ثماني سنوات. «لم أكنْ راضية عندما وصلْتُ إلى سجن أرماغ، فقد وجدتُ أنني لم أعد سجينة سياسية. قال لي الحاكم في اليوم الذي وصلت فيه: «إنك لن تخرجي من هذا السجن بعد الآن. أنتم الآن مجرمون في نظرنا.

«من أول الأشياء التي لاحظتها في هذا السجن هو أن السجّانين كانوا يحاولون أن يجعلونا نتوجه بالحديث إليهم، لا أن يكون الإتصال من خلال الضابط المسؤول كما كان في السابق. فإذا راح (الضابط المسؤول) يتحدث بالنيابة عنك في أمر من الأمور كانوا يقولون، «يجب أن تأتي هي بنفسها». كان لا بد لهم في نهاية الأمر أن يقبلوا طريقتنا وإلا لما كان بمقدورهم أن يديروا السجن.

«أدى إضرابنا عن العمل إلى ضياع فرصة تخفيف العقوبة وإلى مصادرة ما كان

يصلنا من طرود. كان يُقفل على النساء أثناء ساعات العمل ولا يسمح لهنّ بالخروج إلاَّ أثناء الوجبات والترافق في المساء. كنّ يشعرن بالكآبة. لا أحد يقبل في أن يُقفل عليه ـ ما لم يرد أن يرى طبيباً نفسانياً. كان عليك أن تتأقلمي مع الوضع وتنفذي حكمكِ، لا جدوى من البكاء على حليب مُراق. بالطبع، كانت هناك أيامٌ كنت فيها منقبضة النفس، وإن لم أكن أنا فقد كان غيري، لكن سرعان ما يلتئم الشمل من جديد ونعود إلى الممازحة. كان بيننا الكثير من الزمالة».

نشبت صدامات مع السجينات من الموالين وخاصة عندما قرر حاكم السجن أن يجرب عملية الدَّمج العنصري. قالت أنه كان من المزعج جداً أن تستَمِعْنَ إلى غناء المواليات من دون أن يجبرن على الإختلاط بهن. كان السجَّانون، برأي ماري، إلى جانب المواليات وضد الجمهوريات.

«كان رأينا أن السبيل الوحيد الذي نتمكن فيه من إخراج البريطانيين هو أن نبعث بهم إلى بيوتهم في توابيت». لا بدّ أنني غصصْتُ وأنا أجلسُ على مسافة قريبة منها. ضحكت وقالت: «أوه، أنا لا أقصدك أنت، أقصد الجنود البريطانيين». لم يخفِّفْ هذا من رَوْعي لأنه يصعُبُ على المرء أن يستثنى نفسه من ذلك التعبير، الهدف «البريطانيون».

«إذا سمعنا ونحن في السجن أن بريطانياً قتل أو أصيب بطلق ناري ما كنا نحتفل لمجرد أنه أصيب أو قتل، بينما كانت المواليات يُثِرن غضبنا وسخطنا بتصرفهن عندما كن يسمعن أن كاثوليكياً كان قد قتل. هكذا كان الفرق بيننا، نحن لم نكن ننظر إلى الأمر بمنظار شخصي، كنا نرى الفعل كمصدر خطر على الوضع».

قتل الموالون أمَّها عام ١٩٧٥ عندما كانت ماري تُنَفِّذُ أول حكم بالسجن. روت حادثة الموت من دون ألم أو أسى، لا بل على العكس، روتها وكأن مثل هذه الأمور كانت شيئاً مألوفاً وعادياً: «كانت في بار عندما اندفعوا إلى غرفة يَرُشُّون المكان بنيران البنادق. أطلقوا سراحي مؤقتاً لفترة أربع وعشرين ساعة كي أحضر الدفن. لم أكن أريد ذلك، لم أكن أريد الذهاب لأنني فكرت إن لم أفعل فان الأمر لن يكون صحيحاً». تنهدت. كلاَّ، لم يجعلها موت والدتها أكثر كرها للموالين. «نشأت في منطقة رأيتُ فيها ما كانوا قادرين على فعله. كانوا متعصِّبين حقيقيين».

تبسَّمتْ وهي تنظر إلى رضيعها وقالت أنها تتمنى أن تتغيّر الأمور عندما يكبر إبنها، لكن إذا ظلت الأمور على ما هي عليه فلن تحاول أن تثنيه عن سلوك السبيل الذي سبق لها أن سلكته. «إذا أراد أولادي أن يلتحقوا عندما يكبرون وكانت الأمور

على ما هي عليه الآن، لن أمنعهم، بل على العكس، سأكون بمثابة المشجِّعة لهم.»
وهنا أكفهرَّ وجهها وقالت: «لكن إذا قال لي سيموز أنه يريد أن يصبح جندياً بريطانياً لقتلتُه بيدي، لخنقتهُ.»

رأتني أنظر إلى طفلها بين يديها، فارتجفت وهي تضحك: «يا إلهي، يا له من شيء فظيع تقولينه عن طفلِكِ!» عدَّلَتْ من جلستها وكأنها تريد أن تعبرِّ عن وجهة نظرها بطريقة أفضل، «نحن لا نريد أن نشهد القتل، لكن القتل ضروري، يوجد حرب قائمة. البريطانيون هنا. لو لم يكونوا هنا لما حدث شيء من هذا».

* * *

كانت جيرالدين كروفورد، سعيدة تماماً أن يكون الإضراب عن الإغتسال في سجن آرماغ قد فاتها: «آه، يا إلهي قالت وهي تضحك، «لا أعتقد أنه كان بمقدوري أن أتحمّل ذلك.»

سُجنت مرتين. كانت المرة الأولى عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها وقُبض عليها بعد أن كان جندي بريطاني قد أطلق النار عليها وأصابها في ساقيها.

إثنا عشر جندياً طاروا من ألمانيا الغربية إلى بلفاست لأجل محاكمتها (إنها عادة شائعة) والجندي الذي أطلق النار عليها أدلى بالشهادة. كان قد أطلق النار مرتين على مجموعة من الفتيات بعد أن رأى جيرالدين تصوب بندقية على موقع عسكري في جنوب بلفاست.

كانت جيرالدين إمرأة مرحة بشوشة وراحت تروي قصة إصابتها بطريقة واقعية ومن دون حقد أو ضغينة. «أصبتُ في كلتا الركبتين وفقدت الرضفة في ساقي اليمنى بالكامل. كانت ليلة يوم سبت في الثاني والعشرين من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٧٣ الساعة العاشرة والنصف بعد الظهر. كنت أحمل بندقية وكنت أقف في سافولك روود بالقرب من آندرسون تاون. كان معي فتاة أخرى وثلاثة أشخاص، لكنني كنت الوحيدة التي تحمل بندقية. كان ذلك أول عمل أقوم به.

«تفقّدَتْ مجموعتي المنطقة للتأكد من خلوها، وكنت بصدد القيام بعملية قنص في ثكنات الجيش. قالوا أن المنطقة كانت خالية وهكذا ذهبت بالبندقية وجاءت معي الفتاة الأخرى. وقبل أن نطلق طلقة واحدة صرخ بنا بعض الجنود البريطانيين من وارء سياج شجري على الجانب الآخر من الطريق منذرين أيانا بالتوقف وإلّا فتحوا النار علينا.

«وكنتُ واقفة عند زاوية الطريق عندما التفتُّ. أطلقوا النار علينا، ولم يكن في

نيّتهم أن يقتلونا على الرغم من أنه كان بمقدورهم أن يفعلوا ذلك. صوبوا علينا كي يوقفونا. أصبت في ظهر ركبتي اليسرى وفي ركبتي اليمنى. شعرت وكأن إنفجاراً كبيراً كان قد أصابني، وضربة عنيفة أوقعتني أرضاً. كنت أرتدي بنطالاً فاتح اللون يكسوه الغبار سرعان ما أكتسى بالدماء. إنني أتذكر ذلك.

«إخترقت رصاصة بنطال الفتاة الأخرى لكن لم تصبها. أصيب أيضاً أحد الصبيان الثلاثة لكنهم فروا جميعاً.»

«تركتُ بندقيتي تقع على الأرض وسقطت على الأرض مع الفتاة الأخرى. صرخ بنا البريطانيون طالبين منا التقدم نحوهم، لكنني قلت أنه لم يكن باستطاعتي أن أمشي. أمروني بالزحف نحوهم. كان عليّ أن أجرَّ قدميّ زاحفة على عُجزي مستعينة بيديّ كي أدفع بنفسي إلى الأمام. تقدم البريطانيون نحوي ووضع أحدهم بندقيته على صدري. طلب مني أن ألقي أي سلاح آخر كان بحوزتي، لكن لم يكن معي غير البندقية. طلبت منه أن يعطيني ضمادة ميدان ـ فقد كنت أعرف أنهم يحملونها معهم دوماً في حقيبة العدّة ـ كي أوقف نزف الدم. ما كان يهمُّهُ أن يرى كل ذلك الدم يتدفق من ساقي. ألقى إليّ بضمادة وكان عليّ أن أشدّها بنفسي. لم يكن عنيفاً أو بذئياً على الإطلاق، وإنما كان يتصرف تصرف المحترف.

«كنت أصرخ من الألم. كنت قد سمعتُ بعض الناس يقولون أنه عندما أصيبوا بطلق ناري لم يشعروا به. أعتقد أن هذا يتوقف على المكان الذي تصابين فيه. أتذكر أنني كنت واعية تماماً لما كان يجري حولي. كنت أرتجف وأشعر بالبرد الشديد وأنا ملقاة على الأرض. أحاط بي البريطانيون كما أحاطوا بالفتاة الأخرى. ومن ثم جاءتني إمرأة خارجة من خمّارة وتمكنت من الوصول إليَّ مارّة وسط الجنود. كانت فخورة جداً، لكنني قلت لها أن تذهب إلى حيث كانت أختي مورين تسكن وتخبرها أنني أصبت. جاءت مورين لكنها وقفت هناك تحدق بي بينما إنحنت جارة فوقي وصارت تكلمني. لم أعرف في حينها لماذا كانت أختي واقفة لا تحرك ساكناً كغريبة عني، لكنني الآن أعرف أنها كانت قد أصيبت بصدمة أعيتها عن الكلام».

وصلت سيارة إسعاف عسكرية تابعة للصليب الأحمر. وضعت جيرالدين على حمّالة ورُفعت إلى داخل السيارة. كان عليها أن تنتظر هناك إلى أن وصلت سيارة إسعاف مدنية، وبعد ذلك أُخذتُ تحت حراسة عسكرية إلى مستشفى رويال فيكتوريا وأجريت لها عملية على الفور.

إستيقظت في صباح اليوم التالي لتجد الفرع الخاص بجانب سريرها، لكنها

رفضت الإجابة عن أية أسئلة. كانت في جناح رئيسي، وعلى الطرف الآخر من سريرها كان «بريطاني ضخم كبير الجثة بكامل سلاحه. كان المرضى الآخرون يُحمْلِقون بي كما كنت أنا أحملق بهم أيضاً، وكان كل شخص يحملق بالآخر، ولهذا وضعوني في غرفة منفردة. في اليوم الثالث وُجِّهت لي تهمة حيازة «بندقية أرمليت» بقصد تعريض حياة الناس للخطر».

بقيتُ في المستشفى مدة عشرة أيام، وتذكَّرتْ شعورها بالإرتباك والإحراج عندما كانت مُمرّضة متمرّنة، وهي فتاة في مثل سنها، تأتي لتغسلها. «قلت لها أنه كان باستطاعتي أن أجلس قليلاً وأقوم بهذا العمل لوحدي، وهكذا تركتني وأغلقت الباب خلفها لتوفر لي العزلة. بعد ذلك بقليل رفس البريطانيون الباب وفتحوه. عبرّتُ عن إحتجاجي بالإضراب عن الطعام. كنت في الثامنة عشرة من عمري وأعتقد بأنني كنت المرأة الثانية التي أطلق عليها النار».

نُقِلت جيرالدين إلى جناح الأمن في مستشفى موسغريف وبعد قضاء ثلاثة أشهر هناك نُقلت إلى سجن أرماغ كسجينة إحتياطية[١] كان عليها أن تمشي مستعينة بعصا ووصفتْ أطباء المستشفى بالدجل والشعوذة، لكنها كانت بين أصدقاء في الجناح الجمهوري. كان الوقت عندئذٍوقت الشرعية السياسية، وكان كل شيء بما في ذلك الأمن، حَسْبَما قالت جيرالدين، مريحاً وخلواً من الحدَّة والصرامة. في العاشرة صباحاً من كل يوم كانت تأتي الضابطة المسؤولة ويجري تفتيش على الزنزانة وكان علينا أن نقف باستعداد. بعد ذلك نتدرب في الباحة، لمدة خمس عشرة دقيقة أو عشرين يتركنا السجّانون بعدها لوحدنا من دون أية مضايقة. وإذا إحتجنا إلى أي شيء كورقة للكتابة مثلاً، كنا نذهب إلى الضابطة المسؤولة ونطلب منها أن تنقل طلبنا إلى السجَّانين. كان بمثابة معسكر لقضاء العطل.»

حكم عليها مدة ثماني سنوات لكن في عام ١٩٧٧ أطلق سراحها بعد تخفيف العقوبة. وبعد أربع سنوات، وبينما كانت تحضر جنازة أحد المضربين عن الطعام، ألقي القبض عليها مرة أخرى.

«قُبض عليَّ في بيت حيث كان يقيم الرجال الذين أطلقوا النار فوق التابوت. بعد أن قاموا بعمليّة الإطلاق جاءوا إلى البيت ومعهم المسدسات. حاصر الجيش البناية ومن ثم دخلها الجنود يطلقون النار في كل الإتجاهات. كادوا يصيبونني مرة أخرى.

(١) متهم معاد الى السجن الاحتياطي للحصول على المزيد من المعلومات عنه.

«كنت في الطابق العلوي في غرفة نوم حيث دخل البريطانيون يطلقون النار وصار الجصّ يتساقط عليَّ. فكّرْتُ، «آوه، كلّا، ليس ثانية، لقد سبق لي أن أصبت». كنت أتلمس طريق النجاة لكنني لم أجد لي مخرجاً. كنت مرتاعة هذه المرة. فكرّتُ أنهم سوف يطلقون علي النار وكان المكان ضيقاً ولم يكن هناك شهود. جُرح بعض الرجال وفقد واحد بصره، فقد كان باستطاعة الجنود أن يفعلوا إيَّ شيء.

«عاملوني بمنتهى القسوة والوحشية. تقدمت بشكوى لكنني لم أسمع عنها شيئاً. اتهمت بحيازة سلاح لأن الأسلحة كانت في الطابق السفلي». أكدت لي أن لا فرق سواء كانت تحمل سلاحاً أم لا. «إذا دخل البريطانيون إلى هنا وكان في الطابق السفلي بندقية لا تَّهمونا جيمعاً.

حكم عليها بثماني سنوات أخرى. عادت إلى سجن آرماغ لتجد أنها أصبحت الآن مجرمة ولتجد أن السجَّانات اللواتي كن قانعات بترك الجمهوريات لوحدهن من دون أن يتعرَّضن لهن، صِرْن الآن عدائيات على نحو مكشوف.

كان الإضراب عن العمل قد توقف لتحل محله حملة من التخريب. شرحت جيرالدين قائلة: «كان هدفنا أن نقلب النظام ونفسده بقدر المستطاع كان يجب أن نصنع السراويل وكان للحارسات حصة نسبية منها، خمسون سروالاً في الأسبوع مثلاً. كنا نحطم ونخرب آلات الخياطة ونمزق الأزرار من السراويل. هذا يعني أننا كنا نصنع حوالي خمسة أزواج فقط في الأسبوع. كنا نأتي بحبكنا إلى غرفة العمل ونصنع ملابسنا الخاصة.

«من قبل، كان يُسمح بخمسة أشخاص في الزنزانة ليلاّ، فكنا نجلب الشراب المسكر ونقيم الحفلات، لكن هذه المرة كنّا نُحبس في زنزاناتنا ليلاّ وصارت الحارسات يأمرننا بالذهاب إلى العمل في الصباح، لكننا كنا ننتظر إلى أن تأتي ضابطتنا المسؤولة، فيريد فاريل، لتطلب منا الذهاب. ولو تركتنا السجّانات لوحدنا من دون أن تتدخلْن لكانت حياتهن معنا في السجن أهون عليهنّ».

ولو لم يفعلن، لكانت النساء الجمهوريات قادرات أن يلحقن درجة من الخوف بسجَّاناتهن: «كنا نضع إبريق الشاي طوال الوقت في غرفة العمل لنصنع الشاي. قالت لنا مرّة إحدى السجانات أنه لم يكن مسموحاً لنا أن نصنع الشاي. جلسنا وحدَّقنا بها. عشر نساء جمهوريات غير مباليات جلسن يتفرّسْنَ بها. خافت وتركتنا نصنع الشاي».

كان صوت جيرالدين خفيفاً وهادئاً، وكثيراً ما كانت تكرر الشيء أكثر من مرة

كي أتمكن من سماع ما تقول. كانت تتكلم برفق ورقة نتيجة السَّجْن، كما قالت لي. «هناك فتاة أخرى كانت معي في الغرفة، وكنا نتجاذب أطراف الحديث بلغة العيون».

لم تُوَجَّه لها تهمة الإنتماء إلى الجيش الجمهوري الإرلندي على الإطلاق، لكنها أبدت رغبة في أنْ تشرح لي لماذا شهرت السلاح. وللمرة الثانية، فقد كان السبب هو الموقف العدائي وسوء المعاملة التي كانت تصدر عن الجنود والبريطانيين والتي أثارت غيظها كفتاة في سن المراهقة. قوِيَ تصميمها على اللجوء إلى القوة والعنف ضد الوجود البريطاني عندما قُتلتْ أختها المتطوعة البالغة من العمر خمسة وعشرين عاماً، عام ١٩٧٥ في حادث قنبلة انفجرت قبل أوانها.

منذ أن أطلق سراحها عام ١٩٨٦ أدَّعت أن رجال الأمن كانوا يوقفونها يومياً. «إنني أعمل في شركة تبيع قطع تبديل للسيارات، وبينما كنت البارحة أنقل رئيسي ليجلب بعض الخبز والحليب أَجْبَرَتْني سيارة جيب عسكرية على التوقف إلى جانب الطريق. لم تكن هي المرة الأولى. كثيراً ما كانوا يقولون: «مرحباً جيرالدين.؟ هل تحملين بطاقتك الشخصية؟ فقط لمجرد المضايقة. ضابط المخابرات هو دوماً أول من يسأل، لكن كل ما عليكِ قوله هو اسمكِ وعنوانكِ وأنكِ فوق العشرين من العمر. سألني أحدهم مرة، «كيف حال ساقِك، جيرالدين؟ ومن ثم سأل: إن تاريخك حافل بما لا يُشرّفك» أرفض دوماً أن أزُجّ نفسي في مساجلة مزاح معهم أو أن أكترث لألفاظهم البذيئة مثل عاهرة أو فاسقة إلخ.

«يأخذ البريطانيون الأمر على محمل شخصي. كانوا في أحد الأيام في باحة العمل وكانت سيارة جيري آدامز المصفحة في الداخل. هذا البريطاني سأل الميكانيكي إذا كان يفكك السيارة، فقال الميكانيكي، كلا، إنها سيارة جيدة. قال البريطاني: «إذن سيكون علينا أن نفكِّكَ ابن الزانية الذي يمتلكها».

ـ لم تكن تكره الجنود، أصرَّت على القول، لكنها كانت تشعر بالأسف نحوهم. لم تكن لتجد لَهُمْ مبرِّراً، فقد كان بمقدورهم ألَّا يكونوا في بلفاست باختيارهم، ولذلك اعتبرت أن أيَّ جندي بريطاني يخدم هناك كان ساذجاً. على الرغم من أنها كانت ستتزوج في الشهر المقبل فإنها لم تكن تتوقع بأنها ستكون أقلَّ التزاماً وتورطاً عندما تصبح زوجة. ربما جعل الأولاد الأمر مختلفاً بالنسبة لها خاصة أنها كانت تريد أن يكون لديها عشرة أولاد. «أظن أنكِ وُجدتِ كي تعتني بأولادكِ وإنه لمن الصعب أن يكون لديكِ أولاد وأنتِ في السجن. لكن هذا أمر سأكون قادرة على التأكد منه فقط عندما يكون لديَّ أولاد.

«هناك إمرأة أعرفها تريد أن تنسحب لتعيش حياة طبيعية. لكن المشكلة هنا، ما هي الحياة الطبيعية؟ لا أعتقد أنه يوجد أكثر من شخصٍ أو شخصين لم يتأثروا بما يحدث هنا».

* * *

في الوقت الذي صعدت فيه إلى الباص، كان الباص الأزرق الصغير يغصُّ بأقارب السجناء وبما يحملون لهم من رزم وحزم في طريقهم لزيارة سجين ما غابري Maghaberry في ضواحي بلفاست. المسافرون الآخرون كانوا بمعظمهم نساء، إحداهن محمرّة العينين، وكانت الأخرى جالسة بصَمْت كئيب، لكن على وجه العموم كان الكل يشكل جماعة مرحة ودودة تتناقل الأخبار المحلية. بين المقاعد كانت فتاة صغيرة سعت لأن تُلْفِت أنظار صَبِيَّيْن هادئين كانا يجلسان برصانة واتزان مع والديهما.

رزم كثيرة من أطعمة من طهو البيت والبسكوت كانت مستَّفة تحت أقدامنا، وفي الخارج كان هناك شابان ينقّحان صورة زيتية تمثل رجالاً مسلحين يرتدون ثياباً تغطي منهم الرأس والعنق كانت تزين جدار مركز مطبعة سين فين في الفولز روود. كان أحد الصبيان جاثياً على أعلى سُلَّمه يضع لَمسَة خفيفة من الدهان على عِقد مصنوع من رصاصات ذهبية اللون.

كنت في طريقي لأقابل جينيفر ماكن التي كانت تنفذ حكماً بعشرين سنة لمحاولتها اغتيال شرطي بطلق ناري. لقد كانت أيضاً الضابطة المسؤولة عن أربع نساء سجينات من الجيش الجمهوري الإرلندي في سجن ماغابري.

كان سجن ماغابري سلسلة أبنية منخفضة طويلة محصَّنة بالأسلاك وعلى حدودها الخارجية وضعت كتل إسمنتية بطريقة استراتيجية تعمل بمثابة سياج لمنع الهجوم بواسطة العربات. أقلّنا الباص ماراً برجال من الشرطة داعب النعاس أجفانهم في طريق كان يؤدي إلى أبواب معدنية عالية وأنزلنا هناك بسرعة قبل أن ينطلق عائداً لأنه لم يكن يُسمح بالإنتظار.

كان الدخول من خلال عدد من الأبواب تفتح أوتوماتيكياً تُصدر صرخة إنذار وتطلق خلفك صوتاً كصوت الإوز. في داخل أرض السجن وقف صف من الحراس يتّجهون بأنظارهم إلى ما بعد الزوار وكأن التقاء الأعين كان أمراً لا يستحق العناء. صرخت الفتاة الصغيرة قائلة «أكرههم». قهقهت والدتها بافتخار وأسكتتها.

قبل كل شيء، كان لا بد من تفتيش الرزم التي نحملها، واستوجب هذا الأمر

تشكيل رتلين عند كُوَّيتن ـ واحدة للرجال وأخرى للنساء ليكون التفتيش دقيقاً يقوم به حارسان من حراس السجن. كان يجب أن يُدَفقَ في كل شيء ويتم وزنه ويُسجّل في استمارات مطبوعة. إحدى الحارسات التي كان يبدو عليها مظهر الحنان والعطف حاولت أن تتودد إلى مرافقتي ماري بالتوجه إليها قائلة: «هالو، ماري، لقد فقدت بعض وزنك». ردَّدت ماري بطريقة لا تفصح فيها عن شعورها تجاه محدثتها، ومن ثم قالت لي أنها كانت قد نفّذت حكماً في هذا المكان وكانت تلك أول عودة لها خلال سنتين.

بعد تفتيش الرزم جاء دورنا. كانوا يدْعوننا الواحدة تلو الأخرى نعرّف عن أنفسنا فقط باسم السجينة التي جئنا لزيارتها. حارستان قامتا بعملية تفتيش روتينية سريعة ووجدتا مفتاحاً لبيت وورقة نقدية من فئة الخمسة. جنيهات تمت مصادرتها. «سنضعها لك في حقيبة يد ماري، يا عزيزتي» قالت إحداهن ما كان يسمح بإدخال شيء ممكن أن يستعمل لرشوة الحراس. هذا ما أخبرتني به ماري. بعد التفتيش جاءت مرحلة الإنتظار في غرفة كان فيها جهاز تلفزيون موضوع على رفٍّ عال ينقل سباق الخيل ظهر يوم السبت: لم يكن أحد يتفرج. كانت كل الأعين شاخصة باتجاه الباب ترقب حارساً كان يظهر على فترات متقطعة ينادي أسماء السجينات. عندما نودي اسم جينيفر مع إسمين آخرين تقدمت مجموعة صغيرة منا وساقونا إلى باص آخر في رحلة دامت دقيقتين إلى سجن النساء. حاول الأطفال الذين دبّ بهم الحماس أن يَقْشُروا البلاستيك ذا الطبقات الرقيقة عن النوافذ، لكنهم لم يتمكنوا، وهكذا لم نستطع أن نرى شيئاً في الخارج.

أنزلونا خارج بناء قرميدي جديد كبير ومن ثم قادونا من خلال أبواب أوتوماتيكية مارّين بعدد من الحراس من النساء: مجموعة لها من الوجوه المتجهّمة أكثر مما كان للحارسات عند المدخل ـ إلى غرفة انتظار أخرى. في هذه المرة كان التلفاز من محطة هيئة الإذاعة البريطانية ـ القناة الثانية يبث برنامجاً وثائقياً عن شاعر هندي مع حواشي مترجمة له جلس الجميع يتفرجون بوجوه كئيبة. لم تستطع ماري أن تتذكر موقع السجن بالضبط. كانت تعتقد أن غرفة الزيارات كانت حول الزاوية إلى اليمين أشارت إلى تصاميم القضبان الحديدية على النوافذ ـ خطوط عمودية مستقيمة متشابكة مع دوائر. «عندما جئنا إلى هنا من آرماغ، ما كنا لنصدِّق. كانوا قد حاولوا بالفعل أن يجعلوه أفضل، حتى القضبان جميلة».

أخيراً فتح الباب وتجمعنا كي ندخل غرفة الزيارات. عندما دخلنا قامت أربع

سجينات عن طاولات موزعة لملاقاتنا. مشت "جينيفر ما كان" باتجاهي تبتسم بحرارة. كانت في الثلاثين لكنها بدت أكبر سناً. كان الشيب قد غزا شعرها الأسود واتخذ بياض عينيها لوناً قرنفلياً. كانت تعرف إسمي وتعرف ماذا أفعل. وتجاهلت تجاهلاً تامًا المهجع الزجاجي في الغرفة التي كانت تغص بحراس يراقبون. دعتني إلى طاولتها التي كان عليها دورقاً من الماء الساخن وأكياس الشاي والقهوة والحليب والبسكوت. «والآن ماذا تحبين أن تشربي؟» سألتني كما لو كانت نادلة أتقنت ضروب التأهيل والترحيب.

كان من الصعب أن أرى هذه المرأة كجزء من «فريق قنابل مُصمّم على إحداث الموت والدمار على أوسع نطاق» ـ كلمات القاضي وهو يحكم عليها عام ١٩٨١. حكمَ عليها بجرم حيازتها خمس قنابل حارقة مع بندقية وذخيرة ضبطت بعد مطاردة سريعة في شوارع بلفاست. الشاحنة المقفلة التي كانت قد اختُطِفت تحطمت بالقرب من ديغيس فلاتس في الفولز روود بعد أن اصطدمت بعنف بمركز تفتيش تابع لِـ RUC. كانت النار تطلق من مقعد الركاب في الشاحنة أثناء المطاردة مما أدى إلى جرح شرطي احتياط. كانت جينيفر الراكبة الوحيدة في الشاحنة وقد وجد السلاح على أرض العربة حيث كانت تجلس.

لم تشأ جينيفر أن تتحدث عن الحادثة كثيراً. «قُبض عليَّ عندما كنت في طريقي إلى عملية في بلفاست. كان معنا قنابل في مؤخرة الشاحنة ـ كانت من أجل أهداف تجارية وكنا سنعطي مهلة إنذار طويلة كي لا تؤدي العملية إلى إلحاق الأذى بالمدنيين. أوقفْنا عند متراس وجرى هناك إطلاق للنار. أصيب أحد رجال الشرطة ومسَّتْني رصاصة مسّاً عابراً جلطت جلد كاحلي وأصيب أيضاً الرفيق الذي معي. كان يمكن أن أقتل بطريقتين، إما بعيار ناري منهم أو باحتمال انفجار القنابل في مؤخرة السيارة. تغُمْضين عينيك قبل كل عملية وتفكرين: «قد تكون هذه هي النهاية، قد لا أعود حيَّة». تضعين لنفسك نوعاً من العوائق العَقْليَّة. إذا فكرت كثيراً بما قد يحدث لكِ قد تصابين بالهلع، وعندئذٍ لا تعودين ذات نفع لأحد. يجب أن تظلّي هادئة».

لم توجه لها تهمة الإنتماء للجيش الجمهوري الإرلندي، كما كانت الحال مع جيرالدين كراوفورد. سردت لي كيف كانت بداية انخراطها في الحركة: الظلم الذي شَهِدَتهْ منذ نعومة أظافرها وهي ترى الجنود يطوفون في الشوارع حول بيتها، اشمئزازها من الإساءات والمفاسد ـ كل هذه الأشياء جعلتها ترغب في الردّ. «ألقى الموالون بعائلتي خارج البيت وانتقلنا إلى خارج بلفاست عندما كنت طفلة. ذهبت إلى

مدرسة للراهبات وكان عليَّ أن أمر في منطقة للموالين. كنت وأختي نتعرض للضرب والإساءة في الباص، وفي النهاية كان لا بد للمعلّمات أن يأخذننا إلى البيت بسياراتهن.

«كنا في العائلة أربع بنات وصبي واحد لكنني كنت الوحيدة التي انخرطت. لا أعرف ما هو السبب، فقد كنا جميعاً من شخصيات مختلفة».

قضت السنوات التسع الأخيرة من حياتها في السجن، ولذلك فقد كان من الطبيعي جداً أن تركّز على هذا الجانب أكثر من غيره، وعلى وَلَعِها الجديد بحقوق النساء. تألّقت عيناها وهي تتحدث عما تعلّمتْهُ داخل السجن، وشرحت لي أنها الآن تعتبرُ النساء السجينات المتّهمات بالإجرام من ضحايا المجتمع وظلم الرجال. أصبحت مثل العالمة الإجتماعية نتيجة لما أتيح لها من القراءة والمطالعة، كما كانت على وشك أن تنال شهادة جامعية في الخدمة الاجتماعية، وكانت تتوقع أن تصبح بعد إطلاق سراحها مستشارة في الدائرة المختصة بأمور الاغتصاب.

«قبل أن آتي إلى السجن كنت أعتبر نفسي، على ما أعتقد، من الدّاعين إلى المساواة بين الجنسين سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، وإنما بطريقة فيها شيء من الغموض، ذلك لأنني كنت مستقلة. لقد أصبحت الآن على علم ودراية بنضال العالم من أجل حقوق المرأة، وأرى أن حركة الجمهوريين تستطيع أن تناضل من أجل مساواة النساء في نفس الوقت الذي نقاتل فيه نحن من أجل الحرية».

كانت على تماس مع شبكة من نساء سجينات من تشيلي («في يوم المرأة العالمي بعثت إلينا نساء تشيلي هذه الأقراط الجميلة») كما كانت على اتصال بجماعة حزب الجيش الأحمر، أما الإتصال مع المساجين الألمان فقد أقامته نساء الجيش الجمهوري الإرلندي اللواتي كنَّ في السجن نفسه.

سَرَّها أن تسمع أخبار نساء الإنتفاضة وقانونهنَّ حول المساواة في الدولة الفلسطينية الموعودة. سألتني عن الطريقة التي كنَّ يشاركن فيها بالقتال وينظمن الثورة. كانت كالنساء الفلسطينيات، تعتبر أن الكفاح من أجل الإستقلال يجب أن يسير بمحاذاة القتال من أجل حقوق المرأة.

«إنني أتفق مع كل هؤلاء النساء على قضايا المساواة هذه. عندما كنت خارج السجن كنت أعتقد أنه بمقدورنا أن ننتظر حتى نكسب المعركة ونؤسس دولتنا قبل أن ننصرف إلى مسألة حقوق المرأة. أما الآن فإنني أرى أنْ لا سبيل إلى الإنتظار. محاربة اضطهاد النساء يجب أن تترافق مع النضال الجمهوري، وإذا أجَّلناها إلى ما بعد فقد نخسره.

ما كانت لتنتقد أو تعلق على حركة الشوفينيَّة عند الرجال، بل اكتفت بالقول: «ابتدأت الشوفينية تحسّن من مواقفها تجاه النساء والرجال الآن في وحدات المبنى يتلقون دروساً في أمور النساء والعناية بالطفل. ما كنت ترينهم يفعلون هذا منذ بضع سنوات، كان يمكن لِمثلِ هذا الأمر أن يُرَوِّعَهم».

في مقالة في «صوت الأسرى»، وهي مجلة يكتبها سجناء الجيش الجمهوري الإرلندي، كتبت هي ونساء أخريات من سجن ماغابري عن الحاجة إلى دمج النضالين معاً، النضال من أجل المرأة من جهة والنضال من أجل أرلندا حُرَّة من جهة ثانية. انتهت المقالة بإشارة إيجابية مفادها أن مثل هذا الإنقضاض المشترك على الظلم من شأنه أن يقوّي الكفاح المسلَّح لا أن يُضعفه. «ليس من الضروري أن يؤثر هذا على الحملة العسكرية. بل على العكس، إنه يفيد من ناحية أن النساء يَنْأَيْن بأنفسهن عن الأدوار الثانوية التي يكرهنها وينخرطون في الحركة على نحو أفضل، كانت النظرية إذن، هي أن النساء المتحرِّرات يَصْلُحْنَ لأن يكنَّ مقاتلات أفضل، وهي حقيقة تفتَّق عنها ذهن جينيفر من خلال علاقتها بالمجرمات العاديات اللواتي كن يحطن بها.

«إنهنَّ هنا بسبب الإضطهاد نفسه الذي حثَّنا على القتال. أرى الكثير من الأمثلة عن الطريقة التي يُضطهدُ بها النساء هنا. سجينات أحداث ـ بنات في السادسة عشر أو السابعة عشر من العمر لا يكترث بهن أحد، والمدمنات على المخدرات. يأتين إلى هنا في سن مبكرة وينتهين هنا في هذا المكان ولا حياة لمن تنادي. ضُبَّاط الخدمة الإجتماعية لا يأبهون. لقد اغتُصِبت الكثيرات منهن وعومِلْن جنسياً على نحو سيئ، غالباً من قبل آبائهن أو أعمامهن. ثم هناك السجينات المسنَّات: يوجد إمرأة في الرابعة والخمسين من عمرها. إنها سكيرة، مدمنة على الخمر حكم عليها بالسجن لمدة أسبوع لعدم قدرتها على دفع غرامة مقدارها خمسة وعشرون جنيهاً لأنها رفعت صوتها في وجه شرطي. كان الأمر رهيباً. لم نكن تدري أين كانت أو ماذا حصل لها.

«إننا نصغي إليهن، لكننا لسنا مرشدات مدرّبات. ننزع إلى التكتُّم رغم أن بعض السجينات الأخريات يرغبن في المجيء إلينا والتحدث معنا. نشعر أننا لسنا أعلى مستوى منهن أو أرفع مقاماً، ومن المهم أن نتذكر ذلك.

«ربما، عندما أخرج، سأقوم بعمل استشاري في مركز يعنى بالإغتصاب. لا أعتقد أنه يكفي أن أقول «إنني إمرأة» ولا أحرك ساكنا للدفاع عن النساء المضطهدات». تساءَلْتُ كيف ترى سلطات السجن قلَّة من نساء الجيش الجمهوري الإرلندي وهنّ يشرفن على إرشاد ونصح السجينات الأخريات، وفيما إذا كانت الحركة نفسها تقدِّر هذا العمل».

لم تكن جينيفر تعتبر عملها كضابط مسؤولة عملاً مرهقاً: كان يوجد فقط ثلاث نساء جمهوريات أخريات تحت إمرتها في الوقت الحاضر على الرغم من وجود ثلاث نساء أخريات مسجونات احتياطياً في الجناح نفسه.

«عند مجيئي إلى السجن للمرة الأولى كان يوجد نوع من النظام العسكري للقيام بالأشياء بين السجينات من الجمهوريين ـ تمارين، تفتيش الزنزانات وشيء من هذا القبيل. تغيّر هذا الوضع بعد ٨٣ عندما أصبحت الأمور أقلّ حدَّة. فمن الآن نتقاسم كل شيء، ولدينا صندوق للطعام والثياب. إننا كجماعة تحيا حياة مشتركة. إنني الضابطة المسؤولة، لكن هذا يعني أنني الناطقة باسم المجموعة. نتخذ القرارات بالاجماع ومن ثم أنقل هذا الى سلطات السجن. لم نعد نتلقى الأوامر من حركة الجمهوريين في الخارج.

«إننا مجموعة صغيرة جداً، وقد كان من الصعب علينا في أول الأمر كسجينات حُكِمَ عليهن، أن نتحدث مع السجينات الثلاث تحت السجن الاحتياطي ـ إنهن في الطابق فوقنا. أما الآن فعندنا صفوف تثقيفية تربوية حيث يمكننا أن نتقابل.

«نطهو للجناح بكامله، ويُسمح لنا بارتداء ثيابنا الخاصة. إننا متمسكات بحياتنا الجماعية وبطريقة الضابطة المسؤولة. إنه من أجل حماية أنفسنا، فإذا ما شعرت إحداهن بالكآبة أو انقباض النفس أسرعت إليها الأخريات لنجدتها وللرفع من معنوياتها. وإذا أصاب أية واحدة منا، أثناء حديثها مع السجّانات، نوع من الكآبة، بادرت السجّانات إلى عزلها وحاولن تحطيمها. كانت السجانات يكرهن أن يريننا نعمل كمجموعة، لكنهن كن يتركننا لشأننا معظم الوقت محاولين أحياناً أن يُحطمننا بوضع واحدة أو اثنتين منا في عزلة عن الأخريات، لهذا من المهم جداً أن نحافظ على بنيتنا.

«حاولن مرّة أن يُسئن إلينا بأن وضعن ثلاثاً منّا في جناح المواليات؛ فوَّتت علينا هذه العملية فرصة الاستفادة من تخفيف العقوبة الشيء الكثير لأننا كنا في شجار مستمر مع السجينات من الموالين. بمقدور السجّانات أن يكن لطيفات أحياناً، فقد حُسِمَ على إحدى الفتيات مدة أسبوع من تخفيف العقوبة بسبب الرقص.

«من الوجهة الرسمية والقانونية لم يكن يُعترَف بنا كسجينات سياسيات لكن كان لا بد من قبول الأمر الواقع لأن هذا يجعل الحياة سهلة، يمكن تحمّلها».

لم تأسف على السنوات العشر الأخيرة. «أستطيع في الحقيقة أن أرى أشياء جيدة كثيرة تبدَّت لي وتوضحت خلال فترة وجودي في السجن. ربما ظنّ الآخرون أنني

تغيَّرت للأسوأ، لكن الحقيقة ليست هكذا. عيناي الآن مفتوحتان على الحرمان الاجتماعي. لم يخطر ببالي قط ما يمكن لعشرين سنة أن تفعل بي». لم أشعر بالخوف»

ماذا عن مستقبلها بعد إطلاق سراحها الذي سيحل موعده في نهاية عام ١٩٩٠؟ «بالتأكيد لا أستطيع أن أرى نفسي متزوجة عندما أخرج من السجن. بصرف النظر عن أي شيء آخر، سيكون عليَّ أن أجد رجلًا أولاً. ضَحِكَت، ما كان بمقدورك إلَّا أن تحبِّيها ـ رغم أنها لم تكن تقول الحقيقة. تَمَّ إطلاق سراحها قبل الموعد بعدة أشهر، وفي خريف ١٩٩٠ تزوجت من خطيبها القديم العهد، وهو جمهوري ينفذ حكماً بالسجن.

عندما اقترب موعد انتهاء المقابلة وقام الزوار ليذهبوا، قالت جينيفر أنها لم تكن السجينة الجمهورية التي تنفذ أطول مدة في سجن ماغبري. كانت هناك ماري الصغيرة التي تنفذ حكماً بالسجن المؤبد. «لماذا» سألت. «القتل المتعمّد» كان الجواب: عرفت فيما بعد أن ماري ماكاردل وهي في سن الخامسة والعشرين كانت قد تورطت باغتيال إبنة أحد القضاة. كانت الضحية، وهي معلّمة مدرسة في الثانية والعشرين من عمرها، تغادر الكنيسة مع والدها بعد القداس عندما أطلق رجلان مسلَّحان النار عليهما. أصيبت الفتاة ماري ترافرز بطلق أدى الى وفاتها وجرح والدها جرحاً بليغاً. تذكَّر والدها قول المسلحين له «أنت من نريد». وقول ابنته تحذره «هذا الرجل يحمل مسدساً» قبل أن تسقط على الأرض. هرب المسلَّحان لكنهما توقفا بجانب فتاة ترافق كلباً. أعطياها سلاحهما وهربا. قبض على ماري ماكردل بعد ذلك بعدة دقائق ووجد المسدسان تحت ثوبها مربوطين على ساقيها بضمادات جراحية.

افتكرت وأنا أنظر الى ماري أنها كانت صغيرة جداً بحيث لا يمكن التصديق أنها كانت تحمل مسدساً.

سوزانا رونكوني SUSANA RONCONI

«كامرأة من غير رفيق، كان لي علاقة خاصة بالسلاح»
كل ذكرياتي، حتى أجملها، تتسم بطابع الموت بشكل أو بآخر».

كانت سوزانا رونكوني طفلة سعيدة حالمة ازداد حبها لعائلتها، وخاصة أمها، كلما كبرت في السن. تألمت لمغادرتها البيت، وعندما تركته بالفعل، كاد قلبها ينفطر حزناً. ومع ذلك فقد ذهبت لتصبح واحدة من الثوار السياسيين الأكثر مهارة وسوء سمعة في ايطاليا، إمرأة كرست نفسها لقضيتها لدرجة أدت بها لأن تقتل وتشوه المرة تلو الأخرى.

من كل النساء اللواتي قابلتهن كانت هي التي تكلمت بمنتهى الحرية عما كان لنشاطاتها من تأثير نفسي عليها، من حالة الفُصام بعد أن رأت بأم عينها جريمتها الأولى حتى الشعور بالأمن الذي صار المسدس يمثل لها. **لم تكن تعتقد أن القدرة على ارتكاب العنف له علاقة بالجنس، فقد كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً ببنية المرء الجسدية والعقلية والخلقية وبجذوره الاجتماعية وتجربته.**

كأن قد حكم عليها بالسجن المؤبد عدة مرات لاشتراكها في سنوات الرصاص، التي روَّعت الحياة في إيطاليا في السبعينات. في أوج حملة العنف هذه كانت تحدث الهجمات الإرهابية بمعدل سبع عمليات إرهابية في اليوم، وفي سنة واحدة فقط حدث ١٢٥ وفاة. لم يكن رجال الأعمال البارزين يجرؤون على الخروج بدون حاشياتهم من الحراس، فكانوا يسافرون في سيارات خاصة مصفحة.

كانت سوزانا العضو الأكثر إدانة بالجرائم الشائنة من كل المجموعات الثورية:

الألوية الحمراء التي اختطفت وقتلت رئيس وزراء إيطاليا الأسبق، آلدو مورو، وشاركت في تأسيس وقيادة ثاني أخطر وأشد عصابة وهي عصابة الخط الأمامي.

أُدينت باغتيال ثلاثة رجال كان أحدهم رفيقاً أشتُبه أنه مُخبر. وقد تورطت أيضاً على أعلى مستوى بتخطيط وتنفيذ حكم الإعدام بستة رجال آخرين كان من بينهم إثنان من القضاة وباحث في علم الجريمة كان يرى في الثوار ظاهرة غير صحّية، وكانت قد أطلقت النار على ركبتي عشرة أعضاء من مدرسة مهنية كإنذار للآخرين بما قد يلحق بهم من أخطار في حال اختيارهم مثل هذه المهنة. اقتحمت المكاتب الحكومية للحصول على الوثائق المزيفة ونفّذت العديد من أعمال السطو على المصارف لتمويل المجموعة. حكم عليها عام ١٩٨٣ بثلاثين سنة أخرى لهربها من السجن، قتل أثناء ذلك رجل كان ماراً بجانب السجن. كانت المرة الأولى التي تعتذر فيها عصابة الخط الأمامي عن عمل من أعمالها.

كانت تتكلم عن هذه الحادثة مُبدية اسفها أن تكون كل ذكرياتها مصحوبة بالموت. كان هربها، الذي خطط له عشيقها ونفّذه ـ من أجمل لحظات حياتها ـ قد تلطّخ بموت أحد المارة. من الذكريات التي ظلّت عالقة في ذهنها ذكرياتها عن أمها التي كانت شديدة التعلق بها والتي ماتت عندما كانت سوزانا فارّة. ثم ذلك العشق، شاب تعرفت عليه في مطلع حياتها في الألوية الحمراء والذي حمِلَت منه، لكنه مات في السجن بمرض اللوكيميا (ابيضاض الدم).

بينما كانت تتحدث عن سنواتها الثماني كواحدة من الثوار بدا واضحاً من حديثها أنها أحبّت تلك الصداقة الحميمة التي كانت تربط أفراد زمرتها ببعضهم البعض لدرجة أنها رفضت أن تتخلَّ عن ذلك الأسلوب من الحياة عندما سنحت لها الفرصة لأن تفعل ذلك: «لم يكن باستطاعتي أن أترك رفاقي». قالت ببساطة. أدى تمسكها إلى التمادي في القتل وخمس سنوات من الفرار. قبل إلقاء القبض عليها للمرة الأولى، عندما ترك عشيق الأمس وزوج اليوم عصابة الخط الأمامي لأنه شعر أنها أشرفت على الانتهاء، بقيت هي لأنها كانت شديدة الارتباط من الوجهة العاطفية بهذه المجموعة التي كانت قد شكّلتها. ذكرياتها عن تلك السنوات، وقد أفسدها الرصاص والموت، كانت ذكرى سعيدة لأنها كانت تشعر وكأنها في جوٍّ عائلي مع الآخرين الذين نذروا أنفسهم، كمّا فعلت هي، للكفاح المسلح.

كانت امرأة صغيرة، رائعة البنية في التاسعة والثلاثين ذات شعر أسود يصل حتى كتفها، وبشرة شديدة الشحوب وعينين رماديتين. بدت معظم الوقت حزينة تستدرّ

الشفقة لكن عندما تبتسم تبدو مشرقة وجميلة. في أثناء هذه المقابلة كان قد مضى على وجودها في السجن عشر سنوات: سنتان قبل هربها عام ١٩٨٢ وما تبقى بعد إعادة القبض عليها. في الأصل تلقَّت أحكاماً بالسجن لمدة ثلاثين عاماً عدة مرّات في وقت واحد، لكن المدة خُفِّضت الى ٢٢ سنة وستة أشهر بعد أن أعلنت انفصالها عن ماضيها. حسب القانون الإيطالي: أيّ إرهابي متهم أو مُدان يُعلِن ارتداده عن العنف وتشهد سلطات السجن والقضاة أن التحوّل الذي طرأ عليه كان تحولاً حقيقياً لا لُبْسَ فيه يحِقُّ له تخفيف العقوبة. كان باستطاعة سوزانا أن تخطو في هذا الأمر أبعد من هذا وتستفيد من قانون التوبة الذي يَطلب من الإرهابي أن «يُسهم مساهمة فعّالة في الحيلولة دون وقوع أعمال إرهابية أخرى»، أي باعطائه أسماء، وتكون المكافأة عندئذٍ تخفيفاً شديداً للحكم. لكن سوزانا رفضت أن تقبل الفكرة. لم تكن فقط شديدة الولاء والإخلاص لرفاقها السابقين بل كانت تعتقد **أن اليوم الذي سيصبح فيه العنف مبرراً آتٍ لا محالة.**

كان أدّعاؤها بفك ارتباطها مقنعاً لدرجة أن سُمِحَ لها في كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٩٠ في أن تحصُلَ على وظيفة خارج السجن. ست مرات في الأسبوع، وفي ساعة مبكرة من الصباح، تغادر زنزانتها في سجن لونوف في تورين حين سمح لها الحرَّاس باقتناء مجموعة من القطط الشاردة فيها، وتستقلّ الباص إلى المدنية. هناك، في مكتب لطيف في أحد الأحياء الثَّرية، تشتغل من التاسعة صباحاً حتى السابعة مساء. إنه عمل تحبّه، تقوم فيه بكتابة مسبَّقات صحيفة[1] لمُنسَحبين ومُدمنين وسُجناء سابقين تتقاضى لقاءه أجراً منتظمًا، وعطلتها السنوية هي خمسة وأربعون يوماً. عندما تقدَّمْتُ بأول طلب لمقابلتها قالت أن باستطاعتها أن تقابلني في أي يوم من أيام السبت لكنها نبَّهتْني بقولها. «تعالي قبل الثامن من آب لأنني سأتغيَّب عطلة ثلاثة أسابيع».

كانت تقضي عطلتها مع زوجها، وهو إرهابي محكوم أيضاً خُفِّض حُكْمُهُ المؤبد إلى ثلاثين سنة لأنه هو أيضاً كان قد أَعْلَنَ انسحابه. يُسمح للزوجين كل يوم بالإنفراد ببعضهما لمدة ساعة في مكتب سوزانا كان مكتبها غرفة كبيرة مشمسة في الطابق الرابع من بناية قديمة. لم يكن فيها مصعد بل مجموعة متواصلة من الدرجات الواحدة فوق الأخرى، لكن الذي كان يُخفِّف من وطأة الصعود هو تلك الملصقات الجدارية ذات الألوان البرّاقة على الجدران. كانت كل المكاتب مبنيَّة حول فناء مركزي رئيس ولم يكن هناك ما يُنْبِيء بوجود مخرج آخر ولاحتي سُلَّم نجاة. كانت سوزانا جالسة وراء مكتبها

(١) مسبَّقة صحفية: مقالة أو قصة صحفية توزع على الصحافة من قبل مكتب علاقات عامة.

وبدت لي لأول وهلة أنها كانت متوترة، لكن مَعَ انقضاء النهار ومع ارتفاع درجة الحرارة حتى ٣٢ درجة مئوية بدت وقد أصبحت متحررة من توترها العصبي.

لم تكن حرَّة بالدخول والخروج كما كنت أعتقد، فقد كانت خاضعة لحراسة متواصلة. أنا لم أنْتَبِهْ إلى هذا الأمر إلَّا عندما أشارتْ هي من خلال النافذة إلى حيث كان رجلان يقفان في الطابق السفلي على رصيف الشارع. كانا يستندان إلى كتلة إسمنتية ويلبسان الجينز وقمصاناً قصيرة الأكمام بدون ياقة. كانا يبدوان كمن سينتظران صديقاً أو سيارة لتقلَّهما، لكنهما انتظرا طوال النهار. لا شك أنهما كانا يقضيان وقتاً مملاً ومضجراً لأنه لم يكن مسموحاً لسوزانا أن تخرج من البناية طوال النهار، لكن كان بمقدورهما أن يتبعاها، على الأقل أيام السبت، إلى مقهى يبعد مئة ياردة حيث كان مسموحاً لها أن تقضي مدة ساعتين في فترة الغداء.

وبينما نحن في طريقنا إلى هناك والرجلان على مسافة حَذِرَة منَّا، سألتها إذا كان قد سبق لأحد أن عرفها. كانت تورين في أيامها، وإلى حد كبير بسبب نشاطاتها، منطقة حربية تدور المعارك في شوارعها بين الثوار ورجال الشرطة، وكانت اللافتات في الطرقات تشهد بذلك لما كان عليها من آثار الرصاص. كلا، هزت رأسها بسرعة، لم يوقفها أحد في الشارع حتى الآن. بدت مرتاعة لهذا الإحتمال وربما هذا هو السبب الذي من أجله كانت دوماً ترفض أن يؤخذ لها صورة.

كان واضحاً أنها كانت تمضي هاتين الساعتين في المقهى تتسقَّط الأخبار من أصدقائها. اقترب منها عدد من الأشخاص وبعد ساعة تركت طاولتنا لتلحق بهم. بعد الظهر جلس الحارسان في موقف للسيارات قبالة مكتبها. سألتها عن التدابير التي كانت تتخذ بهذا الشأن أثناء عطلتها أخبرتني أنه أولاً ما كان يُسْمَحُ لها ولزوجها بالخروج خارج إيطاليا، وكانت الشرطة تأتي للتحقق من مكان إقامتهما وبشكل غير متوقع عند المساء للتأكد من أنهما لا يزالان في الفندق حيث يُقيمان. تبيَّن لي أنها كانت على علاقة طيِّبة مع مراقبيها. كانوا يأتون أحياناً إلى مكتبها لإجراء تحقيق سريع وكان يبدو أنهم يكنّون لها الإحترام. تبسَّمت وقالت «مرَّة قال لي أحدهم (على الأقل عندما كنت فارَّة كان لدينا شيء نفعله)».

في وقتها كانت سوزانا قد شَغَلَتْ الشرطة كثيراً. كانت عضوا عاملاً منذ أن كانت في السابعة وعشرين من عمرها وهي في المدرسة تشترِك في المظاهرات، تنضمّ إلى مفارز[1] ناظري الإضرابات، وتشارك في النوم في المدارس مع الطالبات. كان وقتاً

(١) أشخاص تكلفهم النقابات العمالية بالمرابطة أمام أبواب المصانع لكي يثنوا العمال والزبائن عن دخول المبنى أثناء الاضراب.

مثيراً أن يكون المرء طالباً ـ إمرأة أخرى عضو في الألوية الحمراء قالت أنه من الصعب ألّا يتورط الإنسان «وكل هذا يجري أمامه». في عام ١٩٦٨ جرى احتجاج طلابيٌّ تبعه في السنة التالية تظاهرات وإضرابات لعمال المصانع ـ الأمر الذي أدّى إلى صدامات عنيفة مع الشرطة. تحرك الطلاب للثورة متأثرين بالتعاليم الماركسية اللينينية شاجبين كلّ الأحزاب السياسية على أنها أحزاب دَجَلٍ وَرياء، والعمال من جهة يطالبون برفع الأجور وتحسين شروط العمل مما أدى إلى توفير التأييد الشعبي الذي كان يطمح إليه الطلاب.

إن خوف الدولة مما كان يجري، والذي بَدا فجأة عام ١٩٦٩ احتمالاً واضح المعالم وشيك الحدوث، جَعَلَها تعود إلى الأساليب الفاشية القديمة التي لم يمضِ على زوالها أكثر من عشرين سنة. ظهرت الفِرَقُ الفاشية إلى حيز الوجود يدعمها في ذلك، وبأسلوب خفي، كما كان يُخيّل للبعض، عدو معيّن من أفراد المؤسسة بما في ذلك السلطة القضائية والشرطة وقوى الأمن. لم يكن هدفهم استرداد الأمن واستتبابه فقط، بل كان هدفهم أيضاً محاربة اليسار في معارك شوارع وقتال بالأيدي. أراد هؤلاء الفاشيون أن يخلقوا حالة من الفوضى والإضطراب بما كان يُسمّى عندهم «استراتيجية التوتر» التي يبغون من ورائها إجبار الجيش على تسلم السلطة وفرض القوانين العسكرية كنذير للإطاحة بالديمقراطية. وفي أيلول عام ١٩٦٩ فعل الفاشيون أول مجزرة بأن زرعوا قنبلة في بياتزا فونتانا في ميلان قتلت سبعة عشر شخصاً وجرحت ثمانية وثمانين.

إن هذا الإرهاب الجديد الذي ظهر فجأة تمارسه وتموّله شرائح من المؤسسة، كما كان يخيَّل للبعض، صبَّ الزيت على حالة الإضطراب هذه. كانت نسبة كبيرة من التنظيم المشترك ترى أنه كان من حقهم أن يجابهوا القوة بالقوة كما فعل آباؤهم مع موسوليني. تشكل حوالي ٢٥٠ مجموعة ثورية بدءاً من التروتسكية وانتهاء بالفوضوية. كان بعضها أحزاباً سياسية لها جناح عسكري والبعض الآخر من الأحزاب الإستقلالية التي تنادي بالحكم الذّاتي وتولي السلطة في المصنع أو المرفأ أو الأقسام الجامعية. بعضها دام عدة أسابيع فقط والبعض الآخر عدة سنوات.

كانت جامعة بادوا، حيث كانت سوزانا قد سجِّلت كطالبة في العلوم السياسية عام ١٩٦٩، في طليعة المحتجّين. التحقت بحركة ما كان يُسمى (سلطة العمال) وهي حركة ثورية كانت تتولى أمر الدفاع عن جدوى إثارة الجماهير واللجوء إلى العنف. كما أنها انخرطت عن أيمان شديد في دائرة جديدة من الإحتجاج ـ (دائرة المناضلات من أجل نظرية المساوة بين الجنسين).

كانت النساء في إيطاليا في ذلك الحين من أكثر فئات المجتمع اضطهاداً. حتى عام ١٩٧٥ كان يحق للرجل الإيطالي أن يضرب زوجته شرعياً، وكانت الزانية تعاقب بالسجن ثلاثة أشهر، والخيانة الزوجية عند الرجل كانت تعتبر جريمة فقط إذا أدت إلى فضيحة اجتماعية، ولم يصبح الإجهاض قانونياً حتى عام ١٩٧٦. ظهرت الحركة التي تنادي بالمساواة بين الجنسين في إيطاليا في أواخر الستينات وكانت المجموعات التي انضمت إليها سوزانا ساخطة وعنيفة.

شكل بعض هؤلاء النساء فِرَقَ لجان أمنيَّة، تهاجم الأطباء الذين كانوا ضد الإجهاض ودور السينما التى كانت تعرض أفلاماً جنسية والمحلات التي كانت تُظهر عارضات أزياء حيَّة في واجهاتها.

صبَّت سوزانا كل طاقاتها في حركات الإحتجاج هذه وصارت تُعْرفُ كمناضلة مخلصة بكل ما في الكلمة من معنى. عندما تشكلت الألوية الحمراء عام ١٩٧٠ كانت لا تزال تسكن مع أهلها إسميًّا، لكنها كانت تقضي الشطر الأكبر من حياتها في بيوت أسَر مؤيدة لنظرة المساواة بين الجنسين. افْتتنتْ بالألوية الحمراء افتتاناً كبيراً وكانت تعرف عدة أشخاص في حلقتها كانوا قد التحقوا، لكنها كانت تعرف أيضاً أنها إذا فعلت الشيء نفسه والتحقت ستكون مضطرة عندئذٍ أن تترك نضالها من ميدان الدفاع عن نظرية المساواة بين الجنسين. أخيراً وفي عام ١٩٧٤ اتخذت قرارها، فقد كانت الألوية الحمراء جيدة التنظيم وتشاطرها معتقداتها ـ بما في ذلك المعتقد الذي يقول أن العنف ضروري للإطاحة بالدولة ـ زد على ذلك أن هذه الألوية كانت تُقاتل مثل هذه المجموعات مثلما تقاتل فرق الحركة النسائية التي كانت تُكافَح بضراوة من قبل الشرطة، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت الألوية الحمراء، بخلاف كل الفرق الأخرى التي ظهرت، هي التي كان من المرجح أن تربح في نهاية المطاف.

التحقتْ، وفي حزيران (يونيه) في ذلك العام كانت متواجدة في أول جريمة للألوية وهي في أشد حالات الذهول وراحت تعمل مع الحركة في نضالها السري.

لكنها سرعان ما أدركت أنها ارتكبت خطأً فادحاً: فقد كانت من خلفية وجذور اجتماعية وسياسية مختلفة تماماً عن معظم الأعضاء الآخرين، لذلك أحسَّتْ بالعزلة الشديدة. كانت سوزانا خلال حياتها الراشدة تنشد العشرة والرفقة وتتوق إلى بيئة حياتية حميمة مع الكثيرين من مختلف أنماط الحياة. كانت تُطَبِّق في الألوية الحمراء سياسة صارمة تحظِّر على أفرادها الإتصال مع الغرباء، ومع ذلك فقد ألزمها تصميمها على أن تنجح كمناضلة على أن تبقى لمدة سنة وَقَعَتْ أثناءها في غرام زميل شاب وحِمَلَتْ منه. بعد ذلك تركت هي وزميلها.

أمضيا عدة أشهر يعيشان معاً وخضعت لعملية اجهاض غير متقنة كادت تودي بحياتها علماً أن الإجهاض لم يكن عملاً شرعياً بنظر القانون. وبعد أن تعافت قامت باتصالات ثورية جديدة وفي عام ١٩٧٦ ساعدت في تشكيل الخط الأمامي.

كانت هذه الفرقة الجديدة قوية الإيمان بالعنف، لكنها كانت تختلف عن الألوية الحمراء في بنيتها. لم تكن شديدة التّراصّ، وكانت تشبه بوتقة للمناضلين تشتمل على بعض المقاتلات المدافعات عن المساواة بين الجنسين. كانت هذه الحركة تؤكد على ضرورة الإبقاء على الإتصال مع من كان يُعْتَقَدَ أنهم من مؤيديها، قطاع الطبقة العاملة التي ابتدأت تنظر إلى وحشية الإرهابيين وإلى جدوى العمل الإرهابي بمنظار الشك. كانت سوزانا أكثر ارتياحاً مع هذه المجموعة، فقد أصبح بمقدورها الآن أن تحقق ما كانت تطمح إليه من تفاعل اجتماعي كانت في أمسّ الحاجة إليه.

قَصّرتْ فرقة «الخط الأمامي» عملها في أول الأمر على مناوشات مع الفاشيين. لكن سرعان ما تحولت إلى عمليات السطو المسلح، وإطلاق النار والأحراق المتعمّد للمباني والإختطاف والقتل. في السنوات الأربع الأولى قتلت المجموعة ستة عشر شخصاً وجرحت ثلاثة وعشرين. أحد أكثر الأعمال وحشية حصل عندما أغارت زمرة تقودها سوزانا على مدرسة تورين للإدارة الصناعية وأخذت ١٩٠ رهينة من الطلاب والمحاضرين واطلقت النار على ركبتي عشرة، خمسة من كل مجموعة. كان إنذاراً لكل المدراء الخاضعين للتدريب «ظالمي الشعب» بما يمكن أن ينتظرهم. لكن هذا العمل أثار نقمة الشعب وإشمئزازه. أبدى الجمهور الإيطالي إشمئزازه أيضاً عندما نفذّتْ هذه الحركة حكم الإعدام بالقاضي إميليو أليساندريني. كان إليساندريني محترماً من أقصى اليسار، لأنه أثناء تحقيقه في قضية قنبلة بياتزا فونتانا أَصَرَّ أنها كانت من فعل الفاشيست الجدد. لكن يُعتقد أنه قتِل لأنه كان قد باشر التحقيق في أمر جماعة «الخط الأمامي»، ولأنه كان قد توصل بمهنة القضاء إلى درجة من الإستقامة والمسؤولية مما جعل الجمعيات الثورية تنظر إليه على أنه تجاوز حدوده. إتُّهِمتْ سوزانا بهذه الجريمة لكنها أنكرتها بشدّة موضِّحة أن المرء يُدان بموجب القانون الإيطالي لمجرد كونه عضوا في جماعة إرتكبت جرماً.

ومع ذلك فقد كانت أحد القادة الأربعة للحركة، وإعترفت، بصرف النظر عن مقتل القاضي، أنها كانت قد تورطت على أعلى المستويات عندما كانت القرارات تتَّخذ بشأن إطلاق النار أو قتل أهداف معينة. سألتها إذا سبق لها أن إتخذت قراراً بألّا تقتل إنساناً لديه أبوان عجوزان أو أطفال صغار. أجفَلَتْ على نحو ظاهر وهمست «أوه، نعم» وناشدتني بعينيها ألّا أظنّ أنها كانت حيواناً مخيفاً.

ولدت في البندقية عام ١٩٥٦ لأبوين من الطبقة الوسطى، وكانت الطفلة الوسطى في العائلة بين أخ أكبر وأخت أصغر. وَصَفَتْ طفولتها بأنها كانت مثال السعادة والطمأنينة على الرغم من الوحشة الشديدة. تذكرت أنها كانت تقضي ساعات عديدة لوحدها في الحديقة تستمع إلى الموسيقى وكلْبُها يضطجع بجانبها. بدا أنها كانت تستمتع بوحدتها في هذه المرحلة، لأن عزلتها تلك مكنتها من إطلاق العنان لرغباتها في تأليف القصص. «كان لديّ خيال مفعم بالحيوية، وكنت أسجل ما أفكر به. كنت أحتفظ بأطنان من اليوميات».

إستمر إستمتاعها في أن تكون رفيقة نفسها طوال فترة الطفولة، وتذكرت كم كانت تحب أن تزور البندقية لوحدها عندما كانت فتاة مراهقة. وانفرادها بنفسها أعطاها شعوراً بالحرية، وكانت مولعة بالبندقية بشكل خاص لأن البندقية كانت مدينة والدتها. «عندما كنت أشعر بالحاجة لأن أكون لوحدي وأشعر بالسعادة كنت أذهب إلى البندقية لقد كانت البندقية دوماً مكاناً خاصاً بالنسبة لي» قالت بعد سبعة عشر عاماً، عندما هربت من السجن، كانت البندقية هي المكان الذي لجأت إليه.

عندما كانت طفلة صغيرة خبرت «الشيء الكلاسيكي» وهو أن تقع الطفلة في حب والدها، لكن أمها كانت أهم ما في حياتها. كانت الآنسة رونكوني فتاة غريبة الأطوار في بادوا الريفية، حيث إنتقلت العائلة عندما كانت سوزانا صغيرة. كانت ملحدة ـ وفخورة بإلحادها ـ في تلك المنطقة المعروفة بشدة تعصبها التقليدي للروم الكاثوليك. لم تكن منبوذة من المجتمع لكنها كانت معروفة على أنها مختلفة بعض الشيء. «ما كنا نتقيّد بأي من التقاليد الكاثوليكية في بيتنا».

«كانت أمي شغوفاً جداً بأشياء كثيرة، لكنها ما كانت تتحدث عن هذه الأشياء إلّا في البيت. كانت حياتها الإجتماعية محدودة. كانت إشتراكية بطريقة غامضة وكانت نظرتها إلى الحياة تفاؤليّة. لا بد أن تكون قد نقلت إليّ بعض إشتراكيتها بشكل من الأشكال».

عندما كانت سوزانا في الرابعة عشر من عمرها تمردت: إختارت أن تذهب إلى المدرسة «غير المناسبة». لم يكن تمردها هذا تمرد المراهقين التقليدي ضد الأهل بقدر ما كان تمرداً على نفسها. فسَّر أحد الإختصاصيين بعلم النفس هذا التمرد أنه ربما كان يرجع إلى كونها إبنة إمرأة تنكر وجود الله وليس لديها خلفية دينية لتتمرَّد عليها. قد يخمن البعض أن إفتقارها إلى «منهج الإيمان» أدى إلى تمردها الأشد في حياتها اللاحقة. لكن هذا يبقى مجرد تخمين وقد نكون إبتعدنا كثيراً في تفسيرنا لقرار إتخذته مراهقة شابة.

وصفت سوزانا إختيارها لحياتها الدراسية أنه إختيار بُني على أساس المشاكسة فقط، وعلى رغبة في لفت الأنظار. كانت في إختيارها الذهاب إلى المدرسة الثانوية العلمية بدلاً من الذهاب إلى المدرسة الكلاسيكية التقليدية تتحدى الأعراف والتقاليد. كانت فتيات «العائلات الرفيعة» في بادوا يذهبن إلى المدارس الكلاسيكية، أما الفتيات اللواتي لم تكن خليفتهن من الطبقة الوسطى كنَّ يذهبن إلى المدارس العلمية «بالنسبة لي كانت المدرسة الكلاسيكية هي الإختيار الواضح وخاصة إذا ما أخذنا بعين الإعتبار مقدار ما كتبت من يوميات وقصص، لكنني أخذت المدرسة العلمية كطريقة لإبراز نفسي. كان إختياري خاطئاً لأنني كنت أكره المواضيع العلمية».

على الرغم من ذلك فقد واظبت على الحضور وصارت تستمتع بالمواضيع واصفة تحصيلها من المعرفة الجديدة بأنه أصبح «أكثر إمتاعاً». وبنفس القدر من الأهمية، عرَّفتها المدرسة الثانوية على نماذج أخرى من الناس أحبتها بالغريزة وانسجمت معها تمام الإنسجام. وفجأة راح عنها حبها الطفولي للوحدة وحلَّ محله «شيء ما يشبه التعطش» إلى الإنخراط مع الناس الآخرين. هذا التعطش أصبح فيما بعد الصفة الأساسية الغالبة في حياتها الراشدة. لم تعد تنشد العزلة، بل على العكس، كانت تهرب منها وكأنها تخاف أن تبقى لوحدها.

إبتدأت تقلل من وقتها في البيت شيئاً فشيئاً مؤثرة بدلاً من ذلك أن تنغمس في الحياة المدرسية، وتقبل بشغف الدعوات إلى حفلات السمر والحفلات الموسيقية. في عام ١٩٦٨ عندما كانت سوزانا في السنة ما قبل الأخيرة من دراستها الثانوية، إبتدأ الشغب الطلابي وانجرفت مع أصدقائها الجدد في تيار النضاليَّة. لم تكن حركة عنيفة، لكن إحتمال العنف كان متوفراً فيها. كان أبطال الطلبة هم تشي غويفارا وقادة ثوريين آخرين كانوا قد حققوا النصر في نضالهم من أجل الحرية في بلدان العالم الثالث. كان الأمر بالنسبة لسوزانا مثيراً ويدعو إلى الإمتاع. «أتذكر إنني كنت أنام في مدارس مختلفة وكان يتملكني ذلك الشعور، شعور المرء بأنه يحتل مكانه ويشغل حيزاً يشاركه فيه جماعته. كنا دوماً معاً، وكان شعورنا واحداً وهو أن التغيرات كانت مستمرة وكنا جزءً منها. قابلت أناساً من طبقات إجتماعية مختلفة وثقافات متنوعة وشعرت أنني خلّفت ورائي طبقتي الإجتماعية التي كنت أنتمي لها.

«كل ما فعلته في تلك السنة أتذكر أنني فعلته بمنتهى المتعة والفرح لأنني كنت مع الآخرين، ويعتمد أن هذه هي أغنى فترة في حياتي».

شاركت في الحرب المفتوحة بين الطلاب من جهة وجماعة الفاشست الجدد

الشباب من جهة أخرى، وكانت الجهات المتعارضة أحياناً بمثابة عصابات تتقاتل حول مناطق متنازع عليها. لكن بالإضافة إلى هذا كان هناك شيء آخر على جانب كبير من الخطورة، وهو الطريقة التي كانت بها عناصر داخل الشرطة وقوى الأمن توفر الدعم والحماية للفاشيين. كان هناك تخوف من أن يتمكن اليمين المتطرف من القيام بضربة عسكرية موفقة أو إنقلاب عسكري ناجح ويفرض ديكتاتورية فاشيَّة. كان عدد من ضباط الشرطة ورجال الأمن يهاجمون المشتبه بهم من الجناح اليساري، الأمر الذي حدا ببعض العامة من الإيطاليين إلى الحصول على السلاح للدفاع عن أنفسهم.

بلغت تلك الفترة من الرعب أوجها عام ١٩٦٩ بمجزرة بياتزا فونتانا التي وُضع اللوم فيها على اليسار. وعندما تبين أنها من فعل اليمين المتطرف بمساندة عضو من قوات الأمن المسلحة إتخذت الحرب في الشوارع بعداً جديداً. لَخَّصته سوزانا على النحو التالي: «كان المرء يشعر بجو من المأساة، وما أتذكره بوضوح ذلك الإحساس بالمسؤولية الذي كان يسيطر علينا. قلت لنفسي، الآن، إمَّا أن نتوحد أو لا يعرف إلَّا الله إلى أين سننتهي».

هذا الشعور بالمسؤولية، مسؤولية التورط، كان شعوراً كثيراً ما كانت تشير إليه، ويبدو أن نساء ثوريات أخريات كن يشاركنها الرأي فيه. القوى الألمانية لِفَرْض القانون بالقوة أشارت إلى أن النساء يَنْقَدْن إلى العنف أكثر من الرجال من خلال إمتناعهن أنهن يجب أن يغيّرن المجتمع نحو الأفضل وصفت استريد برول ـ العضو السابق في عصابة بادر ـ ماينهوف ـ نفسها ورفاقها مرة بأنهم «عمال اشتراكيون جيدو التسليح».

كانت سوزانا قيد التحقق بجامعة بادوا وانضمت إلى حركة سلطة العمال. وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال تعيش في البيت، فقد كرَّست معظم وقتها إلى المجموعة منخرطة، كما كانت قد فعلت أيام الدراسة، في جماعة الطلاب المناضلين. لقد لاحظت أنه على الرغم من أن عدد الطلبة من النساء في حركة سلطة العمال كان كبيراً فقد كان الرجال هم الذين يتولون أمر النقاش، بينما كانت النساء يعملن بحماس ونشاط ويحصلن على الأمور جاهزة. (أسلوب شائع درجت عليه مثل هذه المجموعات بدءاً بالمتطرفين في حركة تحرير الحيوان وإنتهاء بمقاتلي الإنتفاضة).

«كنت واحدة من هؤلاء، صامتة لكن أعمل كثيراً. قدرتي على العمل بجد وكوني مقاتلة بهذا القدر لفت الأنظار إليَّ، وسرعان ما صِرتُ أعرف «بالرفيقة الموثوقة». عشت بكل طاقتي للمجموعة ولم أفعل شيئاً آخر وكنت أحظى بنوم قليل.

«أتذكر أن فريقاً منا كان أفراده لا يفترقون عن بعضهم البعض من الساعة الرابعة

صباحاً عندما كنا نبدأ بتوزيع الكراريس وحتى ساعة متأخرة من المساء. كنا ننتهي بالغناء في الحانة حتى منتصف الليل، ولم يكن يمر وقت نكون فيه منفردين منذ توزيع الكراريس حتى موعد الطعام. كانت تجربة لا تُصدّق».

أمضت سنتين ونصف مع سلطة العمال، ومن ثم جاءت فترة أقرّت فيها «لا أملك كل الأجوبة الصحيحة في أمكنتها الصحيحة»:

لا أزال أجد صعوبة في تفسير بعض الإختيارات التي اتخذتها. كان هناك ثلاثة أشياء تسير مع بعضها البعض في الوقت نفسه. **الأول** هو عدم اقتناعي بسلطة العمال ـ فقد توقفت عن النضال وتبدّدت في النهاية عام ١٩٧٣ . **وثانياً** كانت مشكلة الفاشيست لا تزال قائمة، وكانت الحاجة ملحّة لأن نفعل شيئاً بصددها. وهكذا بدأ اتصالي بالألوية الحمراء. **والشيء الثالث** هو تورطي في الحركة التي كانت تنادي بالمساواة بين الجنسين. كان النقاش حول مسألة المساواة هذه قد ابتدأ في حركة سلطة العمال ونتج عن ذلك جماعة تدعى لوتافامينيستا (كفاح النساء). كنت في حيرة من أمري ولم أكن أعرف ما أفعل ـ هل يجب أن ألتحق بالألوية الحمراء والكفاح المسلح أم أبقى مع المنادين بالمساواة بين الجنسين؟ وهكذا بقيت مدة سنتين ما بين ١٩٧٢ـ ١٩٧٤ وأنا أتردد بين المجموعتين».

كان القرار صعباً بالنسبة لسوزانا لأنها كانت قد انتقلت لتعيش مع أسرة تنادي بالمساواة بين الجنسين وشعرت بالإرتياح هناك. هذا بالإضافة إلى أنه بقي لهذه الحركة أن تخوض الكثير من المعارك وكانت سوزانا تستمتع بالقتال. «أتذكر عندما كنا نتظاهر ضد القانون المناهض للإجهاض كيف كان الشرطة يخلعون أحزمتهم ويضربوننا بها. ما كانوا يلجؤون إلى هراواتهم كما كانوا يفعلون في تظاهرة طلابيه لأننا كنا جميعاً نساء.

وكان هناك جلسة محكمة لإمرأة اتهمت أنها أجهضت. ملأنا غرفة المحكمة ـ كانت المرة الأولى التي أدخل فيها محكمة، ولا أزال أتذكر بزّة الشرطي والمحامي. أقمنا اعتصامين كبيرين في الباحة خارج المحكمة وأدرنا حلقات الرقص والغناء. بالنسبة لي كانت المرة الأولى التي أرى فيها الفرق الحاسم في أن يولد الإنسان إمرأة. كان هذا مهماً جداً».

ربما كان أكثر ما آلمها في قرارها هو معرفتها أنها إذا اختارت الحياة مع الألوية الحمراء قد يؤدي ذلك إلى فقدانها الاتصال مع والدتها. كانت سوزانا في الثالثة والعشرين في ذلك الوقت، لكن منذ أن كانت في الخامسة عشر وعلاقتها بأمها متينة. لقد ازدادت هذه العلاقة قوة عندما التحقت سوزانا بحركة المنادين بالمساواة بين

الجنسين. لقد اهتمت والدتها أيضاً بهذه الحركة إما من قبيل التعاطف الصادق مع إبنتها التي قلّما لزمت البيت، أو من قبيل المحافظة على علاقتها وارتباطها بها. «كنت آخذها إلى الإجتماعات والمظاهرات، وفي إحدى المرات، عندما كانت مريضة، اقترحت عليها أن تأتي وتسكن معي.

«لم تكن مقاتلة، لكن اهتمامها بحركتنا ساهم في تعزيز أواصر العلاقة بيننا وساعدني على توضيح أفكاري بشأن الموضوع. كنا كصديقتين، كامرأتين راشدتين.

«ما كنت آتي إلى البيت اثناء النهار، وأنني اتذكر الأوقات في الليل عندما كنت أعود في ساعة متأخرة جداً أحياناً، في الواحدة أو الثانية صباحاً، لأجد والدتي مستيقظة تنتظرني بكأس من الغرابا (grappa). كنا نجلس نحو نصف ساعة مع بعضنا البعض وتحكي كل واحدة منا أخبارها للأخرى، ومن ثم نذهب للنوم. فعندما كنت أحاول الاختيار بين الانضمام إلى المنادين بالمساواة بين الجنسين أو الصراع المسلح كان هذا بمثابة الإختيار ما بين العيش مع أمي أو تركها.

لا يتوقع المرء مثل هذا البوح من قاتلة سياسية متحجرة الفؤاد: أن تكون متعلقة الى هذا الحد بخيوط مئزر والدتها. كثيراً ما يقال أن الثوار الأوروبيين بلغوا من فساد الخلق والشخصية، رغم كونهم فتياناً من الطبقة الوسطى، ما جعلهم يضربون بعرض الحائط كل القيم التي غرسها أهلهم أو المجتمع فيهم. على ما يبدو، لا شيء يمكن أن يكون بعيداً عن مثل هذه الحقيقة أكثر من سوزانا في حالتها هذه. فقد كانت شديدة التعلق بوالدتها، وكانت تشعر بجرح بالغ عندما تفكر بتركها. لا بأس من القول أنّها خلال حياتها أصبحت شديدة التعلق بحركاتها السياسية وكأنها كانت قد حوّلت ذلك التفاني البنوي إلى معتقداتها وإلى رفاقها، وبدا أن احتمال تركهم، كما سبق وحدث مع المدافعات عن المساواة بين الجنسين، قد جعل قلبها يتفطّر ألماً. ربما كانت تبحث دوماً عن السعادة والطمأنينة لطفولتها الضائعة.

سألتها فيما إذا كان انصراف الألوية الحمراء للعنف قد صعَّب عليها عملية الإختيار. أجابت كلّا: «لم يكن الأمر واضح المعالم بهذا الشكل. كان هناك طيف واسع من المجموعات التي تنادي بالمساواة بين الجنسين بعضها مستعد لاستعمال العنف بينما البعض الآخر لم يكن، لكن النقاش حول اللجوء الى العنف كان مستمراً. لم يكن الأمر أن الألوية الحمراء كانت تتقصّد العنف وأن القائلين بالمساواة ما كانوا يتقصدونه. فالأمر إذن لم يكن وكأنه في يوم من الأيام كان عليَّ أن أختار بين العنف واللاعنف ـ العنف كان دوماً موجوداً.

«لم أكن أرى نفسي، ولا أراها الآن، شخصاً عنيفاً، لكنني أعتقد أنه في ظروف معينة عندما تتحكم طبقة بالسلطة من دون طبقة أخرى يكون اللجوء إلى العنف أمراً مشروعاً. أهم مثال لنا على ذلك هو الصراع ضد الفاشية خلال الحرب الأخيرة، هذا الصراع الذي لا يزال عالقاً في أذهان آبائنا. لقد سمعنا روايات كثيرة. كيف كان العنف يستعمل بطريقة مشروعة في القتال. فعندما كنا نضع العنف على بساط البحث كنا نضعه دوماً على أساس إيديولوجي وهكذا نكون قد وفّيناه حقه من البحث فتشعرين عندئذٍ أن استعماله مبرَّر».

وأخيراً عام ١٩٧٤ وبعد أن أعيتها الحيرة وهي تحاول أن تمزّق نفسها بين حركة ثورية منظمة وأخرى تنادي بالمساواة بين الجنسين، اختارت الألوية الحمراء. التحقت مع مجموعة من الأصدقاء ـ إمرأتان وثلاثة رجال ـ وقضت عدة أيام في منطقة جبلية تتعلّم كيفية استعمال السلاح. وقالت في سياق الحديث أنهم كانوا يتدربون على «العمليات العسكرية» الفعلية أثناء ذلك. كانت أول عملية لها عملية سطو مسلح بعد أن التحقت بفترة قصيرة، بعد ذلك وفي عام ١٩٧٤ صارت عضواً في العصابة التي قامت بالجرائم الأولى للألوية الحمراء.

قبل ذلك بثلاثة أسابيع انفجرت قنبلة أثناء اجتماع حاشد مناوئ للفاشية في بريشا بالقرب من البحيرات الإيطالية. قتل ثمانية أشخاص وجرح أربعة وتسعون. كان ذلك من فعل حزب الحركة الإشتراكية (MSI) الفاشيون الإيطاليون الجدد. قررت الألوية الحمراء أن ترد الصاع صاعين. لذلك أغار طابور بادوا الذي كانت سوزانا عضواً جديداً فيه على مكاتب حزب MSI في بادوا بقصد سرقة الوثائق فقط، لكن العصابة لاقت بعض المقاومة من قبل موظفي الحزب، فأطلقوا النار عليهم وأردوهم قتلى. في ادعائها المسؤولية عن هذه الجرائم أعلنت الألوية الحمراء الحرب للمرة الأولى، ولقد حث البيان كل الحركات الثورية على حمل السلاح والقتال ضد بربرية الفاشيست.

أحدثت هذه العملية جرحاً بليغاً في نفس سوزانا: «لم أشارك في القتل بشكل مباشر لأنني لم أكن في الغرفة نفسها، لكنني كنت فقط على بعد عشرة أمتار. بعد ذلك رحت أتجول كمن أصابتها صدمة عصبية وأنا أضع الشعر المستعار الذي استعملته في العملية، ثم نزعته وذهبت إلى البيت. وجبة طعام كانت تنتظرني والمذياع مفتوح يعطي تفاصيل عن العملية... شعرت وكأنني في حالة من انفصام الشخصية. كان الأمر ثقيل الوطأة.

«كان الرفاق الآخرون في منتهى الطيبة والتفهم والتعاطف وراحوا يتكلمون عن الحادثة وعن حقنا في استعمال القوة، هذا الحق المبني على الأعراف والتقاليد المناهضة للفاشية. بدأت أتعافى قليلاً وأدركت أنني انخرطت في هذه الحرب الجديدة».

حتى هذه المرحلة حافظت سوزانا على علاقتها بوالديها، لكنها الآن شعرت أنه كان عليها أن تحدث شرخاً كاملاً وترحل من أجل ممارسة العمل السري مع الألوية. «لم يعد بمقدوري أن أعيش نصف حياة: إمَّا الأهل والمنزل والفتاة الطيبة، من جهة أو الآخرون، من جهة أخرى.

«أتذكر اللحظة التي غادرت فيها البيت. أخذت حقيبتي ورافقني زميل إلى بلدة أخرى وأعطاني وثائق مزيفة ـ مزّقت وثائقي الحقيقية ـ وهناك بدأت حياة جديدة. لم أرجع إلى بادوا طيلة ثلاثة عشر عاماً. أخبرت والديَّ أنه كان عليَّ أن أترك البيت لأسباب سياسية ولم أعطهم تفاصيل أخرى. رحلت وأنا أقول لأمي (إنني ذاهبة لمدة شهر فقط). وفي إحدى الليالي غادرت وكانت الساعة السادسة، وآخر شيء فعلته أن سرت في تظاهرة نسائية، مسيرة بالمشاعل المضاءة. كنت أبكي لأنني شعرت بالتمزق، لكنني كنت مُصمّمة. لم يستطع أحد أن يفهم لماذا كنت أبكي. رحلت بحقيبة تحتوي على بعض الثياب وعلى غطاء أخذته عن سريري ولحاف أحمر محشو بريش الإوز.

«بعد مغادرتي أصيبت والدتي بانهيار في صحتها وفسدت علاقتنا».

كان لقطع سوزانا هذه الرابطة العاطفية المهمة بيديها أثرٌ دائمٌ عليها. كانت مثل طفلة غادرت البيت بلحافها الأحمر، وهنا لا بد لنا من أن نتذكر بأنها وصفت حياتها السابقة بعبارة «الفتاة الطيبة». بعد أن قطعت كل علاقاتها وآثرت أن تلعب دور فتاة أخرى «الفتاة السيئة» يا للعجب! كانت تتوقع الكثير من المجموعة التي ضحّت بكل شيء من أجلها، كانت تريد عائلة جديدة، كانت تريد الحب والتشجيع. كانت من هذه الناحية شبيهة بأولريك ماينهوف في عصابة بادر ماينهوف: توفيت والدتها عندما كانت أولريك في سن المراهقة، وضحّت أولريك بعائلتها بما في ذلك إبنتيها التوأمين لتلتحق بالثورة. بدا أنها كانت تنشد الحب والإهتمام في العصابة لكنها، مثل سوزانا، لم تنل أياً منهما.

* * *

كانت حياة سوزانا الجديدة جيدة التنظيم مشوبة بالتكتّم. تسلّمت سيارة بلوحة ووثائق مزورة، «شعرت وكأنني بائعة متجولة. كل شيء كان زائفاً» موّهت حديثها حول الأعمال التي قامت بها فعلاً خلال السنة التي قضتها مع الألوية الحمراء بالقول:

«تقدَّمتُ بسرعة في النواحي العسكرية» وركّزت على وصف إحساسها بأنها لم تكن لتنسجم مع رفاقها الجدد.

لم تكن تشكو من الطريقة التي كانت المجموعة تعاملها بها كامرأة. فقد كان الرجال والنساء يعاملون على قدم المساواة بنظر القيادة رغم اعترافها بوجود اتجاهات خفيَّة جعلت الرجال مهيمنين. صرّحت إمرأة أخرى كانت عضواً سابقاً في الألوية الحمراء أنه إذا أبدتِ النساء في المجموعة أيّ تردد أو أظهرن أية شكوك فقد كان هذا يؤخذ على محمل الجد أكثر مما كان يؤخذ لو كان صادراً عن زملائهنّ من الذكور، وكأنه وجب على النساء أن يكنّ أصلب من الرجال بمرتين.

لكن مشكلة سوزانا مع الألوية كانت ترتبط بإحساسها بالوحدة أكثر من أي شيء آخر. كان عدد الرجال في الحركة يفوق عدد النساء (فقط ١٠٪) وبما أن الكلّ كان يعمل في الخفاء فقد كان الكلّ في عزلة تامة عن بقية المجتمع. ما كان يوجد واحدة في طابور البادوا لها من الخلفية ما كان لسوزانا. ولم يكن هناك واحدة بين كل الصديقات تميَّزت بنشاطاتها السياسية في كل من المدرسة والجامعة بمقدار ما تميزت سوزانا.

خلال الوقت الذي قضته مع الألوية الحمراء لاحظت سوزانا أن المجموعة أصبحت صلْبة، كان لا بد للقوانين أن تطاع وكانت تفرض على نحوٍ صارم. فإذا قررت القيادة مثلاً أن طابوراً جديداً يجب أن يشكّل في قسم آخر من البلاد فقد كان لا بُدَّ لهذا أن يحدث حتى ولو أدى ذلك إلى سلْخ اثنين عن بعضهما وفسخ ما بينهما من علاقة. قالت سوزانا مُعلِّقة: «ابتدأت أدرك أن اختياري الإلتحاق بالألوية الحمراء كان مبنياً على موجة من التسرُّع أكثر مما كان مبنياً على اندماج سياسي حقيقي. مشكلتي لم تكن تخطئة الكفاح المسلح بقدر ما كانت تخطئه الصرامة والقسوة.

«تميَّزت أشهري القلائل الأولى بالعزلة الشديدة. لكنني ألقيت بنفسي في خضم النضال بطريقة تتصف بالتصميم والعزيمة ـ كنت شديدة الاقتناع بالحاجة إلى العمل من أجل هذه المنظمة وكنت بحاجة ماسة لأن يكون اشتراكي شاملاً». طغى التزامها العميق بالمجموعة على كل شعور شخصي بالتعاسة.

«بعد ذلك طرأ شيء وضع حداً لوحدتي. فقد كونت علاقة مع شاب في المجموعة كنت قد قابلته بعد التحاقي. كان أصغر مني سناً، وقد انخرط في العمل السري قبل بلوغه الثامنة عشرة. كان يختلف عني كل الإختلاف وكان رجلاً من غير رفيق. كان علاقة ذات أهمية كبرى من الوجهة الرومانتيكية، لكنها كانت علاقة حافلة

بالنزاع من كل النواحي الأخرى. ساعدت علاقتي معه على إتمام سنتي الأولى في الألوية الحمراء».

حملت من عشيقها فابريزيو بيللي هذا، وفي أثناء ذلك قرَّرا معاً أن الوقت قد حان لهما أن يتركا الألوية. كانت القيادة قد أصدرت قراراً أنه من الآن فصاعداً أصبح من الضروري للألوية الحمراء أن تصبح أكثر منهجيَّة، أي حزباً سياسياً له وجهة نظر أكثر لينينيَّة كي يكون هذا الحزب الطَّليعة المسلحة للجماهير التي لم تكن علاقتها بالألوية الحمراء قوية. قالت سوزانا: «لم أكن لينينيَّة على نحو تام، ولم تكن تربيتي وتكويني وحتى ثقافتي من القسوة والصرامة في شيء. كنت أُريد أن أكون أكثر انخراطاً مع الناس، سلسة ومرنة، بلغة الحركات الأخرى التي كانت حولنا في ذلك الحين».

أعلنت سوزانا رسمياً مع خليلها وصديق آخر عن رغبتهم في الترك. لم تُقابل رغبتهم بأي نوع من الإستياء وإنما طلب منهم أن يعزلوا أنفسهم لبضعة أشهر كي يتركوا مجالاً للمنظمة لأن تعيد تشكيلها وللتأكد من أنهم ما كانوا على علم بأشياء معنية. اعترفت سوزانا أنه كان بمقدورها أن تعود إلى البيت لأنه لم يكن قد صدر بعد مذكرة بإلقاء القبض عليها، «لكنني كنت خائفة ولم أكن أريد أن أترك الأثنين الآخرين». كان تورطها العاطفي شديداً جداً، لكن المرء قد يتساءل أيضاً فيما إذا كانت قد أصبحت مدمنة على حياة الخارج عن القانون.

كانت مريضة أيضاً. أجهضت وأدركت أن عملية الإجهاض لم تكن ناجحة وكانت بحاجة لأن تفعل شيئاً تصحّح به الأمور.

في اختيارهن طريق العنف والثورة، كثيرات كنَّ النساء اللواتي آثَرْن أن يؤجلن إنجابهن للأولاد أو أن يستغنين عنهم، أو أن يهجرنهم كما كانت الحال مع أولريك ماينهوف التي تقدم ذكرها. بتعرِّضها للإجهاض خطت سوزانا خطوة أبعد من ذلك، فقد تشكل عندها رأي عن قناعة وإحساس أن حياة الثُوري لم تكن للأولاد، ومع ذلك فقد شغلت الأمومة حيزاً كبيراً من تفكيرها وكانت الأمومة من المواضيع التي عادت إليها فيما بعد.

إن هذا الوضع الذي تمخّض عن اعتلال في صحتها صعَّبَ الأمور عليها. فبالإضافة إلى أنها كانت تعيش متخفّية، فقد وضعها الإجهاض في موضع من انتهك القانون وأصبحت عرضة لخطر إلقاء القبض عليها في حال مفاتحة أي طبيب تنشد مساعدته. لكنها أجبرت نفسها على التصرف في آخر الأمر. «كان أمراً مروّعاً. لم أكن أعرف، ولم يكن الإثنان الآخران يعرفان، ما يجب فعله، وهكذا رحت أتنقل من عيادة

إلى أخرى لوحدي نصف ميتة وبدرجة حرارة بلغت ٤١ درجة مئوية. وأخيراً قال أحدهم «حسناً، يوجد سرير هنا، أدخلي...»

توقفت عن الكلام ومن ثم قالت: «كانت المرة الوحيدة التي أتذكر أنني كنت خائفة من الموت رغم رؤيتي له مرات عديدة فيما بعد في حياتي». كانت المرة الوحيدة أيضاً التي كانت في وضع تواجه فيه الموت لا لسبب إلّا لأنها كانت إمرأة.

عندما تعافت أرادت سوزانا أن ترى والديها. ناقشت الأمر مع رفيقيها فأشارا إلى المخاطر التي قد تتمخّض عنها هذه الزيارة من اعتقال أو تعرض للإستجواب من قبل الشرطة. أخيراً وافقوا جميعاً أن الزيارة قد تكون آمنة، وهكذا اتصلت بوالديها وأخبرتهما أنها سوف تقابلهما في عيد الميلاد في بيت العائلة في الجبال. كان لقاء عائلياً مفرحاً مشوباً بالحذر، ولم تستطع سوزانا، على ما يبدو، أن تجيب على العديد من الأسئلة التي وجهت إليها.

بعد ذلك، وفي يوم الميلاد، وقعت الكارثة: «بينما كنت جالسة حول المائدة مع والديّ كعائلة صغيرة نستمتع بعشاء الميلاد رأيت صورة رفيقي في التلفزيون. اعتُقل وأُغير على البيت الذي كنا نسكن فيه، وكان عليَّ أن أقرر على الفور ما يجب أن أفعل لأنني كنت قد تركت وثائقي في البيت وكنت أعلم أن الشرطة سوف تتمكن من تعقُّبي بمنتهى السهولة.

«التفَتُّ إلى والدي الذي كان رائعاً في تلك المناسبة ودعوته إلى غرفتي وأطلعته باختصار على ما حدث. قلتُ: «عليك أن تأخذني إلى محطة القطار». لم يجادلْ ولم يَقلْ كلمةً واحدة بل فعل ما طلبتُ منه على الفور. كان كلماته الأخيرة إلي «أخبريني بما قد يحصل لك». وصَلْتُ إلى تورين في صباح اليوم التالي، أدرتُ قرصَ الهاتف على رقم وتقابَلْتُ مع بعض الرفاق».

كانت بداية «الخط الأمامي». سوزانا ومجموعة من الذين يوافقونها الرأي من المؤيدين لإستعمال السلاح كانوا متمسكين بالحاجة إلى العنف، لكنهم وجدوا أنفسهم بأنهم جاءوا إلى هذا العالم فقط ليلبوا (بالسلاح) حاجات الطبقات العاملة. كان شعارهم «تأسَّست جماعة الخط الأمامي كي تُعِدَّ فناءها بنفسها» ـ سوف تحلُّ المجموعة نفسها بعد الثورة ولن تسعى إلى السلطة كما كان في نيَّة الألوية الحمراء. لم يكن تركيبها رسمياً وكانت تُرحِّب بالمشاركين في حرب العصابات من مختلف الجماعات. كانت باستطاعة سوزانا أن تلتقي بالكثير من الناس وكانت سعيدة. شَكَّكتُ المجموعةُ الجديدة «الزّمر البروليتارية» التي كانت تخفُر مناطق الطبقة العاملة وتهاجم مخافر الشرطة والبارات حيث كانت تباع المخدرات. رأوا أنفسهم بمثابة الحماة لغير القادرين على

الدفاع عن أنفسهم ووسعوا نشاطاتهم لتصل اولئك الذين كانوا في نظرهم يلوثون البيئة.

كان العام ١٩٧٧ معروفاً في إيطاليا «بعام P38 ـ وهو اسم أحد أكثر المسدسات اليدوية شيوعياً في ذلك الحين. الجماعات الثورية المتعددة بما في ذلك الخط الأمامي والألوية الحمراء التي كانت تُنفِّذُ أعمال العنف المتكررة، أصبحت تُعرف بالإجمال باسم «حركة ٧٧». قرَّر العشرات من هذه المجموعات أن العنف رَتَّبَ الأمور وبدا أن الشوارع كانت تَغُصُّ بالشبان يبحثون عن المواجهة. ولما كان الشرطة قد أُخِذوا على حين غرّة ولم يكونوا متأكدين من هوية المسؤولين عن اتساع رُقعَةِ الكفاح المسلح، فقد قبضوا على المئات من الأشخاص الذين كان يطلق سراحهم في كثير من الأحيان لعدم توفر الأدلة. في نهاية العام حدث حوالي ألفَي عملية إرهابية وثلاث عشرة وفاة. علَّقت سوزانا بالقول: «وافقنا جميعاً أن سنة ١٩٧٧ كانت نقطة اللاعودة. كانت قد وَضَعَتْ أساساً لطريقة جديدة يُعبِّر المرءُ فيها عن نفسه: القتال».

خلال هذا العام أُلقي القبض على عدد من أفراد الخط الأمامي، وقررت سوزانا ورفيق آخر أن تورين لم تعد مكاناً آمناً للسكن. انتقلا إلى نابولي حيث أصبحت واحداً من القادة الثلاثة الأوائل من أصل أربعة في الحركة وبنفس القدر من المسؤولية في صنع القرار. سألتها كيف كانوا يختارون هدفهم.

«أول شيء، كنا نتفق على اختيار المنشأة وعلى من سيكلَّف بهذه المهمة. بعد ذلك نُجري تقييماً عسكرياً للهدف. كان من الصعب أحياناً أن ننفذ هجوماً على شخص وقع الإختيار عليه، إما لأن عاداته كانت منظَّمة أو لأنه كان محاطاً بحماية قوية».

«كنت أشعر بالتوتر قبل كل عملية. عشت مع الخوف، عايشني الخوف مدة عشر سنوات. في كل مرة، قبل العملية، كنت أشعر بالتحدي. انه ليس بالأمر الذي يمكن للمرء أن يعتاد عليه. يشعر الإنسان بعواطف بشرية طبيعية. العنف ليس شيئاً يمكن مباشرته بلا مبالاة. يشتمل الإستعداد للعملية على كل أنواع المشاعر المختلطة، لكن في النهاية، على المرء أن ينفِّذ القرارات التي تمَّ اتخاذها».

كان أحد هذه القرارات هو اطلاق النار على ركبتي حارسة سجن كانت مسؤولة عن الأمن في جناح الحماية القصوى لأحد السجون في تورين حيث كان يُحتَجز عدد من النساء الإرهابيات ويعاملن معاملة سيئة. قالت سوزانا أن تلك العملية كانت العملية الأولى التي تقرر فيها أن يكون فريق العمل مؤلفاً من النساء فقط. «لم أوافق على عدم اشتراك الرجال فيها، لكن ذلك كان قراراً تمَّ اتخاذه.

«كنا أربع نساء في الفريق وانتظرناها خارج بيتها.. لم أطلق النار عليها، فقد كنت أؤمّن التغطية للأخريات في ذلك اليوم. عندما خرجتْ رأتنا وقبل أن يطلق النار عليها بثانيتين، عرفت من نحن وراحت تنعتنا «بالعاهرات».

شعرت سوزانا ومن كان معها بالإهانة والسخط لهذه التسمية. شعرت كل واحدة منهن لو أن الضحية استعملت وهي تصرخ كلمة «قتلة، مجرمات» لكان الأمر أخف وطأة عليهن ولفضلنَ ذلك: «كانت أسوأ إهانة يمكن لها أن تستخدمها، كانت إهانة مباشرة موجهة ضد أنوثتنا».

كان يشاركهن الغضب الشديد من جرّاء استعمال هذه التعابير في الشتم والسباب نساء أخريات من الحركة النسائية أقل تمرساً في القتال ومن مجتمعات قمعيَّة تقليدية: الجيش الجمهوري الإرلندي والفلسطينيون. لماذا يكون الأمر مهماً على هذا النحو عندما يطلق عليكِ العدو أسماء كهذه؟ وخاصة عندما تكونين على وشك أن تثقبي أجسادهم بالرصاص. هل لأن مثل هذه النُّعوت توصل إليهن بلا لبس رأي المجتمع بالنساء المنحرفات في حين يجدن أنفسهنَّ مقاتلات لا جنس لهنَّ من أجل القضية؟

حقَّقت هذه المعاقبة باطلاق النار، على ما يبدو، النتيجة المرجوة منها. فقد أَخْبَرَتِ النساء داخل السجن فرقة الخط الأمامي أن الأوضاع تحسنت على نحوٍ مفاجيء.

وجاء العام ١٩٧٨، وأصبحت سوزانا الآن من أكثر الوجوه المطلوبة على الملصقات الجدارية التي تطالب بالإرهابيين. عاشت تحت وطأة التهديد المستمر بالإعتقال وما نجم عن ذلك من توتر، لكن في الوقت ذاته، كما قالت، كانت هناك أوجه الحياة الدنيَوية التي يعيشها المرء يومياً والتي كانت راضية عنها وقانعة بها ـ التسوّق والطَّهي والصداقات والعشاق. عندما كان فابريزيو في السجن (مات هناك في السنة التالية) كان لسوزانا سلسلة متتالية من العلاقات. قالت أنها كانت تبدل عشاقها أنَّى توجهت وكيفما تحركت.

أعتقد أن بمقدور المرء أن يقول أنَّ هذا يُقيمُ الدليل على صحّة رأي الناس بمثل هؤلاء النساء: إنهنَّ لسْنَ مصابات بجنون العنف فقط وإنما بجنون الجنس أيضاً كأمثالهنّ من الذكور. لكن قد يبدو، في مثل حالتها هذه أن تكون هذه العلاقات الغرامية العَرَضيَّة القصيرة نتيجة لحاجتها الملحة إلى الحب. راحت تقول بطريقة محافظة حذرة جداً أن العلاقة الوحيدة التي أخذتها على محمل الجد كانت مع الرجل الذي كان سيصبح زوجاً لها.

لم تكن حياة الفرار شديدة الوطأة فقط بل شديدة العزلة أيضاً، وغدت سوزانا خائفة من تلك الحالة. فعلى الرغم من كثرة علاقاتها العرضية فقد وجدت أن أكبر مصدر حماية لها كان مسدسها. «تلك السنوات كانت قاسية جداً، لكنها كانت في الوقت ذاته مفيدة في مساعدتي كي ازداد حكمة. كنت في وضع كان عليَّ أن أتقي فيه الخطر بنفسي في كل من اللقاءات السياسية والعمليات العسكرية.

«**وكإمرأة من غير رفيق، كان لي علاقة خاصة بالسلاح**. أن أحمل مسدساً كان بالنسبة لي عملاً دفاعياً بقدر ما كان عملاً وقائياً. أمضيت سبع سنوات أتنقل وأنا مسلَّحة، وقد كانت الأهمية الأساسية لمسدسي هي حمايتي، وعندما كنت أستعمله بشكل عدواني فقد كان ذلك استثناء».

عندما تكلمت بهذا الشكل بدت وكأنها إمرأة عادية خائفة تصف كيف قررت أن تحمل مسدساً لتحمي نفسها من المغتصبين، لا كأمرأة كان على الآخرين أن يخافوا منها. ومع ذلك فقد أصرَّت على القول أن الهدف الأساسي من استعمال المسدس هو الحماية:

«خبرتُ الكثير من العمليات المباشرة كان المسدس في معظمها يستعمل كعائق فقط. بالطبع خَبِرتُ جَرْحَ الناس كما خبرت القتل. كانت تجربة أثيمة فظيعة وكل واحدة تختلف عن الأخرى اختلافاً كبيراً. من الصعب جداً وصف التجربة ومن أسباب ذلك أن الإنسان يفكر فيها كثيراً قبل القيام بها وبعد ذلك أيضاً.

«أن ارتكاب العنف يعني إلى حد ما أن يرتكب المرء العنف ضد نفسه، لأن العنف ليس شيئاً يرغب الإنسان فعله بشكل طبيعي، وبما أن الإنسان عليه أن يصرف النظر عن بعض الأشياء من نفسه عند ارتكابه العنف فهو يُخرِجُ عنوة الرغبة في الحفاظ على الحياة، وهذا هو أحد الأسباب الذي يجعل الإستمرار في العنف لمدة طويلة أمراً مستحيلاً. تعرفين أن هناك ثمناً عليك أن تدفعيه، وفي بعض الأحيان يصبح ذلك الثمن من الضخامة بحيث تجدين نفسك في أزمة شخصية. تصبحين على علم أن التكاليف تفوق الفائدة في وقت كنت دوماً تعرفين أن أمامك خياراً ولم يجبرك أحد على القيام به.

«لم تكن العمليات تستمر أكثر من بضع دقائق، ومع ذلك فقد كان رد الفعل عندي دوماً تعطيلاً كاملاً مؤقتاً لكل مشاعري. الشعور السائد كان الخوف، لكن ليس من أن الأمر كان يمكن ألَّا يسير في الإتجاه الصحيح، بل كان شيئاً أعمق من هذا، فقد كنت تعبرين عتبة. كانت اللحظة قبل العملية، ومن ثم كان التعطيل المؤقت لكل

شيء. كنت أشعر وكأنني توقفت عن التنفس، وكل شيء حولي كان صامتاً شاحباً عديم اللون، كان فراغاً.

«لقد قرأت في كثير من الكتب وصفاً للشجاعة ـ فأنا شخصياً لا أعرف ما هي الشجاعة. الشيء الوحيد الذي أعرفه هو تلك اللحظة، عندما يكون كل شيء معطلاً، استعمال المسدس ومنظر الوميض عندما ينطلق، أما بقية الأفكار والمشاعر فإنها تأتي لاحقاً».

يقول علماء النفس التحليليون أن المشاعر التي وصفتها، من دفع قوة الحياة جانباً واجتياز العتبة، تنسجم تماماً مع ردود الفعل عند الكثير من الجنود بعد قيامهم بالقتل. الفرق هو لو أن المرء كان قاتلاً سياسياً فاراً لما تمكن من السعي في طلب العون السيكولوجي، وكما قالت سوزانا عن حق، تكون الأزمة الشخصية هي النتيجة المنطقية النهائية.

«إنكِ تحتفظين بهذه الأشياء في أعماق نفسك وتتجاهلين أوجهاً معينة مما تقومين به، لكنك لا تستطيعين إقصاءها. بعذ ذلك تبدأ بالعودة على نحو بطيء ومؤلم».

أضافت أنه في ذلك الوقت لم يصدف أن ناقش أحد مشاعرهن حول العنف وكأن الموضوع كان محرَّماً. هل كانت تعتقد أنها وبقيَّة النساء الأخريات كن يجدن صعوبة أكبر من أن تكُنَّ عنيفات؟

كلا، هزت رأسها، فقد كان لها وجهة نظر خاصة حول علاقة الأنثى بالسلاح:
«إن فكرة العنف برمتها مرتبطة بالأمومة. فالمرأة هي التي تهب الحياة وهي التي تأخذها أيضاً».

«يوجد عدة أمثلة عن أمهات قتلن أولادهن قبل أن ينتحرن، وهذا يعني أن النظرة التقليدية التي تقول أن النساء غير قادرات على استعمال العنف لا تتفق والحقيقة.

«لا أعتقد أن التجربة التنى وصفتها حول قطع قوة الحياة أو وقفها، إذا ما طرحنا العواطف جانباً عندما تكونين عنيفة، هي وقف على الرجال دون النساء، أو أنها شيء تجد النساء صعوبة فيه أكثر مما يجد الرجال. لقد عرفت عدداً لا بأس به من الرجال الذين قالوا لي أنه لم يكن بمقدورهم إطلاق النار على الناس».

وجهة نظرها الأخيرة هذه كانت من القوة بحيث ابتدأت أشاطرها الرأي فيها: أن النزعة لإرتكاب العنف لم تكن لتتحدد بالجنس، لكنني لم أكن متأكدة من رفضها أن

قطع دابر الحياة أو غريزة الحفاظ على الحياة وَصَوْنها كان أمراً سهلاً على النساء بقدر ما كان سهلاً على الرجال. ربما كنتُ أعَبِّرُ عن وجهة نظر تعوزها الأصالة، لكن ماذا عن عدد المرات التي سمعنا فيها عن اناث واجهن الخطر ليحمين أولادهن؟ أنثى الأسد وأشبالها ـ هل كل هذا غير صحيح؟

هكذا كانت سوزانا تفكر كما تبيِّنُ نظريتها التي تقول أن النساء يعطين الحياة ويأخذنها. صحيح، كما قالت، أن هناك أمثلة عن أمهات قتلن أطفالهن، لكن لا شك أن اللواتي يفعلن مثل هذا الأمر قليلات جداً. على أية حال، لقد تحدثت إلى باحث علم الجريمة الذي وافق سوزانا الرأي حول فكرة أن النساء يمتلكن مطلق سلطة الحياة أو الموت في لحظة الولادة الحاسمة، أشار هذا الباحث أنه في مجتمعات كإيطاليا، حيث درجت العادة أن تلد المرأة في البيت، كثيراً ما تتآمر القابلة والأم على قتل الطفل إذا كان مشوهاً، أو لمجرد أنه ليس مرغوباً فيه. وهنا لا يسعنا إلَّا أن نفكر بمجتمعات أخرى حيث يمكن لأم أن تقتل إبنتها الحديثة الولادة فقط لأنها ليست ذكراً. وهنا نجد أن ربط سوزانا الأمومة بالعنف لا يخلو من أحد عناصر الحقيقة.

كانت تسخر هي ورفيقاتها من العديد من الرجال، وخاصة الشبان منهم، الذين كانوا يحبون أن يتبختروا بخيلاء وهم يرتدون سترات من الجلد يلوحون بمسدساتهم. كانت تشعر أن بعض هؤلاء كانوا قد التحقوا لمجرد التباهي ولم يكن انضمامهم ناتجاً عن أي إحساس عميق بالإلتزام ـ في هذه النقطة كانوا يختلفون عن النساء اللواتي ماكنَّ ليلتحقن إلّا بعد الكثير من التدقيق وسَبْرْ النفس.

يذكّرنا هذا بكلمات إمرأة من ETA أدعت أن النساء كن أكثر من الرجال حفاظاً على تعهدهن وأقوى التزاماً بالقضية، ذلك لأنهن في اختيارهن الإلتحاق أصبح ما يمكن أن يخسرنه أكثر مما يخسر الرجال. ولاء الذكور السطحي نسبياً للحركة والذي لاحظته سوزانا وغيرها من النساء الثوريات كان ينعكس بشكل واضح، كما قالت سوزانا، في الطريقة التي كان يتبدّى فيها رد فعل الرجال حين يلقي القبض عليهم: «كان لبعض الشبان ولع شديد بالمسدسات، وكانوا يعتبرونها بمثابة أصنام يتعبدون لها وذلك بطريقة ذكورية محضة يشوبها شيء من التصرف الطفولي. لم يكن الأمر هكذا بالنسبة للنساء، فقد أعطين من أنفسهم للقضية أكثر بكثير ما أعطى الرجال.

«نتيجة لهذا فقد كان هناك نسبة ضئيلة من النساء التائبات لأن الإشتراك بالنسبة لهن كان نكراناً تاماً لوجودهن».

لم تكن تقصد القول أن رفيقاتها من النساء كن مجموعة وقورة متبلّدة الحس لا

تشعر بالإثارة التي ترافق عادة طبيعة الحياة الثورية. وسألتني عن النساء الأخريات اللواتي سبق أن قابلتهن وكيف كنَّ ينظرن إلى ما كن يقمن به. ذكرتُ لها التوق الشديد الذي أبدته ليلى خالد لأيام العزّ والتألق، فأومأت برأسها مؤيدة:

«أنا لا أقول أنه لم تكن هناك أوقات لم يكن فيها لما نقوم نكهته الخاصة من الإثارة. لم تكن إثارة مستمرة، لكن كان لها بعد بطولي: الشيء الرئيسي هو أنك كنت تشعرين أنكِ قادرة على أن تؤثري في العالم من حولك بدلاً من أن تختبري هذا العالم على نحو سلبي. هذه القدرة على إحداث تأثير على واقع الحياة اليومية كانت هي المهم، ولا زالت مهمة على ما يبدو».

تساءلْتُ كم كان هذا الشعور مهماً، في أن يكون الإنسان مساهماً على نحو فعَّال في تغيير العالم، بالنسبة لنساء في مجتمع ظالم. ومع ذلك، فقد كان يتوقع من النساء في أيام نشاط سوزان أن يكنَّ سلبيات بشكل عام لأن القانون الذي كان يسمح لأزواجهن بضربهن لم يكن قد مضى على الغائه وقت يذكر.

عائدة بذاكرتها إلى الوراء، اعتبرت سوزانا أن عام ١٩٧٧ كان أفضل الأعوام بالنسبة للخط الأمامي وللحركات الثورية الأخرى. كان عام ١٩٧٨ بداية النهاية. في آذار (مارس) اختطف ألدو مورو رئيس الوزراء الأسبق، وبعد أربع وخمسين يوماً قتل من قبل الألوية الحمراء. حدث سخط جماهيري شديد، والذين كانوا في السابق يتعاطفون مع الثوار أصبحوا الآن يرونهم قتلة عديمي الشفقة والاحساس. وكثير من الذين شاركوا في مظاهرات الشوارع عام ١٩٧٧ تخلوا عن الأهداف الثورية تاركين المقاتلين في الخفاء أكثر عزلة من ذي قبل، وفي داخل المجموعات نفسها كان الجدل والنزاع قائمين بين الرفاق حول ما إذا كان يجب قتل مورو.

ومع تقدم العام اشتدت الحرب بين الدول والثوار لدرجة جعلت منظمتي الخط الأمامي والألوية الحمراء تقرران أنهما كانتا بحاجة إلى أسلحة أفضل من أسلحتهم اليدوية الصغيرة كي تستأنفا القتال. اشترت الخط الأمامي حوالي خمسة عشر سلاحاً من AK - 47 وقاذفتي صاروخ سوفياتيين وهي شحنه بضاعة جاءت من لبنان، كلفتِ المجموعة حوالي مئة مليون لير إيطالي. ومن أجل تمويل هذه الصفقة قامت المجموعة بالعديد من عمليات النهب للمصارف. لكن عندما وَصَلَت الشحنة، كانت البنادق قد أتلفتها المياه المالحة، ولم يُستَعمل من هذه الأسلحة التي كلّفت الكثير سوى اليسير النادر طُمِرَ بعضها في الأرض وخبِّىء البعض الآخر في أقبية اكتشفت بعد سنوات. أدَّى تكثيف عمليات النهب للمصارف إلى اعتقال عدد كبير من هؤلاء المقاتلين راح بعضهم يفشي الأسرار.

تذكرت سوزانا هول تلك الأيام وانحلال المجموعة التي كانت تعتبرها عائلة لها، وتذكرت ذلك الإحساس بالإبتعاد عن الجماهير. «كان هناك نقص كبير في المقاتلين، كما أن بعضهم ثابوا الى رشدهم. رُحنا نسأل أنفسنا الى أين نحن ذاهبون وماذا نحن فاعلون؟ لكن موجات الإعتقال لم تعطنا الوقت للتفكير. بقيتُ فترة قبل ذلك أعيش في الحاضر فقط، ولقد برَّر الماضي ما كنت أفعل، وكان المستقبل زمناً لم أستطع أن أعيشه. والآن حتى الحاضر فجأة بدا مستحيلاً، وقتاً لم يعد بمقدورنا أن نعيش فيه».

سألتها فيما إذا شعرت أنها كانت قد وقَعَت فْي شرك، أو إذا كانت حاقدة على الحركة التي جعلت حياتها صعبة، بهذا الشكل. لم تكن تشعر كذلك، فَمِثْلُ هذه الأحاسيس كانت مستحيلة بالنسبة لها. كانت الحركة، في اعتبارها طفلاً لها: «ربما كان البعض قد شعر على هذا النحو، أما أنا فقد كنتُ واحداً من المؤسسين، كنت قائداً، وفي موقع المسؤولية. لا أعتقد أنه كان بمقدوري أن أشعر بالإمتعاض لأن الإختيار الذي أدّى بي إلى الوضع الذي أنا فيه كان اختياري».

أصبح سيرجيو سيجيو عزاءها الأول، («أصبح جوهر حياتي») وهو رجل من الذين شاركوا في تأسيس «الخط الأمامي» رغم أنهما لم يتقابلا للمرة الأولى إلاّ عام ١٩٧٨. عرفت سوزانا أن مشاعرها نحو سيجيو كانت أعمق من مشاعرها نحو أي عاشق سابق، قالت معلقة: «كانت هذه هي المرة الأولى التي حاوَلْتُ فيها أن ابني علاقة قد يكتب لها الديمومة والتي يمكنها أن تتحدى الصعاب». عاشا معاً ووجَّها التنظيم معاً.

تورطت سوزانا عام ١٩٧٩ في مقتل ثلاثة رجال في تورين ـ حارس سجن وصاحِبُ حانة أشتُبِه بكونه مُخبراً، ومدير شركة فيات للسيارات. واعتُبرت مسؤولة أيضاً عن عملتي قتل في السنة التالية: مقاتل سابق اتهم بالخيانة ومدير شركة كيمياوية وجهت له تهمة إطلاق الغازات السامة فوق بلدة سيفيسو في شمال إيطاليا.

ليس معروفاً فيما إذا كانت قد ارتكبت هذه الجرائم بالإشتراك مع سيجيو، لكن اعتبر الإثنان بأنهما خططا لقتل اثنين من القضاة عام ١٩٧٩. عندما وقفا بعد أربع سنوات في قفص الإتهام ليتلقّيا أحكاماً بالسجن المؤبد كانا قد أصبحا زوجين لتوهما بعد أن أُجْرِيَتْ مراسم الزواج في السجن.

استمرت العلاقة على الرغم من التغيّر الجوهري الذي طرأ على قلب سيجيو قبل أن يُلقى القبض على سوزانا. شعر أنه كان من الحماقة أن يستمر في الخط الأمامي وقرر

أن يترك. أراد صاحبته أن تترك أيضاً لكنها رفضت لشعورها أنها كانت تدين بالولاء للمجموعة أكثر مما تدين لعشيقها. كانت مشاعرها نحو الخط الأمامي تشبه مشاعر الأم التقليدية نحو وليدها: كان عليها أن تحميها وخاصة عندما كان الخطر يحدق بها.

نجَمَ عن قرارها هذا نقاش هام كانت نهايته أن ترك هو بينما هي اختارت البقاء. «بالنسبة لي كان هذا الإختيار في بعضه سياسياً وفي البعض الآخر عاطفياً: كانت بالنسبة لي خبرة في مجموعة تَوَرَّطْتُ فيها منذ نشأتها وساعَدْتُ في بنائها وتكوينها، ولهذا لم أشعر برغبة في الترك. لا يزال سيرجيو يلومني بشأن هذا القرار وقال إنه أظهر عندي نقصاً في وضوح الفكر وسداد الرأي. لكنه كان قراراً يتعلق بتجربتي في الحياة».

بعد ثلاثة أشهر، في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٨٠ قبض على سوزانا في فلورنسا. كانت نائمة عندما اقتحم رجال الشرطة مخبأها في منتصف لليل وجرّوها من فراشها. صفعوها عدة صفات (لم تكن من النوع الشديد) ومن ثم أخذوها إلى مخفر للشرطة حيث أخلوا لها غرفة خاصة، نظراً لعدم وجود زنزانات ذات تدابير أمنية عالية.

أمْضَتْ خمسة أيام وهي مقيَّدة على كرسي أثناء النهار وعلى سرير صغير في الليل. تذكّرتْ إحساسها وهي بهذا الوضع المكشوف، فقد كانت يداها مثبّتتين وراء ظهرها ولم يكن لديها ما تحمي به نفسها. قالت: وكنت محظوظة لأنهم لم يستطيعوا ضربي فقد كانت محاكمتي ستتم قريباً».

وبانتظار محاكمتها تقرر إعادتها الى سلسلة من سجون النساء، وأشارت إلى أنها عرفت، من معاملة السجانات لها، إلى أي مدى يمكن للنساء أن يكنّ قاسيات. قالت: «هذا وجه آخر من أوجه العنف عند النساء. لم يكن العنف أمراً صعباً عند الحراس من النساء. والحقيقة هي أن القسوة التي لقيناها عند الحارسات كانت أشد وأمضى من قسوة الحراس الذكور». قالت نساء ETA شيئاً من هذا القبيل، أي أنهن وجدن تعذيب النساء لهن أسوأ من تعذيب الرجال. أبدت سوزانا اشمئزازها، كما سبق لنساء الباسك أن فعلْن، من الطريقة التي تستطيع فيها هؤلاء النسوة أن يكنَّ عنيفات مع نساء أخريات.

«كنَّ يلجأن الى العنف بطريقة محايدة كنوع من السيطرة، وقد أظهر مقدار العنف الذي كنّ يمارسنه، وكأنهن يَقُمنَ بعمل عادي جداً، أيَّ نوع من الناس القساة يمكن أن تكونه النساء. قمن بتفتيشنا. كان عليَّ أن أقف عارية وإحدى السجّانات تفتشني جسدياً بينما وقفت الأخريات حولي يُعلّقن. كان الأمر أسوأ بكثير مما لو فعله الرجال.

لو أن الرجال فعلوا مثل هذا الشيء وتصرفوا على هذا النحو لأمكنك تقبّله لكان منطقياً. لكن من الصعب أن تتقبلي وضعاً كهذا، أن تري نساء يتصرفن مع النساء بهذه الطريقة.

«أعتقد أننا تعرّضنا للقسوة والعنف أكثر مما تَعرَّض غيرنا من المساجين العاديين ذلك لأننا كنا نتصرف بطريقة مختلفة تجاه النزلاء الآخرين. كنا متعجرفات، لا نميل إلى الإختلاط بغيرنا. لم نتلاءم مع ما كانت تتوقع هذه النسوة من سجينات. كنا ننظر إلى الأمور بطريقة تختلف تماماً عن الطريقة التي كن ينظرن بها، وكنا من خلفية وجذور ثقافية غريبة عنهن وتختلف عن خلفية وجذور السجانات اللواتي كان المستوى الثقافي لمعظمهن لا يتعدى المرحلة الإبتدائية.

«في سجن الذكور كانت هناك طريقة عسكرية لفعل الأشياء. كان المساجين يتعرضون للرفس، لكن ذلك كان متوقعاً. وكانت القوانين محددة. لكن سجون النساء كانت أكثر رقَّة ولطفاً، تتعرض للرفس في أحد الأيام، لكن في اليوم التالي كانت السجَّانة تحاول أن تكون لطيفة معك».

قُدمت سوزانا للمحاكمة في تورين متهمة بعدة جرائم، ولقد تمكنت، من خلال القفص المدعَّم بالمزلاج الذي يحاكم فيه الإرهابيون في إيطاليا، أن تتصل مع سيجيو عن طريق وسطاء. أخبرها أنه كان يتهيأ لإخراجها. كانت لديه خطة تمكن من أن يبعث لها بتفاصيلها. صَعُبَ عليها التصديق: «أمل النجاة بواسطة سيجيو جعل حياتي تستحق العيش». كنت أقضي ساعات الإستيقاظ متفقدة تغيرَّ الحرس وأراقب النقاط الضعيفة لأرى كيف يمكن للخطة أن تنجح. كنت ألتصق وأتَشَبَّث بنوافذ السجن أحاول أن أكتشف كيف سيَحررني. احتفظت بالسر لنفسي أولاً ومن ثم أخبرته لإثنتين من رفيقاتي.

«في الخارج كان سيرجيو يضع كل التفاصيل. تأثرت جداً لأنه كا قد ترك الخط الأمامي، لكنه عادَ إليَّ». كانت عيناها تلمعان عندما سألها فيما إذا كانت تراه يلعب دور الفارس الذي جاء ليخلص حبيبته من محنتها. ضحكت وقالت: «كان هناك على ما يبدو غرض سياسي وراء ذلك، لكن دافع الحب كان الأقوى».

أرْسَلَ لي رزمة من الكتب في داخلها رسالة. وفي يوم الهرب كان سيبعثُ لي باقة ورد. لم أتسلمها لكن قيل لي بأنها كانت قد وصلت، وهكذا عرفت أنا والإثنتان الأخريان أنه كان يوم الهرب. وبينما كنا في الباحة وقت التمرين ذهبنا إلى الجدار الخارجي وانتظرنا. سمعنا الإنفجار وبدأنا نركض من خلال الفجوة التي أحدثها الإنفجار في الجدار.

«كانت تلك اللحظة من أفضل لحظات حياتي، أن أهرب من السجن بتلك الطريقة». لم تسْمَعْ أن شخصاً كان قد قتل أثناء عملية الهروب هذه حتى سمعت الأخبار من الراديو، وكان أن أصرَّت على تقديم اعتذار إلى أقارب الرجل المتوفى.

هربتْ مع سيجيو إلى البندقية، المدينة التي كانت تعرفها وتحبها. أما المرأتان اللتان كانتا قد هربتا معها فقد ألقي القبض عليهما على الفور تقريباً، لكن سوزانا ظلّتْ هاربة لمدة عشرة أشهر إلى أن أفضى أحدهم إلى السلطات بمعلومات عن مكان وجودها.

أشارت إلى تلك الأشهر على أنها زمن اليأس. لم يعد هنالك من يؤمن بالكفاح المسلح. كان قد ألقي القبض على العديد من الرفاق، وفرَّ العدد الأكبر منهم إلى الخارج، ومع ذلك لم تَقْبَلْ سوزانا لنفسها حلًّا كهذا، فقد كان ارتباطها بالمجموعة بعيد المدى.

«لم أكن صافية الذهن. شعرتُ أنني كنت مشتّتة بين الشعور بالواجب والرغبة في أن أترك كل شيء. كنت دوماً أقول: «كلَّا، لا نستطيع أن نفعل ذلك». تمكَّنَتْ مع أربعة أو خمسة آخرين من الإبقاء على المجموعة. تذكرتْ أنها ورفيقة أخرى كانتا تضحكان من كون معظم الرجال الآن أصبحوا في السجن، وبهذا آن الأوان أن تتولى النساء مقاليد الأمور. ومن الوجهة التقليدية كانت هذه فرصتهن: وقت كان يسمح فيه للنساء أن يحاربن. لكنهن كن يحاربن منذ وقت طويل ولم تبقَ عزيمة الإستمرار والمتابعة سوى عند القليلات منهن. لم يبقَ هناك نشاط من الناحية العملية.

أرادت سوزانا أن تحرر الرفيقات اللواتي تركتهن في السجن. كانت تشعر بعبءٍ عاطفي كبير كي تفعل ذلك، لكن لم يتجرأ أحد على تنفيذ هذه المجازفة في وقت كان رجال الشرطة يضيقون الخناق عليهم. زد على ذلك الخوف مما قد يحدث إذا ما ألقي القبض عليها مرة ثانية لأن الروايات التي كانت تخرج من السجن كانت تتحدث عنٍ تعذيب دوري منظم كان يُمارس على رفاقهن. كانت هذه الزمرة التي ضعفت وقلّ عددها تقضي الساعات وهي تبحث كيف يمكنها أن تتعامل مع مثل هذه الوحشية. بعد ذلك أقدمت إحدى الرفيقات على الإنتحار وهبطت بذلك معنويات المجموعة أكثر من ذي قبل.

كانت سوزانا في حالة نفسية تفوق حالة معظم رفيقاتها سوءاً. قبل أن تهرب بفترة قصيرة بَلَغَها أن أمها كانت مريضة بالسرطان وحالتها سيئة جداً. لم تستطع أن تجاذف وتذهب لزيارتها لأنها كانت تعرف أنه سيقبض عليها، لا يزال إخفاقها ذلك

يلاحقها حتى الآن. «إنه شيء أجد صعوبة كبيرة في التحدث عنه لأنني كنت أحب أمي حباً كبيراً وكنت أريد أن أراها لكنني لم أتجرأ. شعرت أنني كنت أسدِّد لها ضربة قاسية».

في تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٨٢ وبينما كانت تشرب في أحد بارات ميلانو قُبض عليها مجدداً. استجمَعَتْ قواها لمقاومة العنف والتعذيب، لكنها فوجئت بمعاملة لطيفة من قبل آسريها. أخبروها بلطف أن والدتها كانت قد ماتت منذ شهرين. «كنت في حالة فظيعة عندما سمعت الأنباء كما كنت في حالة من اليأس والقنوط على سيرجيو، وللمرة الثانية كنت في داخل السجن بينما كان هو خارجه من دوني. كنت قلقة جداً بشأنه وكنت أتساءل دوماً ماذا كان سيفعل». بعد ذلك بثلاثة أشهر قبض أيضاً على سيرجيو بعد أن عرَّض نفسه على ما يبدو، إلى مخاطر كان في غنى عنها وكأنه لم يعد يكترث لسلامته. ربّما لم يَعُدْ يكترث لأن سوزانا رحلت، فقد بدا أن الزوجين في هذه الأثناء كانا بحاجة ماسة لبعضهما البعض ليواصلا مسيرتهما. قالت معلّقة: «بدا الأمر وكأن الملل قد أصابه».

في أواخر تلك السنة تزوجا في السجن وهما يخضعان للمحاكمة بتهمة القتل المتعمّد. استمرت مراسم الزواج مدة دقيقتين ونصف تماماً، وكان الذي قام بها عضوا في مجلس حركة المرور في فلورنسا. ضحكت وقالت: «أعتقد أنني كنت العروس الوحيدة التي قضت شهر العسل بطريقة معكوسة لأن الطريق بين سجن النساء وسجن الرجال كانت ضيقة بحيث لا تسمح للعربات المصفحة بالإنعطاف بشكل حرف U. معنى هذا أنه كان على السائق أن يعود بسيارته إلى الوراء وأنا جالسة أتشبَّث بباقة الأزهار الصغيرة».

أوحيت لها أنه لم يكن من اللائق بالنسبة لها أن تقوم بمثل هذا العمل البرجوازي، كالزواج. ظهر عليها الإرتباك بعض الشيء لكنها سارعت إلى القول: «كان هناك أمران ـ **الأول** هو أنه في ذلك الحين، أي في عام ١٩٨٣، كان من الصعب جداً أن تتاح لك فرصة اللقاء في السجن مع أي شخص إذا لم يكن هذا الشخص زوجاً لك، والأمر **الثاني** هو أن الزواج كان نوعاً من إعادة التأكيد على علاقتنا التي كان من الممكن ألّا نشعر بالحاجة إليها لو لم نكن في السجن. كان مصدر راحة واطمئنان لنا في عزلتنا في السجن أن نشعر بأننا كنا متزوجين».

أمضت السنة الأولى أو نحو ذلك، من فترة السجن الثانية وهي تفكر بالهرب وتشعر بالغيظ من رفيقاتها في الزنزانات المحاذية. تبين لها أن هؤلاء النسوة اللاتي

ناضلت من أجلهن ومن أجل حريتهن خلال الأشهر العشرة التي قضتها وهي فارَّة، كان همّهن شيئاً واحداً فقط ـ كيف يمكن أن يكون لهنَّ أولاد في السجن. «كنت قلقة بشأن هؤلاء الناس، كيف يمكنني أن أخرجهنّ، وكان هذا كل ما يستطعن التحدث عنه. أنا لا أعترض على أن يكون لهن أولاد، لكنني لم أرِدْ أن يكون لي طفل وشعرت لبعض الوقت أنني كنت غريبة».

نُقِّلت سوزانا لمدة ثلاث سنوات في أنحاء إيطاليا لتخضع للمحاكمة في نابولي وبادوا وتورين وميلان وفلورنسا. قالت مازحة أن المرة الوحيدة التي لم تكن فيها في قاعة المحكمة كانت يوم عيد الميلاد والعطل الرسمية. بعد ذلك راحت تستطلع ببطء التزامها بالكفاح المسلح، وفي ظرف إثني عشر شهراً أعلنت انفصالها. كان وقت أزمة شخصية بالنسبة لامرأة أعطت الكثير من أجل القضية.

«كانت عملية مؤلمة جداً بالنسبة لي، فقد كانت الحياة والنضاليَّة متضافرتين جداً. لم يكن الأمر مجرد اتخاذ قرار بسيط. عانيت الكثير وأنا أحاول أن أفصل نفسي عما فعلت وعما كنت أؤمن به. كنت أشعر أحياناً بشعور مزعج لدرجة لم أكن أتصور أنه كان باستطاعتي أن أصمدَ أكثر من ذلك. اعتقدت أنني سوف أنهار».

«لقد اجْتَزْتُ هذه المرحلة العصيبة الآن إلى حد ما، لكنني لست من أولئك الناس (ويوجد البعض منهم) الذي يقولون: (كنا مجانين. لقد أفقتُ من ذلك الكابوس وأنا أدرك الآن كم كنا جميعاً مجانين). أنا لا أصدق مثل هذا القول ولا أؤمن به. إنني أؤمن أننا كنا جزءاً من مرحلة معينة من مراحل التقدم الحضاري كانت ترى أنه كان علينا أن نبني من جديد هوية سياسية أخرى ومع مرور الوقت كان لا بُدّ للعنف من أن يلعب دوره. كان هناك منطق إذن. أنا لا أقول أن ما فعلناه كان رائعاً، لكنني لا أعتقد أيضاً أنه من الحق أو من الصواب أن نتنكر لكل ما حدث وندَّعي أن الماضي ليس موجوداً. أرى ما مررتُ به عمليَّة نمو ونضج أخرجتني عن طريقة التفكير التي كنت أفكر فيها آنذاك: عن تلك الهوية السياسية الخاصة. لم تكن المسألة أن ما أراه اليوم أسود سيكون في الغد ناصع البياض.

«هناك أمور أتمنى لو أنني لم أفعلها، خاصة تلك الأعمال التي ألحقت الضرر بالناس، والشيء الثاني هو بالطبع أسفي الشديد لعدم تمكني من زيارة والدتي. لكنني لست نادمة لأنني ناضلت وكافحت من أجل مبدأ». أن تفعل هذا، معناه أنها تنكر ذاتها، ومع ذلك فقد ساورها الشعور بالذنب فعلاً: «حيث تأذى الناس. . .» الحاق الأذى والضرر بهم شيء لا أستطيع التحرر منه. لقد سبّبت للناس الكثير الألم والمعاناة: إنني نادمة على ذلك».

سألتها إذا كانت قد خضعت لآية معالجة طبية نفسية. قهقهت وقالت: «أنتِ مجبرة في السجون الإيطالية أن تقابلي عالماً نفسياً من وقت لآخر، لكن المرأة التي كنت أتحدث إليها كانت تعاملني على قدم المساواة. لم تكن تحاول أن تعالجني بطريقة التحليل النفسي وقد وجدتني سويّة تماماً».

أنكرت سوزانا أيضاً أن يكون عنفها الماضي قد خلق حاجزاً بينها وبين النساء الأخريات. كلا لم يكن هناك حرج ولا صعوبة، حسبما قالت. والحقيقة هي أن أقرب صديقاتها إليها كن اللواتي قابَلتْهُنَّ هنا في المركز. «لا أعتقد أنني أختلف عن أي واحدة منهن» هكذا قالت بهدوء.

كانت تلك في الحقيقة مأساتها: كانت تبدو كأي إنسان آخر ومع ذلك لم يكن بمقدورها أن تكون كذلك. رثيت لحالها، وفي الوقت نفسه، أُذكِّر نفسي أنها كانت قد قتلت وجرحت الكثير من الناس. كانت إمرأة ذكية جداً لكنها كانت قد حطّمت حياتها وحياة عدد لا يحصى من الناس الآخرين. لو كان اختيارها بعكس ما فعلت لكان بمقدورها أن تفعل من الخير الكثير. لكن بدا واضحاً أنها لم تكن تريد تلك الشفقة أو ذلك الرثاء.

اقترب موعد وصول سيجيو ليلتقيا معاً لمدة ساعة وبدا أنها ابتدأت تقلق بعض الشيء. هل كانت تتخيَّل وقتاً يكونان فيه معاً خارج السجن يعيشان عيشة هادئة لزوجين تقدما في السن؟ وجدت الفكرة مسليَّة: «يكاد يكون من المستحيل أن يفكر الإنسان وهو في السجن لأبعد من شهر إلى الأمام، فكم بالحري أن يبتعد الإنسان في تفكيره إلى المستقبل. أعني أنه من الصعوبة بمكان أن نجزم بأننا نتورط في أمر ما عندما نخرج، لكنني لا أستطيع القول ماذا يمكن أن يكون ذلك الشيء. أما في هذه اللحظة فالحياة فيها ما يكفي من الصعوبة».

نساء العنف الألمانيات

«عليهن أن يصبحن أفضل من الرجال»

حدث بالصدفة أنني كنت أجري لقاء مع مدير شبكة هامبورغ لجمع الاستخبارات حول النشاطات الأرهابية، عندما وصل بيان من منظمة الجيش الأحمر RAF وهي المجموعة الثورية الألمانية الأكثر شهرة وتخويفاً. ادعى البلاغ المسؤولية عن مقتل الفرد هيرهاوزن المدبّر الرئيسي لبنك ديوتش بانك، وهو واحد من أكثر رجال الأعمال في البلاد قوة، في انفجار قنبلة قبل أسبوع. قرأه كريستيان لوشته مدير مكتب هامبورغ لحماية القانون (وهو الفرع المثيل للمخابرات البريطانية العسكرية M15). تنهد وقال: «الشيء القديم نفسه... العداء للرأسمالية».

سألته ان كان يظن أن أية من النساء يمكن أن تكون متورطة في القتل. نظر إليّ بدهشة وقال: «نعم... بالطبع».

كان من بين الأشخاص الثمانية في الملصقة الخاصة بالارهابيين المطلوبين حالياً، خمس نساء. فريدريك كرابي، التي يبلغ عمرها الآن الواحدة والأربعين، وهي عضو في منظمة الجيش الأحمر RAF منذ عدة سنوات. كانت قد ألقي القبض عليها منذ ١٩٧٧. يُظن أنها تورطت في ثلاث جرائم قتل على الأقل، بما في ذلك قتل هانز مارتن شلاير، وهو صاحب مصنع اختطف وبقي رهينة لمدة ثلاثة وأربعين يوماً قبل أن يُقتل. وللسيدة كرابي ابتسامة تشبه ابتسامة الموناليزا في صورتها في ملصقة الاعلان عن مطلوبيتها. ويعتقد أنها تعيش اليوم في العراق أو لبنان.

وتليها صورة باربارا مير، وهي واحدة من صميم منظمة RAF الصلب، ومتزوجة من عضو آخر في المنظمة ـ هورست مير ـ الذي تظهر صورته بعد صورتها

مباشرة. قامت هذه السيدة بأول عمل من منظمة RAF في عام ١٩٧٤، عندما تورطت في قتل القاضي الأوَّل في برلين. كان عمرها تسعة عشر عاماً ووصفوها وقتها أن لها وجه ملاك. وبعد أحد عشر عاماً أطلقت النار مع شريك لها رجل، على صاحب مصنع فأردياه قتيلاً. نصبت السيدة مير للضحيَّة شركاً باستدراجه إلى الباب الأمامي لبيته بادعائها أنها تحمل له رسالة تحتاج توقيعه عليها.

وفي الصف العلوي من الملصق صورة أندريا كلومب التي يُشتبه أنها قادت جندياً أميركياً شاباً الى حتفه في ١٩٨٥ بغية الحصول على بطاقة هويته. وظُن فيما بعد أن البطاقة استخدمت من قبل فدائي من منظمة RAF كي يتسنى له الوصول الى قاعدة عسكرية أميركية، حيث انفجرت قنبلة وقتلت اثنين وجرحت ستة عشر شخصاً. وفي عام ١٩٨٨ اشتركت السيدة كلومب في تبادل اطلاق نار مع الشرطة الاسبانية بعد أن تركت - بالاشتراك مع رجلين - قنبلة (تحوي أحد عشر رطلاً من المسامير الحديدية) في ناد ليلي يتردد عليه جنود أميركيون. كانت تبدو أكثر أعضاء RAF برودة أعصاب عندما صارت تحت مرمى النار. كما اختطفت عربة تخييم لشخصين انكليزيين، وأخذتهما رهينتين، وضمنت بذلك هروبها مع رفاقها.

ويحتمل أن يكون جميع هؤلاء الأشخاص - كما يحذِّرنا الملصق - مسلَّحين ووضعت مكافأة مالية تبلغ ٥٠ ألف مارك ألماني عن كل منهم.

* * *

هناك الكثيرات من النساء اللواتي اخترن العنف الثوري طريقاً في المانيا، بحيث أصبح المرء يتوق حقاً الى اختبار عدد قليل منهن للتركيز عليه. تشكل النسوة حالياً حوالي ٥٠ بالمئة من أعضاء RAF وحوالي ٨٠ بالمئة من مؤيديها. وبالعادة يدخل الفدائيون الجدد من مجموعة المؤيدين، لذلك تكون امكانية هيمنة النساء على RAF في المستقبل أكبر.

ولا تكثر النساء بين صفوف منظمة RAF وحسب، بل انهن يمثلن دوراً هاماً في «الخلايا الثورية». وفي الآونة الأخيرة كانت توجد مجموعة تسمى «زورا الحمراء»، وكانت مقتصرة تقريباً على النساء، وقد قمن بنسف أهداف من أشخاص يتميزون بالتفرقة بين الجنسين. كما أصبحت النساء أيضاً أعضاء في مجموعات الفاشية الجديدة: ففي ١٩٨٠ حكم على شابة بالسجن المؤبد لقتلها شخصين فيتناميين كانا في قارب.

لماذا يجب أن تُجرَّ النساء الألمانيات - بشكل خاص - إلى قضايا تؤمن بالعنف؟ هل

هي جزء من الروح القومية؟ أم أن هناك الكثير من الأشياء التي تغضبهن؟

لقد عزا رئيس فرقة مكافحة الارهاب في البلاد، وهو الرجل الأشيب ذو اللحية الصغيرة سبب ذلك إلى الدرجة المتقدمة من تحرير المرأة بين بنات وطنه. «ان النساء الألمانيات أكثر تحرراً وأكثر وعياً من النسوة الايطاليات أو الفرنسيات. لا تزال الفرنسيات يرسمن للمرأة صورة الأم. ويستطيع المرء القول أن تحرير النساء ليس متقدماً في فرنسا وايطاليا كما هو من ألمانيا. وهذا هو سبب وجود عدد أقل من الفدائيات في هذين البلدين».

لقد رمت النساء الألمانيات عنهن قيود المرأة التقليدية في المجتمع وأدركن أنه ليس هناك من سبب يمنعهن من أن يصبحن عنيفات. . لقد كن يسبقن بعدة خطوات نساء منظمة ETA مثلاً، اللواتي لم يمضِ زمن بعيد على «خروجهن إلى الشارع».

وهناك رجل آخر، وهو قائد سابق لمجموعة ثورية المانية أخرى، كان يعتقد جاداً أن نساء بلاده قد تأثرت بمنظمة SCUM (جمعية تمزيق الرجال). وهذه المنظمة هي فكرة الامرأة الاميركية التي أطلقت النار على أندي ورهول. . في دوائر الفدائيين الالمانية في أواخر الستينات كانت الفكرة رائجة جداً خصوصاً بين النساء. وكانت النظرية تقول لأن الرجال خلقوا مشاكل العالم، فانهم يجب أن يُقتلوا. وقد تذكّر ميشيل بومي بومان ردة فعل زميلاته الاناث على فكرة SCUM. قلن أن اليسار كان سيئاً كاليمين في استغلال النساء. وظنت الكثيرات منهن أن SCUM كانت فكرة جيدة. وقلن عنها: «بالتأكيد دعونا نفعلها. نعم ان ذلك معقول. هيا بنا. اقطعن قضبانهم».

لكن ليس هناك أي ذكر للرجال الخصيان المبعثرين هنا وهناك في مدن المانيا. كانت فكرة الخصي مجازية: كانت النسوة تبغين انتزاع أعنة التحكم بالحركة الثورية من قبضة الرجال. وهذه نجحوا في القيام بها.

واقترحت استريد برول، وهي عضو قديم في عصابة بادر ـ ماينهوف (الاسم الأصلي لمنظمة الجيش الأحمر) والصحفية الان، سبباً آخر لهيمنة النساء على المنظمات الالمانية. لقد كانت مرة تزور معرضاً للصور الفوتوغرافية للغستابو حيث رأت كثيراً من الأمثلة عن رجال يرتدون بزات عسكرية ولم تر أية نساء. قالت: «ذلك هو أحد الأسباب التي دعت كثيرات من النسوة إلى الانضمام إلى RAF». واقتنعت النسوة الثوريات الألمانيات أنهن لو كان لهن صوت في أيام هتلر لما حدثت الكثير من الأعمال الفدائية، فقد استثنيت أمهاتهن من الجيش، لكنهن قررن أن يكون لهن دور عسكري في الاطاحة بالدولة الألمانية.

ولم يبدُ أن اقتراح استريد برول يدل على أنّ النساء الألمانيات لديهن ما يغضبهن أكثر من هذا، وان غضبهن هذا قد يكون جزءاً في شعور بعقدة الذنب الوطني. لقد بدت أقرب إلى الحقيقة منها للوهم ظاهرة زيادة الدعوة للمساواة بين المرأة والرجل.

ومهما كانت الأسباب فان احدى نتائج ازدياد أعداد النساء الثوريات هو أنه لا يجرؤ أحد في ألمانيا أن يعبر عن دهشته عندما تساهم امرأة، أو عدة نساء، من عمل ارهابي. وينعكس، هذا في جرائد البلاد، التي - بشكل عام - لا تبتهج في وصف «فتيات البندقية»، ولا تسأل «كيف تستطيع امرأة أن تفعل هذا؟» انه عمل عادي جداً لا يعطي له الصحافيون أهمية كبرى.

وعلق رئيس فرقة مكافحة الارهاب: «أظن أن الطريقة التي تعامل بها الصحافة البريطانية هجمات مشابهة، تتحدث عن موقف مجتمعكم من النساء أكثر من أي شيء آخر».

وقد يكون على صواب، لكن يجب الاشارة إلى أن الصحافيين الألمان قد ملوا من الهتاف للنساء الثوريات. هناك المزيد الذي تستطيع الصحافة الألمانية أن تقوله حول هذا الموضوع.

وبالعودة لأوائل السبعينات، في الأيام التي كانت بادر - ماينهوف في ذروة مجدها، كانت هناك عناوين رئيسية في جرائد تتساءل، كيف تستطيع امرأة فعل هذا؟ والأكثر غرابة هو حقيقة من كانت ماينهوف: صحافية اجتماعية واسم في عالم الأسرة. هجرت ابنتيها التوأمتين لتعيش حياة خارجة على القانون. كانت بالنسبة للشرطة والصحافة تعتبر القائد المشترك للمجموعة. وفي الواقع كانت حياتها كلها بؤس واضطراب.

ومثلها مثل الثورية الايطالية سوزانا رونكوني، كانت أولريك، ماينهوف تتوق إلى الحب والروح الرفاقية والدعم العاطفي من رفاقها لكن هذه الخصائص كانت تنقص المجموعة بشكل كبير. أما اندرياس بادر، وهو متعصب قومي وسخ، فقد كان يدعو كل النساء «فُروجاً» وكان يبدو أنه يكره ماينهوف بشكل خاص. وكان يصرخ في وجهها ويشتمها مقلِّلاً في شأنها بسبب عدم براعتها الفنِّية، وكان يدينها «بالتعقل الزائد» فبدلاً من كونها قائداً فقد كانت ماينهوف كبش الفداء.

لم يكن قرارها الانضمام إلى الثوريين نابعاً من حبِّها واحترامها لبادر كما أنه لم يكن نتيجة لوجهة نظر مؤيدة جداً للمساواة بين الرجل والمرأة. وقبل ذلك بسنتين كانت

قد أجرت لقاء مع صديقة بادر، وهي غودرون انسلين التي كانت تقضي حكماً بالسجن لاحراقها بعض المخازن الكبيرة. لقد تأثرت كثيراً بالمرأة الشابة التي بدت تشاركها آراءها السياسية حول فساد المجتمع، ولكنها كانت تختلف معها بأنها فعلت شيئاً بهذا الخصوص.

كانت طفولتها ومراهقتها مضطربتين. توفي والدها عندما كانت في السادسة، وقامت والدتها بتربيتها مع أختها الأكبر سناً، هذه الأم التي توفيت أيضاً عندما كانت أولريك في الخامسة عشرة، فأصبحت امرأة صديقة، كانت قد عاشت مع العائلة لعدة سنوات، أمّا بديلاً لها، وفيما بعد صديقة حميمة.

درست أولريك التربية وعلم النفس في الجامعة، وفي هذا المكان انخرطت في السياسة. كانت آراؤها حول الظلم الاجتماعي والقضايا النووية متصلة بعمق مع ايمانها بعقيدتها المسيحية. وكانت تُعرف في الجامعة بأنها كانت تردد صلاة المائدة قبل الوجبات في قاعة الطعام. وقد انتُخبت ناطقة باسم فرع الطلاب من الحزب الديمقراطي الاجتماعي. كان جميع من عرفوها في ذلك الوقت يشعرون أن مستقبلاً باهراً في السياسة ينتظرها. لكن أول عمل لها كان مع مجلة أدبية للجناح اليساري أسمها «كونكريت»، وفي هذا المكان قابلت زوجها ـ الذي كان أحد المحررين. أصبحت محررة دائمة لأحد أعمدة المجلة، كما أصبحت مشهورة في عالم الصحافة. وأصبح من الشائع اجتماعياً أن تدعوَ أولريك كضيفة الى حفلتك. وبعد إجراء المقابلة مع (غودرون أنسلن) أصبحت متعاطفة مع قضية المرأة الشابة ومن خلالها التقت مع أندرياس بادر. وعلى الرغم من أنها كانت تتوق جزئياً للانضمام اليهن، فقد كانت أماً لتوأمتين في السابعة من العمر. وهو شيء يجب أخذه بعين الإعتبار. لكنها أخيراً حسمت أمرها بعد المساعدة في تحرير بادر من السجن، وهو هروب خططت له وقادته غودرون.

لقد وُصفت غودرون مرة أنها روح مجموعة بادر ما ينهوف. وأولريك رأسها وبادر محركها. كانت امرأة شابة ذات معتقدات ثابتة عميقة. كانت مصدر الهام للآخرين. قال بومي بومان التي كانت يعرفها ويودُّها: «إنك لن ترفض طلباً لغودرون».

كانت ابنة قسيس، وكانت خلال طفولتها ومراهقتها ـ مثلها مثل أولريك ـ مَسيحية ملتزمة، وقد داومت على قراءة النشرة البروتستانية، «كنَّ متسلحات لليوم الأخير» لنادي البنات حتى أصبحت في الثانية والعشرين.

وفي الجامعة، حيث درست النظرية التربوية واللغتين الألمانية والانكليزية، قابلت زميلاً لها وخطبت له، كانت نشيطة جداً في الجناح الطّلابي اليساري في السياسة، وعندما انجبت طفلاً من خطيبها، كانت تأخذ الطفل معها إلى المظاهرات وفي أواسط الستينات، ذهبت الى برلين كي تحضّر لشهادة جديدة. وهناك قابلت أندرياس بادر، وحتى هذه المرحلة ـ وبالرغم أنها كانت تعرف أنها واحدة من أكثر الطلاب الراديكاليين فهما سياسياً ـ فأنها لم تتورط في أي عمل من أعمال العنف. وبعد ذلك بفترة قصيرة هجرت ابنها أيضاً وكان عمره عندئذ أحد عشر شهراً وانصرفت مع بادر.

أصبح هذان الاثنان متلازمين لا ينفصلان. وكانت مبتهجة في التزامه وتوقه لأعمال العنف، وكان معجباً بتفهمها العميق للسياسة.

يبدو أن بادر لم يكن شخصية دمثة، حسب كثير من الروايات، وبدون خبرة، ويهتم قليلاً بالأفكار الثورية ويعنى بالنقاش أكثر بكثير. توفي والده عندما كان يتعلم المشي، فتعهدته بالرعاية والدته وخالته وجدته اللواتي أفسدنه بالدلال. بدأ يتمرد في سن مبكرة، كما أنه طرد من عدة مدارس حيث كانوا يعتبرونه ذكياً لكن كسولاً. كان قد قضى فترات سجن في الوقت لذي قابل فيه غودرون في برلين. كان يبدو أنه يسر بسرد الحكايات وأن يصبح مركز الاهتمام. وفي بعض الأحيان كان يُمتع مستمعيه بحكاية ماضيه المشرق: كيف انحدر من بادر المشهور، الذي كان فيلسوفاً، وكيف أنه هو نفسه قد تحدى الفلاسفة العالميين عندما كان صبياً في السادسة عشرة. وفي مناسبات أخرى كان يتباهى بأنه كان لصاً خبيراً وسارق سيارات. كان يستعمل مساحيق التجميل والعطور ويُسَرُّ في غواية اللواطيين، لا لشيء إلا كي يهاجمهم بعنف عندما يبدون اهتماماً في هذا الأمر. كان يحب بشكل خاص مفاجأة الناس. كان شعاره: «لا تجادل... دَمّر...».

وعلى الرغم من أن بادر كان يدعو غودرون «بالفرج» ككل النساء، فقد كانت تناديه «بالطفل». وعندما كان يهاجم رفاقه (كما كان يفعل عادة حتى يخرج الزبد من فمه) كانت غودرون مستعدة لتسوية الفوضى التي حدثت.

كان يبدو أن لديها القليل من التعاطف مع بادر، والقليل من الوقت من أجله، وانضمت الى بادر في التهكم على الصحافيين أمام الرفاق الآخرين. وعندما تحدثت أولريك عن قلقها بشأن ابنتيها اللتين هجرتهما وهما في سن العاشرة، كانت غودرون تخبر بمرح كيف أنها هي أيضاً قد هجرت طفلاً. وفيما بعد دبرت غودرون أمرا أخذ توأمتي ماينهوف الى مخيم لميتم فلسطيني في الأردن. ويبدو أن أولريك وافقت على هذا القرار، لكن والد التوأمتين استطاع أن ينقذهما وهما في الطريق الى هناك.

ومهما كانت درجة الازعاج والبورجوازية التي كانت غودرون وبادر قد وجدا أولريك فيها فقد كان شيئاً ممتازاً للدعاية أن يكون بين صفوفهم امرأة ذات اسم معروف.

كان يدور في فلك هؤلاء الثلاثة في أوقات مختلفة بين العشرين والثلاثين شخصاً، نصفهم على الأقل من النساء. وعندما اعتقل بادر خططت غودرون والنساء الأخريات التابعات أمر هروبه من السجن ونفذن ذلك. وقد أشركت غودرون رجلاً واحداً من فريق الانقاذ لكنه لسوء الحظ ذعر وأطلق النار على أحد حراس السجن. وعندما حُرِّر بادر يبدو أنه لم يوجه أيه تهان أو شكر للنساء، لكنه ربت على كتف من أطلق النار.

بشَّر تحرير بادر في أيار (مايو) ١٩٧٠ بمولد مجموعة بادر ـ ماينهوف، التي كان هدفها المطلق هو القيام بثورة عالمية والإطاحة بالرأسمالية والاستعاضة عنها بمجتمع ماركسي. كانت القواعد الأميركية في المانيا بشكل خاص تختار أهدافاً أحتجاجاً على الحرب الفيتنامية، وكان الشرطة والقضاة يُحَاورون لأنهم دعامة مجتمع استهلاكي عفن. كذلك أراد الأعضاء أن يفضحوا المانيا الغربية على أنها دولة لا تزال تحكمها النازية، لاعتقادهم أن الكثيرين ممن في السلطة كانوا أعضاء سابقين في الحزب النازي. كان شعار المجموعة، أو بالحري أحد شعاراتها: «أن تدمر الشيء الذي يدمِّرك».ـ في الأشهر الأثني عشر الأولى كانوا ينفذون سرقات بنوك، وسرقات سيارات، ويقتحمون المباني الحكومية للحصول على وثائق مزورة. كان للمجموعة ولع خاص بسيارة «بي أم دبليو»، ومع مرور الزمن صارت هذه السيارة تعرف «بسيارة بادر ماينهوف» وكان أحسن سائقيهم استريدبرول، التي هربت فيما بعد الى انكترا واعتقلت هناك. كان الكثير من الجرائم ينفذ من قبل نساء. وفي أوائل السبعينات كان الشرطة دائماً يعلمون متى تنفذ حملة على بنك من قبل بادر ماينهوف لأن الشهود كانوا يُخبرون أن بعض اللصوص كانوا نساءً. وبدا أن غودرون كانت آمين صندوق المجموعة ومحاسبها، لكن أولريك كانت تجد الشقق للرفاق، معتمدة بشكل كبير على حلقتها من الأصدقاء والمعارف.

وكلما ازدادت معرفتي بمجموعة بادر ـ ماينهوف، كلما بدا لي أن النساء كن اللاعبات الرئيسيات. وقد سألت بومي بومان الذي كان يعرف أكثرهن أن كانت هذه هي الحال. كشر بأسف وقال: «في الواقع كانت نساء RAF يستطعن أن يقمن بالعمل بمفردهن، لكن الكثيرات منهن كن قد دخلن أزواجاً عندما انضمين».

في البدء تمتعت المجموعة بدعم كبير من قبل سلسلة عريضة من الأشخاص «كان المجتمع الألماني عندئذ متجمداً بالكامل». أوضح بومي بومان.

«أنظر الى الناس الذين اعتقلوا بسبب أعطاتنا المخبأ وأعطائنا الشقق. كان البعض منهم أصحاب مهن محترمين جداً، رأسماليين. وكان من المحتمل أن يعطينا الهرهاوزن ـ الذي قتل من قبل هذا الجيل من RAF ـ هبة. كان الكثير من الناس متورطين، حتى البورجوازيين. كان الجميع يشعرون كما نشعر: أن شيئاً ما يجب أن يتغير. كان ينظر الى كل فرد من أفراد المجموعة أنه روبن هود حديث. وكما قالت استريد برول مرة: «عليكم أن تتذكروا أننا عاملون اجتماعيون مسلَحون تسليحاً جيداً».

لكن في السنة الثانية من وجودها، تغيرت أعمال المجموعة وهجرها كثير من مؤيديها. فقد شنَّت بادر ـ ماينهوف حملة تفجير بالقنابل قتل فيها أربعة جنود أميركيين وجرح أكثر من أربعين، من بينهم مدنيون. وتلاشى تعاطف الناس معها، وبعد مداهمات كبيرة من قبل الشرطة اعتقل معظم أفراد المجموعة الأكثر نشاطاً.

لم تكن تلك نهاية المجموعة أبداً. فقد تابعوا تنظيم رفاقهم من داخل السجون، عن طريق مكاتب المحامين المتعاطفين معهم. وبعد ذلك ولد الجيل الثاني من RAF وهم شباب جاءوا في معظمهم من مجموعة اسمها «المساعدة الحمراء» كانت قد انشئت للإحتجاج على الظروف التي كان يحتجز السجناء فيها.

ومن جديد لعبت النساء دوراً هاماً. فقد زُعم أن انجي ڤيبت التي كان عليها الاستمرار كي تصبح واحدة من الأعلام الرئيسية في المجموعة شاركت في مقتل قاضي برلين في ١٩٧٤ بالاشتراك مع باربارا ميير وامرأة أخرى. كانت السيدة ڤيبت قد دربت في حروب العصابات في الشرق الأوسط. وعندما القي القبض عليها في ١٩٧٥ لم يكن لديها النية في أن تبقى في السجن لتعاني من مرارته، فقد هربت ومعها ثلاث نساء أخريات بعد أن قمن بنشر قضبان السجن، ولجأت الى فرنسا. ويظهر أنها انتهزن فرصة وجودها هناك للمساعدة على إعادة تنشيط مجموعة ثورية فرنسية: أكسيون ديركت (العمل المباشر). وهذه المجموعة رسمت خطة فيما بعد لهجوم مشترك مع RAF. وقد اختاروا لهم حلف الناتو هدفاً رئيسياً.

تابعت بعض النساء الأخريات النضال من أجل السجناء في غيابها. وفي اليوم المفترض لبدء محاكمة مجموعة بادر ـ ما ينهوف، هاجم ستة أشخاص السفارة الألمانية في ستوكهولم مطالبين باطلاق سراح المعتقلين. وقد قامت هانا اليز كرابى، وهي الأخت الكبرى لفريدريك بحراسة الرهائن بمسدس رشاش صغير بينما كان زميلها يزرع المتفجرات. قتل في العملية أربعة أشخاص، اثنان منهم من الأرهابيين وعاد الشرطة للاستيلاء على المبنى من جديد.

تمت المحاكمة، وكان جميع السجناء قد وضعوا معاً في طابق واحد من سجن ستامهايم بجوار المحكمة. واندلعت بينهم خلافات وجدت ما ينهوف نفسها في عزلة متزايدة بينهم، كما أنها تعرضت للتوبيخ العلني من قبل غودرون وبادر. وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير عندما أخبرت غودرون المحكمة بأن RAF غير مسؤولة عن احدى الهجمات بالقنابل على دار للنشر جرح خلالها سبعة عشر عاملاً. كانت أولريك هي العقل المدبّر لهذه الحادثة، وبعد أربعة أيام وجدت مشنوقة في زنزانتها.

لم تكن منظمة RAF الجديدة تعلم أي شيء عن هذا الشجار الذي جرى في السجن، لم يكن موت ماينهوف بالنسبة لهم انتحاراً بل جريمة اقترفت بمعرفة السلطات. وانتقاماً لذلك اغتالوا المدَّعي العام الفيدرالي.

لم تزد الأحكام بالسجن المؤبد على الناس الذين كانوا يعتبرون المثل الأعلى - فدائيّ منظمة RAF الجديدة - الا تصميماً على تحرير رفاقهم. فقد قرروا اختطاف رجل أعمال بارز والاحتفاظ به رهينة. وكان من بين المرشحين على قائمة الاختطاف رئيس بنك درسدنر لا لسبب سوى أن احدى الفدائيات كانت على علاقات عائلية قوية معه. فقد كانت سوزان البرشت تعرف عائلة الرجل بونتو منذ سنوات. وفي الواقع كان جورجن بونتو عرَّاب اختها في المعمودية وكان والدا البرشت أصدقاء قدامى لرئيس البنك هذا وعائلته، كما كان «أنكل جورجن» كما كانت تدعوه سوزان. وكم من مرة قضت الليل عندهم. كانت سوزان قد بقيت لسنوات تسبب القلق لوالديها لأنها تركت الجامعة بعد لقائها مع شاب كان عضواً من احدى خلايا RAF. وكان قد قدَّمها لمجموعة RAF. وعندما اقترحوا اسم بونتو للاختطاف، أصبحت أكثر أعضاء المجموعة أهمية. تقرر أن تعود لوالديها لتنظيم أمر زيارة لبونتو وعائلته.

كانت العودة بالنسبة للهر البرشت - وهو المحامي المتخصص في التجارة البحريّة - تعتبر عودة **«الابن الضال»**. بدت سوزان شخصية مقوَّمة، فقد كانت مرحة هادئة - وكما ذكرت والدتها فيما بعد - تسر كثيراً بالجلوس لتشتغل الصوف في الأمسيات. وبعد عدة أيام من عودتها، ذكرت أنها ترغب في اكمال دراستها التي كانت قد انقطعت عنها - في فرانكفورات، حيث تسكن عائلة بونتو. وأخبرت والديها أنهَّ توجد هناك مدرسة لغات ممتازة ترغب بالالتحاق بها. ولم يُبدِ والداها سوى السرور الكبير لذلك، فقاما بزيارة بونتو بالنيابة عنها، لتدبير أمر اللقاء معه.

وفي اليوم المعينَّ كان جورجن بونتو وزوجته جالسين على المصطبة المشمسة عندما رن جرس الباب. وجاء صوت في الأنتركوم (جهاز الاتصال الداخلي): «أنا سوزان».

كانت قد جلبت معها صديقين، شاب وفتاة، قدّما الى بونتو باقة أزهار. تركهم يتحدثون الى زوجته وذهب كي يحضر مزهرية. تبعه الشاب واستل مسدساً فجأة، وصوَّبه نحوه. تعارك الرجلان لكن النار انطلقت من المسدس مما جعل صديقها يعود راكضاً الى الغرفة. فأطلقت سوزان على بونتو خمس رصاصات استقّرت ثلاث منها في رأسه، ومات في تلك الليلة.

وجاء في البلاغ الذي يدّعي المسؤولية عن موته: «... لم نكن ندرك بوضوح كاف كيف كان هؤلاء الأشخاص الذي يطلقون الحروب في العالم الثالث ويمسحون أمماً بكاملها، يمُسون بلا حول ولا قوة من وجه العنف الذي يواجههم في منازلهم». وكان البلاغ يحمل توقيع «سوزان ألبرشت... فدائية من RAF».

أثار هذا العمل حنقاً شديداً بشكل خاص. لقد بدا عملاً يتجاوز حدود اللياقة الانسانية أن تستطيع أمرأة كانت في الواقع من أقارب أحد الأهداف استخدام تلك القرابة للتمكن من الدخول إلى بيته بعد أن أحضرت معها القتلة.

ومهما تعددت عناوين الصحف الرئيسية التي أثارها مقتل بونتو تبقى الحقيقة أن العمل كان فاشلاً.

كان الجيل الجديد في منظمة RAF، والذي كانت نواته خمسة رجال وخمس نساء يحتاج إلى اختطاف شخص مرموق. كان الهدف لثاني الذي اختاروه هو الدكتور هانز ـ مارتن شلاير رئيس جمعية أرباب العمل ورئيس اتحاد الصناعة الألمانية. كان هدفاً صعب المنال، لأنه كان يعلم أنه على قائمة الاختطاف، وكان له بطانة من الحراس الشخصيين. لكنه اقتيد الى العمل اقتياداً. فقد وضعت امرأة شابة عربة طفل أمام سيارته، فضغط السائق على الفرامل بعنف. أطلق الأعضاء الاخرون في منظمة RAF الفدائية النار على الحراس. سحبوا شلاير الى عربة منتظرة، وبقي رهينة مدة ثلاثة واربعين يوماً ثم قُتل.

في وقت مبكر من صباح اليوم نفسه، وُجدت جثة غودرون أنسلين وأندرياس بادر وفرد آخر من مجموعة بادر ـ ما ينهوف في زنزاناتهم. كان هناك اعتقاد أنهم قد قُتلوا، لكن الاحتمال الأقوى أنهم قتلوا أنفسهم كجزء من اتفاقية انتحار.

نفذ خلفاؤهم واحداً وعشرين عملاً هاماً، منها تفجير قنابل واغتيالات، وكانوا، كما قال رئيس فرقة مكافحة الارهاب الألمانية «أكثر المنظمات تنظيماً وارهاباً في أوروبا الغربية». لقد تعلّم الجيل الحالي من RAF وهو الخامس، من أخطاء أسلافه

فهو يقضي أشهراً كثيرة للتخطيط لهجوم ما. وفي حزيران (يونيو) ١٩٩٠ كان أحد الفدائيين قاب قوسين أو أدنى من قتل رئيس قوة الشرطة الفدرالية. وفي نيسان (ابريل) ١٩٩١، نجحت المجموعة في اغتيال رئيس الوكالة المسؤولة عن العودة عن تأميم المؤسسات الحكومية في المانيا الشرقية.

ولا تعرف السلطات في المانيا ان كان هؤلاء الأشخاص الموجودون على لائحة المطوبين لا يزالون يقومون بمثل تلك الهجمات، أو أن هناك الآن شبكة جديدة لمنظمة RAF لاتعرف هوية أشخاصها بعد. لكن المعروف الآن هو أن «النواة الصلبة» يبلغ تعدادها عشرة أشخاص أو عشرون، ويُعتقد اعتقاداً راسخاً أن نصفهم على الأقل من النساء.

* * *

أن اسم استريد برول مشهور جداً في بريطانيا لأنها عاشت لاجئة في لندن لمدة أربع سنوات قبل أن تعتقل. وعندما انكشفت أخيراً كانت عدو الشعب الأول، كانت مطلوبة في ألمانيا بتهمة محاولة قتل شرطيين. أخلي طابق خاص في سجن بريكستون لأجلها، وكانت نوبات من الحرس تتغير بانتظام لضمان أقصى حد من الأمان، وأثناء جلسات المحاكمة كان رماة مهرة خاصّون يحيطون بالمباني والشوارع، وأخيراً سُملّت إلى المانيا لكن التهم أسقطت عنها.

في ١٩٨٧، بعد أن أصبحت امرأة حرة في المانيا لعدة سنوات تقدمت بطلب إلى مكتب وزارة الداخلية للسماح لها بزيارة بريطانيا، ورفضت ثلاث مرات. كانت السلطات تعتبر أن ماضيها جعلها لا تزال امرأة خطيرة بحيث لا يمكن السماح لها بالدخول. لكنها أخيراً كسبت القضية بالاستئناف. وهي الآن حرة في زيارة الأصدقاء، لكن لم يسمح لها أبداً بدخول الولايات المتحدة لترى والدتها.

لكن أسطورة الامرأة الارهابية لا تزال لاصقة بها، ومن المحتمل أن تبقى كذلك. ولم يكن ليغيرَّ في الأمر شيئاً ظهور الحقيقة بأن تهم محاولة القتل قد اسقطت عنها من قبل المحاكم الألمانية بعد اكتشاف أن الشرطيين قد لفقا الشهادة ضدها. وطالما أن الصحافة البريطانية قد لقبتها «بفتاة البندقية» فأنها ستبقى دوماً «فتاة البندقية».

وهي في الواقع لم تفعل الكثير. لقد كانت عضواً في مجموعة بادر ـ ما ينهوف لمدة سنة. كان ذلك في السنة الأولى عندما كانوا يقودون سيارات سريعة ويسطون على البنوك، عندما كانوا أبطالاً شعبيين. فقد اعتقلت قبل أن يُصعَّد العنف إلى التفجير والاغتيال. ومع ذلك فإن سنتها مع المجموعة فعلت أكثر من أن جعلتها رديئة السمعة وشخصاً غير مرغوب فيه، لقد تركت فيها ندوباً عاطفية.

عندما قابلتها للمرة الأولى في المكتب حيث تعمل كمحررة تصوير لمجلة في هامبورغ، كانت جذابة وقالت أنه ليس هناك «من مانع للتحدث في الموضوع». كان اللقاء قصيراً سريعاً ومضغوطاً في فترة ساعة الغداء المحدّدة. لكنها قالت ليس لديها أي اعتراض على عودتي للتحدث اليها ثانية. فحددنا يوماً ووقتاً، لكن بين هذين اللقائين قتلت RAF الهرهاوزن. لقد أثر ذلك فيها. كانت قد ظنت أن منظمة RAF قد انحلت (لأنه لم تحدث أية هجمات كبيرة لمدة ثلاث سنوات) لكنها كانت لا تزال موافقة على زيارتي. لكن عندما وصلت إلى هامبورغ واتصلت بها، كانت قد غيَّرت رأيها. صَرَخَتْ: «أن اسئلتك تخنقني... لا أستطيع التحدث في الموضوع».

أخبرني بومي بومان، وهو واحد من أقرب أصدقائها كان قد قضى فترتين في السجن لنشاطات ارهابية (صنع قنابل)، أنها قد حزنت كثيراً لموت هيرهاوزن بحيث أنها قررت ألا تتحدث عن ماضيها أبداً، وزوَّدني بعض المعلومات عنها.

كانت في التاسعة عشرة عندما قابلت غودرون وبادر في برلين في أواخر الستينات. كانت تدرس التصوير الفوتوغرافي، لكن معظم وقتها كان يضيع في المشاركة في حركات الإحتجاج التي نشأت في أميركا ثم انتشرت عبر جميع أنحاء أوروبا.

كانت الاحتجاجات في معظمها حول الحرب الفيتنامية، والقنبلة الذرية، وفي المانيا الغربية لوجود القوات الأميركية. كانت برلين احدى مراكز المانيا للتظاهرات والمجادلات. فقد كان في المدينة عدد كبير من الطلاب والراديكاليين الذين كانوا يستطيعون أن يعيشوا بكلفة رخيصة في الأعداد الهائلة من المباني الضخمة، والتي كان الكثير منها بحاجة إلى تصليحات منذ الحرب. كانت هناك عدة فئات صغيرة، وكانت المخدّرات تستهلك، وكان أولئك الذين يرغبون في فعل ذلك يستطيعون الاستمتاع بطراز الحياة البوهيمية.

كانت استريد برول شابة ملتزمة، وكثيراً ما كانت تُرى في المظاهرات. كذلك كانت منخرطة في مجموعة احتجاجات جديدة: حقوق النساء. عاشت في مجموعة مقتصرة على النساء في برلين مع امرأتين أخريين. كانتا مثلها وانضمتا فيما بعد إلى الوجوه للموجودة على لوحة النساء المطلوبات. كانت الثلاث جزءاً من تنظيم نسائي نشأ في برلين في ذلك الوقت، دعين أنفسهن باسم «العمّات النمرات السوداوات المقاتلات»، دون أن يخلو ذلك من بعض الدعابة. وتطورت استريد من المطالبة بالمساواة مع الرجال الى العنف الثوري بطريقة مشابهة لطريقة تطور سوزانا رونكوني.

وحسب أقوال بومي بومان كانت هذه «العمّات» مجموعة من الفتيات المرعبات.

«كن ينطلقن، يسرقن كالمجانين، يسرقن من أجل السرقة». ولم يكن لديهن اهتمام بالأشياء التي يأخذنها، وما كن ليتحتفظن بها. لقد كنَّ خليطاً من ثوريات أليفات. كما كن يتناولن كثيراً من مادة LSD[1] أيضاً. كن يتجولن قائلات أنهن لا يمتلكن أية ممتلكات، وحتى ثيابهن لمن تكن ملكهن.

«أننا نملك الحشيشة فقط. واذا حضر الشرطة، عندئذ نصبح عنيفات».

وأضافت أن حقوق النساء كانت تعامل بجدية كبيرة في تلك الأيام. وكان الفدائيون الرجال، الذي كانوا مهتمين بمنظمة SCUM يكنون لرفيقاتهم الاناث احتراماً عميقاً. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك الكثير من الأشياء التي تتمكن النساء من القيام بها بينما لا يتمكن الرجال مثلهن. «تستطيع النساء الاقتراب من الهدف أكثر من الرجل. فاذا اقتربت امرأة من رجل ذي مقام عالٍ ـ ربما كان يعرف أنه هدف للارهابيين ـ قد يظن أنها «مومس». تستطيع النسوة أن تذهبن مباشرة إلى عتبة الباب وأحياناً يفعلن ذلك مَثنى ـ امرأتان معاً ـ قائلات أنهن قد ضللن الطريق. أما إذا اقترب منه رجلان فقد يرتاب في الأمر.

كان بومي قائداً لمجموعة ثورية تعرف باسم: «حركة الثاني من حزيران (يونيو)» كانت منظمة بادر ـ ما ينهوف قد فاقتها في الأهمية بالرغم من أنها كانت مسؤولة عن عدد من الجرائم والهجمات.

وقد وصف كيف كانت برلين ـ في ذلك الوقت «قدراً ينصهر فيه» الغضب الثوري والأفكار النابعة في بارات معينة في المدينة. وفي واحد في هذه البارات كان بومي قد قابل غودرون وبادر. لقد تأثر بالشابة أكثر لكنه اعتبر بادر رعباً. كان عدائياً وقحاً، وليس عقلانياً جداً. كان يتبجح طوال اليوم. وطبعاً كانت غودرون تقدره، ولكن من العجيب أيضاً أن استريد كانت تكن له المودَّة أيضاً.

وانضمت أيضاً بضعة نساء أخريات، ممن كن ملتزمات بالمطالبة بالمساواة مع الرجل ـ إلى مجموعة بادر. كيف كانت ستتصرف واحدتهن عندما كانت تُنادى بـ «الفرج».

هز بومي رأسه. «كان يصرخ طيلة اليوم، وهنّ يتجاهلنه فقط. لكن على أية حال، كانت غودرون موجودة دوماً وراءه، كي تسوّي ما أفسده.

---

(١) (L.S.D.) مادة مخدرة تسبب الهلوسة.

«كانت كل النساء المتورطات في المجموعة يتمتعن بقسط كبير من الذكاء. أقصد لم يكنّ من نوع البنات العاديات اللواتي تقابلهن في حفلة رقص. كنَّ يهتممن بالأشياء التقنية إلى حد ما. فمثلاً أنجي ڤييت كانت رائعة في تصليح السيارات، كما كانت استريد أفضل سائق وكانت بارعة في الميكانيك أيضاً. وكنّ جميعهن ذَكَريَّات: أقصد كانت لهن صفات ذكرية.

«كانت غودرون حقاً بارعة في المالية والتنظيم: كانت تلملم الأمور. وانخرطت استريد عندما كانت غودرون تطوف في المدينة تجمع المؤيدين للمساعدة على خروج بادر من السجن. لم أكن أعرف أن لديها هذه الطريقة في التحدث إلى الناس. كانت امرأة متقدة الذكاء وكانت ملتزمة جداً، متعصبة، كما كانت بارعة في الحديث».

جرت المقابلة مع أستريد في بار قريب من عملها، وكنت قد اتصلت معها عن طريق صحافية كانت صديقة لها، فوافقت بسرعة على اجراء اللقاء. كانت تحب البريطانيين كما قالت. كان مكتبها مكشوفاً ولم يكن الأفضل. أخذتني بسيارتها إلى البار.

كانت في منتصف الأربعينات، وكان يبدو عليها التعب مما يذكرني بألزاني ـ الامرأة من ETA التي كانت قد عانت الكثير ـ لكن استريد بدت وقد ضبطت أعصابها كثيراً وتحكمت بالموقف ولم أدرك كم كانت تجد ماضيها مزعجاً حتى وقت متأخر. كانت تبدو مستريحة عندما وصفت لنا الظروف التي أدت إلى مولد منظمة بادر ـ ماينهوف.

«كان الأمر يتعلق، إلى حد كبير بوضع ما بعد الحرب في المانيا الغربية. فنحن ـ الجيل الشاب ـ قد قررنا ألا نشترك في شيء كان سيئاً في المجتمع وألا نسكت عنه، كما فعل آباؤنا. لقد كرهنا آباءنا لأنهم كانوا نازيين سابقين، ولم يعترفوا بماضيهم أبداً.

«لم تكن النازية مقبولة، ولم يكن هناك وقت للندم. في الخمسينات كانت الحرب الباردة، وفي الستينات كانت الثورة الثقافية. اننا نكبر مع الثقافة الأميركية وجيشهم قابع عندنا كمحتل. بدأت منظمتنا باحتجاجات طلابية. وشعرنا في ذلك الوقت أن الدولة هي الظالمة وأن لدينا الحق في استعمال العنف لأننا كنا ضحايا الدولة. لكنها طبعاً أفلحت في قلب الأمور لمصلحتها، فأصبحنا المذنبين والمجتمع صار الضحية.

«وبعد الحرب عاد الكثير من النازيين إلى الأعمال التجارية من جديد. كانوا من كل مكان. كان يوجد نازي من بين كل شخصين. كانوا في مراكز عمل هامة في

التجارة والسلطة القضائية. لقد تابع النازيون أعمالهم وفي ذروة أيام RAF كان يوجد ـ على ما أظن ـ عشرون أو ثلاثون عضواً فعالاً. وكان هناك الكثير من التعاطف معنا لأن كل شخص كان يعرف واحداً منخرطاً أو كان يدعم ناساً منخرطين. كان الجميع يشعرون أن من مسؤوليتهم عند العزم المضي قدماً».

ولدت في كاسل، قرب حدود ما كان يدعى وقتها المانيا الشرقية من عام ١٩٤٨. كان أخوها ثوروالد يكبرها بست سنوات وكان والدها مهندساً معمارياً وعندما كانت استريد مراهقة صغيرة حدث الطلاق بين والديها، وأعطي أمر الوصاية عليها لوالدها، وقضت المحكمة إن أمها ـ بعد أن تركتها ـ لم تقم بواجبها كوالدة خير قيام» وهكذا أصبحت أستريد مثالاً آخر عن امرأة فقدت أحد والديها في عمر مبكر، وبعد ذلك اختارت طريق العنف.

كان ثوروالد في برلين يدرس الفن في الجامعة الحرة عندما وصلت استريد لتبدأ دراسة التصوير الفوتوغرافي. وعاش كل منهما في مجتمعات صغيرة ـ وكانا يؤمان البارات الراديكالية. وعندما قابلت بادر للمرة الأولى ظنَّته شاباً مغروراً لكن لديه القوة للتأثير في الناس. «لقد أقنعني أن النضال المسلح هو الطريقة الوحيدة لخلق عصر جديد».

وفي عام ١٩٦٨ التحق ثوروالد بفودرون وبادر في أول عمل لهما ضد الدولة: إضرام النار في مخازن كبيرة في فرانكفورت احتجاجاً على الحرب الفييتنامية. والقي القبض على الثلاثة فوراً وحكم عليهم بالسجن لمدة ثلاث سنوات. ثم أطلق سراحهم بعد سنة بكفالة استئناف معلق. لكن الاستئناف رفض. وهرب الثلاثة إلى باريس.

ومن مخبأ في المدينة اتصل بادر باستريد هاتفياً وطلب اليها أن تجلب له كتبه، وأوراقه وسيارة المرسيدس. لقد سرت كثيراً بالانضمام الى الهاربين. ابتسمت بأسف وقالت: «يجب أن تعلمي أنه في ذلك الوقت كان أكثر شيء في العالم روعة هو ألا تصحبي نجمة روك، بل ثورية». لقد استمتعت بشكل واضح بهذه الرحلة الأولى من حياة الخروج على القانون. فقد كانت حياة مثيرة متمردة مرحة. كانت تحب قيادة السيارات والسيارات السريعة. كانت فكرة النزول الى المخابئ مع الهاربين مثيرة حقاً.

وعندما التحقت بأخيها والآخرين في باريس انغمسوا في حياة الترف: يأكلون الوجبات الكبيرة في المطاعم ويأخذون الصور لبعضهم البعض. كما قدر ثوروالد أنهم في خلال يومين قد صرفوا حوالي أربعمئة جنيه استرليني. لكنهم اختلفوا فيما سيفعلون فيما بعد: أرادت استريد أن تذهب إلى الشرق الأوسط للتدرب في مخيمات الفدائيين

الفلسطينيين، بينما ظنت غودرون أنه من الأفضل أن تتوارى عن الأنظار لفترة ما. وكسبت غودرون النشيطة. وأُرسلت استريد الى امستردام لتشتري أوراقاً مزورة وجوازات سفر. وبهذه الأوراق قررت المجموعة أن تذهب إلى ايطاليا.

ان أي ظن أن استريد انخرطت لمجرد نفوذ أخيها قد تبدد في هذه الرحلة. كان بادر قد قرر أن ثوروالد لم يكن من جبلة ثورية، ويجب أن يسقطه الآخرون. وافقت أخته وتركه الثلاثة ينتظر قرب نافورة ماء إلى أن أدرك الحقيقة. فعاد إلى المانيا وقضى حكمه بالسجن وابتعد عن الثورة. وهو اليوم متزوج وعنده أولاده. سألت بومي لماذا لم يطلب ثوروالد من أخته أن تحذو حذوه. هز كتفه «ربما لم تحن له الفرصة لفعل ذلك». كانت استريد امرأة مستقلة الرأي حتى في هذه السن وكانت تريد أن تكون ثورية أكثر من أي شيء في العالم.

أخذت استريد الاثنين الآخرين إلى ايطاليا بالسيارة حيث أمضوا عدة أيام. وبدؤوا يختارون الرفاق من أجل النضال ممن كانوا يلتقون بهم في بيت أولريك ماينهوف الكبير، وهي الصحافية التي كانت قد أجرت اللقاء مع غودرون في السجن.

وبعد شهرين أُلقي القبض على بادر وأُعيد إلى السجن، لكن نساء المجموعة دبرن أمر هروبه.

كانوا ستة. كانت استريد وامرأة أخرى ستقودان السيارة الى المدخل. وكان على أولريك أن تقنع سلطات السجن أنها كانت تؤلف كتاباً عن الجانحين الشباب ومن بينهم بادر، وأنها بحاجة إلى اجراء بعض البحوث في مكتبة قرب السجن. وكانت هناك أمرأتان تتظاهران أنهما تجريان بحوثاً في المكتبة وبذا تتمكنان من فتح الباب لغودرون انسلين التي ستقتحم المكان ومعها بندقية لتحرير عشيقها.

كانت البنادق لازمة للعملية، فأُرسلت استريد وامرأة أخرى لشرائها من بار يؤمه متطرفو الجناح اليميني. اشتريا مسدسين بكاتمي صوت بحوالي ٥٠٠ جنيه استرليني. وحدثت مناقشة بين النساء: كانت غودرون تظن أنه يجب أن يكون هناك رجل واحد على الأقل في فريقهم كرمز. فاختارت مرشحاً كان قد أدين بجرائم سابقة من أجل الانقاذ المثير الذي ستقوده في المكتبة. ونجحت الخطة بشكل عام، سوى ان الرجل ظن أن المسدس المحشو في احدى اليدين هو مسدس الضغط الموجود باليد الأخرى، وأطلق النار على أحد الحراس. هرب بادر من الحبس وانتهت أيام عذاب أولريك بسبب هجرها لطفليها؛ لقد أصبحت الآن هاربة من وجه العدالة.

اشتركت استريد في عدة هجمات على بنوك وسرقات مبان حكومية للحصول على أوراق مزورة. كما كانت لص سيارات بارعة. وكلما ازدادت أعمالهم كلما ازدادت مداهمات الشرطة لهم. سألتها كيف كانت تشعر وهي مطاردة كخارجة على القانون، وهل كانت مسلحة؟

«كنا نحمل مسدسات لكننا لم نفكر أبداً بإيذاء أحد. في البدء كان الأمر لعبة، كنا جميعاً صغار السن. وكان الأمر مثيراً على ما أظن، لأنه كان خطيراً، لكن في الوقت نفسه كان هناك هاجس الخوف. شعرنا جميًا أن لدينا صفة وجودية لحياتنا. لم يكن أحد منا يعرف إلى أين نحن ماضون. كان النضال بأكمله يبدو أحياناً أنه يدور بين مجموعتنا الصغيرة، وتلك المجموعة السياسية الكبيرة التي تشكل جزءاً من الدولة. كانت الصحافة والشرطة ضدنا مئة بالمئة. . . وهذا موقف الماني نموذجي».

صمتت قليلًا، ثم أضافت بهدوء: لن أكون عضواً في مجموعة بعد الآن». فالمجموعات التي تشابه المجموعة التي انضمت اليها تدمر حياة الانسان. .

وبعد سبعة أشهر من السطو على البنوك وسرقة السيارات كان أكثر من نصف عدد الأعضاء قد اعتقلوا. حاولت نساء المجموعة ـ باستثناء غودرون ـ ان يقنعن بادر أن سياسته في «ضرب البنوك» في مدن لا يعرفونها كانت عملاً خطيراً من المحتمل أن يؤدي إلى المزيد من الإعتقالات. لكن بادر كان يقذفهن بأفظع الشتائم ناعتاً اياهنّ «بالفروج» لأنهنّ يصرخنّ في وجه «رجالهنّ». وقال ان هذا ما جلبه لهن الايمان بالمساواة مع الرجل. كان الأمر يبدو كما لو أنه شعر بالتهديد بين هؤلاء النسوة الفعالات بشكل كبير، وادرك أنهن يستطعن القيام بالأعمال بمفردهن.

تساءلت لماذا سمح لهذا العدد الكبير منهن بالدخول إلى مجموعته بالرغم أنه رأى فيهن هذا التهديد لمركزه. لكني ادركت انهن بصفاتهن العملية وخبرتهن الفنية وقدرتهن على التحمل. . . كان بحاجة لهن.

سببت استريد عن غير قصد شن اكبر مطاردة شرطة لرفاقها. ففي أحدى ليالي شباط (فبراير) أوقفها ضابطان من الشرطة ومعها شاب في فرانكفورت وارادا أن يفحصا بطاقتي هويتهما. «كانا يحاولان توقيفي. كنت مع صديق وهربنا. قالا أنني اطلقت النار على شرطيين ولكن لم يكن معي حتى بندقية. لم يؤذَ أحد منهما، وهربنا لكنهما لفقا لي هذه التهم. أظن أنهما أرادا أن يحولا هروبنا إلى شيء كبير لأننا تمكنّا من الهروب. لا أعلم لماذا لفقا القصة، ربما لكي يستطيعا زيادة المال المخصص لخدمات الأمن. كانت كل منظمة شرطة في البلاد تريد القاء القبض علينا. كانوا جميعاً يريدون الحصول على المال، وأن يصبحوا الأكثر أهمية.

وبحسب أقوال ضابطي الشرطة، بالرغم من أن روايتهما للحادثة قد اختلفتا من أول جلسة محاكمة، استلت استريد والشاب مسدسين واطلقا النار عليهما قبل أن يهربا.

كان شرطي من الاستخبارات المضادة ـ ومن دون معرفة ضابطي الشرطة ـ يلاحق الاثنين، وكتب مذكرة عن الحادثة قال فيها أن استريد برول لم تستل المسدس كما أن الشاب لم يطلق النار من مسدسه.

لكن المذكرة لم تقدم للجمهور حتى بعد ثمان سنوات، وعُلِّقت لوحات جدارية تنذر أن استريد برول كانت مسلحة وخطيرة، وبعد عدة أشهر ألقي القبض عليها.

لقد تعرف عليها عامل محطة وقود في كاراج في هامبورغ من لوحة المطلوبين، فاستدعى الشرطة. وعلى الرغم من أنها حاولت الهرب في السيارة فقد أحاط بها الضباط المسلحون واعتقلوها. كان عليها أن تمضي ثلاث سنوات تقريباً في السجن، كانت اثنتان منهما قبل محاكمتها. وبعد اعتقالها بعدة أشهر كان الأعضاء الآخرون في المجموعة قد اعتقلوا، وارسلت أولريك ماينهوف إلى السجن الذي كانت فيه استريد نفسه. لكن الامرأتين احتجزتا في مكانين منفصلين، وأمضت كل منهما فترات طويلة في عزلة تامة... فادركت أولريك أن مشيها اليومي، بمرافقة حارسين من السجن، كان يدنو بها من زنزانة استريد وفي أحد الأيام نادتها باسمها. لكن بعد ذلك، صار الحراس يشغلون مكنسة كهربائية ويجرون مياه الحمام، حتى لا تستطيع الامرأتان تبادل الحديث.

أُخضعت استريد والسجناء الآخرون لفترات تبلغ عدة أشهر إلى «عزلة سمعية» وهو نوع من التعذيب». «أثناء المحاكمة كنت مريضة جداً كانت أعصابي ودورتي الدموية قد وصلت لدرجة اللاشفاء. وبسبب هذا الانهيار منحت عفواً موقتاً، بشكل استثنائي جداً.

«أرسلوني إلى عيادة، وكان عليَّ تبليغ الشرطة. لكنني عرفت أن عليَّ أن أهرب. لم يكن بامكاني تحمل أي من ظروف هذه السجون، لذلك هربت من هذه العيادة ونزلت إلى العمل السري».

كان هناك شبكة من المتعاطفين والمؤيدين الذي اختطفوها إلى خارج البلاد، إلى ايطاليا، حيث بقيت لمدة شهرين. لكنها وجدت أن محاولاتهم للمساعدة خانقة. كانت كالأوامر اكثر مما كانت كالنصائح المفيدة. «كانوا يخبرونني ماذا يجب أن أفعل. افعلي

هذا، افعلي ذاك. وكانوا يحاولون المساعدة ظانين أنهم يعرفون اكثر مني. لكنهم كانوا يدمرون حياتي. كان بامكاني البقاء في ايطاليا، لكنني لم أشعر بالراحة أبداً. فالنساء في ايطاليا نموذج خاص. كان عليَّ دائماً أن أتميَّز». وعلاوة على ذلك، شعرت بعد سنواتها الثلاث كسجينة ارهابية أنها كانت تبدو مختلفة عن الآخرين. «شعرت أنني ارهابية. . . مميزة».

ان فكرة كونك مميزة لأنك كنت سجينة ذات احتياطات أمنية خاصة، وبالتالي تكونين أكثر امتيازاً من الناس الآخرين، فكرة يصعب أن تتخلي عنها. تشعرين أن الجميع ينظرون اليك ويعرفون أنك سجينة ذات احتياطات أمنية خاصة.

«عرض الناس الذين كانوا يقدمون لي المأوى عدة اقتراحات عن المكان الذي يجب أن أذهب إليه بعد ذلك. لكنني أنا التي قررت وجوب ذهابي إلى انكلترا. لم اذهب إلى هناك من قبل، بالرغم من انني زرت أميركا مع أمي عندما كنت صغيرة. لذلك كنت أعرف اللغة. كنت أعلم أيضاً أن لندن مملوءة بالسياح وظننت أن من السهل أن اختبئ هناك. فكرت في باريس أيضاً، لكن تبين أخيراً أن لندن هي أحسن فكرة بالنسبة لي لأنني استطيع أن أفهم المجتمع الذي كنت فيه وأعرف كيف اتصرف.

«فكرت أن أذهب إلى هناك، لا لأبقى، إلا لمدة قصيرة. اعطوني عنواناً في لندن وذهبت اليه. كنت معوزة جداً. وشعرت بالخطر وعدم الأمان. كنت كثيرة الخوف، كما كنت اشعر يائسةً أنه عليَّ أن أقابل أناساً يستطيعون تقديم العون لي. وبالتدريج بدأت أقابل بعض من استطعت وضع الثقة فيهم. كما بدأت اشعر بالتحسن في وضعي. وقد ساعدني كثيراً أنني كنت استطيع قراءة الجريدة. كنت حرة التصرف للمرة الأولى منذ فترة طويلة».

قدم لها بعض المتعاطفين مع RAFفي لندن المأوى لعدة أشهر. ثم قابلت شاباً في حفلة، ابدى استعداداً للزواج منها. وتمت مراسم الزواج لكنهما نادراً ما كانا يريان بعضهما بعد ذلك. حتى أنهما كانا يسكنان في بيتين مختلفين في حي ايست إند في لندن. وهي الآن فعلياً المسز انابوتيك. اوضحت قائلة: «لقد كانت أهدافي من الزواج مختلفة عن اهدافه أو حتى عن أهداف أي شخص آخر. كان الشيء الأكثر أهمية هو أن أجد مكاناً اسكن فيه دون التوتر من جراء استعمال وثائق غير قانونية». غادر زوجها روبن انكلترا بعد سنتين وذهب إلى جمعية دينية في الهند، وهي تعتقد أنه لا يزال هناك.

وبواسطة وثيقة زواجها استطاعت الحصول على بطاقة تأمين وطني. وبهذا السلاح استطاعت أن تبحث عن عمل. عملت بستانية لمدة خمسة أشهر، وصارت

تعتني بحديقة كليسولد بارك ولندن فيلدز في هاكني، حيث كانت تلتجيء. ثم استلمت وظيفة مساعد ميكانيكي في مصنع لعب أطفال، قبل أن تسجل لدورة تدريب حكومية في ميكانيك السيارات. كما حضرت صفوفاً مسائية في اللحام مرتين في الأسبوع في كلية هاكني وتأهلت بشكل جيد لعملها القادم: معلمة ميكانيك سيارات في ورشة شمال لندن لتصليح المركبات. ثمَّ تمويل الورشة من منحة حكومية، كان الهدف منها تدريب الشباب والعاطلين عن العمل. «شعرنا بالأمان الكبير هناك. كنت اتمتع بالعمل، ووجدت أنه من الناجح جداً أن يقوم المرء بشيء عملي كهذا. وعندما كنت في السجن في المانيا، اردت كثيراً أن أتعلم صنعة، أو أصبح مهندسة. كان ذلك حلم حياتي. لكن الكثيرين من الشباب الذين كانوا في برنامج التدريب كانوا يسرقون السيارات وكان الشرطة كثيراً ما يحضرونِ للاستجواب. وقد تضايقت كثيراً من هؤلاء الشباب وحاولت أن أجعلهم يتوقفون عن السرقة. وجرت العادة أن يتعامل أحد الزملاء مع الشرطة ويتدبر الأمر. لكنهم كانوا مسرورين بي، لأنهم ظنوا أنه أمر غريب جداً أن تعمل امرأة في كاراج».

لكنها بقيت عدة أشهر دون أن يكتشف أمرها أحد. كان زملاؤها يتذكرون أنها كانت فتاة طيبةً وأنها كانت شخصاً حاد عن مساره كي يساعد الناس. كانت ميكانيكية ماهرة، كما قال أحدهم، الذي ذكر أيضاً أنها كانت مؤمنة بشكل قوي بالمساواة مع الرجل، لدرجة أنها كانت تأمل أن تكسب مارغريت تاتشر الانتخابات. على الرغم من أنها كانت تبدو من الجناح اليساري والشيء الغريب الوحيد حولها ـ اضاف الرجل ـ أنها كانت حذرة جداً، بشأن مكان سكنها. ولم تكن لتعطي عنوانها لمدير الورشة. «كنت أعرفها باسم آنا، واستطيع القول أنها لا تعرف شيئاً عن العنف. كان بعض الشباب يعاملونها بفظاظة إلى حد ما. لكن إذا حدثت أية مشكلة، كنت أتدخل كي أساعدها في الخروج منها. لم تكن تستطيع تسوية الأمور».

وعندما ظهر كتاب «اولاد هتلر» عن زمرة ماينهوف، حذرها بعض أصدقائها أن صورتها موجودة فيه وهي تشبه الأصل كثيراً ذُعرت: «علمتُ أنني اذا قبض عليَّ مرة أخرى فلن يعود شيء من العالم يهمني اكثر من ذلك. لقد قضيت اربع سنوات من الأمان كي أتعلم شيئاً ما في بريطانيا. وعندما اعتقلوني أظن أن واحداً من الشرطة الذين اعتادوا المجيء إلى الورشة، عرفني من الصورة الموجودة في الكتاب».

كانت في الورشة عندما اندفع اثنا عشر شرطياً سرياً، دفعوا بها بقوة الى جانب خزانة وفتشوها، ثم أُخذت إلى أحد مراكز شرطة لندن ذي التدابير الأمنية الأشدّ وهو

بادينغتون غرين - وابقيت في السجن لمدة سنة، تناضل ضد تسليمها إلى المانيا. كانت العناوين الرئيسية في الجرائد تلاحق جلسات محاكماتها: «الشرطة المسلحة تراقب، بينما الارهابية تتحدث إلى اصدقائها في قفص الاتهام». «لم يعرف زوجي من أنا، تقول استريد». «كم غيَّرتني بريطانيا، بواسطة الارهاب». وطبعاً كانت هناك كثير من المقالات حول سحاقيتها.

تذكرت استريد تلك الأيام وهزت كتفها. «أخذوني إلى سجن بريكستون حيث أصبحت مرة أخرى السجينة ذات الحد الأقصى من الاحتياطات الأمنية. عزلوني وكانت حارستان تراقبانني طيلة الوقت. كانت امرأة أخرى من الزمرة - أ - قد أدخلت السجن. كان الأمر رهيباً. كانت كل منا نوعاً من حقل تدريب بالنسبة للحراس، لأنه لم يكن لديهم سجينات من الزمرة - أ - في بريكستون من قبل. لم يكن لديهم مراكز خاصة لنا، لذلك افرغوا الطابق العلوي في سجن الرجال. كان المكان باكمله لنا نحن الاثنتين فقط. كانوا يحضرون لنا طاقماً جديداً من الحارسات كل شهر. لذلك لم يشعر أحد بالراحة وكان كل شخص منفعلاً.

«جعلوني ادرك مرة أخرى انهم كانوا ينظرون اليَّ كأكثر المجرمين خطورة. كان محاميَّ ظريفاً جداً، لكن وجهه تجهم عندما رأى التهم الموجهة إليّ من قبل الشرطة في المانيا: محاولة القتل لاثنين من النبلاء. شعرت في البدء انني ضائعة، وكان يبدو ان كل الاصدقاء وكل الدعم الذي حصلت عليه في انكلترا لم يكن مهماً. كانت المانيا بالنسبة لي سجناً كبيراً، مكاناً لم أكن اريد العودة اليه. وعلمت أنني كنت اواجه عقوبة السجن للبقية الباقية من حياتي».

كان خوفها مضاعفاً بشأن العودة إلى المانيا حيث مات اصدقاؤها في **ستامهايم** اقبل سنة: هذه الأحداث التي وصفتها «بالمآسي الرهيبة». كانت ريبتها أن هذا الموت لم يكن انتحاراً، بل من تدبير خدمة الأمن الالمانية - قد شغلت بالها، وكانت مقتنعة أنها إذا سُلِّمت فانها ستموت بطريقة أو بأخرى. لكن انتهى الأمر باطلاق سراحها فور عودتها إلى المانيا تقريباً، لأن المحكمة قررت أنها قد نفذت احكاماً طويلة ما يكفي عن سرقات البنوك والوثائق. ابتسمت «أظن أن الألمان فعلوا ذلك كي يدهشوا الانكليز ويبينوا لهم كم هم طيبون.

«لكن منظمة RAF كانت قد أظهرت، من الطريقة التي عاملتها بها السلطات في السجن، أن المانيا كانت دولة فاشيَّة. فبعد الأحداث الرهيبة في سجن ستامهايم تغيرت الأمور قليلاً. في السبعينات كانت ألمانيا بأسرها تحبس أنفاسها بشأن منظمة RAF،

ولكن بعد سنة أصبح الحزب الأخضر بارزاً وبدأت جرائد الجناح اليساري الألماني بالصدور. تغيَّر الجو، فلم يكن الناس يتحدثون عن الامبريالية بل عن أمور أخرى: البيئة وعلاقتها بالأحياء[1] وحقوق النساء». وقالت، بحزم أن RAF كانت حركة تخص زمانها، وأن زمانها قد مضى. إن ما كنا نتحدث عنه هو التاريخ حقاً. . . لم تكن على صواب طبعاً، كما أظهر موت الهرهاوزن.

وبعد اطلاق سراحها احتاجت الى عدة سنوات كي تقف على قدميها من جديد، لكن الخبرة التي مرت فيها تركت ندوباً دائمة. «كانت بداية الكابوس». كما قالت: «كنت في الخامسة والثلاثين، من دون مهارات أو مال أو اصدقاء. كنت بحاجة إلى فترة طويلة كي أتعافى. لقد رأيت الكثير من الناس يخرجون من السجن، وكان بعضهم يتابعون حياتهم، لكن البعض الآخر لم يكونوا قادرين على فعل ذلك. كان الأمر يستغرق وقتاً طويلاً كي يبدؤوا من جديد. عشت في فرانكفورت لفترة وحاولت أن أعود إلى العمل في تصليح السيارات، لكن ذلك لم يعد مفيداً لقد كان وسخاً ورهيباً ومرهقاً. ولم أبدأ حياة جديدة حقاً إلا في السنوات القليلة الماضية». وأخيراً، في ١٩٨٨، اكملت دورة في التصوير، في مدرسة الفن في هامبورغ، وحصلت على وظيفة في مجلة «تمبو».

لم تكن تلك المجلة تناسب ذوقها، لأنها كانت مشابهة للمجلة الانكليزية «ذي فاس». وقالت «كان الكثير من الناس يوجهون الكراهية الى مجموعة بادر - ماينهوف لأنهم يشعرون أنها ألقت الظلال عليهم. كانوا يريدون أن يعملوا شيئاً بأنفسهم، وكانوا مغتاظين مما فعلنا، وينظرون إلى ما حدث كأنه من الماضي، وأنه مجرد أمر ثقافي». صمتت. «كنا نقاتل المجتمع من الخارج. كانوا يرون من الأفضل القتال من الداخل».

بدأ التعب يظهر عليها. «ان مجرد الكلام عن هذه الأمور يرهقني». اعترفت بذلك. لكنها بدأت تأمل أن يسمح لها بدفن ماضيها. والسلطات الألمانية مقتنعة أنها قد تخلت عن العنف نهائياً. وصف السيد كريستيان لوشته من مكتب هامبورغ لحماية القانون أنه لأمر «رائع» أنها قطعت كل علاقة لها مع رفاقها القدامى ومع ذلك فانها لم تخنهم. كما أخبرني أنه يحاول أن يساعدها في نضالها كي تمنح اذنا بالدخول الى الولايات المتحدة لترى والدتها. «انني معجب بها جداً، فلها شخصية قوية جداً ومستقلة. لقد شقت طريقها الخاص من الماضي دون أن يجبرها على ذلك أحد. ليس

(١) Ecology: فرع علم الأحياء الذي يدرس العلاقات والتفاعلات بين الكائنات الحية وبيئتها.

هناك من شيء اكثر اثارة للاعجاب من الوصول إلى النتيجة بأن الامرأة القوية جداً مستعدة للقتال من أجل السلام، لأن دور المرأة كمقاتلة دور سيء جداً».

وبالرغم من أن استريد قد قطعت كل علاقة لها بماضيها، فانها لا تزال تشفق كثيراً على رفاقها الذين يقضون فترات طويلة في السجون في المانيا.

وفي ١٩٨٧ ظهرت لأول مرة علناً في اجتماع للحزب الأخضر الألماني حول اصول الارهاب في المدن وعن الحاجة الى اصلاح السجناء التائبين. اشارت الى «تعذيب العزلة» الذي يعاني منه سجناء RAF، كما طالبت ان تضع الحكومة كل السجناء مع بعضهم في سجن واحد.

لقد اعترفت أن مؤيدي RAF الحالية وهم الجيل الخامس على ما أعتقد كانو لا يزالون يؤلهون كبارهم (كبار السن) ـ السجناء السابقين مثل استريد نفسها واولئك الذين يقضون فترات سجن ويعتبرونهم شهداء. تنهدت وقالت بأنها لا تريد أن تكون شهيدة لأحد أو عن أحد. «هناك الكثير من الناس الذين يشعرون بالذنب بشأن العدد الكبير من جماعة RAF الذين يقبعون من غياهب السجن اليوم، والكثير منهم لمدى الحياة. كان من السهل جداً أن يحصل الشخص على حكم بالسجن مدى الحياة عندئذ، لمجرد كونه عضواً في RAF مع أن الكثيرين لم يفعلوا سوى القليل. عندما اعتقلوا ربما اطلقوا النار على شرطي، وبالرغم من أنهم لم يؤذوا أحداً فانهم حصلوا على أحكام مؤبدة. إنه لأمر سخيف حقاً».

هل كانت الأمور تستحق ذلك؟ كان عندي انطباع أن استريد لا تعتقد ذلك، وأن ثمن هذه الأيام المتطرفة التي تم الكفاح فيها ضد النظام كان غالياً جداً. وقد فكرت في القصة: «انني الآن أظن أن RAF كانت نوعاً من تجربة. كانت حركة في زمنها. ولست أعرف ان كانت ضرورية».

كيف تذكرت رفاقها الأموات؟ لو أن أولريك ماينهوف قد أطلق سراحها واصبحت سياسية أو أمّاً لكانت بقيت ذكراها كذلك. «كان لديها شيء يذكرها بأولريك كل يوم تذهب فيه إلى العمل ـ فاحدى ابنتيها التوأمين ـ بيتينا ـ تعمل معها جنباً الى جنب في مجلة «تمبو».

* * *

.وعلى الرغم من أن منظمة الجيش الأحمر ينظر إليها من قبل وكالات تنفيذ القانون الالماني على أنها التهديد الارهابي الأكبر، فان هناك منظمات أخرى قادت فلسفتها إلى أعمال الجريمة والنسف والاختطاف.

فمنظمة «العمّات النمرات السوداوات المقاتلات» التي كانت تنتمي إليها السيدة

برول كانت لها حياة قصيرة الأمد نوعاً ما، لكن نشأت منهن حركة مقاتلة تؤمن بالمساواة مع الرجل وهي «زورا الحمراء». تشكلت هذه المجموعة في أواخر السبعينات وكانت عضويتها تتألف من النساء بالكامل تقريباً. ولم تكن الهجمات التي نفذتها تتعلق بقضايا المساواة مع الرجل وحسب، بل بالصناعات والمنظمات التي كانت تعتبر مذنبة لايذائها عامة الشعب.

كانوا يعتقدون أن حياة الانسان يجب ألا تؤذَى، ولكن في عام ١٩٨١ قتلوا سياسياً عمره واحد وستون عاماً بينما كان نائماً في فراشه. لم يستطع **هينز كاري** أن يكون أقل شعبية: فقد أراد أن يبني معملاً لمعالجة النفايات الذرية، ويوسع مطار فرانكفورت ويبني شبكة طرقات جديدة. لكن لم يكن من المفروض أن تقتله النساء اللواتي اقتحمن بيته، فقد اصدرت منظمة زورا الحمراء بيانا تعتذر فيه عن قتله.

وانسجاماً مع أسلوبهن في الهجوم، كان هناك عدد كبير من عمليات التفجير لعدد من مكاتب الزواج عام ١٩٨٣. كانت المكاتب تعلن عن رحلات شهر عسل في مجموعات الى تايلاند للرجال الألمان. قال الاعلان: «تعالوا إلى تايلاند، حيث المئات من الصبايا الجميلات ينتظرن الزوج المناسب». وكانت اعمال نسف هذه المكاتب تتم ليلاً، دون ضحايا. وادَّعت منظمة زورا الحمراء أنه طالما رفضت الحكومة وقف هذه الممارسات التي تظهر احتقاراً للنساء، فان النساء سيعملن بالنيابة عن انفسهن. وفي أثناء الحملة نسفت زورا الحمراء أيضاً سفارة الفيليبين في بون، لتورطها في هذا العمل.

كانت أحدث عملية لهن اضرام النار في آن واحد في أحد عشر من المخازن الكبرى التي ـ كما أعلنت زورا الحمراء ـ تبيع ألبسة مصنوعة في كوريا الجنوبية حيث لا تُدفع للنساء العاملات أجور مناسبة. وكانت المجموعة نشيطة بشكل خاص في الثمانينات عندما نفذت حوالي مئتين وخمسين عملية. لكن منذ القاء القبض على معظم قادتها في ١٩٨٧ لم تحدث سوى اربع هجمات.

* * *

وقد لعبت النساء أيضًا دوراً هاماً في حركة النازية الجديدة في ألمانيا. في ١٩٨٨ خرجت سيبيّل فوردربروغ من السجن بعد أن أمضت ثمان سنوات من أصل حكم مؤبد بسبب قتل رجلي القارب الفيتناميين وهجمات بالقنابل واحراق، ولعضويتها في مجموعة ارهابية. كان عمرها اثنين وثلاثين عاماً. وقضت جزءاً من مدة سجنها في جناح العزلة نفسه من سجن ستامهايم الذي كانت فيه مجموعة **RAF**. لكن المعتقدات التي كانت تعتنقها لم تكن تختلف كثيراً عن معتقدات زملائها في السجن.

كانت المجموعة التي انضمت اليها في عام ١٩٨٠ يقودها نازي جديد معروف اسمه مانفرد رويدر وكان يدّعي أن واحداً من ادميرالات هتلر قد أطلق عليه لقب خليفة الفوهرر. كان محامياً يبلغ الخامسة والخمسين، وكان في الخمس سنوات الماضية قد جمع حوله مجموعة من الرجال والنساء ممن كانوا يعتقدون أنه الفوهرر الجديد. وكان واجبهم، تحرير المانيا من الأجانب.

حاولتُ اجراء مقابلة مع السيدة فوردربروغ، لكنها رفضت أن تقابلني لأنها كانت قد حكت قصتها قبل ذلك لمجلة «كويك» الألمانية. كانت تحاول اعادة بناء حياتها، ولم تكن تريد أن يذكّرها أحد بماضيها.

وفي سلسلة مقالات في المجلة، ادعَّت أنها اقتيدت الى المزيد والمزيد من الهجمات العرقية، والتي تُوِّجت بالجريمة، بسبب حبها لرويدر، لم يكن أي واحد من هذه الأعمال غلطتها، كما ألمحت، لأنها كانت واقعة في غرام هذا الرجل «كنت كالعمياء».

بدا هذا تفسيراً سهلاً، ومن المخيِّب للآمال انني لم أستطع توجيه الأسئلة إليها. أبداً، لأنها كانت تبدو المرأة الوحيدة التي تنطبق عليها النظرية بأن النساء كن ينقدن إلى المجموعات الارهابية بسبب حبهن للرجال.

وطبقاً لما جاء في المقالات، تورطت للمرة الأولى في النازية الجديدة بعد تحدثها مع زميلة في المشفى الذي كانت تعمل فيه مساعدة صحية. كانت الزميلة ـ وهي الشابة المدعوة غابرييل كولايتس قد طلبت من سيبيل أن تعطيها شيئا ما لتقرأه. فأعطتها سيبيل كتاب «مذكرات آن فرانك» لكن غابريل وضعته جانباً واصفة اياه بالحكاية الخرافية الكاذبة. وبعد ذلك مضت في تثقيف سيبيل، وأخبرتها عن كذبة أو شويتز، وعن حقائق جرائم الحرب النازية.

وعلى مدى الشهرين التالين أعطت سيبيل مجموعة من منشورات النازية وتسجيلات لخطب ألقاها رويدر. تأثرت سيبيل بالخطب كثيراً وتوسلت الى غابريل أن تقدمها الى الخطيب. وحالما قابلت رويدر افتتنت به، كما قالت، وحلمت «بقضاء ليلة معه».

وأخيراً لبى رويدر رغبتها. وأصبح الاثنان عشيقان. وعندما أصبحت سيبيل أكثر افتتاناً به شجعها كي تصبح جزءاً من شبكته. كانت مجموعة «حركة الحرية للعالم الالماني» قد نسفت معرض أوشويتز ونزلاً لطالبي اللجوء. كانت غابرييل ووالدها ـ

الذي كان طبيباً ـ قد تورطا في الهجمات. وأعلنت سيبيل أن العنف بدا مبرراً من أجل تحقيق حلم رويدر في المانيا نقية.

طالب رويدر بالمزيد من العنف، كان يريد أن تُنسف دور الشباب الخاصة باللاجئين وتطير في السماء، كما قال، وكانت سيبيل مصممة على كسب اعجابه.

استقالت من وظيفتها وأصبحت سكرتيرة رويدر مما استدعى أن تنتقل معه الى بيته المسمى «ريشتشوف». ولم يكن تطور الأحداث هذا ليروق للسيدة رويدر ـ وهي أم لستة. عملت سيبيل دون أجر، وقدمت مدخراتها البالغة ٣٠ ألف جنيه استريليني إلى أموال المجموعة. لكن وجودها خلق توتراً واضحاً، مما اضطرها إلى الخروج بعد شهرين.

وبعد أسبوع نسفت ـ ومعها رجلان ـ فندقاً للاجئين الأريتريين قرب شتوتغارت، مما أدى إلى جرح ثلاثة. سر عشيقها منها، كما أن سيبيل نفسها قالت: «لقد استحوذت الفكرة على تفكيري كما لو كنت ثملة. أدركت طبعاً أن بعض الناس سيؤذون، لكنني لم أشأ أن أضع تلك الفكرة أمام مخيلتي. كان رويدر سعيداً ولكم سعدت أنا، لسعادته». وتسبب هجومها الثاني في مقتل شخصين. قرأت في احدى جرائد هامبورغ أن نزلاً جديداً لطالبي اللجوء قد افتتح في المدينة. اتصلت هاتفياً برويدر تطلب الاذن. وطبقاً لما قالت، أعطيت الأوامر السريعة للقيام بالنسف. وفي منتصف الليل رمت سيبيل ومعها رفيقها الرجل كوكتيل مولوتوف في النزل، حيث كان ينام أربعة وثلاثون رجلاً من رجال القوارب الفيتناميين، وانفجرت كرة نارية هائلة واحترق رجلان ڤيتناميان بعمر الحادية والعشرين والثامنة عشرة حتى الموت في أتون الانفجار.

أصابت الصدمة سيبيل لهول ما فعلت، لكنّ رويدر «عاد للتأكيد عليها أن أعمالها ضرورية لكنه وصف قتل الرجلين انهما ببساطة كانا «نصفي قردين». وتحوَّل شعور سيبيل بالذنب الأوَّلي إلى شعور بالبطولة وانصرفت للتخطيط للمزيد من الهجمات على المؤسسات الخيرية التي كانت تساعد الأجانب. لكن قبل أن تتمكن من القيام بالمزيد من أعمال القتل، ألقي القبض عليها بعد أن رسمت بالدهان رسوماً وشعارات للتمييز العرقي على أحد الجدران:

اعتبر الهركريستيان لوشته ـ وهو مدير فرع هامبورغ لمكتب حماية القانون أن الآنسة فوردربروغ كانت مثالاً جيداً على النساء اللواتي يتفانين في سبيل قضية أكثر من الرجال. بدأ الهرلوشته ـ وهو قاض سابق ـ العمل للمكتب وهو الذي كان يوجهه

فعلياً، في عام ١٩٧٢ أثناء مطاردة مجموعة بادر - ماينهوف. وأصبح رئيساً للمكتب في ١٩٨٠، وكان العمل فيه يستهويه. قال لي: «يهمنا جميعاً القبض على الارهابيين. اننا مهتمون بدراستهم واجراء المراقبة عليهم بحيث نستطيع أن نعرف أشياء عنهم».

واستمر يقول بأن الآنسة فوردربروغ قد أكّدت ما كان دائماً يقوله عن النساء الارهابيات. كانت في يوم لا تعرف شيئاً عن النازية الجديدة، وفي اليوم التالي تكون ارهابية: ويوماً لم يكن لها أي اهتمام بالموضوع، وفي اليوم التالي تصبح ارهابية مئة بالمئة، ثم مقاتلة بين ليلة وضحاها». لقد اتضح هذا التفاني الكلي في القضية، واقصاء أي شيء آخر - حتى الروابط العائلية وتربية الأطفال، على ما يعتقد، في مثال سوزان البرشت. ويعتبر لو أن سوزان كانت رجلاً لكانت حاولت اقناع الرفاق من **RAF** أن عليهم انتقاء هدف آخر للخطف - أي شخص آخر - غير العم جورجن. قال الهرلوشته «كان موقفها أنها يجب أن تنجز هدفها، وأن تستمر دون مقاطعة أو أي تردد. ان هذا الموقف مستحيل في حالة الرجل.

«لقد كانت سوزان منساقة مع عواطفها وأيديولوجيتها بحيث أنها لم يكن يهمها ما سيحدث. وهذا ممكن الحدوث مع الرجال أيضاً. لكن ليس الى هذه الدرجة الجوهرية: أن تزيح كل العوائق من طريقها دون تفكير بالعواقب. ان الشاب سيتصرف بشكل مغاير، قد يحاول أن يجد طريقاً آخر للخروج من المشكلة. لكن لم يكن لدى سوزان أية مراحل أو مستويات عليها أن تتغلب عليها. كانت مستعدة فوراً للقيام بالعملية وذهبت بعدها الى العمل السري. كما أن والديها اللذين سُرّا كثيراً بعودتها الى البيت، لم يستلما أية أخبار منها منذ ذلك الوقت.

ان التفاني الأعظم في سبيل القضية، والمقدرة على انجاز النتائج المطلوبة بغض النظر عن العوامل الأخرى، **صفات تجعل النساء أكثر خطورة من الرجال اذا قررن الانضمام الى مجموعة ثورية أو ارهابية**. يبدو أن نظرية الهرلوشته صحيحة بالرغم من أنه في حالة سوزان (وطبقاً للوصف المذكور فيما بعد) كان عليها أن تتعرض لغسل دماغ فعلي، قبل أن توافق على أخذ فريق الارهابيين الى بيت بونتو.

ويتابع الهرلوشته أن النساء لا يترددن في اطلاق النار اذا وضعن في موقف حرج. وهي خلاصة توصل اليها بعد عدة سنوات من الملاحظة **«انها لفكرة جيدة، بالنسبة لكل من يحبّ حياته، أن يطلق النار على النساء الارهابيات أولاً**.

«ومن خبرتي فالنساء الارهابيات أقوى شخصية بكثير، وعندهن القوة والحيويّة أكثر من الرجال. وهناك عدة أمثلة عن رجال وُضعوا في مواقف حرجة وانتظروا لحظة

قبل أن يطلقوا النار، لكن النساء أطلقن النار فوراً. انها ظاهرة عامة. وسألته لماذا يظن أن هذا حاصل. لماذا لا تتردد النساء حيث يتردد الرجال؟».

وكان تفسيره أن النساء كان لديهن الكثير من الأمور التي يجب أن يتغلبن عليها لمجرد كونهن في منظمة ارهابية في المقام الأول. عليهن أن يقاتلن التعالي عليهن بسبب الجنس، بالإضافة الى مقاتلة العدو، وأحسن طريقة يثبتن فيها أنهن مساويات هي أن يُظهرن أنهن أكثر قسوة من الرجال. «أعتقد أن الطريقة التي تجد النساء فيها وظيفتها الخاصة في عالم الرجال تلعب دوراً هاماً في عالم الارهابي. ان لذلك علاقة كبرى بتحرير المرأة».

وبين دوائر الجناح الأيسر تبدو قضية دور النساء أكثر أهمية مما هي في أقسام المجتمع الأخرى. لذلك فان أمام النساء في RAF تحدياً اضافياً بالمقارنة مع الرجال ـ علَيهن أن يثبتن أنفسهن كنساء وارهابيات أيضاً، ولكي يفعلن هذا عليهن أن يصبحن أفضل من الرجال. عليهن، أن يكنَّ أكثر عدائية، وأن يظهرن قوة أكثر من رجال RAF، لأنهن يقاتلن الرجال أيضاً». وأشار إلى أن استريد برول كانت نقطة اثارة بالنسبة لبادر لأنها كانت قوية، وكان يخشاها بسبب ذلك.

ان من يتحدث مع الهرلوشته يتكون لديه انطباع أنه معجب بالنساء الارهابيات اللواتي درسهنَّ خلال العشرين سنة الماضية. ان معظم المجموعات الارهابية متقلبة نوعاً ما، وهو يعتقد أن أهم الخصائص التي تجلبها المرأة العضو في المجموعة هي العملية والذرائعية[1]. وقارن المجموعة الارهابية السرية بأمة في حال حرب. «في أيام الحرب تكون النساء أكثر قدرة على المحافظة على الوحدة، وهذا شيء مهم لمجموعة فدائيين من أجل فعاليتهم. خصوصاً مجموعة مثل RAF حيث يوجد الكثير من الخصامات حول الستراتيجية، حول الحياة اليومية. وتصل النساء الى المقدمة في مثل هذه المجموعات لأنهن عمليَّات».

وفي الأيام الأولى لمنظمة RAF كانت غودرون انسلين هي المسؤولة عن المال، وأولريك ما يتهوف هي التي تجد شققاً لأفراد المجموعة، وهذا واحد من كثير من الأمثلة عن هذه الميزة.

وأعطى الهرلوشته مثله هو بالذات، من الحياة اليومية، كي يشرح وجهة نظره.

(١) «Pragmatism»: فلسفة الذرائع وهي فلسفة أميركية تتخذ من النتائج العملية مقياساً لتحديد قيمة الفكرات الفلسفية وصدقها.

«كان هناك برنامج تلفزيوني يُعرض هنا في الآونة الأخيرة عن امرأة انشأت شركة كمبيوتر. كان العاملون عندها يتألفون من خمسة عشر موظفاً منهم اثنتا عشرة امرأة. ولما سئلت عن سبب ذلك، وهل كانت متعصبة لبنات جنسها؟ لا. . قالت. كانت سياسة توظيفها تعتمد على الفروق الكبيرة بين الرجال والنساء. فالنساء يفهمن الأمور أفضل وأسرع من الرجال كما كنَّ أكثر عملية وواقعية. لم يكنَّ يتعلمن بشكل أسرع وحسب، بل ويعملن بشكل أسرع أيضاً.

«لكن الرجال أرادوا أن يعملوا بالكمبيوتر بقليل من الجدية وأن يجربوا ويخلقوا أشياء جديدة.» قالت: «بهذا الموقف لم استطع أن أنشيء مؤسستي. لا أستطيع أن أقوم بالعمل إلا بواسطة النساء.»

هناك أكثر من عامل واحد من عوامل الحقيقة عندما تربط ذلك بالارهابيين من الرجال والنساء. فالنساء أكثر واقعية وعملية من أجل العمل اليومي.»

وتابع يقول أن النساء اللواتي درسهن لم يكنَّ فقط غير خائفات من استعمال غرائزهن، في حين أن الرجال كانوا يضيعون الوقت في المجادلة. وأوضح وجهة نظره بوصفه ما تعلم عن فعالية مجموعة كان مكتبه قد قام بمراقبتها لعدة أشهر.

«لقد قمنا بالمراقبة على مجموعة في هامبورغ لستة أشهر تقريباً، بما في ذلك التنصت على هواتفهم. كان رئيس المجموعة رجلاً هو الآن في السجن. كان ـ ومعه امرأتان ـ كريستا ايكيس ومارغريت شيلر هم القادة. كان هناك رجال ونساء آخرون، لكن هؤلاء الثلاثة كانوا الأهم. في النهاية علمنا من التنصّت على الهواتف ومن مصادر أخرى، أنهم كانوا يخططون لهجوم على بنك، واعتُقلوا. لكن قبل ذلك استطعنا أن نجمع كثيراً من المعلومات الجيدة عن أدوار مختلفة الأفراد داخل المجموعة.

«عرفنا أنه ليس لهم سوى قائد واحد ليومين أو ثلاثة فقط كي يجدوا حلاً لمشكلة خاصة، ثم لن يكون لهم قائد لفترة طويلة. وكان هذا الدور دائماً يناط بالرجل أو مارغريت شيلر. كانت القيادة بين هذين الاثنين. كان على القائد أن يكون ذا شخصية قوية. ومن الممتع أنه عندما كانوا يناقشون اتخاذ خطوة كبرى، كانت مارغريت شيلر دائماً مستعدّة للتقدم إلى مسافة أبعد والتحرك بسرعة أكبر من الرجل. وكانت دائماً تنال موافقة النساء الأخريات في المجموعة. ولم يكن الرجل قوياً إلا عندما كانوا يناقشون عمليةً عليهم أن يكونوا شديدي الحرص فيها على ألا يلقى القبض عليهم.

«وفي احدى المناسبات، كانوا يناقشون أمر قبول عضوين جديدين. قررت شيلر

فوراً: نعم حسناً، يجب قبولهما. لكن الرجل كان خائفاً جداً. أعطى أسباباً منطقية، بينما شيلر قالت: «إن شعوري.. انه لا بأس بهما». كانت سريعة جداً في تكوين فكرة عن الناس، معتمدة في ذلك على مشاعرها بشكل خالص.»

لذلك فإن الثوريات من النساء أقوى وأكثر تفانياً وسرعة وقسوة من الرجال. ونستطيع أن نضيف إلى كل هذه الصفات قدرتهن على الحفاظ على وحدة المجموعة، وإدارتها وتنفيذ أية مهمة توكل اليهن. هل كان هناك أي شيء آخر؟ قال: «تستطيع النساء ايضاً أن يتحملن المزيد من الألم. لديهن أعصاب أقوى من أعصاب الرجال، ويستطعن أن يكنَّ سلبيات وإيجابيات في الوقت نفسه.»

وفي نهاية المقابلة لم يكن هناك أي شك في أيٍّ من الجنسين كان الهر لوشته يخشى أكثر من الجنس الآخر.

* * *

في ١٩٩١ كان عدد الناس الذين اعتقلتهم الشرطة الالمانية من أجل جرائم تتعلق بالارهاب، بمن فيهم أولئك الذين ظهرت وجوههم على لوحة المطلوبين، اثنين وعشرين، منهم ثلاث عشرة امرأة. كان يعتقد أن الكثير من الهاربين يعيشون في العراق أو لبنان، حيث وجدوا ملجأ لهم عبر الاتصالات التي جرت أصلاً مع الفدائيين الفلسطينيين. كان هناك خوف كبير، عند بدء الحرب مع العراق، أن اولئك الذين كان نظام صدام حسين يحميهم سوف يناشدونهم تصعيد الهجمات الإرهابية في أوروبا.

أُعطي الكثير من المعلومات عن مدى العون الذي قدمه العراق إلى هؤلاء الناس، من قبل خمس نساء وثلاثة رجال، كانوا قد اعتقلوا في عام ١٩٩٠ بعد سقوط جدار برلين. قدموا معلومات كيف كانوا قد نقلوا سراً مما كان يدعى وقتها المانيا الغربية إلى بغداد حيث أقاموا في بيوت قدمتها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (PFLP)، منظمة ليلى خالد، وكان عدة أعضاء من RAF، في الوقت الذي وصلوا فيه العاصمة العراقية، قد قرروا أن يتركوا الثورة للآخرين، كان بينهم سوزان البرشت، وإيخي فييت.

بعد مقتل عمها جورجن انهارت سوزان البرشت، وكانت تبكي باستمرار. لم تكن تتخيل أنه سيُطلق النار عليه. كان الهدف اختطافه فقط، والاحتفاظ به حتى تذعن الحكومة الالمانية لمطالبهم. وطبقاً لما جاء في حكاية أحد زملائها السابقين التي نشرت في مجلة «ستيرن»، احتاجت سوزان إلى الكثير من الإقناع قبل أن توافق على

استغلال علاقتها بالمصرفي وبعائلتها الخاصة. أخبرت الرجل أنها أخضعت لعدة ايام من الجدال «الإجباري» حول الموضوع من قبل رفاقها، وهو نوع من «غسل دماغ» قبل أن تذعن أخيراً. وعندما تصاعد الخطف فجأة إلى الجريمة، أصيبت بنوبات هستيرية، وصارت خطراً على سلامة أعضاء المجموعة.

اختيِّر زميل رجل لمهمة أخذها خارج فرانكفورت عبر الريف باتجاه هولاندا، لكن كان من الصعب السفر مع امرأة ترتجف بشكل يتعذر تهدئتها، وتبكي بلا انقطاع. وسرعان ما واكبوها إلى بلاد في المعسكر الشرقي، ومن هناك إلى بغداد، حيث سلّمت جواز سفرها إلى السلطات. أُخذت إلى أحد بيوت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وخُبئت هناك. ولكن انهيارها العاطفي الشامل جعلها خطراً على أفراد المجموعة الآخرين في RAF الذين كانوا يقطنون هناك.

وعلى مدى الأسابيع التالية انضم المزيد من أعضاء RAF الهاربين إلى سوزان في البيت الذي كانت فيه، ومن بينهم بريجيت مونهوبت، التي شاركت في جريمة قتل بونتو. أصبحت بريجيت زعيمة منظمة RAF في المنفى وسرعان ما صنفت سوزان أنها «غير جديرة بالثقة» وهي شخص يجب ازاحته إذا كان يجب الابقاء على سمعة المجموعة عند مضيفيها من منظمة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

وطبقاً لما جاء في المقالة في مجلة «سترن» فقد أخبروا قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أن على سوزان أن تغادر، وبدأ يبحث لها عن ملجأ آمن مع عدة أشخاص آخرين ممَّن هم غير جديرين بالثقة. كان من بين الاحتمالات كوبا وأنغولا ونيكاراغوا ودول المعسكر الشرقي، لكن المانيا الشرقية كانت حين ذاك الاختيار البارز لعدم وجود أية مشكلة مع اللغة. كان رجل PFLP على علاقات جيدة مع اعضاء معينين من نظام تلك البلاد، (بمن فيهم الذين يستطيعون الوصول إلى زعيم المانيا الشرقية انريك هونيكر على ما يظهر)، ومع الشرطة السرية الكثيرة الرهبة «ستاسي».

وتم الاتفاق على أن اللاجئين يجب أن يُعطَوا بطاقات هوية جديدة، ووظائف وبيوتاً جديدة من قبل مؤسسة أمن الدولة. وأخذ الثوريون السابقون طريقهم إلى باريس واحداً واحداً أو اثنين اثنين، حيث كان يوجد مقر لـRAF، قبل أن يتم احضارهم إلى ألمانيا الشرقية.

في عام ١٩٧٩ كانت سوزان البرشت من أوائل مَن أرسلوا إلى هناك. أعطوها اسم انجريد بيكر المولودة في مدريد، ووظيفة معلمة للغات الأجنبية، وأخبرها رجل الشرطة السرية «ستاسي»، الذي كان قد عُيِّنَ حامياً لها أن عليها الإجابة عن أي سؤال

غريب عن ماضيها بأن والديها قد رمياها خارج بيتهما، وأنها لا تريد التحدث عن ذلك. وبعد أربع سنوات تزوجت سوزان من فيزيائي وأنجبت ابنها فيليكس في ١٩٨٤.

وعلى الرغم من أنها كانت محمية ومدللة من قبل «ستاسي» فقد كات لا تزال مطاردة رسمياً في ألمانيا الشرقية بمقدار ما كانت مطاردة في الغرب. ففي عام ١٩٨٦ ظهرت صورتها كمطلوبة في برنامج تلفزيوني عن منظمة RAF، وتعرَّف عليها أحد زملائها في العمل؛ فنقلت العائلة إلى موسكو حيث بقيت إلى أن اعتُبرت عودتها إلى برلين الشرقية آمنة تماماً.

واليوم لا تستطيع فرقة مكافحة الإرهاب الألمانية أن تفهم لماذا لم تهرب سوزان البرشت عندما انهار جدار برلين. ربما لأنه لم يكن هناك أي مكان تستطيع الذهاب إليه، أو لأنها كانت متعبة جداً لا تستطيع الهرب، أو لأنها اعتقدت أن «ستاسي» سوف يحمونها. لكنهم لم يفعلوا: ففي عام ١٩٩٠ وطبقاً لمعلومات سرية من ضابط سري سابق في ستاسي، اعتقلت أمام شقتها في برلين الشرقيّة. كانت مستعدة كما أكدت لمعتقليها، أن تعطي معلومات عن أماكن زملائها السابقين. لقد شعرت بالذنب الكبير من ماضيها. وحُكم عليها في عام ١٩٩١ بالسجن لمدة اثني عشر عاماً.

* * *

عُرفت انجي ڤييت من قبل ألماني شرقي رأى صورتها على لوحة مطلوبين في برلين. وبعد أن نشرت قضبان سجنها وهربت إلى باريس، عاشت دون أن تُكتشف، حتى أطلقت النار على شرطي فرنسي في عام ١٩٨١.

كان (هذا الشرطي قد أوقفها بينما كانت تقود دراجة نارية دون خوذة في شوارع باريس ويظهر أن كل ما كان لديه من وقت ليقول قبل أن تفتح النار عليه كان «دقيقة فقط» لكن الأنسة ڤييت المتهوِّرة نُقلت سراً، إلى بغداد من قبل رفاقها، لكن كانت قد قررت أن ذلك يكفي. ولم تكن محطمة العاطفة كما كانت سوزان، أرادت الابتعاد فقط: شعرت أنها قد قامت بأكثر من نصيبها، على أية حال. وبقيت مطلقة السراح في فرنسا وهو مكان خطير لأمرأة بدت صورتها في كل مكان وقامت بواجبها في تحسين المجموعة الثورية الفرنسية «اكسيون ديركت». وحتى الاثارة التي اكتسبتها، على ما يظهر، من وقوفها أمام لوحة المطلوبين، التي وردت صورتها فيها، بينما وقف أناس آخرون ينظرون إلى صورتها ولم يكونوا مدركين من التي كانت تقف بجانبهم، قد ضعفت. وطبقاً لأقوال مجلة «شترن»، أخبرت الآنسة ڤيت قيادة RAF الجديدة في

بغداد بأنه ليس لها أي رغبة في اخضاع نفسها إلى النظام والنقد الذاتي اللذين طلبتهما المجموعة. أرادت حياة جديدة.

«تمكنّا من التزود بالمعلومات عنها ـ وكذلك عن سوزان ـ من الستاسي (الشرطة السرية) ـ في ١٩٨٣ ظهرت في ضاحية درسدن تحت اسم جديد، وعملت مصورة لأمن الدولة وعاشت حياة مواطنة المانية شرقية مطيعة للقوانين، حتى أنها أعلنت عن طموحها في أن تدير يوماً ما مطعماً للبيتزا.

وفي ١٩٨٥ انكشفت هويتها، وكان عليها أن تنتقل إلى ماغديبورغ لكنها أمضت خمس سنوات أخرى تعمل في مصنع، حيث كانت ممثلة الاتحاد، ويذكر زملاؤها أنها كانت الوحيدة في مقر العمل التي لم تسر الحركة المناصرة للديمقراطية.

بعد ستة أيام من اعتقال سوزان ألبرشت، وصل الشرطة إلى شقتها في ماغديبورغ، وذهبت معهم بهدوء.

* * *

كان اعتقال هاتين الأمرأتين بالاضافة إلى أعضاء RAF السابقين الآخرين انقلاباً في فرقة مكافحة الارهاب الألمانية. تقع مقارُ هذه الفرقة في مدينة ڤيزبادن ـ مُنتجع المياه المعدنية ـ في الغابة السوداء في سلسلة من المباني الحديثة، في أعلى تلة، حيث التدابير الأمنية صارمة جداً، لأن المكان يمكن أن يكون هدفاً واضحاً للهجوم: فالمباني تحوي كمبيوتر يُعرف باسم «الكوميسار» (المفوَّض)، الذي تمّت برمجته بكل جزء من المعلومات يتاح عن أي شخص يشتبه بعلاقته بـ RAF. يقال أنه يحتوي أكثر من عشرة ملايين صفحة من المعلومات.

وعلى عكس الرهبة المثيرة وحراس الأمن المسلحين المتجهمين فان نوافذ المباني مزينة بظلال لصور طيور سنونو، لكن ذلك لم يكن لأهداف جمالية، بل لمنع الطيور من الاصطدام بالزجاج وهي تحاول الدخول.

كانت الغرفة التي سألتقي فيها بفرقة مكافحة الارهاب تقع عبر عدة دهاليز متشابهة صعوداً ونزولاً في عدة مجموعات من الأدراج، مما جعل الدليل يضل طريقه. وأخيراً كان المكتب ـ وهو غرفة قليلة الأثاث ـ الصقت على لوحة اعلاناتها صورتان لامرأتين ارلنديتين: بولين دروم ودونا ماجوير، وهما اللتان اعتقلتا كعضوين مشبوهين في وحدة أعمال نشيطة في أوروبا. لكن ساحة ماجوير برئت من أي تورط في اطلاق النار على سائحين استراليين في مدينة هولندية.

كان الرجال الثلاثة في الغرفة، بمن فيهم رئيس الغرفة، مهتمين بالقاء القبض على المشبوهين الذين مضى على مطاردتهم ثلاثة عشر عاماً. لقد جمعوا قدراً كبيراً من المعلومات الجديدة من الذين اعتقلوا من منظمة RAF، وعرفوا مَن الذين كانوا مسؤولين مباشرة عن أعمال الاغتيالات والنسف في الماضي. كان هناك شخص واحد لم يُدلِ بأية بيانات ـ الآنسة ڤييت ـ التي أصرت على أنها ستتكلم، لكن أثناء محاكمتها، وليس قبل ذلك.

في حوالي نهاية المقابلة، ابتسم رئيس فرقة مكافحة الارهاب، الذي كان قد أمضى الساعتين الماضيتين يرفض أية اقتراحات بأن نساء RAF كن يختلفن في أعمالهن ودوافعهن عن رجالها. كان في ابتسامته شيء من الارتباك. قال: «والآن في اعطاء المعلومات أعترف أن هناك فرق بين الرجال والنساء».

وبموجب قانون جديد صدر مؤخراً في المانيا، يستطيع المجرمون الراغبون في اعطاء افادات جديدة عند محاكمتهم عن الجرائم التي اقترفوها ـ هم أو غيرهم ـ أن يتوقعوا تخفيضاً في الأحكام. وكان يبدو أن الرجال الثلاثة الذين اعتقلوا في الشرق بدؤوا فوراً المساومة من أجل أحكام مخففة بالوعد بافشاء معلومات جديدة. ومن الناحية الأخرى، لم تقلن النساء الخمس شيئاً في البداية. تقول النساء لقد فعلنا ما فعلنا، ولن نخبركم أي شيء، بينما لم يكن عند الرجال أية ممانعة. وعندما ذكرت إحدى الصحف أن احدى النساء وافقت على اعطاء معلومات، انزعجت كثيراً وبكت وقالت ان ذلك غير صحيح.

«وأخيراً وافق الجميع على اعطائنا المعلومات ـ حتى الآنسة ڤييت ـ التي لن تتحدث وقتها، بل قالت أنها ستفعل أثناء محاكمتها. ومع هذا فهناك فرق بين الرجال والنساء. ان الرجال يضعون هذا القانون في مقدمة تفكيرهم، لكن النساء غير مهتمات به، وبالحصول على أحكام مخففة. قال الرجال، ستتكلم حتى لا نحصل على أحكام شديدة. لكن النساء مستعدات للتكلم لأنهن يشعرن بالذنب. ذلك هو الفرق. حوَّل الرجال الموقف فوراً لصالحهم، لكن النسوة لم يحاولن عقد صفقات».

وكان هناك أيضاً الفارق في الكيفية التي كان الجنسان يعطيان فيها البيانات كما قال. «كان انطباعي أن النساء كن أقل عفوية بشأن المعلومات التي كنَّ يعطينها. فقبل أن يتحدثن عن الأحداث التي لديهن معلومات عنها، كنَّ يفكرن كثيراً ويحاولن أن يتأكدن أن كل شيء يقلنه كان صحيحاً تماماً. لكن الرجال لم يهتموا بدقة الأشياء التي كانوا يخبرونها. لقد اقترفوا كثيراً من الأخطاء وأعطوا كثيراً من البيانات السطحية.

تساءلت اذا كان امتناع النساء عن التحدث مبدئياً ثم تصميمهنّ على ضمان أن تكون بياناتهن صحيحة، على علاقة بالتزام عميق بالمجموعة أكثر مما هو عند زملائهن الذكور. وكشفت بعض النساء اللواتي التقيتهن ـ مثلاً سوزانا رونكوني من بريما لينيا ـ أن كثيراً من الرجال في حركتها قد التحقوا بها بدافع «الاعتداد الذكري» لذلك كان ولاؤهم للمجموعة غير عميق.

وسلّم رئيس فرقة مكافحة الارهاب أن نساء RAF كنَّ «مثلهن مثل أية نساء في أي عمل». منخرطات في قضيتهن شخصياً أكثر من الرجال. وأعلن «أن النزعة العقلية عند النساء هي أن يكن ملتزمات بشكل كامل في أعمالهن، أكثر من الرجال الذين يظنون أن أعمالهمَ بشكل عام ـ هي مجرد أعمال.

«والنساء أيضاً أكثر حماساً للقضايا الاجتماعية من الرجال. يردن حل المشاكل الاجتماعية، لديهن الدوافع والأسباب للقيام بأعمال العنف، كتلك التي لدى الرجال، لكنهن أكثر التزاماً عاطفياً بمعتقداتهن. وعندما نتحدث عن دوافعهن، فأنهن يبدين ملاحظات حول نضالهن من أجل الإصلاحات الاجتماعية.

كنا نشعر أنه من الصعب جداً أن يقضي هذا الرجل فترة الصباح محاولاً تحليل الأدوار المتضاربة للرجال والنساء الذين يطاردهم. كانت النساء تلعب دوراً هاماً في الارهاب لعدة سنوات وكان كما قال: من الطبيعي جداً بالنسبة لنا أن تشترك النساء في العنف». أن لذلك علاقة وثيقة بوضع النساء الالمانيات الممتاز في مسألة تحرر المرأة. سألت اذا كان من الممكن في نظره أن يكون هناك ازدياد في عدد النساء في مجال الارهاب في كل أنحاء العالم، بينما النساء في البلدان الأخرى قد توصلن الى الوضع المتقدم للمرأة الالمانية في مجال تحريرها.

ابتسم قائلاً: «نعم، يمكن أن يحدث ذلك. قد يزداد عددَ النساء الارهابيات في العالم مع ازدياد تحرير المرأة. لكن ذلك يدخل في باب الرأي المحض».



الخاتمة

عشرون من النساء، تُباعدُ بينهن آلاف الأميال ويجمعهن عامل واحد: استعدادهن لاستخدام العنف لتحقيق اهدافهن. احداهن، وهي ليلى خالد، نجحت ونجت، ومتطوعة الجيش الايرلندي الأحمر ومقاتلات الانتفاضة لا يزلن منشغلات في معاركهن، والأخريات سُجنَّ وبعضهنَّ ندمن والبعض الآخر لم يندمن. انهن بالنسبة لي يطلقن العنان لسلسلة واسعة من المشاعر: الشفقة على بعضهن لضياع حياتهن؛ والخوف من بعضهن لأنني أعلم أن موت أحد الافراد لا يعني لهن سوى القليل؛ ويمكنهنَّ مسحه من اذهانهن بتلك العبارة المعزِّية: «إصابة حرب»؛ والرعب من بعض الأعمال التي وصفوها؛ والإعجاب باولئك اللواتي يحاربن الانحرافات الكبيرة، والحيرة من التناقضات التي يطرحنها.

كان بعض هؤلاء النساء يعشن في ظروف مروِّعة بحيث يسهل على المرء فهم سبب قتالهن: ومثال ذلك نساء الانتفاضة. وتنتمي بعضهن إلى قضايا متأصلة في جذور التاريخ، بينما هندس بعضهن الحروب التي يخضنها. بعضهن ضحايا وبعضهن معتديات، وبعضهن الآخر مزيج من الاثنتين معاً.

لكن المثال الفريد الذي قدمته الآنسة كيم يوضح لنا دون شك أنه لا يوجد أي مستوى من العنف لا تستطيع النساء الوصول إليه.

ولو لم يكن بين هؤلاء النساء قاسم مشترك لكان الأمر غريباً. لكن في الواقع كنَّ يشتركن في الكثير من الصفات. فأحياناً، كما في حالة متطوعة الجيش الأحمر الارلندي ومقاتلة الانتفاضة ذات الأربعة عشر ربيعاً، اللتين تحدثتا عن الحياة العادية التي يسرهما أن خلّفاها وراءهما، وأيضاً عن الشعور بالقيود التي كانت تفرضها حياتهما الجديدة، تُعبرِّان عن آراء متشابهة تقريباً. لكن هذا التشابه كان بوجه عام أقل دقة.

كانت معظم اللواتي أجريت معهن لقاءات من مجتمعات تكبت النساء: بلدان كاثوليكية، اسبانيا ـ ايرلندا ـ ايطاليا، حيث يُتوقع فيه النساء أن يكنّ امهات ينشئن

الحياة التي هي هبة الله للبشر؛ والثقافات العربية حيث لا تزال النساء ـ بشكل عام ـ يُخفَّضن إلى دور المواطن من الدرجة الثانية، وخادمات للرجال؛ ولا يمكن لكوريا الشمالية أن تكون اكثر قمعاً مما هي، وحتى في ألمانيا حيث كان تحرير النساء يظهر اكثر تقدماً، يتذكر المرء وصف المجتمع «المتجمد» الذي انطلقت منه مجموعة بادر ـ ماينهوف.

لقد انتهكت جميع النساء في جميع انحاء العالم المحرمات، وليس في المجتمعات القمعية وحسب، ضد النساء العنيفات. وذلك وحده يجعلهن استثنائيات، ويشير إلى استقلال روحي فطري. وبعد انتهاك تلك المحرَّمات فإنه ليس لمعظمهن أية نية في التراجع إلى مغسلة المطبخ أو العودة إلى مقامهن الرفيع، (مقام الأم السيدة العذراء) مادونا، بعد كسب المعركة.

إن المساواة بين المرأة والرجل بالنسبة للجميع ما عدا اثنتين من هؤلاء النسوة (الآنسة كيم وليلى خالد) شيء يقمن له احتراماً كبيراً، بالرغم من أنهما وصلتا إلى موقف الدفاع عن هذه المساواة من بدايات مختلفة. ويبدو أنه في النضال الوطني (ايرلندا ـ الباسك ـ فلسطين) لا تنطلق النسوة كي يصبحن مقاتلات وحسب؛ بل كن يأملن أن يكسبن دوراً يليق بجنسهن في المجتمع الجديد الذي كنَّ يقاتلن لبنائه. ونتيجة لأنشطتهن بدأن يدركن أنهن بالفعل متساويات مع الرجال في الخط الأمامي. وقد اثبتت نساء ETA أنفسهن في هذا المجال، بحيث انهن، بموافقة رفاقهن الذكور، قد أنشأن حركة نسائية. كما نذكر أيضاً لائحة الحقوق المتساوية التي صاغتها نساء الانتفاضة، واعتراف نساء الجيش الأحمر الارلندي أن النضال من أجل المساواة يجب أن يسير جنباً إلى جنب مع النضال الوطني.

وقد بدأت كلتا الامرأتين سوزانا رونكوني واستريد برول من المجموعات الثورية، كمطالبتين بالمساواة بين المرأة والرجل وتحولتا بعد ذلك للانضمام إلى الرجال في معركة أوسع ضد المجتمع.

هل هناك أية أهمية لكون كثير من النساء من المطالبات بالمساواة مع الرجال؟ يظهر جلياً أن رئيس فرقة مكافحة الإرهاب الألمانية يعتقد ذلك، عندما ذكر أن السبب الذي أعطاه لكثرة عدد النساء الالمانيات الارهابيات هو «تحرير المرأة.» لكن نسبة ضئيلة فقط من المطالبات بالمساواة تتحوّل إلى العنف. كما أن الرأي الشائع من آراء هؤلاء النساء المطالبات بالمساواة هو أن الرجال عنيفون وأنهم يحبون القتال، بينما النسوة لسن كذلك.

ويجب أن يكون السبب في تحوّل هؤلاء النساء ألى العنف كامناً في مجموعة من الظروف: كُنَّ يَرِيْن أنفسهن ضحايا ليس لما يسميه رفاقهن الذكور «الاضطهاد السياسي» وحسب، بل لاضطهاد الرجال أيضاً. كان بإمكان «الرجل الايطالي أن يضرب زوجته بشكل قانوني، ويُعاني نساء الباسك أيضاً من الصورة الذاتية للاستبداد الذكري للرجل اللاتيني، والنسوة الألمانيات اللواتي لم يكن يسمع لصوتهن أي أثرٌ في المانيا الهتلرية، كان عليهن أن يتحملن الشعور بالذنب الوطني لجرائمه ضد الإنسانية. والإدراك الأساسي هو في أنهن ضحايا بالإضافة إلى الاضطهاد الذي يجب مكافحته على جبهتين. وعلى هذا الضوء ربما يكون من المدهش اكثر (وهذا هو رأي الكثيرين من باحثي علم الجرائم والمحلّلين النفسيين) أن كثيراً من النساء لسن بعنيفات، بلْ يبدو مؤكداً أن هناك الكثير من الأشياء التي تغضبهن.

وتشعر جميع هؤلاء النساء باستثناء الآنسة كيم بالفخر بانجازاتهن. ولم يشعرن بالضرورة بالابتهاج بالقتل، بالرغم من «أن ليلى خالد قد أظهرت نوعاً من المرح عندما تذكرت كيف أنها أخافت ضحاياها». لكنهنَّ سررن بقدرتهن على القتال في المستوى نفسه كالرجال. لقد اثبتن أن المرأة قادرة ـ كالرجل ـ على أن تتعلم كيف تصنع القنابل وتزرع وتفجر؛ وأنها قد تصبح مثله ذات مهارة كبيرة في الرمي.

ليس مهماً كم تكون المرأة ضعيفة وصغيرة جسمياً، لكنها تكون مخيفة بقدر مساوٍ لأي رجل مهيب إذا كانت تحمل في يدها بندقية هي على دراية تامة بكيفية استعمالها. كانت اثنتان من هؤلاء النساء صغيرتين: تيكسيكيا، وليلى خالد كما وصفت نفسها، علماً بأنها لم تبدُ لي صغيرة بشكل خاص عندما قابلتها. وتيكسيكيا هي التي برقت عيناها بينما كانت تتكلم عن البندقية ومقدرتها على التفوق على جميع الأعمال الكتابية، كما كانت ليلى خالد قادرة جداً على التذكر عندما وصفت النشوة التي شعرت بها عندما كانت في حالة تحكم مطلق وذلك بفضل سلاحها. كما تحدثت سوزانا رونكوني أيضاً بحماس كيف جعلها حمل البندقية تشعر بالقوة والحماية وبأنها أقل ضعفاً مما كانت في حياتها اليومية.

هل وجدت هذه النساء اللواتي كن عنيفات أن من الصعب عليهن القتل والايذاء اكثر من الرجال؟ لا. قالت سوزانا رونكوني، انها التقت كثيراً من الرجال الذين أخبروها أنهم لم يكونوا يستطيعون القتل بالطريقة التي فعلت. وهي لا تؤمن أن العنف حكر على الرجال. وقد رددت بعض النسوة الأخريات فكرتها بالذات. فبعض الناس يستطيعون القتل بينما لا يستطيع غيرهم. لا فرق إن كان هذا رجلاً أم امرأة.

وهل هؤلاء النسوة منحرفات أو مجنونات أو شريرات إلى حد ما؟ هد حدث لهن شيء يجعلهن غير قادرات على التكيّف بهذا الشكل في عالم النساء؟ لا يسأل أحد بعض مَن يقابلهن عن كمية الشعر على أجسامهن، لكن كان من الواضح أن جميع هؤلاء النسوة على مستوى كبير من الذكاء والوضوح اكثر من أي شيء آخر. ولم تبد عليهن الرغبة في أن يكنَّ رجالاً. وكان من الملحوظ جداً أن السؤال الذي أثار غضبهن أكثر من غيره هو ما اذا كانوا قد دُفعوا إلى الخط الأمامي من قبل اصدقائهن الرجال. كنت كمن يقترح أنهن غير قادرات على اتخاذ مثل هذه الخطوات بأنفسهن.

أما اذا كنَّ يعانين من اضطرابات عقلية فانني لست مؤهلة باعطاء الحكم. كان أحياناً يبدو عليهن الاضطراب من اسئلة معينة.

مثلاً: لم يظهر أن أمايا ـ من منظمة ETA ـ كانت تفكر بعواقب أفعالها. فقد أنكرت مسؤوليتها عن قتل الناس في إحدى عباراتها، إلّا أنها عبَّرت في العبارة الثانية عن رضاها لأنها قتلت «أولاد الحرام». ولقد وصف هذا الشيء الطبيبُ النفساني ـ أوليفر جيمس ـ الذي أجرى دراسة عن النفس العنيفة كمثال على الانقسام[1] أو تواجد موقفين متعارضين حول موضوع واحد. والانقسام هو عملية عقلية شائعة لشخص يتميز بالعنف، طبقاً لما يقول المستر جيمس، وهي آلية نظيرة الفصامية قد يكون أحد أعراض انفصام الشخصية (شيزوفرانيا) بالرغم من ان الشخص المصاب بالانقسام لن يكون بالضرورة مصاباً بانفصام الشخصية.

وأمايا هذه؟ هل اوصلتها اعمالها إلى درجة الجنون؟ لم تكن تبدو امرأة **تتأرجح على الحافة**، لكنها قد تكون انساناً لها بعض المشاكل غير المحلولة مع ماضيها.

لقد فاجأتني سوزانا رونكوني لأنها حلّت كل مشاكل عنفها بنفسها. لقد وصفت بأمانة كيف ظنت أنها في حالة فصام بعد مشاهدة جرائمها الأولى. في اللغة الحربية يسمى هذا «**صدمة القذائف**»[2] أو اضطراب الصدمة التالية للرض، واعترفت سوزانا ايضاً أنها كانت تدع جانباً **قوة حفظ الحياة** عندما كانت تقوم بالقتل. وتابعت تقول ان أحد الأسباب كان أنه «يستحيل الاستمرار لمدة طويلة وإلّا فانها في النهاية ستصاب بأزمة شخصية»؛ أزمتها جاءتها في السجن ونجت منها والآنسة كيم التي أصيبت

---

(١) Splitting: هناك فشل في ملاءة الأفكار والخبرات السلبية والايجابية التي يكونها الشخص عن نفسه والآخرين والمواقف والأعراف.

(٢) **صدمة القذائف**: اضطراب عصبي أو عقلي يتميز بفقدان الذاكرة أو الكلام أو البصر يظهر عند بعض الجنود الذين يخوضون غمار الحروب الحديثة.

بالاكتئاب حتى الأعماق عندما أدركت هول ما فعلت، جاءتها المساعدة عن طريق الدين. وقد تمت مساعدتها من قبل فريق مكرَّس لجعلها إنساناً جديداً. وظهرت متحكّمة في أعصابها بالكامل، ربما كان التحكم زائداً عن الحد.

وقد ذكرت إحدى مرشداتها أنها لم تظهر أية عواطف تذكر تجاه أي شخص في السنتين التي عرفتها فيهما. ولم يكن لديها إحساس بالذات، وربما لا يكون ذلك مدهشاً في إحدى ضحايا غسيل الدماغ. لقد ظن المستر جيمس أن من المهم أن هذا النقص في الشخصية ترافق مع مظهر جسمي جميل. «حضور خارجي مذهل بالمقارنة مع الفراغ في الداخل». وقال أن الآنسة كيم كان لديها كثير من أعراض الانسان ذي الشخصية الحدِّية[1]، وهو شخص يظهر أنه يعيش كثيراً من حياته بشكل ثانوي. «كما لو أنه موجود»، ولا يشعر بأنه حقيقي إلا عندما يقوم بدور ما.

ان عدم مقدرة ليلى خالد على وضع نفسها في ظروف ضحاياها وانفصالها الظاهري عن بقية البشر مزعج أيضاً. لكنها مع ذلك تؤدي دورها كأم وسياسية خير قيام. وهي واحدة من ثلاث نساء في هذا الكتاب كن قد فقدن أحد الوالدين – وهو في كامل قدرته على العمل – قبل سن الرابعة عشرة، إما بالموت أو المرض أو الإنفصال. وقد وجد المستر جيمس هذا الأمر ذا دلالة. وطبقاً للدراسات، يبقى الاحتمال الأكبر أن النساء اللواتي فقدن أحد الأبوين قبل سن الرابعة عشرة قد يصبن بالكآبة.

وسواء أكانت مكتئبة أم لم تكن فانني لم أشعر أبداً انني في حضرة امرأة مجنونة، وهذا لا يعني أنني لم أرتعد لسماع بعض الكلمات منهن. وقد أصابتني بالصدمة إحدى نساء ETA، غلوريا، بانذارها أن أطفال الحرس المدني كانوا أهدافاً، كما كان آباؤهم.

ولم يبدُ على هؤلاء النسوة انهنّ شريرات أو بدون قلب أبداً. كانت بعضهن نزقات، وقالت بعضهن أشياء فظيعة. لكنهن لم يتصرفن كوحوش. وانني لأذكر نظرة الألم على وجه امرأة من الجيش الأحمر الإرلندي عندما سألتني قائلة: هل تظنون اننا نبتهج عندما ينفجر باص مملوء بجنود يورك شاير الشباب؟» انهن بلا شك معتادات على الإجابة عن الإتهامات الخُلُقية، لكن ذلك لا يجعل ردود فعلهن غير حقيقية. انهن يعتقدن بصدق أنه عندما يقتل الأبرياء يكون ذلك مأساة حرب.

* * *

ربما وُجِّه سؤال آخر: هل لدى هؤلاء النسوة خصائص تجعلهن مقاتلات

(١) borderline: على الحد الفاصل بين السَّويّ واللاَّسويّ.

باسلات بشكل خاص، وهل هذه الخصائص مقتصرة على النساء فقط؟

لقد كانت سوزانا رونكوني هي التي أثارت الفكرة بأن العنف مرتبط بالأمومة. «المرأة هي التي تهب الحياة، والمرأة أيضاً هي التي تأخذها».

فالأمومة وغريزة الأمومة بالتأكيد قضيتان جئنا على ذكرهما أثناء اللقاءات. لقد شعرت كثير من النساء شعور الذنب بسبب الأذى الذي قد يحدث لأطفالهن عاطفياً بتجاهلهن لهم من أجل القضية. وتدخل الامرأتان من الإنتفاضة ضمن هذه الزمرة، وكذلك شعرت ليلي خالد - التي كان عليها عبء إضافي وهو حماية أولادها من الإغتيال لمجرد أنهم أبناءها.

وبالنسبة لريتا أوهاري - المرأة السابقة في الجيش الأحمر الإرلندي - كان خوفها أن يحل الأذى بأولادها هو الذي جعلها في حالة نشاط مستمر، كما أن التفكير بهم جعلها تحارب من أجل حياتها، عندما أطلق النار عليها.

لكن الكثير من النساء الأخريات اللواتي لم يكنَّ أمهات أعطين الكثير من الأهمية للأمومة وما يمكن أن تعنيه لمستقبلهن كمقاتلات. عاشت ماري دويل - الامرأة السابقة في الجيش الأحمر الإرلندي - في صراع عنيف بسبب الإضراب عن الطعام خشية أن يسبب لها العقم. لكنها استمرت في الإحتجاج. قال فدائيو منظمة ETA أنه لن تصبح إلا القليلات فقط مقاتلات بسبب الخوف مما سيحدث لأولادهن، ونتج عن هذا الخوف أن أجَّلت بعض الفدائيات الإنجاب. وقد هجرت أولريك ماينهوف - وغوردون انسلين أطفالهما عن قصد لصالح الثورة. وخطت أولريك إلى أبعد من ذلك بموافقتها على إرسال ابنتيها الصغيرتين إلى دار أيتام فلسطينية بحيث تتاح لهما الفرصة الكبرى في أن تتدربا كي تصبحا مقاتلتين.

وسوزانا رونكوني - التي حملت من رفيق عندما بدأت كثورية - أجهضت. وعندما تحدثت عن المجموعة التي شكلتها - والتي كان ولاؤها لها يفوق ولاءها لحبيبها - كان واضحاً أنها كمن يتحدث عن حب والدة لطفلها. وكانت الأمهات من نساء الإنتفاضة يشرن إليها كإبن، الإبن المفضل والذي يمكن من أجله التضحية بالأولاد الآخرين. وعندما رأت ليلى خالد أطفالاً على وشك صعود الطائرة التي ستخطفها ترددت، ثم تذكرت كل الآلاف من الأطفال الآخرين الذي كانوا يعتمدون عليها. كان الأمر يبدو كما لو أن الأمهات قادرات على إسقاط غريزة الأمومة على القضية. قد تتحول الأم إلى قاتلة لحماية صغارها، وإذا كان مثل هذا الإسقاط لغريزة الأمومة ممكناً، فان ذلك قد يُفسَّر إلى حد ما لماذا تظهر الأمهات ملتزمات موطدات

العزم ومصممات أكثر من زملائهن الذكور.

سلطت سوزانا رونكوني الأضواء بدقة على فرق آخر بين الفدائيين الرجال والنساء. اعتادت أن تسخر من الرجال الذين لهم تعلق شديد بالبندقية، وانضموا إلى المجموعة كي يعززوا صورتهم الذكرية. وقالت «أن النساء كن يضعن ذواتهن وكل وجودهن في خبرتهن» ونتيجة لذلك كان عدد النساء االواتي كن على استعداد للوشاية برفاقهن عندما يقبض عليهن أقل من عدد الرجال الذين يفعلون ذلك. فالتزامهن كان أكثر عمقاً، لأنه لم تنشأ من اعتبارات سطحية وعرضية.

وافق رئيس فرقة مكافحة الإرهاب الألمانية على قولها، وأعطى مثالاً على الفروق بين رجال RAF والنساء اللواتي اعتقلن بعد سقوط جدار برلين. وكانت النساء أكثر كتماناً بكثير في إعطاء المعلومات من الرجال. واستنتج الشرطة انهن عندما كن يقررن الكلام، كانت أسباب ذلك الشعور بالذنب عن أعمالهن الماضية - لا ليحصلن على حكم بتخفيض فترة السجن كما في حالة رفاقهن الذكور.

وعلى الخظ نفسه، قالت تكسيكيا أن النساء يولين اهتماماً بالإنضمام إلى فدائيي ETA أكثر من اهتمام الرجال: إن لديهن ما يخسرن أكثر مما لدى الرجال. «هناك الإحتمال الأكبر في أن تفقدي عائلتكِ، بيتكِ، وطبعاً كلَّ الأمان. إن الرجال يعرفون أنه مهما يحدث لهم فان زوجاتهم سيعتنين بالأطفال. أما إذا فعلت المرأة الشيء نفسه، فانه يتوجب عليها قطع كل هذه الروابط، والتخلي عن هذه المشاعر».

والنساء الفدائيات، بعد أن يتخلّيَن عن الكثير ويتهكن محظوراً كبيراً، سيضعن كل شيء في المعركة. ظن رئيس مكافحة الإرهاب الألماني إن النساء في الحياة «العادية» كن ملتزمات أكثر من الرجال في أي حال. «إن أذهان النساء تكون ملتزمة بعملهن أكثر من الرجال الذين يظنون أنه - في النهاية - مجرد عمل».

يستطيع المرء أن يبدأ بفهم سبب كون المرأة المقاتلة مرهوبة الجانب أكثر من الرجل. فهي تنظر لقضيتها كبديل عن طفل، طفل يجب حمايته مهما كلف الأمر، ومن ثم تنطلق بمقدرة على الإلتزام الأعمق في المقام الأول. وبسبب هذه الفروق الأساسية قد تشعر النساء في أغلب الأحيان أن التزامهن السياسي له حدود عاطفية. قالت سوزانا رونكوني أنها لم تكن مالكة لقواها العقلية عندما بدأت المجموعة التي شكلتها تنهار، وتركها حبيبها لأنه شعر أن كل شيء قد ضاع. «شعرتُ أنني ممزقة بين الواجب والعاطفة». قالت. وانهمرت الدموع من عيني عايدة عندما تحدثت عن الإنتفاضة كإبن لها، وعن الألم الذي قاسته مع الأخريات. لقد كان هذا الإرتباط العاطفي الكبير مع

القضية شيئاً خطيراً. وبحسب رأي كريستيان كوشته من مكتب هامبورغ لحماية القانون أن أحد الأسباب التي جعلته يظن أن شعار **«أطلق النار على النساء أولاً»** كان نصيحة جيدة هو أنه في خبرته يعلم أن النساء يعملن بغريزة عاطفية - وهو دافع أسهل وأسرع للقتل من مجرد مجموعة إعتقادات سياسية. . .

وكان يعتقد أيضاً أن النسوة يصبحن مقاتلات أكثر تصميماً من الرجال لأنهنَّ معتادات بشكل طبيعي على الألم. وقد ذكرت تكسيكيا هذه الناحية أيضاً. وأضافت ان الإحتمال في أن تنهار النساء تحت التعذيب أقل. وقد يكون مصدر آخر لهذا التصميم القوي هو الحاجة إلى التنافس مع الزملاء الذكور. قال الهر لوشته أيضاً: «ان لنساء RAF تحدِّياً إضافياً. يجب أن يثبتن أنهن إرهابيات بالإضافة إلى كونهن نساء؛ ولكي يفعلن هذا عليهن أن يكنَّ أفضل من الرجال. عليهن أن يكنَّ أكثر عدائية وأكثر قوة، وأن يظهرن من القوة أكثر مما يظهر رجال RAF لأنهن يقاتلن الرجال أيضاً». وهذا القولَ يكرر تعليق إحدى نساء الكتائب الإيطالية الحمراء بأنه إذا أظهرت امرأة أي تردد، أو عبرَّت عن أية شكوك فإن ترددها سيؤخذ بعين الجدية أكثر مما لو كان صادراً عن رفيق ذكر. لذلك يتوجب على النساء أن يكنَّ قاسيات بشكل مضاعف، وعلى حذر دائم من أية عاطفة يمكن أن تفسر «بالضعف الأنثوي»، وهذا يعطي تفسيراً أوضح لسبب كونهن في بعض الأحيان أكثر قسوة. إن القوة والمنزلة المكتسبة حديثاً - خصوصاً إذا كانت عرضة للإنتقاد والتجربة - تكون عنيفة، مثيرة بحد ذاتها وقد تثير رد فعل زائد في الأزمة.

أشارت باحثة علم الجرائم - السيدة فرانسيس هايدنسون من جامعة غولد سميث بلندن - أن النساء لا يُعلَّمن قواعد العنف كالأطفال. هناك بعض المنظمات يسيطر عليها الذكور، مثل العصابات، حيث يتعلم الصبيان القواعد. وليس صحيحاً أن النساء لسن إجتماعيات، لكن عندما ينضممن إلى هذه المجموعات، قد يشعرن أنهن في حيرة لأنهن لا يعرفن قواعدها التي تعلمها الرجال في طفولتهم. وقد يرغبن في التعويض عن هذا، وفي أن يكنَّ متحمسات لفعل أشياء رهيبة ليثبتن جدارتهن كالرجال. وكثيرات من فتيات الطبقات الوسطى لم يتعلمن قواعد القتال، لذلك تشعر واحدتهن أنها إذا كانت عنيفة فانها تشق طريقها عبر المجموعة.

كانت هناك عدة أمثلة عن نسوة كنَّ أكثر قسوة من الرجال. المرأة من اكسيون ديركت (العمل المباشر) التي استمرت في إطلاق النار على الشرطة عندما استسلم صديقها بدون أي تذمر. وليلى خالد التي قامت بكل الترويع بينما وقف صديقها الرجل صامتاً بجانبها. والمرأة من IRA - ماريون كويل - التي بقيت باردة وصلبة تجاه

ضحيتها المخطوفة بينما كان رجل IRA الصلب يقيم علاقة ود.

يبدو إذن أن النساء الخبيرات بالألم وغير المُلِمّات بالعنف والخائفات من الإنتقاد الداخلي قد يتخطين الغاية في جهود صادقة لإثبات أنفسهن. كانت الآنسة كيم وليلى خالد فخورتين لأنهما اختيرتا لمهمات خطيرة وعبرّتا عن الرغبة في تنفيذ المهمة بالكامل. وظهرت لي أمايا - من ETA - متذمرة جداً عندما أعلنت «اذا قررت النساء القيام بشيء فانهن سيقمن به لأنفسهن، وليس عليهن أن يثبتن أنفسهن للرجال».

ويخلق كون المرأة فدائية لها معارك أكثر بكثير مما يخلق ذلك للرجل. وتدفع النساء ثمن النظرة إليهن لا كحيوانات متوحشة فقط، بل «وغير طبيعيات». وقد اقترحت السيدة هايدنسون عليَّ هذه النظرية. لكن المثير في الأمر أن أمايا هي أول من ذكر ذلك. قالت أن الشرطة الإسبانية «أرادوا أن يعاقبونا أكثر لتجرؤنا على الإنخراط في الكفاح المسلح. لا يستطيعون التسليم بأن النساء يستطعن القيام بهذه الأشياء». كما قالت السيدة هايدنسون أن هؤلاء النساء مذنبات «بانحراف مزدوج».

والنساء لا يتوقعن معاملة أكثر قسوة من المجتمع وحسب، بل يتوقعن النظر إليهن كمرشحات ضعيفات لإعادة التأهيل. وتابعت السيدة هايدنسون: «هناك نوع كامل من النساء ينقذن الرجال من أنفسهن، لكن الوصمة التي تلصق بالمرأة المتهمة بجريمة تكون عميقة جداً. ففي الهند تُقتل المرأة المجرمة أحياناً من قبل عائلتها. وأنت كرجل مسموح لك أن تنغمس في حماقات الشباب وشهواته، لكن في حالة المرأة، فإن ارتباطها بالجريمة يعني حياة جنسية غير مستقرة. يستطيع الرجل أن يلتقي امرأة صالحة تعاشره وتنسجم معه. أما المرأة فمن غير المحتمل أن يقبلها رجل صالح».

إن حياة المرأة أثبتت حقها، لأن القليلات سُمح لهن بنسيان ماضيهن. هذه استريد برول، بالرغم من أنها لم تكن في الواقع عنيفة، لكن سيظل ينظر إليها من قبل بعض الناس أنها «فتاة البندقية». ومن منا في الواقع سوف يضع ثقته بالآنسة كيم من جديد.

وظهر أيضاً أن بعضاً من هؤلاء النساء كنَّ مدركات للخطوة التي لا رجعة عنها والتي اتخذنها باختيارهن العنف سبيلاً. وأن المرء يحسُّ أنهن يشعرن، بعد أن تخطين الغاية، انه لم يعد لديهن شيء يفقدنه. وإذا كان هذا في الواقع شعورهن، يكون من المحتمل حقاً أن يكنَّ أعداء أكثر خطورة من الرجال.

* * *

يبدو أن المجتمع يخشى نساء العنف أكثر مما يخشى الرجال، وكأنهن **يشكّلن** تهديداً أكبر. والواقع أنهن كذلك، لأنه إذا اغتصبت النساء الدور الذكري **التقليدي** كمعتد، وإذا قمن به بنجاح، فان الرجال يخشون أن سلاحهم الأساسي - وهو تفوقهم الجسماني على النساء - لم يعد له وجود. إن أساس المجتمع بالكامل قد ينهار نتيجة لإطلاق هؤلاء النسوة الخطيرات العنان لأنفسهن واندفاعهن دون كابح. ويضعف بذلك دور الرجال وتنتصر «جمعية تمزيق الرجال» المعروفة بهذا الإسم بين الفدائيات الألمانيات.

ربما يفسر لنا هذا درجة الغضب التي وصفتها نساء ETA في ردود فعل الشرطة عندما استطاعت إحداهن أن تجتاز فخاً للشرطة بتظاهرها أنها مستغرقة مع عشيق. وطبقاً لأقوال أمايا «كان الشرطة مغتاظين جداً، أكثر اغتياظاً مما لو كان الذي أفلت من فخهم رجل».

والعامل الآخر في هذا الغيظ هو الخجل الذي يلحق برجل خدعته - أو أسوأ من ذلك - هزمته في القتال امرأة، خصوصاً اذا استعملت «مكائد انثوية» لجعله يبدو غبياً وسهل الإنخداع. ومن المعروف أن النساء يستطعن أن يكنَّ أكثر تأثيراً من الرجال في هذا الصنف من الحروب السرية الموصوفة في هذا الكتاب، وذلك باستغلال ما يتوقع منهن تقليدياً. لم يكن أحد يتوقع من كيم الحلوة العذبة أن تنسف طائرة. **كما أشار بومي بومان** ان احتمال هروب رجل عندما تقترب منه امرأتان أقل مما هو عندما يقترب منه رجلان. ولاحظت ماري دويل ان امرأة تدفع أمامها عربة طفل لا يبدو عليها أنها خطيرة، لذلك إذ كان يجب استعمال عربة طفل لزرع قنبلة فان من سيقوم بالعمل يجب أن يكون امرأة. كما اعتادت نساء ETA أن يستغللن المواقف الذكرية للشرطة لمصلحتهن الخاصة بالإحتجاج - عندما يعتقلن - بأن أصدقاءهن الرجال هم الذين جعلوهنّ يقمن بهذا العمل. وحتى اليوم، يدَّعين أن صنفاً معيَّناً من النساء - الأنيقات المهندمات - لا يزلن يستطعن خداع الشرطة. ويتصور المرء أن متطوعي الشرطة الجدد يُحذَّرون من الوثوق بالمرأة مهما بدت بريئة وأنيقة. لكن ليس من الصعب إدراك صعوبة تدريب الرجال على اعتبار النساء خطيرات.

تحدثت إلى رجل متقاعد من SAS كان قد قام بالقتل لمرات عديدة، وكانت الضحية التي يذكرها أكثر من غيرها، والتي تسبب له الكوابيس، شابة آسيوية التقى بها بالصدفة في غابة. «كانت تصوب بندقيتها نحوي، وكانت على وشك أن تطلق النار. كان عليَّ أن أقتلها. لكنني فجأة توقفت فكرت: «إنها امرأة». ولو أن الإمرأة كانت

أسرع بقليل، لكانت إستغلت لحظة التردد تلك وقتلته، ولكانت انتصرت في تلك المواجهة، لا لأنها أفضل تدريباً وأكثر قسوة، بل ببساطة بسبب الموقف الذكري نحو النساء.

* * *

لماذا إذن تصبح النساء - اللواتي لا يكسبن سوى القليل ويخسرن الكثير - فدائيات؟ إذا وضعنا الدوافع السياسية جانباً - وهي بالتأكيد قوية في معظم الحالات - تبدو القوة دافعاً هاماً. ولكن مهما كانت الفترة المتاحة قصيرة وحتى لو كانت تعني حياة تُختصر - فإن هؤلاء النسوة يملكن الفرصة كي يصبحن مكافئات للرجال. إن العنف الذي يُعتقد أنهن يغتبطن به متوفر لديهن للإستعمال، وهو يساعدهن بطريقة يستطيع القليل من النسوة اختبارها، وخصوصاً إذا كن من مجتمعات مضطهدة. تحدثت أستريد برول عن الصفة الوجودية لعصابة بادر-ماينهوف: وهو الشعور أن ممارسة القوة كان معبراً عن شيء حيوي ومزيِّن للحياة. وشرحت سوازانا رونكوني ذلك: «تشعرين أنك قادرة على التأثير في العالم حولك بدلاً من اختباره بشكل سلبي.» وهؤلاء النسوة بصفتهن ثوريات - ليس عليهن أن يقلقن بشأن التوقعات الأنثوية التقليدية. ويجب أن يكون ذلك شعوراً محرراً في حد ذاته. قالت ليلى خالد: «ما علاقتي بالأزياء ونماذج شغل الصنارة؟» وطالما أن هؤلاء النساء يأخذن أماكنهن في الخط الأمامي، فانهن يتوقعن أن يعاملن كأشخاص سياسيين وأنهن قادرات على السير وراء معتقداتهن بنشاط، وعلى محاولة تغيير المجتمع. أما كمقاتلات فقد يصنع بعضهن التاريخ مثل الرجال. وقد يصبحن أمثلة يحذو حذوها جيل جديد من النساء، وكذلك موضوع نزوات رجالية - كما يجب القول - أنه لا يبدو أن إحداهن كانت تبحث عن هذا الهدف عن وعي.

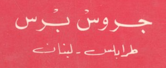
الطموح من أجل الشهرة وصورة البطولة - هذه الدوافع قوية عند النساء كقوتها عند الرجال. وبالرغم من أن النسوة اللواتي تحدثت إليهن، ينكرن أنهن أعضاء في النخبة، فإنه يمكن اعتبارهن كذلك. فشعب الباسك معجب «برأس الحربة» المسلَّحة التي هي ETA. و«بانه» رامية الحجارة الفلسطينية الشابة، كسبت احترام أصدقائها في المدرسة لدرجة البطولة. وأشارت سوزانا رونكوني إلى «البعد البطولي» لأنشطتها. وحتى استريد برول - التي كانت تريد دفن ماضيها بيأس - كانت معجبة بمجد وسحر أيامها عندما كانت في بادر-ماينهوف.

يبدو محتملاً أن يكون للمرأة التي تتخذ قرارات عن وعي في استخدام العنف

لغايات سياسية دوافع أكبر من دوافع نظيرها من الرجال. فإذا كانت تضحيتها أكبر فإن رغبتها في أن تجعل هذه التضحية جديرة بالإهتمام ستكون أقوى. وإذا كان شعورها بالظلم أكثر حدة، فإن رغبتها في مكافحته ستكون أشد. وإذا كانت التوقعات من مقدراتها أقل، فسيكون عليها إثبات الكثير من الأشياء. ومع تقدم عملية تحرير المرأة قد تفقد هذه الدوافع بعض قوتها الملزمة، بالرغم من أن النظرة إلى نساء العنف كمنحرفات بشكل خاص تبدو راسخة. وفي الواقع أرادت النساء اللواتي تحدثت إليهن - أكثر ما أردن - أن يُنظر إليهن كمساويات للرجال. وكان واضحاً أن أكثر ما يثير غضبهن كان إطلاق أسماء تسخر منهن كنساء.

ونذكر هنا ردة فعل سوازانا رونكوني عندما أطلق عليها صفة «عاهرة». كان لدي انطباع أنها تفضل لو يطلق عليها صفة «قاتلة». وإلى هذا المدى تكون نظرة فرقة مكافحة الإرهاب البريطانية **«أن النساء اللواتي يواجهون لا يختلفن عن الرجال»** تليق بنساء هذا الكتاب بشكل رائع.




جروس برس
طرابلس - لبنان